عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

الهيمنة الأمريكية : نموذج القطب الواحد وسيناريوهات النظام العالمي الجديد

د. سيد أبو ضيف أحمد(*)

مقدمة

شاع استخدام مصطلح النظام العالمي الجديد كأهم ملامح فترة ما بعد الحرب الباردة، واستخدمه بكثافة الرئيس الأمريكي السابق «George Bush» في محاولة منه لحشد التأييد الدولي الواسع لعملية حرب الخليج.

وشهدت بدايات العقد الأخير من القرن العشرين «انفجارا معرفيا» تمثل في سيل الكتابات الأكاديمية والصحافية التي تناولت المفهوم، على حين شهد النصف الأخير من هذا العقد «ندرة نسبية» في الكتابات الأكاديمية والسياسية التي تناولته. ربما كان عامل رد الفعل، وما يمكن استشرافه من أن حجم الدعاية والتوظيف للمفهوم في فترة حرب الخليج كان أكبر مما حوى المفهوم من إمكانات حقيقية لبدايات عصر جديد، بشّر به الذين تبنوه وعملوا على شيوعه.

فالنظام الدولي اليوم يعيش مرحلة تاريخية مهمة من التحولات والمستجدات السريعة والمتلاحقة ذات أبعاد عديدة، تترك آثارها الواضحة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقضايا الحرب والسلام، وفي العلاقات الدولية عامة.

وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل «وضع واتجاهات الهيمنة الأمريكية في ظل السيناريوهات المستقبلية للنظام العالمي الجديد» من خلال استعراض الأدبيات الحديثة، التي تناولت المفهوم منذ منتصف التسعينيات، وهي على قلتها النسبية تمثل رصيدا جيدا لأهم الاتجاهات الفكرية في دراسة الموضوع.

(*) قسم العلوم السياسية - جامعة قناة السويس - مصر.

وتستخدم الدراسة مفهوم الاتجاهات الفكرية بمعنى «مجموعة الأفكار والرؤى والتصورات والانتقادات التي طرحها المفكرون والباحثون حول موضوع «النظام العالمي الجديد»، وذلك من خلال عرض رؤية بانورامية أولية للاتجاهات الفكرية الرئيسية، التي سادت منذ ولادة النظام العالمي الجديد في النصف الأول من التسعينيات، وتشخيص واقع اتجاهات النظام العالمي الجديد في صورته الراهنة، واستعراض وتحليل السيناريوهات المستقبلية لاتجاهات النظام العالمي الجديد على النحو التالي:

أولا: اتجاهات النظام العالمي الجديد في أوائل التسعينيات

رؤية عامة

أدت ولادة النظام العالمي الجديد مع بداية التسعينيات من القرن العشرين إلى ردود أفعال متباينة. وبالمراجعة المسحية لأدبيات النظام العالمي اتضح لنا أن هناك ثلاثة اتجاهات فكرية رئيسية: أولها يقول بوجود نظام عالمي جديد، وثانيها ينفي وجود هذا النظام، وثالثها يرى أن هذا النظام لا يزال قيد التشكيل والتبلور. وسوف نعرض لهذه الاتجاهات بصورة موجزة على النحو التالي:

يذهب أصحاب الاتجاه الأول إلى التأكيد على وجود هذا النظام بصورة قاطعة[1]، وإلى أن هناك من المتغيرات التي تدلل على وجود النظام العالمي الجديد، والذي يبدو مختلفا عن النظام الدولي القديم. وتتمثل هذه المتغيرات في: انتهاء الحرب الباردة، وزوال الاتحاد السوفييتي، وبروز دور الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة في عالم ما بعد الحرب الباردة، وتدعيم دور الأمم المتحدة باعتبارها تجسد الشرعية الدولية، وتنامي مجموعة من المشكلات والتحديات الدولية الجديدة التي تتطلب تعاونا دوليا من أجل مواجهتها مثل: مشكلات تلوث البيئة والإرهاب والمخدرات، وتراجع مكانة القوة العسكرية، وتزايد مكانة القضايا الاقتصادية على أجندة الاهتمامات الدولية، واتساع نطاق التحول الديموقراطي، وتزايد حدة الاستقطاب بين الشمال والجنوب[2].

وثمة اتجاهات فرعية داخل هذا الاتجاه، فهناك من يركز على الجوانب الإيجابية للنظام العالمي الجديد[3]، وهناك من يقر بوجود النظام العالمي الجديد، إلا أنه ينتقد الأسس التي يستند إليها هذا النظام باعتباره يسعى لتحقيق مصالح قوى معينة[4].

ويخلص أنصار هذا الاتجاه إلى أن وجود النظام العالمي الجديد لا يحمل بالضرورة وعودا بعالم أكثر أمنا وعدلا، أو كونه أفضل من القديم، وأن كل ما يوحي النظام العالمي الجديد به هو وجود فروق عميقة وجوهرية في أسسه وقواه وقضاياه عن النظام العالمي السابق عليه.

وأصحاب الاتجاه الثاني ينكرون ويشككون بوجود نظام عالمي جديد ويؤكدون أن هذا النظام، وعلى رغم كل ما جرى في الساحة الدولية من تحولات ملحوظة خلال السنوات

الأخيرة، لم يتكون بعد، وأن الحديث عن مثل هذا النظام هو مجرد وهم وخدعة[٥]. وثمة اتجاهان فرعيان داخل هذا الاتجاه: أولهما ينكر وجود نظام دولي جديد، استنادا إلى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي انتابت العالم في أعقاب الحرب الباردة. وفي تقديره أن ما يحدث الآن هو أقرب إلى حالة من «الفوضى الدولية الجديدة»، والتي سوف تستمر، حتى يتم التوصل إلى ترتيبات دولية جديدة وترسيخها في صيغة نظام عالمي جديد[٦].

وثانيهما يرى أنه على الرغم من وجود متغيرات دولية جديدة، إلا أن ما يعرف بالنظام الدولي الجديد ليس جديدا في مضمونه أو أهدافه، وإنما هو أقرب إلى الترتيبات الجديدة التي يستحدثها النظام العالمي القديم ليعيد بها تأكيد دوره في ظروف متغيرة[٧].

على حين يذهب أنصار الاتجاه الثالث إلى القول إنه من السابق لأوانه الحديث عن نظام عالمي جديد بالمعنى العلمي الدقيق، فهو لا يزال قيد التشكيل والتبلور، ولم تستقر معالمه بصورة واضحة بعد. وإن المرحلة الراهنة من مراحل تطور النظام الدولي تمثل مرحلة انتقالية، تشهد اندثار بعض أسس وقواعد النظام الدولي القديم، الذي تبلور في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية من ناحية، ومن ناحية ثانية بزوغ أسس وقواعد «النظام الدولي الجديد»، وإنها سوف تستغرق بعض الوقت، وتتسم بحالة من الفوضى الدولية، وما يكتنفها من غموض واضطراب ومظاهر لعدم الاستقرار في مناطق عديدة من العالم[٨].

وبناء على ماسبق يمكن بلورة عدد من الملاحظات المهمة:

الأولى: أن هناك رؤى واتجاهات متعددة بشأن صياغة أدبيات النظام العالمي الجديد، منذ أوائل التسعينيات - والتي ما زالت تصاغ - حتى الآن، سواء من حيث التعريف أو السمات أو المنطلقات الفكرية للبحث عن هيكل، أو لتحديد القوى الفاعلة في النظام العالمي الجديد.

وينطلق الاتجاه الرافض للنظام العالمي الجديد من منطلقات فكرية مختلفة. فالبعض يرى أن هذا النظام العالمي الجديد يعادي العرب والمسلمين ودول الجنوب عامة، والبعض الآخر يرى أن هذا النظام الجديد ما هو إلا استمرار للنظام القديم، ولكن في ظروف دولية جديدة. ولعل ذلك يرجع في تقديرنا إلى عمق التحولات الدولية وسرعة حدوثها وتداخلها.

الثانية: أنه على الرغم من تعدد الاتجاهات الفكرية بخصوص النظام العالمي الجديد، إلا أن هناك اتفاقا عاما بين الباحثين والمفكرين في مجال العلاقات الدولية على وجود متغيرات وتحولات جديدة، جعلت العالم يبتعد تدريجيا عن النظام الدولي السابق الذي تبلور في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والذي استند إلى نظام القطبية الثنائية الذي انهار مع انهيار الاتحاد السوفييتي، ودخل العالم مرحلة جديدة، وهو ما يمثل الاتجاه الغالب في الفكر.

ومن ثم ينطلق أنصار هذا الاتجاه من نظرة واقعية إلى عمق التحولات والمستجدات السريعة والمتلاحقة، والتي تترك آثارها الواضحة في الحياة السياسية والاقتصادية

والاجتماعية، وقضايا الحرب والسلام، وعلى العلاقات الدولية بصفة عامة في ظل الثورة العلمية والتكنولوجية الهائلة في وسائل الاتصال والمعلومات.

الثالثة: تشير المراجعة النظرية للدراسات والبحوث، التي ركزت على هيكل النظام العالمي الجديد، إلى أن الاهتمام انصب على دراسة مفهوم القوة، وعناصرها، ومدى قدرتها على التأثير في سلوك الدول، ودور القيادة والعوامل الداخلية في توجيه السياسة الخارجية للدول(٩). ويقصد بهيكل النظام «توزيع القدرات في هذا النظام، وبالتالي ترتيب الوحدات المكونة له بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر، وانعكاسات مثل هذا التوزيع على سلوك الوحدات الدولية، وقدرة إحداها أو البعض منها على السيطرة على توجهات الفاعلين الآخرين».

فقد استخدم «Rosenaw» اصطلاح القدرة Capability ليشير إلى عناصر القوة (عسكرية - اقتصادية)، واصطلاح التأثير Influence ليشير إلى القدرة على تغيير سلوك الآخرين. كما أوضح Krauthammer أن عالم ما بعد الحرب الباردة ليس عالما «متعدد الأقطاب»، بل هو عالم «القطب الواحد»(١٠).

على حين يذهب أنصار تعدد مراكز القوى في هيكل النظام الدولي الجديد إلى القول بأنه لا توجد دولة واحدة تتمتع بتفوق في جميع عناصر القوة، كما أشار Buzan إلى أن اصطلاح القوى العظمى أصبح اصطلاحا غير ملائم في ظل نظام تعدد مراكز القوى(١١).

وفي تقديرنا أن أي هيكل أو نظام دولي لا بد أن يمتلك قوى فاعلة إلزامية لتحقيق وظائف هذا الهيكل أو هذا النظام، كما أن عدم القدرة على الإلزام يؤدي إلى تغير القوى الفاعلة في النظام، مما يؤثر في بنيانه وهيكله. وهذا يعني أن هناك ارتباطا بين هيكل وبنيان النظام الدولي ومدى قدرة النظام على أداء الوظائف المنوطة به.

وبالرغم من انقسام الآراء أو تناقض المواقف حول هيكل النظام العالمي الجديد في أوائل تسعينيات القرن العشرين، إلا أنه استقطب، بوصفه ظاهرة في طور التكوين، اهتمام الباحثين في مجال العلاقات الدولية، وربط بينهم اهتمامهم بجملة المتغيرات النوعية المتلاحقة التي شهدها ويشهدها النظام الدولي، والتي تعدت نطاق القوميات، وتجاوزت حدود الدول والأقاليم. وإن هذا الانقسام والتناقض يعودان في تقديرنا - بالدرجة الأولى - إلى عدم وجود هيكل مؤسس معلن للنظام الجديد حتى هذه اللحظة. كما أنه للتعرف على مدى استقرار أي هيكل أو بنيان للنظام ينبغي تحليل: عوامل الاستقرار أو عدم الاستقرار في النظام، ومتغيرات التوازن داخله، ومدى القدرة على تعبئة وتوظيف الموارد واستخدام التكنولوجيا، وقدرة النظام العالمي على احتواء عوامل الاضطراب فيه.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

ثانيا: اتجاهات النظام العالمي الجديد في صورته الراهنة

نموذج القطب الواحد: اتجاه الهيمنة الأمريكية

The Unipolar Moment and American Hegmoney

شهد العالم ظاهرة فريدة ونادرة، تمثلت في تفكك دولة عظمى واختفائها من التاريخ، في الوقت الذي تابع فيه ظاهرة تاريخية أخرى بالقدر نفسه من الندرة، وهي تعاظم نفوذ دولة عظمى أخذت في التفرد بالشأن العالمي. فمع انحسار وتفكك الاتحاد السوفييتي وانشغاله بهمومه الداخلية، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تحقق أكبر قدر من الانتشار العالمي، وتحقق أكبر قدر من النجاحات والانتصارات السياسية والعسكرية، وتستغل التحولات الدولية لتزيد من حضورها وصعودها الدولي كدولة وحيدة تتمتع بمواصفات ومقومات الدولة العظمى كلها Super State.

الواقع أن الظروف والمستجدات العالمية هي التي ساهمت مساهمة مباشرة في البروز المتجدد للولايات المتحدة، كدولة عظمى وحيدة في العالم المعاصر. وعملت الدولة الأمريكية على ترسيخ الانطباع بأنها قد كسبت المواجهة السياسية والعقائدية مع الاتحاد السوفييتي السابق لمصلحتها، كما أخذت تروج عبر وسائلها الإعلامية والدعائية الضخمة أن هزيمة الاشتراكية تعني انتصارا مباشرا للرأسمالية والفكر الليبرالي، الذي اعتبر في هذه المرحلة الراهنة الفكر الذي يتمتع بكل مواصفات «العالمية» Globalization، بما يتضمنه ذلك من بروز أطروحات مثل «نهاية التاريخ والأيديولوجيات» لـ Fu Kuyama، لذلك أخذت الولايات المتحدة تتصرف من موقع إدارة العالم وتقرير شؤونه السياسية والاستراتيجية، خاصة أن أيديولوجيتها هي الآن من دون منافس، وأكثر تألقا من أي وقت آخر، وحلفها العسكري والسياسي هو أكثر تماسكا واحتفاظا بقوته، كما أن مواردها وإمكاناتها ما زالت تتصدر موارد وإمكانات كل الدول الأخرى في العالم.

فالاقتصاد الأمريكي ما زال هو الأضخم عالميا من حيث الحجم، فإجمالي الناتج القومي للولايات المتحدة يتجاوز ٦ تريليونات دولار، وهو ما يوازي حوالى ٢٥٪ من اجمالي الناتج العالمي (وفقا لتقديرات البنك الدولي في عام ١٩٩٦)، وهو يزيد على ضعف الاقتصاد الياباني الذي يعد ثاني أكبر اقتصاد في العالم، كما أن ضخامة الاقتصاد الأمريكي تتجسد في كافة المجالات الاقتصادية، بما في ذلك المجالات الزراعية، حيث تنتج الولايات المتحدة محاصيل زراعية تكفي لإطعام نصف سكان العالم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأولى في العالم من حيث عدد المليارديرات، وعدد رجال الأعمال، وعدد المدراء الذين يتقاضون أعلى الرواتب في العالم. وهي الدولة الأعلى في العالم من حيث الاستهلاك الخاص الذي يشكل حوالى ٦٧٪ من

إجمالي الناتج المحلي الأمريكي، كما أنها الأولى في العالم من حيث عدد الشركات المتعددة الجنسية حيث تمتلك ١٦٤ شركة من أصل ٥٠٠ شركة في العالم.

جدول يوضح قدرات وإمكانات الولايات المتحدة الأمريكية

مؤشرات مختارة	الولايات المتحدة	العالم	نسبة الولايات المتحدة
عدد السكان	٢٥٠ مليون نسمة	٥٥٠٠ مليون نسمة	٤،٥٪
المساحة	٩،٤ ملايين كم٢	١٤٥مليون كم٢	٦،٥٪
إجمالي الناتج القومي	٦ تريليونات دولار	٢٣ تريليون دولار	٢٦٪
معدل النمو الاقتصادي	٣٪	٣،٥٪	-
إجمالي الديون	٤ تريليونات دولار	-	-
العجز في الميزانية	١٥٠ مليار دولار	-	-
إجمالي الإنفاق العسكري	٢٦٥ مليار دولار	٩٥٠ مليار دولار	٢٨٪
نسبة الإنفاق العسكري	٦،٥٪	٥،٦٪	-
عدد القوات المسلحة	٢،١ مليون جندي	٢٧ مليون جندي	٧،٨٪
عدد الأطباء	٦٠٠ ألف طبيب	٦ ملايين طبيب	١٠٪
عدد المدرسين	٢،٧ مليون مدرس	٢٨ مليون مدرس	٧٪
متوسط عمر الفرد	٧٦ سنة	٥٨ سنة	-
متوسط دخل الفرد	١٩،٥ ألف دولار	٢،٥ الاف دولار	-

المصدر: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام ٩٤
Ruth Leger Sivard, World Military and Social Expanditures 1993

الواقع أن هذا التفوق الأمريكي العالمي لا يستند فقط إلى القدرات الاقتصادية فحسب، بل يستمد فعاليته وربما مشروعيته من القوة العسكرية والنووية التي تمتلكها الولايات المتحدة، وهي قوة مطلقة وجبارة وتعد - بكل تأكيد - أضخم من القوة العسكرية لأي دولة أخرى في العالم، فعدد القوات المسلحة الأمريكية يتجاوز مليوني جندي مجهزين بأحدث الأسلحة، كما أن الجيش الأمريكي هو الجيش الوحيد في العالم القادر على خوض معركتين حربيتين في الوقت نفسه، وفي موقعين مختلفين من العالم والخروج منتصرا في كلتيهما.

ويرجع ذلك في تقديرنا إلى الإنفاق العسكري الأمريكي الضخم، والذي لا يضاهيه إنفاق أي دولة أخرى في العالم، فالولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم القادرة على تخصيص ما يزيد على ٢٧٠ مليار دولار سنويا للأغراض العسكرية، (حسب تقديرات المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية IISS عام ١٩٩٥). ولا تقتصر القدرات العسكرية الأمريكية على الأسلحة التقليدية، بل إن الولايات المتحدة هي أساسا قوة نووية، ولا توجد دولة أخرى في العالم تملك قدرات نووية تماثل أو تقارب ما بحوزتها. فهي الأولى في العالم من حيث عدد الرؤوس النووية التي تقدر بحوالى ١٥ ألف رأس نووي، وهي الأولى من حيث عدد الصواريخ الاستراتيجية العابرة للقارات، والتي تصل إلى ١٠٠٠ صاروخ، وهي أيضا الأولى من حيث عدد الغواصات النووية، الذي يقدر بحوالى ٧٠٠ غواصة نووية، وهي الأولى من حيث عدد القاذفات الاستراتيجية البعيدة المدى الذي يزيد على ٥٠٠ قاذفة إستراتيجية، كما أنها الدولة الوحيدة في العالم التي تمتلك برنامج «حرب النجوم» الذي يوفر للولايات المتحدة من دون غيرها من دول العالم، حماية ضد أي هجوم نووي من الخارج.

هذه القدرات النووية والعسكرية والاقتصادية الأمريكية الضخمة مدعومة بقدرات تكنولوجية وبشرية متقدمة، ومدعومة من مؤسسات سياسية راسخة ومقننة، بالإضافة إلى قدرتها الإعلامية والدعائية الواسعة والمؤثرة التي لا تجاريها أو تنافسها أي دولة أخرى في العالم اليوم.

وفي تقديرنا أن كل هذه المعطيات المادية والموضوعية تجعل من التفوق الأمريكي حقيقة عالمية معيشة، وتجعل من الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التي تتمتع بمعظم، إن لم يكن بكل، مواصفات القوة العظمى Super Power التي أصبحت تنفرد بالشأن العالمي في الوقت الحاضر. ولكن إلى متى ستظل الولايات المتحدة الدولة العظمى الوحيدة والمهيمنة على العالم؟ وإلى متى سيستمر النظام العالمي الجديد على أحاديته الراهنة؟

فعلى الرغم من تأكيد الباحثين والمفكرين على أنه بانهيار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة تركت الولايات المتحدة على قمة النظام الدولي وحيدة منفردة، لتقود العالم بلا منافس أو منازع، ومع إقرار البعض من أنصار هذا الاتجاه أمثال Barry Posen and

Andrew Ross لتراجع الوضع الاقتصادي للولايات المتحدة أمام القوة الاقتصادية لكل من اليابان وأوروبا، إلا أنهم يؤكدون على إمكان تغيير هذا الوضع وتحسينه لتكريم هيمنة الولايات المتحدة على العالم[١٢] . على حين يرى بعض الباحثين أنه إذا كان التطور والنمو الاقتصادي داعما للهيمنة، فإن مؤشرات النمو الاقتصادي ليست في مصلحة الهيمنة الأمريكية في المدى المنظور، فسرعة إنتاجيتها الصناعية في حقبة التسعينيات تقل ٣ مرات عن اليابان، ومرتين عن أوروبا الغربية، فضلا عن أن ميزانها التجاري يزداد عجزا يوما بعد يوم[١٣].

ويؤكد بعض الباحثين على تراجع الناتج الإجمالي الأمريكي من (٥٠٪) من إجمالي الناتج العالمي عام ١٩٤٥ إلى حوالى (٢٥٪) فقط عام ١٩٩٦، كما تراجعت نسبة ما قدمته الولايات المتحدة من معارف وتكنولوجيا جديدة في العالم عام ١٩٧٧ من (٧٥٪) إلى حوالى (٣٦٪) فقط في عام ١٩٩٦ . وفي ضوء ذلك يتنبأ العديد من المحللين والباحثين بانزلاق الولايات المتحدة، عاجلا أم آجلا، إلى الصف الثاني من الأمم الكبرى، أو تحولها إلى دولة متوسطة القوة[١٤].

وعلى الرغم من ذلك فإن الباحثين والمحللين الأمريكيين يؤكدون على أن العامل الأساسي الداعم لاستمرار هيمنة الولايات المتحدة على العالم هو قوتها العسكرية، التي يجب أن تضخم وتزداد لتضمن لها الهيمنة والسيطرة العالمية. ودللوا على مقولاتهم هذه بما حدث في حرب الخليج وقدرتها في السيطرة على مقاليد الأمور في العمليات العسكرية.

وفي اعتقادنا أن الرؤية المتكاملة لأنصار الاتجاه الفكري الداعم لاتجاه الهيمنة الأمريكية تؤكد على أن الولايات المتحدة لن تستطيع التعويل على العامل العسكري كثيرا لفرض هيمنتها العالمية، لكونها تواجه مجموعة كبيرة من التحديات على مستويين:

أولهما: المستوى الداخلي، ويتمثل في المشاكل الداخلية التي ربما عاقتها عن الاستمرار في المنافسة كالمشكلات الاقتصادية والتعليمية. وعلى رغم اعتراف الباحثين والمحللين الأمريكيين بوجود تلك المشكلات، إلا أنهم لم يقدموا مقترحات لحلها، وإنما شرعوا في تقديم الحلول البديلة والكفيلة بتفعيل الهيمنة الأمريكية على العالم، وذلك من دون التخلي عن دورها العسكري. فضلا عن الدعوة للاستمرار في نشر الثقافة الأمريكية: ثقافة الديموقراطية وحقوق الإنسان، بالإضافة إلى ضرورة الاستمرار في جذب الدول إلى تلك الثقافة لتنضم إلى المعسكر الأمريكي. وهذا في نظر كل من Snow and Brown في دراسة حديثة لهما كفيل باستمرار الهيمنة الأمريكية على العالم حتى في المدى البعيد[١٥].

ونعتقد أن رؤية أنصار هذا الاتجاه تتوافق مع رؤية الإدارة الأمريكية لوضع الولايات المتحدة في ظل النظام العالمي الجديد، حيث عمدت إلى توظيف ما أسماه الرئيس الأمريكي الأسبق Richard Nixon بـ «الفرصة السانحة» التي أفرزها الانهيار السوفييتي للبدء في تنفيذ مشروعها الكوني في أمركة العالم.

ويعد هذا المشروع بمثابة المحور الأساسي لحركة رؤساء الإدارات الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، فقول الرئيس الأسبق «George Bush» الأب في أوائل التسعينيات «إن القرن القادم ينبغي له أن يكون أمريكيا»[16]. هو امتداد لقول الرئيس «Rozfelt» في الأربعينيات إن قدرنا هو أمركة العالم[17]. ولا يختلف عنها الرئيس «Nixon» الذي يقول يجب على أمريكا أن تقود العالم[18]. وعلى الرغم من أن إدارة الرئيس السابق «Bill Clinton» لم تستخدمه بصورة مكثفة مثلما كانت الحال مع إدارة الرئيس الأسبق «George Bush»[19]. إلا أن هذا لا يعني أنها تخلت عنه. كما أن الإدارة الحالية الجمهورية للرئيس «George W.Bush»، سوف تشهد احتمالا مكثفا لهذا الوضع العالمي للولايات المتحدة الأمريكية على الساحة الدولية.

ثانيهما: على المستوى الخارجي، وتتمثل في شيوع أسلحة الدمارالشامل، ليس على مستوى أعضاء النادي الذري فحسب، بل على مستوى دول كانت في عداد الدول النامية. ففي دراسة حديثة Therese Delpech عن انتشار الأسلحة النووية والنظام العالمي الجديد، يثير العلاقة ما بين التنمية الاقتصادية وامتلاك القوة النووية، ويرى أن العصر الحالي شهد خروجا على المألوف. ففي الماضي كانت القوى النووية مقصورة على النادي الذري من الدول الغنية المتقدمة. ولكن كيف استطاعت دول متعثرة اقتصاديا كالهند وباكستان ترتيب أولوياتها الاقتصادية، بحيث تفرض على الجميع دخولها النادي الذري كأمر واقع[20]. ويرى بعض الباحثين أن الظهور النووي القوي لكل من الصين، ثم الهند وباكستان أخيرا، يمثل تحذيرا قويا للنظام العالمي الجديد الذي تسوده الولايات المتحدة، وأن النظام العالمي الجديد لا يزال يعاني آلام الحرب الباردة[21].

وعلى الرغم من ذلك فقد أوضح أحد الباحثين أن انهيار الاتحاد السوفييتي جعل الولايات المتحدة الأمريكية، التي يؤيدها حلفاؤها الغربيون، هي القوة العظمى في العالم، وأن دور القوى الغربية لا يتعدى قيامها بتنفيذ التوجيهات الأمريكية. ومن ثم فهي الدولة الوحيدة التي تتمتع بالقدرة التي تمكنها من القيام بدور حاسم في أي صراع تختار أن تشارك فيه، وفي أي مكان في العالم[22].

ووفقا لهذا الاتجاه فإن الولايات المتحدة عليها مسؤولية المحافظة على الاستقرار الدولي، وقيادة تحرك عالمي نحو تحقيق الديموقراطية. إلا أن هناك العديد من الباحثين يرون من الصعوبة بمكان استمرارية القطبية الواحدة. فثمة متغيرات موضوعية، تحتاج إلى فترة من الزمن كي تتبلور مخرجاتها، تحول دون ذلك منها[23]:

(أ) حالة عدم الاستقرار الدولي: لقد أدى انهيار القطبية الثنائية إلى اختلال القواعد والضوابط التي تحكمت في السلوك الدولي، وبالتالي في طبيعة التوازنات الدولية والإقليمية واتجاهاتها. وقد أفرزت هذه الاختلالات بروز قائمة مشاكل عالمية جديدة من دون حل، كما أن

إعادة هيكلة الخريطة الجغرافية والسياسية لعالم الجنوب، خدمة لمصالح غربية أو أمريكية، أدى إلى حالة من عدم الاستقرار الدولي.

ومن هنا يمكن القول إن النظام العالمي الجديد، بمفهومه الأمريكي، لم يستطع إقامة عالم مستقر آمن، إنما تميز بسياسات القوة والمنافسة القومية، والتوترات الإثنية والعرقية.

(ب) اتساع دائرة الرفض الدولي للقطبية الواحدة: فالتطلعات الأمريكية نحو الهيمنة العالمية تواجه برفض قد يكون صريحا أو ضمنيا، فغياب قوة دولية عظمى قادرة وراغبة في التصدي صراحة للسياسات الأمريكية على غرار السلوك السوفييتي، لا سيما خلال مرحلة الحرب الباردة، جعل العديد من الدول يعاني غطرسة القوة الأمريكية. فعلى سبيل المثال: فرضت الحكومة الكندية في اتفاقية التبادل التجاري الحر بينها وبين الولايات المتحدة على الإدارة الأمريكية استبعاد كل الصناعات الثقافية والإعلامية. وفي فرنسا هناك إجماع على اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بحماية اللغة والثقافة الفرنسية من التأثير الأمريكي، كما أن مقاومة فرنسا ودفاعها عن الحقوق الثقافية هي مقاومة حقيقية وشرسة للأمركة، ولذلك يدرك بعض المفكرين والباحثين أنه لا الحلفاء الأقربون للولايات المتحدة، ولا الأمم المتحدة وأجهزتها سيقبلون في المستقبل قرارات وتدابير الولايات المتحدة، على غرار ما حصل إبان الاستعداد لحرب الخليج الثانية.

وقد اتضح ذلك بجلاء في عملية ثعلب الصحراء، وعلى ذلك يمكننا القول إن حالة التحكم الأمريكي في محصلة التفاعلات الدولية لم تحل دون أن يكون نطاق الرفض للقطبية الواحدة في اتساع مستمر، وإن كان بوتائر بطيئة.

(ج) الاختلالات الهيكلية الأمريكية: تشير بعض الدراسات إلى أن الدولة الأمريكية التي تتربع حاليا على قمة الهرم الدولي، أضحت بحاجة إلى إعادة بناء، بيد أن اختلالاتها الهيكلية تنطوي على آثار لا تجعلها «تمتلك القدرة على فرض نظامها الدولي على العالم» كما يؤكد ذلك عدد من المفكرين والساسة والباحثين الأمريكيين وعلى رأسهم Pull Kenedi[٢٥]. وكذلك Zbigniew Brzazinski [٢٦].

وفي اعتقادنا أنه على الرغم من وجود هذه الصعوبات والتحديات، إلا أن هناك العديد من المعطيات التي تؤكد على أن الهيمنة الأمريكية ستبقى سائدة خلال القرن الحادي والعشرين، وأن القيادة الأمريكية للعالم ستظل مرتبطة بالقدرات والإمكانات الأمريكية المتنامية. وتأتي في مقدمة هذه القدرات الثورة العلمية والتكنولوجية الثالثة التي تمثل أهم الأسلحة المستقبلية التي ستبقي على الزعامة الأمريكية العلمية والعسكرية والمعلوماتية للعالم خلال العقود القادمة.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

ثالثا: السيناريوهات المستقبلية للنظام العالمي الجديد

هناك إجماع بين الباحثين والمفكرين في مجال العلاقات الدولية منذ منتصف التسعينيات على المفهوم العام للنظام العالمي الجديد، بمعنى تداعي النظام الدولي القديم، وتغير هرم السلطة والقوة والقواعد التي تحكم العلاقات بين الدول، في ظل نظام توجد فيه العديد من الوحدات الدولية إلى جانب الدول. لكن هناك بعض الإشكاليات والتعقيدات المطروحة على صعوبة التنبؤ بمستقبل واتجاهات تطور النظام العالمي الجديد، تجعل من سيناريوهات المستقبل مهمة علمية شاقة، خاصة أن الظاهرة لا تزال في طور التشكيل والتكوين.

وإذا كانت معظم الدراسات والكتابات التي تناولت النظام العالمي الجديد قد أشارت إلى جملة التناقضات التي تحملها الصورة الراهنة للنظام، كالهيمنة على المؤسسات الاقتصادية الدولية، وعلى الأمم المتحدة من قبل قوة عظمى وحيدة، والآثار السلبية المباشرة وغير المباشرة لسيطرة الشركات المتعددة الجنسية والتجمعات الاقتصادية العملاقة على نسبة كبيرة من الاقتصاد العالمي، إلى جانب السعي إلى تدويل ونشر القيم والمفاهيم الثقافية والسياسية الغربية.

وفي تقديرنا، فإن هذه التناقضات والخلافات ترد إلى التنوع في نمط قراءة وتحليل التحولات الجارية من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى التداخل/التضارب الشديد بين السيناريوهات المستقبلية التي يحاول بعض العلماء والمفكرين في مجال العلاقات الدولية صياغتها واستشراف تطوراتها.

فبينما اتجه بعض الباحثين إلى الاهتمام بوضع الجغرافيا الاقتصادية في النظام العالمي الجديد، اتجه فريق ثان إلى دراسة مدى إمكان بعث نموذج توازن القوى، واهتم فريق ثالث بالتركيز على نموذج صدام الحضارات، واتجه فريق رابع إلى دراسة نظرية الفوضى في النظام العالمي الجديد، واهتم فريق خامس بدراسة مدى تحقيق نموذج القرية العالمية، وأخيرا اتجه فريق سادس إلى التركيز على تطور النظام العالمي الجديد لتحقيق الأقطاب المتضامنة.

وسوف نراجع هذه التصورات المستقبلية للنظام العالمي الجديد في نقاط ست، تتناول كل منها وجهات النظر المختلفة حول الرؤى والاتجاهات السابقة على النحو التالي:

١ - نموذج أقطاب الجغرافيا الاقتصادية الثلاثة

The Three Bloc Geo-Economices ModeL

ويرى أنصار هذا النموذج أنه ظهر مع بداية حكم الرئيس الأمريكي (Bill Clinton) ليفرض رؤية لنظام عالمي جديد، تحل فيه الجغرافيا الاقتصادية محل الجغرافيا السياسية. ومن أهم

سماته أنه يقلل من أهمية القوة العسكرية لتحل محلها القوة الاقتصادية لتحكم مجال التنافس العالمي بين الدول [٣٦].

الواقع أنه على الرغم من تساوي الدول في السعي إلى الحفاظ على أمنها القومي، سواء كانت دولة عظمى أو دولة عادية، فإن Geofery Kemp يؤكد على أهمية الجغرافيا الاقتصادية كمباراة مركزية Central Game في فترة الحرب الباردة في السياسة والعلاقات الدولية[٣٧].

وعلى الرغم من سيطرة بعض المقولات مثل نهاية التاريخ لـ Fukuyama[٣٨]، ونهاية الأيديولوجية على دارسي توجهات النظام الدولي، إلا أن بعض الآراء والدراسات الحديثة ترجح استبعاد هذه المقولات أو على الأقل - تأجيلها - لتحل محلها الرؤية الاقتصادية للأحداث والوقائع، لتؤدي في النهاية إلى انتشار الدول الديموقراطية ذات الدخول المرتفعة، ولتحقق مقولة Karl Deutsch عن «المجتمع الأمني المتعدد Pluralistic Security Community»، أي أن هذه المراكز المتعددة ذات التوجه الرأسمالي تمثل مجموعة من الدول ينتفي فيها توقع أو استعداد أي منها لاستخدام القوة العسكرية في علاقات بعضها ببعض.

ويذهب أنصار هذا النموذج إلى أن تطور النظام العالمي الجديد سيؤدي إلى انقسام العالم إلى ثلاث كتل اقتصادية عملاقة متنافسة تشمل:

اليابان: تقود منطقة الباسيفيكي بما فيها كوريا وجنوب شرق آسيا والصين، وتعد كل من اليابان والصين أبرزها وأكثرها نفوذا وتأثيرا، وتتميز العلاقات بين دولها الأساسية بالانسجام وتبنيها فيما ثقافية ودينية واحدة، إضافة إلى ارتباطها بشبكة مصالح اقتصادية متبادلة، ساعد على نموها السريع حرص الصين منذ السبعينيات على إدخال اقتصادها ضمن الاقتصاد العالمي، وكذلك اقتصاديات حافة المحيط الباسيفيكي، على الرغم من وجود بعض الاختلاف في المصالح والتوجه السياسي الخارجي لبعض دولها. إلا أن اليابان تعد من الدول القليلة التي دخلت الثورة الصناعية الثالثة. وبتفاعل قدرتها الاقتصادية مع القدرة العسكرية الصينية تصبح اليابان مؤهلة لقيادة تكتل اقتصادي آسيوي - ما زال في طور التشكيل - فريد في تأثيره وإمكاناته.

الولايات المتحدة: تقود المعسكر الغربي والأمريكتين بشكل أكثر تحديدا، خاصة بعد اتفاق التجارة الحرة (NAFTA) وإعادة هيكلة اقتصاديات دول أمريكا اللاتينية.

ألمانيا: تقود المعسكر الأوروبي الذي يفترض أن يضم روسيا وبعض جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة، وربما بعض دول شمال أفريقيا.

وفي هذا الإطار يذهب Harkavy إلى القول بأن الدول النامية في أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط تدخل في إطار الاستعمار الجديد لتلك المحاور الثلاثة السابقة[٣٩].

ويرى أنصار هذا النموذج التجارة على أنها تيار لا يسير ما بين الأمم والدول بقدر ما هو تيار يسير ما بين المؤسسات والشركات الدولية[٢٠].

وفي اعتقادنا أن هذا النموذج يعطي للاقتصاد والجغرافيا والثقافة والديموغرافيا أهمية خاصة في احتمالات توزيع القوى في ظل النظام العالمي الجديد. ومن ثم - وفقا لهذا النموذج - يتوقع أغلب الباحثين أن يكون المحور الذي تقوده الولايات المتحدة هو الأضعف على الإطلاق، وأن يكون المحور الأوروبي الذي تقوده ألمانيا هو الأقوى على الإطلاق.

فالمحور الأوروبي، كما يتوقع Lester Thurow، تتوافر له مقومات زراعية وصناعية عالية، ويتجه بسرعة نحو تطوير صناعاته التكنولوجية، وسوف يتمتع الأوروبيون مع الوقت بأعلى المستويات التعليمية في العالم، مما يؤهلهم لدخول القرن الحادي والعشرين بمستوى تعليمي أعلى من الولايات المتحدة. كما يلاحظ استمرار اليابان في الارتقاء بمستواها التعليمي والتكنولوجي. وعلى الرغم من صغر حجم السوق المحلي الياباني، إلا أن بعض الباحثين يؤكدون على إمكان نجاحها في التغلب على تلك المشكلة بالتوسع في الأسواق الآسيوية[٢١].

وينتقد نموذج أقطاب الجغرافيا الاقتصادية الثلاثة، ليس فقط لتركيزه على العوامل الجغرافية، وإنما كذلك لتجاهله إمكان بزوغ محاور اقتصادية أخرى غير تلك التي أشار إليها، فهناك الهند والبرازيل وغيرهما من الدول الصاعدة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن أوروبا ما زالت تواجه العديد من الصعوبات والتحديات، فهي ما زالت تخشى التمدد الألماني والروسي، والتقارب الألماني - الفرنسي، فضلا عن تزايد مشكلة الأقليات ونموها، وتفجر الصراعات القومية، في يوغسلافيا السابقة خاصة، وكل هذه التناقضات تشكك في إمكان أن تصبح أوروبا هي القطب الأقوى في المرحلة القادمة.

٢ - إحياء نموذج توازن القوى

The Reinvigorated Balance Of Power Model

ينطلق أنصار هذا النموذج مما ذهب إليه «Pull Kenedi» من أن الدول تتحرك صعودا أو هبوطا في ضوء نوعية قدراتها، مقارنة مع قدرات غيرها، فضلا عن مدى استعدادها الذاتي لتوظيف هذه القدرات ضمن إطار بيئة دولية محددة[٢٢]. فوفقا لمقولاتهم فإن عامل الأمن هو السعي الأول لكل دول العالم، كما جعلت نهاية الحرب الباردة من عودة تعدد الأقطاب وتوازن القوى شيئا ممكنا.

وهذا النموذج يؤكد على وجود قوى رئيسية أربع هي الولايات المتحدة، وروسيا الاتحادية، والصين، وأوروبا[٢٣].

ويذهب كل من Barberو Lampton إلى ترشيح الصين للقيادة الدولية في القرن الحادي والعشرين، ويتحدثان عما يمكن أن يسمياه «بالهيمنة الصينية» Hegemonic of China

باعتبارها أقل الدول الأربع في معوقات الوصول إلى القمة مع اقتصاد سريع النمو، الذي يمكن أن يترجم بسهولة إلى قوة عسكرية فعالة[٣٤].

ويذهب أنصار هذا النموذج إلى أن التحالف الأمريكي - الصيني سيتغلب بل ويطغى على جميع التحالفات الكبرى: كالتحالف الأوروبي - الأمريكي، والتحالف الأمريكي - الروسي.

في اعتقادنا أن هذا النموذج يتجاهل دولة مثل الهند كقوة صاعدة في مواجهة الصين، كذلك فإنه يتجاهل دور الأمم المتحدة التي على رغم تراجع دورها في التسعينيات، خاصة في المسائل الأمنية، إلا انه لا توجد مؤسسة دولية أخرى، كما ذهب Barnet ، لها القدرة نفسها على التشريع وإرساء المبادئ والشرعية الدولية. ومن هنا فإنه يتجه لإبراز دور الأمم المتحدة كلاعب في العلاقات الدولية في ظل النظام العالمي الجديد. هذا النظام الذي يحتاج في الوقت نفسه إلى قوة تشريعية ترسي قواعده، ومن ثم تجد هذه القوة مصدرها في الأمم المتحدة[٣٥].

إلا أننا نعتقد أن دور الأمم المتحدة كمؤسسة دولية قادرة على إرساء مبدأ «الثواب والعقاب» قد انتابه بعض الضعف أو التلاشي في بعض الأحيان مع الممارسات العملية، فقد ينظر إليها على أنها تقوم على مبدأ المعيار المزدوج Double Standard لأن القوى الكبرى المسيطرة في النظام العالمي ستكون كفيلة بتوفير تلك القواعد وفقا لمفهوم القوة ومصالحها. فعلى سبيل المثال تم تفعيل دور حلف «NATO» خارج الأمم المتحدة خاصة في أحداث كوسوفا[٣٦].

كما ينتقد هذا النموذج على أن القوى الرئيسية الفاعلة في النظام العالمي الجديد قد تكون أكثر من ذلك بإضافة اليابان وربما البرازيل، غير أن أهمية هذا النموذج تكمن في توضيح عدم انفراد أي قوة أو دولة منها بامتلاك ناصية هذه القوة بمفردها في النظام العالمي الجديد.

٣ - نموذج صدام الحضارات

The Clash Of Civilization Model

يتوقع انصار هذا النموذج أن الصراع القادم في النظام العالمي الجديد ليس صراعا بين دول بقدر ما هو صراع بين حضارات. وقد ظهرت بوادر هذا النموذج أو الاتجاه الفكري في مقالة كتبها المفكر الإستراتيجي الأمريكي «Samual Huntington» في المجلة الأمريكية Foreign Affairs بعنوان «صدام الحضارات» عام ١٩٩٣، وأثارت جدلا كبيرا في أوساط الباحثين والمفكرين على مستوى العالم[٣٧].

وحدد Huntington مجموعة من الحضارات التي حدث - ويحتمل أن يحدث - بينها صراع وهي: الحضارة الغربية، والحضارة اليابانية، والحضارة الإسلامية، والحضارة الهندية، وحضارة أمريكا اللاتينية، والحضارة الأفريقية[٣٨].

وفي اعتقاد Huntington أن هذه النظرية - أو النموذج - تقوم على أن الصراع في العالم «الجديد» لن يكون أيديولوجيا أو اقتصاديا، بل سيكون، وينبغي أن يكون، قائما على الثقافة والإيمان والأسرة والعقيدة. ومثله مثل الكثيرين من المفكرين الغربيين رأى في المسيحية والإسلام عداء تقليديا ومتأصلا، غير أن بعض الكتابات العربية والإسلامية لا تذهب إلى رأي Huntington بأنه صراع بين الأديان وخاصة بين المسيحية والإسلامية، وإنما هو حوار حضاري عميق دار بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية في عصر الحروب الصليبية وما أعقبها. وقد أحدث تحولات، بدرجة أو بأخرى ، لدى كل طرف بعد ما حدث التفاعل الحضاري بين العرب والغرب[٣٩].

وهكذا يرى أنصار هذا النموذج أن المصدر الأساسي للنزاعات في النظام العالمي الجديد لن يكون مصدرا أيديولوجيا أو اقتصاديا في المقام الأول، بل ستكون الانقسامات الثقافية والحضارية هي المصدر الأساسي للنزاعات في العالم.

ونعتقد أن هذا التوصيف المستقبلي للصراع الحضاري بين الأمم والشعوب كما ذهب إليه Huntington يجعل المحور البارز للسياسة العالمية قائما على وجود أو خلق علاقات غير متكافئة بين الغرب وشعوب العالم الأخرى، لذا فإن السعي لاستقبال حضارة الغرب أو الانضمام إلى توصيفاتها قد يصطدم في النهاية، في رأي بعض الباحثين، بعقبات ثقافية وحضارية لا حصر لها. بل يذهب البعض من أنصار هذا الاتجاه وعلى رأسهم Hazear Micheal على أن صراع الحاضر والمستقبل هو صراع حضاري وثقافي، وأنه صراع بين حضارات سائدة، فالخلاف - من وجهة نظره - بين الحضارات حقيقة قائمة وأن الصراع قادم لا محالة، وأن هذا الصراع قد يكون اكثر شدة وعنفا بين الحضارات المختلفة قياسا على ما هو حاصل بين المجموعات في الحضارة الواحدة ذاتها[٤٠].

وبغض النظر عن محتويات هذه النظرية التي لاقت رواجا بين الباحثين، إلا اننا نعتقد ان Huntington أراد تقديم خريطة جديدة لإدارة الأزمات في العالم «الجديد» تسعى لتحقيق سيادة الحضارة الغربية على الحضارات الأخرى بمحاولة تحقيق التكامل السياسي والاقتصادي والعسكري، والحيلولة دون استغلال الحضارات الأخرى للاختلافات القائمة بين بلدان الحضارة الغربية، ودمج دول أوروبا الغربية والوسطى في الاتحاد الأوروبي وحلف(NATO)، وتشجيع تغريب أمريكا اللاتينية وانحيازها للغرب، وتقييد القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية لدول الحضارة الإسلامية والصينية، وقبول روسيا لأن تكون مركزا للأرثوذكسية وقوة إقليمية ذات مصالح مشروعة في أمن حدودها الجنوبية.

٤ - مناطق السلام ومناطق الحروب : نظرية الفوضى

Zones Of Peace Turmoil Chaos Theory

يذهب كل من Singer وWildavisky إلى أن العالم في نظامه الدولي الجديد منقسم إلى مناطق مختلفة الملامح، فهناك مناطق تسودها الحروب والنزاعات والفقر، وأخرى يسودها السلام والديموقراطية والرخاء[٤١]، وأن مناطق السلام والأمن والديموقراطية كما يذهب Hans وSorenson هي في الأساس الولايات المتحدة وغرب أوروبا وكندا واليابان وهي تمثل حوالى ١٥٪ من سكان العالم، وأن مناطق الفقر والنزاعات والحروب هي دول الاتحاد السوفييتي السابق وأغلب دول آسيا وأفريقيا وربما أيضا أمريكا اللاتينية[٤٢].

وفي اعتقادنا أن هذا الوضع لا ينتهي أو يتغير بسهولة، ومن ثم فإننا نتوقع استمرار الأمن والسلام والديموقراطية في هذه الدول ذات الرخاء، واستمرار الحروب والفقر والنزاعات في المناطق الأخرى. كما أننا لا نشاطر الرأي لدى أنصار هذا الاتجاه منهم Joseph Lepgold القول بأن الديموقراطيات لا يحارب بعضها بعضا. أما مناطق الحروب والصراعات فهي المناطق الأكثر فقرا في العالم، وهي المناطق ذات الأوبئة والأمراض المتفشية[٤٣].

ففي الحقيقة أن الصراعات التي يشهدها الجنوب قد تتصاعد نظرا إلى ما أشار إليه Harkavy وكذلك Hoffman من انتفاء قيام القوى العظمى بدور في تهدئة الصراعات الإقليمية، فعلى الرغم من أن تدخل القوتين العظميين خلال الحرب الباردة، ترتب عليه في بعض الأحيان تصاعد هذه الصراعات، فإنه ترتب على سلوكهما أيضا ضبط سلوك الدول التابعة لكلتا القوتين في أحيان أخرى. بالإضافة إلى ذلك هناك عدد آخر من التهديدات التي يفرضها الجنوب على النظام العالمي الجديد. فقد أشار Clapham إلى الفقر بصفته المصدر الرئيسي للفوضى العالمية، فضلا عن ظاهرة زيادة الهجرة من الجنوب إلى الشمال، وما يرتبط بها من توترات سياسية واجتماعية في الشمال. فضلا عن أن هناك العديد من المشكلات، مثل المخدرات وتلوث البيئة، التي قد تؤدي إلى مواجهات بين الدول المتقدمة وبعض دول الجنوب. كذلك هناك ظاهرة الصحوة الإسلامية، والتي على الرغم من أنها قد تمثل قوة دفع نحو اندماج بعض دول الجنوب، إلا أنه يمكن اعتبارها أيضا بمنزلة قوى للتفكك في النظام العالمي الجديد[٤٤].

ومن هنا لا يستطيع الباحث الاتفاق مع الآراء التي قوامها أن النظام العالمي الجديد، استطاع أن يؤسس عالما مستقرا وآمنا، فالاستقرار والأمن استمرا في الأعم الأغلب من نصيب معظم دول الشمال، وإن كان الوضع يختلف في دول الاتحاد السوفييتي السابق ويوغسلافيا كما يرى Khan Mujeeb [٤٥] ربما كان إدراكا لحالة اللاانتظام الراهنة واحتمالات استمرارها في عالم الجنوب.

٥ - نموذج القرية العالمية

The Global Village

وأنصار هذا النموذج يرون أن النظام العالمي الجديد سوق يجعل المجتمع الدولي بمنزلة قرية إعلامية صغيرة تتلاشى فيها الحدود القومية، ويبرز على السطح المجتمع العالمي Global Society كنتيجة مباشرة لذلك من خلال انتشار أدوات ووسائل الاتصال المتقدمة، التي تجعل من القيم ونمط الحياة الغربي أسلوب الحياة العالمي[٤٦].

في الواقع يرى كثير من الباحثين أن هناك عددا من الاعتبارات تعمل على تأكيد هذا الاتجاه وتتمثل في ظهور التحديات الدولية التي تواجه المجتمع الدولي والتي تتعدى حدود الدولة: كقضايا الفقر والمخدرات وتلوث البيئة والانفجار السكاني. وقد يدفع ذلك كله إلى ظهور ما يمكن أن يسمى «Global Governement» التي يتراجع فيها دور الدولة القومية[٤٧].

كما ترى بعض الدراسات أن سعي النظام الدولي «الجديد» لتحقيق المجتمع العالمي يتطلب سلطة مركزية مؤسسية لاتخاذ القرار وعضوية دولية، إلا أن الجهود المبذولة لإنشاء مثل هذا الكيان فشلت حتى الآن. فالأمم المتحدة لا تستطيع التصرف باستقلالية عن الدول الكبرى التي تحركها. كما يرى أصحاب هذا التوجه ضرورة توافر قواعد دولية عامة، وكذلك مؤسسات دولية ومحلية طوعية لتحل محل الدولة القومية Nation State، وأن المحرك الأساسي لهذه التغيرات هو الثورة التكنولوجية والمعلوماتية، التي تمكن الأفراد من الحد من سلطة الدولة وتدخلاتها[٤٨].

وفي اعتقادنا أن الإطار الفكري لنموذج القرية العالمية Global village والمجتمع العالمي Global society يفتقد عاملين أساسين لم يوضعا في الحسبان:

الأول: أن السلطة الخاصة لا تزال جزءا من سلطة الدولة، إذ إن الأولى لا تتحرك إلا في الجزء الذي تسمح به الدولة، ذلك أن الدولة تملك أدواتها التشريعية التي تحد بها - إن شاءت - من نفوذ السلطة الخاصة.

الثاني: أن انتقال السلطة ليس (معادلة صفرية Non-Zero-Sum game) بمعنى أن زيادة نفوذ وسلطة الأفراد داخل الدولة لا تعني بالضرورة فقدان الحكومة للسيطرة على الأمور والأفراد داخل الدولة. فالحقيقة غير ما يدعيه أنصار ذلك النموذج، فالدولة لا تختفي، لكن فقط يتقلص دورها ومقدار تدخلها في الهيئات التابعة لها كالقضاء والتشريع.

ولا يتوقع أن يختفي دور الدولة في ظل النظام العالمي الجديد، ولكن سوف يطرأ تغير جوهري وملموس في الوظائف الأساسية والتقليدية للدولة، باعتبار أن بعضا من وظائفها ومهامها بدأت تسلم للشركات متعددة الجنسية وللمؤسسات والمنظمات الدولية.

كما أن أبرز ملامح النظام العالمي الجديد أنه يقوم أساسا على إنتاج المعلومات وتداولها من خلال آلية غير مسبوقة هي الحاسبات الإلكترونية ومجتمع تكنولوجيا المعلومات[٤٩]. هذا فضلا عن أن الكونية أو العولمة Globalization ستصبح هي الأساس في مجتمع المعلومات القادم، لمعالجة الأزمات الكونية المتعلقة بالنقص في الموارد الطبيعية، وتدمير البيئة، والانفجار السكاني، والفجوات العميقة الثقافية والاقتصادية بين الشمال والجنوب. ومن ثم فإن تنمية شبكات المعلومات الكونية باستخدام الحواسب الإلكترونية والأقمار الصناعية ستؤدي إلى تحسين وسائل تبادل المعلومات وتعمق الفهم العالمي للفرد، الأمر الذي من شأنه أن يتجاوز المصالح القومية والثقافية والمصالح الأخرى المتباينة في «مجتمع القرية العالمية».

وفي تقديرنا أن المفكرين والباحثين في كل مكان يعون اليوم وعيا تاما أن الحياة البشرية في طريقها إلى تغيير جذري نوعي، ومع تقدم التعليم والاتصال يتزايد تقارب وعي المفكرين ووعي الناس، وربما كان ذلك ما سيميز الوعي الإنساني في القرن القادم، وبالتالي سيزداد الوعي الإنساني والتغير الاجتماعي تطابقا في المستقبل.

٦ - نموذج الأقطاب المتضامنة

Incipient Bipolority Model

ويرى أنصار هذا النموذج أنه من الصعوبة بمكان التفكير في إمكان عودة نظام الثنائية القطبية مرة أخرى في ظل الهيمنة الأمريكية على العالم، إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة تجاهل القوى أو الأقطاب الأخرى الواعدة في النظام العالمي الجديد كاليابان والصين والاتحاد الأوروبي. لذا فإن الاحتمال الغالب لمستقبل النظام الدولي - وفقا لهذا النموذج - هو شكل من أشكال التضامن والتحالف بين تلك القوى العالمية المختلفة، بحيث يكون العالم محصورا ما بين أقطاب أو معسكرات، كل معسكر مكون من مجموعة من الدول واحدة الأهداف والمصالح والتوجهات تجاه المعسكرات الأخرى. منها على سبيل المثال[٥٠]:

- ظهور التحدي الصيني لإدارة الولايات المتحدة والتقارب الأمريكي الياباني.
- ظهور التضامن الصيني الروسي في مواجهة التضامن الأوروبي الأمريكي.
- مواجهة ظاهرة ما بين الآسيان والمحور الأمريكي الأوروبي والروسي.
- التقارب الصيني الأمريكي في الفترة الراهنة.

ولا شك في أن اهتمام الباحثين بالأقطاب المتضامنة، وظاهرة الاعتماد المتبادل كسمة من سمات النظام الدولي، يبرزان مدى إمكان مساهمة مثل هذه التفاعلات في تحقيق السلام والأمن في النظام العالمي الجديد في المستقبل، على أساس المصالح الإنسانية العادلة لشعوب العالم كافة، التي يمكنها أن ترفع التناقض بين نزعة الهيمنة والسيطرة والتفاوت والاتجاه نحو التضامن والتعاون.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

إن العالم يتوحد اليوم بشكل متزايد، ليس فقط بفعل تطور الرأسمالية والنزعة التجارية[٥١]، بل أيضا من خلال الجماعات غير الاقتصادية وغير الحكومية، ومؤسسات المجتمع المدني العالمية (جماعات السلام، جماعات حماية البيئة، جماعات حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحقوق الطفل...إلخ) التي بنموها المتطور والفاعل تصبح لديها القدرة على المساهمة في صنع المستقبل البشري، والفاعلية التي تتضمن احتمالا بنهاية عالم وولادة محتملة لعالم «جديد» حقا[٥٢].

نتائج البحث

١ - على رغم انقسام الآراء وتناقض المواقف حول النظام العالمي الجديد، إلا أنه استقطب بوصفه ظاهرة - في طور التكوين والتشكيل - اهتمام الباحثين والمفكرين في مجال العلاقات الدولية، وربط بينهم اهتمامهم بجملة المتغيرات النوعية المتلاحقة التي يشهدها النظام الدولي منذ بداية التسعينيات، والتي تعدت نطاق القوميات وتجاوزت حدود الدول، حيث لم تعد القضية مسألة رفض أو قبول النظام العالمي الجديد بقدر ما هي مسألة كيفية التعاون أو الانخراط فيه، والعمل على تطوير نماذج واتجاهات فكرية وعملية يمكن من خلالها التأثير والفعل في حركة النظام العالمي الجديد.

٢ - إن الحديث عما تحمله الثورة العلمية والتكنولوجية الهائلة من إمكان الانتقال إلى مجتمع المعلومات، وما يترتب عليه من آثار على أساليب العمل وتنظيم الحياة وعامل الزمن، قد يؤدي إلى الأخذ في الاعتبار نموذج «القرية العالمية»، وما يذهب إليه من الحديث عن «صفوة عالمية» وعن «فئة وسطى عالمية» تتشابه أنماط حياتها، واستهلاكها، وتوجهاتها من خلال أنظمة الاتصال الحديثة (الستالايت - الإنترنت)، وعن «المراهقين العالميين» الذين يستهلكون الأشرطة والموسيقى والأحذية وال تي شيرت نفسها. كل ذلك يتنامى ويتسع باتجاه تكوين نمط اجتماعي وثقافي واحد، ومنظومة قيم وثقافة عالمية واحدة في اتجاه أن يكونوا «مواطنين عالميين» أقل ارتباطا بهوياتهم الوطنية.

غير أنه على الجانب الآخر فإن الحديث عن انتهاء أو تلاشي مفاهيم من قبيل الحدود، والسيادة، ودور الدولة في ظل «النظام العالمي الجديد» نتيجة اعتماد الشركات متعددة الجنسية على نظم أمن وشركات بريد ونقود (بطاقات ائتمان) خاصة، واستيلائها على المرافق والخدمات العامة من خلال «التخصيصية» ليس صحيحا تماما. حيث لا يتوقع أن يختفي دور الدولة «تماما» في ظل النظام العالمي الجديد، ولكن سوف يطرأ عليها تغير جوهري وملموس في بعض الوظائف التقليدية. فالنظام العالمي «الجديد» لم يخلق حتى هذه اللحظة إطارا أو هيكلا عالميا بديلا، يكافئ ما كانت تفعله الدولة في تسيير وضبط الحياة

الاقتصادية والاجتماعية، بل الواقع يؤكد أن دور الدولة ما زال قائما ويُدعم بمزيد من المخصصات المالية في دول العالم كلها، حتى في أعتى النظم الرأسمالية. فعلى سبيل المثال اعتمد الكونغرس الأمريكي مبلغ ٣٩١ مليار دولار كميزانية للحكومة الفيدرالية في عام ٢٠٠٠ في أواخر نوفمبر ١٩٩٩.

٣ - تدلل الإشكاليات والتعقيدات المطروحة على صعوبة التنبؤ بمستقبل واتجاهات تطور النظام العالمي الجديد، وتجعل من سيناريوهات المستقبل مهمة علمية شاقة، نظرا للتداخل بين السيناريوهات والنماذج في بعض الأحيان، والتناقض فيما بينها في أحيان أخرى، لكن ذلك لم يمنع الدراسة من تحديد الاحتمالات الأكثر ترجيحا انطلاقا من تحليل المعطيات المتوافرة.

وبصفة عامة يمكن القول إن هناك حركة فكرية موضوعية باتجاه تجسيد النظام العالمي الجديد ذات اتجاهين أساسيين:

أولا: اتجاه مدني، يفرضه التطور الكبير والضخم للاقتصاد والتجارة الدولية (نموذج أقطاب الجغرافيا الاقتصادية)، والتطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال والمعلومات (نموذج القرية العالمية)، ونمو الحركات الإنسانية العالمية مثل حركات السلام، والديموقراطية وحقوق الإنسان، و حماية البيئة وسلامة الكوكب (نموذج الأقطاب المتضامنة)، ومكافحة الفقر والحروب (نموذج مناطق السلام والرخاء ومناطق الحروب والفقر)، وحوار الحضارات واحترام التنوع الثقافي (نموذج صدام الحضارات)، وحقوق المرأة والطفل. وهي حركات قائمة يزداد ترسخها وانتشارها والاعتراف بها في أنحاء العالم كلها. وهذا الاتجاه يكون تدريجيا شكلا من أشكال «المجتمع المدني العالمي».

الثاني: اتجاه سياسي أيديولوجي، يحاول استغلال هذه الظروف التاريخية والمتغيرات النوعية التي يشهدها النظام الدولي لفرض هيمنة (نموذج القطب الواحد: اتجاه الهيمنة الأمريكية)، أو كتلة معينة (نموذج توازن القوى)، أو ثقافة ما على العالم بأسره (الثقافة الغربية: الأمريكية).

وفي تقديرنا أن الاتجاه العام الذي سيحكم حركة تطور النظام العالمي الجديد مرهون بدخول لاعبين جدد عبر التحالفات المحتملة، فالمرحلة الراهنة توصف بأنها «مرحلة الهيمنة الأمريكية» وبالتالي احتمال استمرارية القطبية الواحدة. فالولايات المتحدة لم تتردد عن توظيف انهيار الاتحاد السوفييتي من أجل تأمين تبعية شبه عالمية لسياساتها، فتأثير الدور الأمريكي حاليا - حقيقة لا تنكر - فهي أضحت تتربع على قمة الهرم الدولي من دون منافس أو منازع حقيقي.

كما أننا نعتقد - أن دورها العالمي - المهيمن سيبقى مستمرا على حاله لفترة قادمة، على الرغم من وجود حالة عدم الاستقرار الدولي، وبعض الرفض للقطبية الواحدة، وبعض المشكلات التي يعانيها الاقتصاد الأمريكي. فثمة متغيرات موضوعية تدعم من استمرار نظام القطبية الواحدة والهيمنة الأمريكية على العالم في المستقبل المنظور.

فالولايات المتحدة مازالت تمثل أكبر قوة عسكرية واقتصادية في العالم، بالإضافة إلى احتكارها لنظم وتكنولوجيا الدفاع والحرب والفضاء الأكثر تقدما وتطورا في العالم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فعلى الرغم من قوة اليابان الاقتصادية إلا أنها لم تطرح رؤية أو تصورا محددا لقيادتها للعالم، فضلا عن تخوف بعض القوى في شرق آسيا من صعود اليابان، حتى لو حدث تحالف استراتيجي بين اليابان والصين كقطب آسيوي اقتصادي وعسكري، فمن المحتمل ألا تقبل الصين بقيادة يابانية منفردة للعالم. كذلك أيضا فإن أوروبا الغربية لم تطرح تصورا محددا لجدارتها في قيادة العالم، فما زال هناك بعض التعارض في المصالح الأوروبية، فضلا عن المخاوف الأوروبية من إحياء الهيمنة الألمانية. ومن ثم فإننا نعتقد احتمال استمرار نظام القطبية الواحدة لفترة قادمة، كما أن احتمالات تطور الدور الأمريكي في النظام العالمي الجديد قد يتمثل في استمرار الولايات المتحدة في لعب دور المهيمن بالقوة أو الشرطي العالمي، اعتمادا على قوتها العسكرية، أو أن تتحول الولايات المتحدة إلى الهيمنة الثقافية والاقتصادية، أو أن تلعب دور المهيمن (الموازن) في نظام متعدد الأقطاب ومتشابك.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

الأطماع الصهيونية في المياه العربية في ضوء أزمة مياه الشرق الأوسط

د. محمد أحمد صالح حسين(*)

تمهيد

الماء عنصر الحياة الأول، والمادة التي أودع فيها الله سر هذه الحياة، واستمرار البقاء والوجود والعمران. وقد برزت هذه الحقيقة التي لا مراء فيها في قول الخالق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم «وجعلنا من الماء كل شيء حي» (سورة الأنبياء الآية ٣٠). فسائر ما تقع عليه حواس الإنسان، وما يخفى عليها في الأرض من بهجة وحياة ونماء ونتاج، أثر من آثار المياه. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن المياه أصبحت رمزا للحياة. ومرادفا لاستمرارها، وبالتالي يصبح توفيرها مطلبا استراتيجيا غير قابل للتأجيل.

وقد ساد الاعتقاد في فترة من الفترات أن الموارد المائية متجددة بطبيعتها، وغير قابلة للاستنزاف والنضوب. إلا أنه يمكن القول إن الموارد المائية محدودة وتتناقص . شأنها في ذلك شأن الموارد الطبيعية الأخرى . على الأقل في منطقة الشرق الأوسط، وإن كان هذا لا يعني تعميم الأمر؛ لأن نقصان المياه في هذه المنطقة الحيوية لا يعني بطبيعة الحال نقصها على مستوى العالم، فربما تتناقص أو تجف في مكان ما، ولكنها تتزايد في مكان آخر. كما

(*) قسم اللغات الشرقية - كلية الآداب - جامعة القاهرة - مصر.

ان الأمر لم يعد يقتصر على نقصان ومحدودية هذه الموارد المائية، بل امتد ليشمل تدهور نوعيتها من خلال تلويثها لأسباب عديدة، يلعب فيها الإنسان الدور الفاعل. من هنا تزايد الإحساس بأن الاقتصاد في استخدام المياه في شتى الأغراض أصبح ضرورة قصوى، ليس فقط بسبب شح الموارد المائية وتضاؤلها، بل أيضا نتيجة الزيادة السكانية الكبيرة التي اصبحت أشبه بالانفجار، الأمر الذي أدى إلى تزايد الاهتمام والتفكير الجدي بمستقبل المياه في المعمورة، خاصة أن مشكلات نقص المياه يمكن أن تهدد الصحة العامة والتنمية الاقتصادية، الصناعية منها والزراعية، والتنمية الاجتماعية[1].

ترتب على الأسباب السابقة وغيرها أن أصبحت المياه من أهم الموارد الطبيعية التي يتصارع عليها العالم، فهي تشكل - مع النفط، باعتباره أحد المصادر الرئيسية للطاقة - المحور الأساسي لأسباب التوتر في العالم. وقد وصل الأمر إلى أن أصبحت المياه محور جميع الخطط والمشاريع التي تعدها الأطراف الفاعلة إقليميا ودوليا لتعزيز أمنها واقتصادياتها[2]. فالإحصائيات تشير إلى أنه مع النمو السكاني المتزايد، بالإضافة إلى الاحتياجات المائية المتزايدة للاستخدامات المنزلية، والطلب المتزايد على المياه لتوليد الطاقة، وتكثيف الزراعة والإنتاج الصناعي، فإن ما يقرب من ٤٠٪ من سكان العالم، معظمهم من البلدان النامية، يواجهون بالفعل نقصا حادا في المياه، ومن المتصور أنه بحلول القرن القادم فإن ما يقرب من ٦٥٪ من سكان العالم ربما يواجهون حالات من الندرة المائية[3].

أزمة المياه في الشرق الأوسط

المياه في الشرق الأوسط مشكلة معقدة ومزمنة، لا تجدي معها التصورات البسيطة في محاولة تحليل أبعادها أو التعامل معها. فهناك أمور مؤكدة بشأنها، وأخرى تخضع للنقاش، وأول الأمور المؤكدة أن هناك مشكلة مياه في المنطقة تتمثل في عدم التناسب بين المعروض والمطلوب، ووجود خلافات حول إدارتها، ولكن ليس من المؤكد - حتى الآن على الأقل - أنها يمكن أن تؤدي، بشكل مباشر، إلى صدامات مسلحة. فهناك أطر للتعامل مع المشكلة مثل الاتفاقيات الثنائية أو الإقليمية أو الدولية، والتي تفعّل وقت الحاجة، ويجب أن تحاول معظم الدول إدارتها بأساليب تعاونية أكثر مما تديرها بمنطق المواجهة، ولكن بفضل عوامل عديدة متنوعة ستظل المشكلة مثارة دائما، فكما أنه من المتصور حدوث حرب محتملة بسببها، فإنه من الصعب أيضا تصور حل نهائي لها[4]، فلقد عقدت عشرات المؤتمرات والندوات واللقاءات بهدف محاولة حل قضية المياه، ولم يؤد سوى القليل جدا منها إلى شيء يذكر[5].

والحقيقة هي أن احتمالات نشوب صراعات ونزاعات حول المياه في الشرق الأوسط تتزايد؛ لأن حدود موارد المياه الطبيعية، السطحية منها والجوفية، لا تتطابق مع الحدود السياسية في المنطقة، الأمر الذي يعني أن استنزاف المياه على جانب الحدود من قبل دولة من دول النهر أو الخزان الجوفي، قد يؤثر تأثيرا خطيرا على إمدادات المياه على الجانب الآخر[6]. وفي ضوء ذلك بات ضمان استمرار تدفق المياه يشكل أحد الأهداف القومية الأساسية لدول منطقة الشرق الأوسط، فقد احتلت مسألة الأمن المائي خلال السنوات الماضية قمة سلم الأولويات، وأصبح الحديث عن المياه لا يقل أهمية عن الأمن العسكري.

وتجمع جل الدراسات المعاصرة، إن لم تكن كلها، على أن المياه هي مصدر الحرب القادمة في الشرق الأوسط، فمنابع الأنهار الرئيسية في الوطن العربي، الذي يشكل قلب منطقة الشرق الأوسط، تقع خارج حدوده، وبالتالي فإن مصادر المياه بعيدة عن سيطرة دول الوطن العربي[7]. أضف إلى هذا أن الموارد المائية المتجددة في الوطن العربي تقدر بحوالى ٠,٧٤٪ من الموارد المتاحة في العالم، علما بأن الوطن العربي يشغل مساحة تقدر بنحو ١٤,٥ مليون كيلو متر مربع، أي حوالى ٩٪ من مساحة اليابسة، وأن معظم الأقطار العربية تقترب من حالة عدم التوازن بين حجم الموارد المائية المتاحة والطلب عليها، وأن هناك بوادر أزمة قوية تهدد بنقص المياه.

من هنا تبرز أهمية ما جاء في التقرير الذي أصدرته الخارجية الأمريكية، والذي يشير إلى أن التنافس على مصادر المياه في الشرق الأوسط سيشعل حربا جديدة فيه خلال فترة تقل عن عشر سنوات، إذا لم تتوصل الأطراف في هذه المنطقة إلى اتفاق سلام وتعاون بين دولها[8].

والحقيقة هي أن موضوع النزاع على المياه في منطقة الشرق الأوسط بات غاية في الأهمية والخطورة، حيث بدأ الاهتمام بالمياه كمشكلة تؤرق الدول العربية ودول الجوار الأصلاء، وهي تركيا وإيران وأثيوبيا، والدخلاء، أي إسرائيل، والعالم، منذ حوالى عقدين من الزمان، ويبدو أن المشكلة تحظى بالاهتمام العالمي أكثر بكثير من الاهتمام العربي، كما أنها تحظى باهتمام خاص لدى اسرائيل وتركيا. ويكفي أن نقول، حول أهمية هذا الأمر عالميا، إن هناك عددا من الجامعات والمراكز البحثية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا تعكف على دراسة المشكلة من جميع جوانبها[9].

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن الكلام، في إسرائيل من ناحية وتركيا من ناحية أخرى، عن أزمة المياه قليل، ولكن العمل على السيطرة على مصادرها والتحكم فيها كثير. وفي الوطن العربي بدأ بعض المتخصصين والخبراء متأخرين بالتنبه إلى خطر مشكلة المياه، والتأكيد على أنها قضية مصيرية للعالم العربي، يتوقف عليها وجودهم وحياتهم، وهي تركز

على خطر السيطرة الإسرائيلية والتركية على مصادر المياه. فمن دون المياه لا يحيا العرب، فهي في الواقع أهم من النفط، وإن لم تكن ذلك في الوقت الحالي فستكون كذلك في المستقبل المنظور، وأعداء الأمة العربية يعملون ليل نهار للسيطرة على مصادر المياه العربية ليقايضوهم الماء بالنفط، وإن نضب النفط سيصبح الماء مصدر قوة لمن في أيديهم مصادر هذه المياه للضغط عليهم، واستنزاف ما تبقى من قوتهم وإمكاناتهم، وهؤلاء الأعداء يعدون أنفسهم لهذه المرحلة.

توجد في منطقة الشرق الأوسط ثلاثة وديان كبيرة، يمكن أن يحدث في أي منها نزاع حول المياه، فمجرى النيل يقتسمه عدد من البلدان، ويعتبر وادي دجلة والفرات أقل استقرارا من ناحية العلاقات السياسية، وهو منطقة مقسمة أساسا بين تركيا وسوريا والعراق، وتمر تلك البلدان بتطورات متلاحقة حول المياه. والمجرى الثالث هو نهر الأردن، وهو أصغرها لكنه الأكثر تفجرا، وتقع على ضفافه ثلاث دول هي الأردن وسوريا وإسرائيل، وتعد مياه حوض نهر الأردن أكثر تعقيدا من أي مشكلة تتعلق بالمياه في المنطقة العربية؛ لأنها تتصل بحياة شعوب عدد من الدول في المنطقة، والمتضرر الأساسي من وضعه الحالي هم الفلسطينيون والأردنيون[١٠].

وقد استشعر بعض القادة والرؤساء في منطقة الشرق الأوسط أبعاد أزمة المياه وما يمكن أن تسببه من حروب ونزاعات وصراعات، فقد عبر الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات (١٩١٨م - ١٩٨١م) عن قلقه بخصوص هذه القضية، مؤكدا أن أزمة المياه وتداعياتها يمكن أن تدفع مصر إلى الدخول في حرب مع أثيوبيا، وذلك في ضوء محاولة أثيوبيا التعاون مع إسرائيل لبناء سدود منابع نهر النيل. كما ألمح الملك حسين بن طلال (١٩٣٥م - ١٩٩٩م) إلى الأمر ذاته في ضوء تحكم إسرائيل في مصادر مياه نهر الأردن[١١].

لكل ما سبق تشهد العلاقات بين دول المنطقة تحالفات وصراعات ونزاعات تتمحور في جوهرها حول المياه. فإذا عدنا إلى العديد من النزاعات والحروب الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط فسنجد أن جانبا أساسيا من أسباب اندلاعها هو النزاع على المياه بين العرب وإسرائيل، وبين العرب وتركيا، وبين العرب وإيران. ولم تخل أزمة أو حرب في المنطقة من دخول المياه كأحد عناصر النزاع أو الضغط فيها[١٢]. ويمكن أن نلمس ذلك بشكل جلي واضح في صراع إيران مع العراق الذي بدأ حول شط العرب، وفي موقف تركيا في التحالف مع إسرائيل، ذلك التحالف الذي يستهدف إضعاف موقف العرب، وخاصة سوريا والعراق، لتتمكن من مياه الفرات، واحتلال إسرائيل للأراضي العربية عام ١٩٦٧م الذي كان يستهدف - إلى جانب تحقيق السيطرة العسكرية - السيطرة على مصادر المياه في هذه الأراضي العربية، وهي نهر اليرموك ونهر الأردن ونهر النيل والمياه الجوفية في الضفة الغربية لنهر الأردن.

فقد بات واضحا الآن أكثر من أي وقت مضى أن المياه هي الحلقة الأهم والأخطر في العلاقات المتوترة بين سوريا وتركيا، ولهذا التوتر في علاقات البلدين تداعيات وانعكاسات على منطقة الشرق الأوسط، من جهة، وانعكاسات وتداعيات ذات بعد دولي، من جهة ثانية. وتتزايد حدة التوتر في علاقات البلدين في ضوء سعي تركيا إلى تعزيز نفوذها الإقليمي بواسطة تحويل المياه من أداة للتنمية والتطوير إلى أداة للابتزاز في بعض الأحيان، بحيث باتت توظف مياه نهر الفرات توظيفا سياسيا للضغط في قضايا الأمن والتسوية المطروحة على جدول أعمال البلدين بشكل خاص، ومنطقة الشرق الأوسط بشكل عام.

وفي ضوء ذلك وغيره انتشرت مقولة مفادها «من يسيطر على المياه يسيطر على الشرق الأوسط، ومن يسيطر على الشرق الأوسط يسيطر على إمدادات النفط في العالم»[٥٣].

وعلى خلفية ما سبق ستركز الدراسة على محورين أساسيين: المحور الأول يعالج أزمة المياه في إسرائيل، وأطماع إسرائيل في المياه العربية بشكل عام حربا وسلما، أما المحور الثاني فيتناول الأطماع الإسرائيلية في المياه الفلسطينية بشكل خاص، والكيفية التي تسرق بها هذه المياه وتمنعها عن أصحابها وأثر ذلك عليهم، من خلال بيانات وإحصائيات وردت في أحد تقارير منظمة «بتسيليم» لحقوق الإنسان في هذا الشأن.

المحور الأول: أزمة المياه في إسرائيل وأطماعها في المياه العربية حربا وسلما

تعاني إسرائيل أزمة مياه حادة، وتتفاقم حدة هذه الأزمة في ضوء الحقيقة التي تقضي بأن إسرائيل تعتمد على المياه ذات المصدر الخارجي، حيث يقع حوالى ٣٢٪ من إجمالي تدفق المياه السطحية لديها خارج حدودها. ويمكن القول بشكل عام أن ٦٧٪ من المياه التي تستهلكها إسرائيل تأتي من خارج حدودها، التي أعلنت بمقتضاها كدولة عام ١٩٤٨م، وهي على النحو التالي: ٣٥٪ من الضفة الغربية لنهر الأردن، و٢٢٪ من سفوح هضبة الجولان السورية، و١٠٪ من قطاع غزة[٥٤]. وستصل مشكلة المياه في إسرائيل إلى ذروتها مع نهاية العقد الثاني من القرن الحالي في إطار ما يفيد أن الطلب على المياه فيها سيزيد عن ألفين وستمائة مليون متر مكعب بحلول عام ٢٠٢٠م، بسبب الزيادة السكانية وتنامي المشروعات الزراعية التي تعتمد بكثافة على المياه من ناحية، وبسبب المعدل الحالي للهجرة اليهودية إلى إسرائيل من ناحية أخرى[٥٥].

البدائل الإسرائيلية للتغلب على مشكلة المياه

ويمكن لندرة المياه في إسرائيل والاستهلاك المتزايد منها في الاستخدامات المنزلية والمجالات الزراعية والصناعية أن يتسببا في العديد من المشكلات العامة، إلى جانب العديد من المشكلات الخاصة بالزراعة ومنها:

- الحد من التنمية الزراعية التي تعني الحاجة إلى مزيد من المياه لاستصلاح أراض صحراوية جديدة.

- إن غياب وسائل تخزين مياه كافية لأعوام عدة يؤدي إلى الاعتماد على مياه الأمطار كمصدر للتزود بالمياه، ومن شأن عام قحط واحد أن يهدد كميات المياه المخصصة للزراعة وغيرها[١٦].

- الحد من استمرار تدفق الهجرة اليهودية الحالية الوافدة إلى إسرائيل، وعدم قدرتها على استيعابها، الأمر الذي يعني إقامة مشروعات زراعيـــة ضخمـــة، ومشروعات توليد الطاقة الكهربائية[١٧].

لجأت إسرائيل إلى عدة بدائل للتغلب على مشكلة المياه. بعضها بدائل عامة قصيرة المدى وبعضها بدائل إستراتيجية بعيدة المدى، ولقد بذلت إسرائيل - ولا تزال - محاولتها في تجربة كل البدائل التي من شأنها التغلب على أزمة المياه، وتوفير المياه الكافية لاستخداماتها في الأغراض المنزلية والتنمية الصناعية والزراعية.

أولا: البدائل العامة قصيرة المدى

يقصد بهذه البدائل تلك التي تحاول حل مشكلة المياه في إسرائيل من داخلها، من دون الحاجة الملحة إلى سرقة مياه الدول العربية المجاورة. ومن هذه البدائل:

- ترشيد الاستهلاك في كافة المجالات الزراعية والصناعية، مع ضرورة الاقتصاد في الاستخدامات المنزلية.

- معالجة مياه الصرف الصحي لتصبح صالحة للزراعة، وتوجيه المياه النقية للشرب. ومن أهم مشروعات تحويل مياه المجاري بعد معالجتها إلى الزراعة في إسرائيل المشروع الذي يعرف باسم «شكدان» الذي تنفذه رابطة «جوش دان»، وهو يعتبر من المشروعات التي تعتمد على تقنية متقدمة. فمياه الصرف الصحي التي تنقل منه إلى منطقة النقب توفر حاليا تسعين مليون متر مكعب سنويا من المياه المعالجة لمزارعي الجنوب[١٨].

- تحلية مياه البحر.

- إسقاط المطر الصناعي artificial Rainfall (الاستمطار): تبدي إسرائيل اهتماما متزايدا بهذا البديل، فتجري عليه الكثير من التجارب، ويدل على ذلك طول الفترة التي استغرقتها هذه التجارب، فقد بدأت بها منذ عام ١٩٨٥ م وهي مستمرة فيها حتى الآن.

- تنمية الموارد المائية من خلال مشاريع السدود وتقليل المفقود.

لم تؤد هذه البدائل إلى التغلب على مشكلة المياه في إسرائيل، فترشيد الاستهلاك بات لا يجدي مع تدفق الهجرة اليهودية إلى إسرائيل والزيادة السكانية، والمشروعات الصناعية والزراعية المتنامية، التي تريد إسرائيل أن يكون لها فيها اليد الطولى على

مستوى منطقة الشرق الأوسط. أما معالجة مياه الصرف الصحي وتحويلها للاستخدامات الزراعية فمن شأنها أن تخلق مشكلة خاصة في نوعية المياه المستخدمة ومدى صلاحيتها لأنواع معينة من الزراعات، وليس كل الزراعات[١٩]. أما تحلية مياه البحر فعملية باهظة التكاليف وتستمر فترات زمنية طويلة، ويقدر علماء الهيدروليكا - على سبيل المثال لا الحصر - تكاليف برنامج كبير لتوفير الاحتياجات الإسرائيلية من المياه، يُنفَّذ على عدة عقود زمنية، بنحو ستين بليون دولار[٢٠]. كما أنه ليس في مقدور إسرائيل العمل على تنمية الموارد المائية من خلال مشاريع السدود، وتقليل المفقود، من دون التعامل مع دول الجوار، ومن دون سلام حقيقي عادل، تتفاعل في إطاره المصالح المشتركة وتتشابك المنافع وتتبادل، أضف إلى ذلك أن المشروعات المائية التي من هذا النوع تحتاج إلى استثمارات ضخمة وإمكانات تكنولوجية عالية[٢١].

وفي ضوء فشل محاولات إسرائيل في البحث عن مصادر غير تقليدية للتغلب على مشكلة المياه، لم تجد أمامها سوى اللجوء إلى ما يمكن أن نسميه «البدائل الإستراتيجية بعيدة المدى»، وتعني الطمع ثم السيطرة على المياه العربية المجاورة، أي مياه جنوب لبنان ومياه الجولان ومياه مصر [٢٢]، سواء بالحرب أو بالسلام. وإن كان هذا لا يعني أنها استغنت بذلك عن البدائل العامة التقليدية قصيرة المدى.

ثانيا: البدائل الإستراتيجية بعيدة المدى

١ - الحرب:

كانت المياه - بغض النظر عن نوعها أو استخدامها - حلقة أساسية من حلقات منظومة الحروب التي خاضتها إسرائيل ضد الدول العربية المتاخمة لفلسطين، بدءا من حرب عام ١٩٦٧م وحتى حرب لبنان عام ١٩٨٢م، وقد استهدفت هذه الحروب الاستيلاء على المزيد من الأنهار المتدفقة من أراضي هذه الدول. أضف إلى هذا أن «أمن إسرائيل الاقتصادي بات يتحدد من خلال مدى السيطرة على مصادر المياه العربية»[٢٣].

ولا ينكر المحللون والمسؤولون الإسرائيليون ارتباط حروبهم بالمياه، سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر، معتمدين في ذلك على تشويه الحقائق وتغيير الوقائع وتزييف التاريخ، فيربطون - على سبيل المثال لا الحصر - اندلاع حرب عام ١٩٦٧م بقيام مصر بإغلاق خليج العقبة في تيران، كما كان انتشار القوات الإسرائيلية على طول قناة السويس - في رأيهم - السبب في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م [٢٤].

حققت حرب عام ١٩٦٧م لإسرائيل السيطرة على قطاع غزة والضفة الغربية لنهر الأردن، فباتت تستغل نحو ٩٥٪ من المياه الجوفية للضفة الغربية من خلال استغلالها لحوالي ثلاثمائة بئر ارتوازية، كما أصبحت تسيطر على حوض نهر الأردن في جزئه السفلي[٢٥].

لقد كانت الضفة الغربية لنهر الأردن حلم إسرائيل؛ لأنها ستوفر لها المياه الجوفية التي تضمها بين جنباتها. فبدأت بعد ضمها في إصدار قرارات خاصة بالمياه، تهدف إلى تكريس السيطرة والنهب المنظم للمياه فيها. فحددت الكميات التي يحق للفلسطينيين الحصول عليها بحوالى مائة وعشرين مليون متر مكعب، في الوقت الذي تصل حاجتهم الحقيقية إلى أربعمائة مليون متر مكعب، كما تحظر على الفلسطينيين حفر آبار بعمق يزيد على مائة وأربعين مترا، في حين أنها تقوم بحفر آبار بعمق ثمانمائة متر. كما جعلت سلطة إصدار تراخيص استخراج المياه الجوفية في يد الحاكم العسكري[٣٦]. أضف إلى هذا أن المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية لنهر الأردن تستهلك سبعة عشر مليون متر مكعب من المياه الفلسطينية في الأساس، كما تقوم إسرائيل بضخ حوالى عشرين مليون متر مكعب سنويا من مياه الضفة الغربية إلى داخل إسرائيل[٣٧].

وفي ضوء ما كانت تشعر به إسرائيل من وقتية احتلالها للضفة الغربية، لنهر الأردن وقطاع غزة، فقد أفرطت في سحب مياههما الجوفية من الطبقات الصخرية، الأمر الذي ترتب عليه تدهور نوعية هذه المياه، بعدما تسربت المياه المالحة من البحر، فجعلت من مياه الخزان الجوفي في غزة غير مناسبة للاستخدام البشري[٣٨].

واستهدف احتلال إسرائيل لبعض الأراضي الأردنية في حرب ١٩٦٧م إحكام السيطرة على مياه نهر الأردن، وأصبح موضوع الصراع من أجل السيطرة على حوض نهر الأردن واحدا من أكثر الموضوعات التي ناقشتها الكتابات التي تناولت أزمة المياه في الشرق الأوسط.

وعندما احتلت إسرائيل مرتفعات الجولان عام ١٩٦٧م كان هدفها السيطرة على منابع نهر الأردن، ومساحة أكبر من نهر اليرموك، وحينما أعلنت ضمها إلى أراضيها رسميا كان هدفها حماية مصادر المياه ومحطات الضخ، وحماية شبكات المياه الإسرائيلية من الجانب السوري، كما كانت تسعى جاهدة إلى عرقلة أي محاولة تستهدف الاستغلال المشترك لنهر اليرموك بين سوريا ولبنان، وتقحم نفسها في هذا الاستهلاك[٣٩].

ويمكن القول إجمالا إن ٦٠٪ من المياه الجوفية التي تستخدمها إسرائيل تسحبها من الضفة الغربية لنهر الأردن، كما أنها تسيطر على منابع نهر الأردن وتستخدم مياهه، ونظرا إلى الاستنزاف الكبير للمياه العربية من جانب إسرائيل فإن الخطر بات يهدد المياه الجوفية. فقد أصبحت الخزانات الجوفية في الجليل ومرتفعات الجولان خاوية في أغلبها، ومنسوب المياه في بحيرة طبرية قد انخفض إلى أدنى مستوى له في عام ١٩٩٠م، حيث وصل إلى مائتين وثلاثة عشر مترا تحت سطح البحر، مما اضطرها إلى وقف الضخ منها لمدة شهر، علما بأن البحيرة هي التي تمد إسرائيل بالاستخدامات الأساسية من المياه[٤٠].

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

وعلى الرغم من أن لبنان لم يخض أيا من الحروب العربية الإسرائيلية، إلا أن إسرائيل ادعت دائما أن أكثر من نصف مليار متر مكعب من مياه نهر الليطاني تضيع في البحر، ولا تستفيد منها شعوب المنطقة. فأقامت إستراتيجيتها حيال الجنوب على أساس جعل نهر الليطاني يمثل حدودها الشمالية. من هنا كان غزوها للبنان عام ١٩٨٢م [٣١]. فباتت تسيطر على قسم من نهر الليطاني في جنوب لبنان، وتسحب جزءا من مياهه إلى داخل إسرائيل [٣٢]. وقد بدأت إسرائيل محاولاتها في هذا الاتجاه قبل ذلك، حينما أقامت علاقات متميزة مع ميليشيات سعد حداد في الجنوب اللبناني عام ١٩٧٩م من أجل استخدام نهري الحاصباني والوزاني اللذين يصبان في نهر الحاصباني[٣٣].

٢ - السلام:

أدركت إسرائيل أن الحرب والسيطرة والاحتلال تتكلف الكثير من الأرواح والمال والعتاد، ولا يمكن أن تضمن لها - مع هذه التكاليف الباهظة - تدفق المياه على أراضيها باستمرار. فلجأت إلى السلام كبديل آخر لتحقق ما تريد. فهي تريد المياه إما بالحرب وإما بالسلام. فإذا كان النصر العسكري عجز عن تحقيق النصر الحاسم الذي يضمن لها الانتصار المحقق، وبالتالي السيطرة المطلقة، فإن النصر العسكري عجز أيضا عن تحقيق الأمن المائي، الأمر الذي يعني عدم ضمان تدفق المياه بشكل دائم.

وحول هذا يقول أفراهام تامير رئيس شعبة التخطيط في الجيش الإسرائيلي ومدير عام مكتب رئيس الوزراء: «تمثل المياه معضلة السلام والحرب .. ومن الممكن أن تختار إسرائيل سياسة السيطرة على مصادر المياه بما يعني الحرب، أو أن تختار سياسة توزيع المياه بين دول المنطقة وهو ما يعني السلام». ولا تعني هذه المقولة سوى أن إسرائيل تضع منطقة الشرق الأوسط أمام خيار واحد، وهو توزيع المياه بين دول المنطقة بما فيها إسرائيل، التي تسعى إلى تحقيق ذلك بشتى الوسائل، حتى لو استدعى الأمر شن حرب على دول المنطقة. وإذا سعت إلى السلام لتحقيق ما تريد فهو «سلام قهري» لأنه يتفق والشروط الإسرائيلية، ورفض المطامع الإسرائيلية في المياه العربية يعني «الحرب الحتمية» [٣٤]. فإسرائيل تحرص في مفاوضات التسوية السلمية في الوقت الحالي على حدودها المائية التي تراها لا تختلف عن أمنها المائي، الأمر الذي بات يوجه مواقفها واعتباراتها في هذه المفاوضات.

ولكن دخول إسرائيل في مفاوضات العملية السلمية مشروط بتحقيق ضمانات عدة وضعتها هي لنفسها في مجال المياه، وتعتبرها بمنزلة خط أحمر يجب عدم التنازل عنه، ومنها:

أ - الإشراف على المنطقة الواقعة غرب خط قسمة المياه في الضفة الغربية، وإشرافها كذلك على مصادر المياه في غزة وجنوب لبنان ومرتفعات الجولان.

ب - إن ما اغتُصب من المياه العربية أصبح حقا مكتسبا وملكا لها، لا يمكن المساس به أو إخضاعه للتفاوض والمساومة.

جـ - التأكيد على أن سعي العرب لاستعادة حقوقهم المالية من إسرائيل أو لمنع مياههم عنها رهان خاسر، إذ لا بد من وضع مشاريع مائية جماعية تتم في إطار السلام[٣٥].

د - السلام مقابل المياه: إذا كان العرب قد أقروا ووافقوا على قاعدة «السلام مقابل الأرض» ليتم على أساسها التفاوض بين أطراف العملية السلمية، فإن المخططين لاقتصاديات المياه في إسرائيل وضعوا قاعدة مضادة تحقق لهم ما يريدون في مجال المياه يمكن أن نسميها «السلام مقابل المياه»[٣٦]. بل وصل الأمر بالبعض إلى أن أكد على أن القضايا الأمنية التي تتحدث عنها إسرائيل باتت تعني في الوقت الحالي ثبات توفر إمدادات كافية من المياه[٣٧].

لم يكن غريبا إذن أن يقدم مؤتمر مدريد للسلام الذي عقد في يوم ٣٠ - ١٠ - ١٩٩١م على تخصيص لجنة لدراسة ملف المياه، في إطار المفاوضات متعددة الأطراف بالشرق الأوسط. وتشترك في هذه اللجنة نحو سبع وأربعين دولة ومنظمة دولية. وقد اجتمعت هذه اللجنة منذ بداية المفاوضات أكثر من ثماني مرات. ويلاحظ المتابع لمسار المفاوضات متعددة الأطراف الخاصة بالمياه أن اهتمام إسرائيل بهذه اللجنة يفوق اهتمامها بأي لجنة منبثقة من مؤتمر مدريد[٣٨].

وإذا نظرنا إلى اتفاقيات السلام التي وقعتها إسرائيل مع الدول العربية نجد أنها حتى الآن قد حققت معظم ما أرادت إسرائيل في موضوع المياه، ما عدا اتفاق السلام الذي وقع مع مصر.

وما زالت إسرائيل تسعى إلى طرح موضوع المياه مع مصر من خلال فعاليات لجنة المياه المنبثقة من مؤتمر مدريد، بعدما فشلت في ذلك في إطار اتفاقية السلام معها. فقد تقدمت بورقة أولية ضمن جدول أعمال لجنة المياه متعددة الأطراف تقترح فيها حصولها على نصف في المائة من مياه النيل، استنادا إلى أن هذه النسبة لن تؤثر على نصيب أي من دول حوض نهر النيل، وعرضت ضمن هذه الورقة التعاون مع مصر وبقية دول حوض نهر النيل لزيادة إيرادات النهر، إلا أن مصر رفضت بإصرار إدراج مياه النيل في أعمال لجنة المياه المنبثقة عن المفاوضات متعددة الأطراف[٣٩].

ولقد كانت مياه نهر النيل مطمعا دائما لإسرائيل، يسيل لها لعابها دائما، سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر. فقد جاء في بيان لجنة الاقتصاد في الكنيست أنه «يجب على غزة أن تحل مشكلة نقص المياه فيها من نهر النيل، وليس من إسرائيل». وقد اعتبر المراقبون المسؤولون في مصر أن هذا البيان أقرب إلى بيان إعلان حرب[٤٠]. ومن أقدم المشروعات الإسرائيلية الخاصة بنقل مياه نهر النيل إلى إسرائيل المشروع الذي وضعه المهندس الإسرائيلي «اليشع كالي» عام ١٩٧٤م، ويهدف إلى نقل حوالى ١٪ من مياه نهر النيل إلى إسرائيل، أي ما يساوي أكثر من مائة مليون متر مكعب من المياه.

وتحقق لإسرائيل ما أرادت في موضوع المياه في اتفاقيات أوسلو التي وقعتها مع الجانب الفلسطيني. فاتفاق أوسلو لا يخول الفلسطينيين سلطة أو صلاحية في مجال المياه، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الأزمة بين الجانبين في الآونة الأخيرة[٤١]. فقد حددت إسرائيل مجموعة من المعايير الخاصة بالحفاظ على المياه كشرط للتوقيع على اتفاق سلام مع الفلسطينيين. وحول هذا يقول أحد خبراء المياه الإسرائيليين: «إن المياه في الأراضي الفلسطينية المحتلة باتت جزءا لا يتجزأ من إسرائيل؛ لأنها تحصل على نحو ٤٠٪ من حاجتها من مياه الضفة الغربية، وأنها لن تتخلى بسهولة عن هذه الأراضي من دون الحصول على ضمانات تؤمن لها الحصول على موارد مشابهة في المنطقة[٤٢].

كما تحقق لإسرائيل جل ما أرادت فيما يتعلق بموضوع المياه في اتفاق السلام الذي وقع مع الجانب الأردني في شهر أكتوبر من عام ١٩٩٤م، فقد باتت حقوق الملكية لإسرائيل في منطقة الباقورة - نهاريم الخاضعة للسيطرة الأردنية. أضف إلى هذا أنه لم تتحدد في الاتفاق كمية المياه المحلاة التي يستطيع الأردنيون الحصول عليها من الينابيع المالحة المحولة إلى نهر الأردن، وهذا يعني أن الدور المسيطر على مصادر المياه على طول الحدود المشتركة بين البلدين - ومنها نهر الأردن ونهر اليرموك وسيول وادي عربة - بات لإسرائيل[٤٣].

وما زالت المياه حتى الآن - وبعد التوقيع على اتفاقية سلام مع الجانبين الفلسطيني والأردني - تمثل متغيرا في علاقة إسرائيل بكل من سلطة الحكم الذاتي الفلسطينية والأردن[٤٤]. فقد جاء في تصريح وزير الزراعة في حكومة حزب العمل يعقوب تسور ما نصه: «بعدما تسلم الفلسطينيون بعض المناطق في الضفة الغربية عملوا على سحب المياه الجوفية، وإذا استمر الفلسطينيون في القيام بذلك فإنهم سيأخذون مياهنا»[٤٥]. ويؤكد هذا المسؤول الإسرائيلي نفسه على ضرورة أن تحتفظ إسرائيل بالإشراف على المياه في المناطق التي يتسحب الجيش الإسرائيلي منها، لكي تضمن في الأساس ألا يحصل الفلسطينيون على المياه الجوفية من دون موافقة. فتطالب إسرائيل في هذا السياق بالحق في مراقبة نوعية المياه والتخلص من الصرف الصحي في مناطق الحكم الذاتي[٤٦]. كما كان فشل إسرائيل في احترام توزيع المياه مع الأردنيين مصدرا للتوتر في علاقات البلدين[٤٧].

وفي ضوء ما تحقق لإسرائيل من امتيازات، وما قدمه الفلسطينيون والأردنيون من تنازلات في موضوع المياه، ضمن اتفاقيات السلام الموقعة بين الجانب الإسرائيلي من ناحية والجانبين الفلسطيني والأردني من ناحية أخرى، يحذر خبراء المياه العرب من خطورة القرار العربي المنفرد في مجال اقتسام المياه، فيجب أن يتم هذا في إطار جماعي يضمن للدول العربية حصصا أكبر تتفق وحقوقها التاريخية ومكانتها في المنطقة، وتتناسب وتعداد سكانها ومشروعاتها التنموية المستقبلية الطموحة.

والمياه هي العنصر الأهم الذي يعوق التوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل وسوريا. فالذرائع الأمنية، التي تتمسك بها إسرائيل لتأخير انسحابها من الجولان، أصبحت واهية بعد تقلص دور العوامل الطبيعية والجغرافية في الحروب الحديثة.

ولكن تردد إسرائيل في الخروج من الجولان يعود إلى خوفها من خسارة المياه الجوفية والسطحية التي تستأثر بها منذ عام ١٩٦٧م، بالإضافة إلى أمطار الجولان الغزيرة التي تتحول إلى خزان هائل للمياه الجوفية، حتى لتوصف بأنها هضبة عائمة على خزانات من المياه[٤٨]. ويجري الآن في إسرائيل البحث عن معادلة أو صيغة تضمن بقاء مصادر مياه الجولان في حوزتها وتكفل تجريد الجولان من السلاح والحفاظ على وجود المستعمرات الإسرائيلية فيها[٤٩]. ويتأكد هذا الأمر في تصريح إسحاق رابين (١٩٢١م- ١٩٩٥م) رئيس وزراء إسرائيل الأسبق الذي جاء فيه «إن إمداد الدولة بلا انقطاع من مصادر المياه في الجولان أكثر أهمية من السلام»[٥٠]. ويبرز هذا التصريح أن الإمدادات المستمرة من المياه شيء ضروري، بل مصيري فيما يتعلق بأي تسوية مستقبلية مع سوريا.

وتروج إسرائيل، بالنسبة إلى لبنان، نظرية الارتباط الجوفي بين نهر الليطاني ونهر الأردن لإجبار الدولة اللبنانية على التوقيع على اتفاق يقر لها بحصة من المياه في نهر الليطاني[٥١].

ولقد أقامت إسرائيل على خلفية قضية المياه وتداعياتها علاقات متميزة، وتتسم بالخصوصية مع تركيا على المستوى الإقليمي، وباتت هذه العلاقات تشهد تطورا متناميا كبيرا في مختلف المجالات بشكل عام، ومجال المياه بشكل خاص. ويمكن لهذا التعاون الاقليمي الإسرائيلي التركي في مجال المياه أن يحقق بعض المصالح لإسرائيل مستقبلا، منها تمويل إمدادات إسرائيل بالمياه بأموال النفط العربي، كما هي الحال في مشروع أنابيب السلام الذي ينقل المياه التركية إلى دول الخليج[٥٢].

تعتقد إسرائيل أن زمن الحروب التقليدية بينها وبين الدول العربية قد ولى، وأن أمامها فرصة ذهبية لزيادة الإنتاج والتصدير وغزو الأسواق العربية. إلا أن زيادة الإنتاج مرتبطة بتوافر المصادر المائية، التي تعني في الوقت نفسه إعادة توزيعها، الأمر الذي تضمنه عدة مشروعات تطرحها إسرائيل على دول منطقة الشرق الأوسط في إطار التعاون واستتباب السلام في المنطقة. ومن هذا المنطلق طرحت إسرائيل عددا من الحلول لمواجهة نقص المياه في منطقة الشرق الأوسط. فقدمت مشروعات ومخططات مائية بعضها جديد، وبعضها قديم بصيغة جديدة. ومن هذه المشروعات:

١ - **قناة البحرين**: يعد هذا المشروع من المشروعات القديمة التي قدمت بصيغة جديدة. ويقوم هذا المشروع على حفر قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت، واستغلال ضغط المياه المتساقطة بفعل الفارق في الارتفاع أو المستوى بين البحرين لتوليد الطاقة وإقامة مشاريع لتحلية مياه البحر.

٢ - **مشروع القناة المائية العازلة في الجولان:** يرمي هذا المشروع إلى إنشاء قناة تسمى «قناة السلام»، وتشكل حاجزا عسكريا يصعب التغلب عليه في المناطق التي ينسحب منها الإسرائيليون في الجولان، ويقوم هذا المشروع على تحويل ١.١ مليار متر مكعب من المياه سنويا من سد أتاتورك ومياه نهري سيحان وجيحان في تركيا، وتوزيعها بالتساوي بين سوريا والأردن، وسوريا وفلسطين.

ويحقق هذا المشروع لإسرائيل أهدافا عدة منها:

أ - الحصول على أكبر كمية ممكنة من المياه المتوفرة في الجولان.

ب - شل قدرة سوريا على استخدام هذه المرتفعات كمنطلق للعمليات العسكرية ضدها.

جـ - يقدم لإسرائيل حصة من مياه الجولان المنحدرة في اتجاه الأراضي الفلسطينية المحتلة، إلى جانب حصة من المياه الوافدة من تركيا والمخزنة في القناة.

د - يقيم حاجزا مائيا يمنع الاختراق، ويمنح إسرائيل حق البقاء في قسم من الجولان، وهو ينشئ رابطة من المصالح المتداخلة والمتشابكة بين إسرائيل وجيرانها، يصعب في المستقبل الاستغناء عنها.

٣ - **مشروع نقل** فائض المياه التركية: بواسطة أكياس مائية عائمة أو ناقلات مائية، تنطلق من أحد الموانئ التركية إلى البحر الأبيض المتوسط، وتتجه نحو السواحل الإسرائيلية.

٤ - **مشروع الأبراج الحرارية لتحلية مياه البحر في دول الخليج:** الأبراج الحرارية منشآت شاهقة قادرة على إنتاج رياح صناعية متواصلة بالاعتماد على اختلاف مستويات الضغط والتأثيرات في الطبقات الجوية، والشرط الوحيد لإقامة هذه الأبراج هو وجودها في موقع محاذ للبحر يتميز بمناخ شديد الحرارة والجفاف.

والحقيقة هي أن هذه المشروعات وغيرها لم تستهدف مجرد اقتسام مصادر المياه المشتركة بين إسرائيل والدول المجاورة، وإنما الاستيلاء على كل المياه المتوفرة، والسعي لدى الغير أو بأموال الغير لتأمين مصادر مائية يستفيد العرب منها بقدر محدود جدا، لكنها تتحكم فيها وتسيرها حسب مصالحها.

المحور الثاني: الأطماع الإسرائيلية في المياه الفلسطينية

يشترك الفلسطينيون وإسرائيل في مصدرين من مصادر المياه الأساسية، أول هذين المصدرين هو خزان المياه الجوفي في الجبل، وهو حوض يمتد لمسافة تقدر بمائة وثلاثين كيلومترا. و يتغذى هذا الخزان من مياه الأمطار التي تهطل على جبال الضفة الغربية وتتسرب داخله. وبعد ذلك تتدفق شرقا وغربا إلى مناطق تجمعها، ومن هناك تسحب من خلال الآبار. ويغطي مصدر

المياه هذا ما يقرب من ثلث استهلاك إسرائيل من المياه، كما يشكل مصدرا للمياه التي يحصل عليها الفلسطينيون في الضفة الغربية.

ومصدر المياه الثاني هو حوض الأردن الذي يضم نهر اليرموك بكل فروعه، وبحيرة طبرية، ونهر الأردن، وعلى الرغم من أنه من الناحية الجغرافية يشترك بينهما فقط نهر الأردن، فإن المياه التي تسحبها إسرائيل من بحيرة طبرية تؤثر بشكل مباشر في كمية المياه التي تصل إلى الأردن. ويغطي هذان المصدران (حوض الأردن وخزان المياه الجوفية) أكثر من ثلثي كمية المياه المستهلكة في إسرائيل.

ومن الخطوات الأولى التي اتخذتها إسرائيل، عقب احتلالها للأراضي الفلسطينية عام ١٩٦٧م، الإعلان عن أن كل موارد المياه في الأراضي الفلسطينية المحتلة بمنزلة ملكية عامة، بموجب الأمر العسكري رقم اثنين وتسعين الصادر عام ١٩٦٧م. ترتب على اتخاذ هذه الخطوة، وخطوات أخرى اتخذتها إسرائيل في هذا الاتجاه، أن وضعت قيود تحد من قدرة الفلسطينيين على استغلال موارد المياه التي بحوزتهم بشكل يغطي استهلاكهم الأساسي، ويتناسب مع معدل الزيادة الطبيعية في السكان.

ولقد أدى هذا، إلى جانب الإهمال الخطير من جانب إسرائيل في صيانة وإصلاح مرفق المياه في الأراضي الفلسطينية المحتلة، إلى خلق مشكلة مياه خطيرة. كما تميز إسرائيل بشكل سافر بين الفلسطينيين وبين مواطنيها في استهلاك المياه كما وكيفا. ويكفي أن نقول إنه بعد ما يزيد على ثلاثين عاما من الاحتلال فإن ما يقرب من مائة وثمانين قرية في الضفة الغربية تعيش بلا شبكة مياه، ومن الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل في هذا الشأن:

أ - حظر حفر الآبار:

من التداعيات، التي ترتبت على الإعلان أن كل موارد المياه ملكية عامة، تطبيق إجراء يقضي بضرورة الحصول على تصريح من سلطات الاحتلال من أجل حفر بئر جديدة. وقد استغلت إسرائيل هذا الإجراء للحد من زيادة كميات المياه التي يسحبها الفلسطينيون من خزان المياه الجوفية.

ب - تحديد حصص المياه:

طبقا لما يقضي به القانون الأردني، فإن ملكية الموارد المائية تحت الأرض تتبع ملكية الأرض التي فيها هذه الموارد. ومن هنا لم توضع قبل عام ١٩٦٧م أي قيود على كميات المياه التي تضخ من الآبار، ولكن في عام ١٩٧٥م حددت إسرائيل حصصا تقيد المياه التي تضخ من الآبار، وطبقتها من خلال قيود معينة وعقوبات مشددة فرضت على من يتجاوز هذه الحصص. ومنذ عام ١٩٧٥م عدّلت هذه الحصص مرات عدة، وكانت الزيادة التي أضيفت خلالها محدودة جدا لا تتفق ومعدل الزيادة السكانية.

جـ - المصادرة:

يقضي الأمر العسكري رقم ثمانية وخمسين الصادر عام ١٩٦٧م، والخاص بالممتلكات المهجورة، بأن الممتلكات التي غادر أصحابها المكان تنتقل إلى الجهة المسؤولة عن إدارة الممتلكات المهجورة. طبق هذا الأمر العسكري على الممتلكات التي لم تحدد هوية مالكها، ويلقى عبء إثبات تبعية وملكية هذه الممتلكات على عاتق أصحابها وليس على عاتق السلطات، فبعد فترة وجيزة من دخولها إلى الأراضي الفلسطينية صادرت إسرائيل عددا كبيرا من الآبار التي يمتلكها فلسطينيون واستخدمت لأغراض الري، من خلال الإعلان عنها بأنها «ممتلكات غائبين» (٥٣).

د - حظر الاقتراب من مصادر المياه:

حظرت إسرائيل على الفلسطينيين الاقتراب من مصادر المياه الموجودة على سطح الأرض، فقد أعلنت منطقة مهمة على امتداد نهر الأردن، استخدمها المزارعون الفلسطينيون للري، أنها منطقة عسكرية مغلقة. كما أعلنت خمس مجموعات من ينابيع المياه أنها «محميات طبيعية»، وأصبح الدخول إليها يتطلب دفع رسوم أو الحصول على إذن مسبق.

هـ - عدم صيانة منشآت المياه وإهمالها:

بدأت شركة «مكوروت» (٥٤) عقب حرب عام ١٩٦٧م بناء شبكة مياه واسعة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، استهدف إنشاء هذه الشبكة تلبية متطلبات الجيش والمستوطنين الإسرائيليين الذين استوطنوا في الأراضي الفلسطينية المحتلة بعد ذلك. والحقيقة هي أن عدم إصلاح شبكات المياه البلدية يعد جزءا من الإهمال العام الذي يسود البنى التحتية في الأراضي الفلسطينية المحتلة من جانب إسرائيل. وطبقا لما ورد في أحد الأبحاث التي أجراها البنك الدولي (٥٥)، فإن الاستثمارات في البنى الاقتصادية والاجتماعية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، كجزء من إجمالي الناتج القومي خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي، كانت منخفضة جدا (٥٦).

التفرقة بين الإسرائيليين والفلسطينيين في استهلاك المياه

ويظهر النقص الشديد في المياه، الذي يعانيه السكان الفلسطينيون، بشكل واضح في الفجوات الكبيرة في استهلاك المياه بين الفلسطينيين والإسرائيليين بشكل عام، والمستوطنين بشكل خاص. ويجب أن نؤكد في هذا السياق على أن ثلثي المياه المستهلكة في إسرائيل يضخان من المصادر المشتركة بين إسرائيل والفلسطينيين في الضفة الغربية. ويكشف الجدول التالي التفرقة في استهلاك المياه السنوي للفرد بالمتر المكعب بين الإسرائيليين والفلسطينيين خلال عام ١٩٩٦م:

	الفلسطينيون	لإسرائيليون
الزراعة	٥٦,٥	٢٢٨
الاستخدام المنزلي	٣٦,٥	١٠٥
الصناعة	١,٦	٢٤
استهلاكات أخرى	٨٤,٦	٣٥٧

المصدر بالنسبة إلى اسرائيل: المكتب المركزي للإحصاء، الكتاب الإحصائي السنوي لإسرائيل، ٤٧، ١٩٩٧م. (بالعبرية)

المصدر بالنسبة إلى الفلسطينيين في الضفة الغربية:

T.Nasserddin, Legel and Administrative Responsibility of Domestic Water Supply to the Palestinians, in Feitelson and Haddad (eds), Joint Management of Shared Aquifers - The Fourht Work shop (Jerusalem: The Truman Institute, The Hebrew University, Jerusalem,and the Palestine Consultancy Group, 1997) (hereafter: Legel and Administrative Responsiblity, p. 123.

ويظهر الجدول التالي توزيع المياه بين إسرائيل والفلسطينيين في الضفة الغربية ومدى استفادة كل منهما في الزراعة:

	الفلسطينيون (في الضفة)	إسرائيل
مياه للري واستخدام الأفراد بالمتر المكعب سنويا	٥٦,٥	٢٢٨
الأراضي المروية من الأراضي المستصلحة	٦٪	٥٤,٦٪
دور الزراعة في الاقتصاد (النسبة من الناتج المحلي العام)	٣٠٪	٢,٢٪
دور الزراعة في التصدير	٢٥٪	٣,٩٪
عدد العاملين في الزراعة	١٣,٢٪	٢,٥٪

المصدر بالنسبة إلى إسرائيل: المكتب المركزي للإحصائيات، ١٩٩٧م. (بالعبرية)

المصدر بالنسبة إلى الفلسطينيين في الضفة الغربية:

Applied Researach Institute Jerusalem, Water Resources and Irrigated Agriculture in the West Bank (Bethlehem, 1998), p. 50.

- Palestinian Academic Society for the Study of international Affairs, 1977,p.201.

لا تشتمل إحصائيات استهلاك المياه الخاصة بالفلسطينيين، على مياه الأمطار التي تخزن في الآبار الخاصة بالمواطنين الفلسطينيين. وتتراوح كمية المياه الواردة من هذا المصدر بين مليونين إلى خمسة ملايين متر مكعب سنويا، وحتى حينما تشتمل هذه الإحصائيات على المياه التي تختزن في هذه الآبار فإن متوسط الاستهلاك الإسرائيلي، لكافة أنواع الاستخدامات، يصل إلى أربعة أضعاف متوسط الاستهلاك الفلسطيني في الضفة الغربية. وإذا تطرقنا إلى الاستهلاك المنزلي فقط، أي مياه الشرب والوقاية الشخصية والنظافة، فإن استهلاك المواطن الفلسطيني أقل بنسبة الثلث من استهلاك الفرد الإسرائيلي. والحقيقة هي أن ٢٠٪ من سكان الضفة الغربية، الذين يقيمون في حوالى مائة وثمانين قرية لا ترتبط بأي شبكة مياه نقية على الإطلاق.

ويقضي الرأي السائد بين الخبراء المختصين في شؤون المياه بأن الحد الأدنى المرغوب فيه للاستهلاك المنزلي في المدينة الحديثة يصل إلى مائة متر مكعب من المياه سنويا للفرد، وتتجاوز إسرائيل في الوقت الحالي هذاالمعدل بقليل، بينما يستهلك الفلسطينيون في الوقت الحالي أقل من ثلث هذه الكمية.

ويعد القطاع الزراعي مستهلك المياه الرئيسي في إسرائيل. ولهذا الأمر جذور تاريخية تكمن في فترة الاستيطان اليهودي الصهيوني في فلسطين (يشوف)[٥٧]، وفي العقد الأول من قيام دولة إسرائيل، فقد نظر إلى الزراعة في تلك الحقبة ـ لأسباب سياسية واقتصادية وأيديولوجية[٥٨] ـ على أنها ذات أهمية قصوى لنجاح المشروع الصهيوني. وقد أدت هذه الرؤية إلى دعم أسعار مياه الري، الأمر الذي شجع على زيادة استهلاك المياه.

وتتفاقم مشكلة المياه التي يعانيها السكان الفلسطينيون في ضوء الأهمية الكبيرة للزراعة في منظومة الاقتصاد الفلسطيني المحدود. ويجمع الخبراء على أن أي تسوية في المستقبل خاصة بالمياه، يجب أن تشمل تحويل المياه من القطاع الزراعي في إسرائيل إلى الأراضي الفلسطينية.

ولا تقتصر الفجوة في استهلاك المياه بين الإسرائيليين والفلسطينيين على الجانب الكمي فقط، وإنما تظهر أيضا في انتظام ضخ المياه، هذا إلى جانب الفجوة في سعر المياه الذي يدفعه المستهلك. فبينما يستفيد مواطنو إسرائيل من المياه النقية من دون حدود على امتداد شهور السنة، يعاني المواطنون الفلسطينيون في الضفة الغربية من انقطاع المياه خلال معظم أيام الصيف. وينتج هذا الأمر عن الزيادة الطبيعية في استهلاك المياه في هذا الفصل الحار، هذا إلى جانب حقيقة مفادها أن شركة «مكوروت» تقلل من عمليات ضخ المياه للمواطنين الفلسطينيين بالتحديد في هذا الفصل، لكي تلبي المتطلبات المتزايدة في إسرائيل والمستوطنات على المياه.

وتبرز التفرقة في ضخ المياه، بين القرى والأحياء الفلسطينية وبين المستوطنات الإسرائيلية، بشكل خاص في الحالات التي تقع فيها هذه المستوطنات بجوار القرى والأحياء الفلسطينية، وترتبط بخزان المياه الرئيسي نفسه الذي تديره شركة «مكوروت»، فبينما تستفيد هذه المستوطنات من المياه النقية من دون حدود ولكل الاحتياجات (بما في ذلك ملء حمامات السباحة وري الحدائق الخاصة)، تعاني القرى والأحياء الفلسطينية نقصا شديدا في المياه النقية، حتى للشرب والاستحمام.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد وإنما تحفر شركة «مكوروت» الآبار لتزويد المستوطنات بالماء، ويقع بعض هذه الآبار على مقربة من القرى والأحياء الفلسطينية. وقد وصلت عمليات الحفر إلى الطبقات العميقة لخزان المياه الجوفية، وهذا يعني خسارة كبيرة للآبار والينابيع التي تستمد مياهها من الطبقة العليا لخزان المياه الجوفية، والتي تزود القرى والأحياء الفلسطينية بالماء. وتتراوح الخسائر بين الانخفاض في كميات المياه وبين الجفاف التام، وقد تطرق تقرير لجنة شكلها مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة بجلاء إلى الانخفاض الحاد الذي حدث في كميات المياه المتاحة للقرى والأحياء الفلسطينية، ومنها العوجة، ورام الله، والبيرة، وتل البيضا، نتيجة عمليات الحفر التي تجرى في المستوطنات المجاورة.

أثر نقص المياه على مدينة الخليل

تعد مدينة الخليل نموذجا للمدينة الفلسطينية التي تعاني نقصا حادا في المياه نتيجة سرقة إسرائيل للمياه الفلسطينية من ناحية، وتطبيقها سياسة التمييز والتقسيم غير العادل لمصادر المياه من ناحية أخرى.

يقيم في منطقة الخليل ما يقرب من مائتين وثمانية وثمانين ألف نسمة، وموارد المياه فيها محدودة جدا. ويصل ضخ المياه للاستهلاك المنزلي للسكان من أربع آبار رئيسية. يقل ضخ المياه للسكان الفلسطينيين في الصيف ليصل إلى أقل من نصف الكمية التي تضخ في فصل الشتاء. وتتقسم مدينة الخليل ذاتها في فصل الصيف إلى خمس عشرة منطقة، تضخ البلدية لها المياه بالتناوب، حيث تضخ المياه إلى منطقة ما مرة كل خمسة عشر يوما، على مدار أربع وعشرين ساعة. وتتفاقم مشكلة المياه في مدينة الخليل نتيجة الإهمال الشديد في البنية التحتية الخاصة بالمياه خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي.

ويجبر النقص الشديد في المياه السكان الفلسطينيين في منطقة الخليل بشكل خاص على شراء المياه من شاحنات الصهاريج التي تنقل المياه لبيعها. كما يزيد نقص المياه بشكل حاد من صعوبة الحفاظ على ظروف صحية ووقائية مناسبة. من هنا، فإن لهذا النقص تداعياته على صحة المواطنين، ومن هذه التداعيات سرعة انتشار الأمراض المعدية نتيجة استخدام المياه غير النقية، وزيادة حالات الجفاف بسبب عدم وجود المياه الكافية للشرب، وعدم الاهتمام الطبي

المناسب بالمرضى في المنازل والمستشفيات، الأمر الذي مثل خطورة على حياة المواطنين..

كما يتسبب نقص المياه في انتشار الأمراض المعدية لأسباب عدة منها: سحب المياه من آبار، مياهها غير نقية، واستخدام المياه الراكدة في النظافة بدلا من المياه الجارية، وري الزرع بمياه الصرف الصحي.

وتبرز في المستشفيات الأهمية القصوى في الحفاظ على الوقاية الصحية: لأنها بيئة تكثر فيها الميكروبات، ولكن نتيجة لنقص المياه فإن عملية النظافة تتأثر كثيرا بهذا الأمر، ويقل معدل العمليات الجراحية وأشكال العلاج المختلفة بشكل كبير.

ويزيد خطر عدم توفر شروط وقاية وعلاج مناسبين من خطورة المرض ذاته، الذي يصاب به الداخلون إلى المستشفى، ويهدد أيضا أبناء الأسرة الذين يرافقون المريض. ومن أكثر الفئات التي تعاني، نتيجة النقص الشديد في المياه، المرضى المحجوزون في المستشفى. فاستخدام دورات المياه والحمامات يكاد يكون غير ممكن.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

التحديات السياسية والاجتماعية في الكويت والوطن العربي: بحث في مضامين الوعي السياسي عند طلاب جامعة الكويت

د. علي أسعد وطفة (*)

مقدمة:

تتاجج في بوتقة الواقع العربي المعاصر منظومة مركبة من القضايا الاجتماعية والسياسية المتداخلة والمتضاربة في دائرتي الزمان والمكان، فالإنسان العربي يعيش في دوامة الأزمات والاختناقات التي تحيق بوجوده وتشد في طلبه وتقض مضاجعه.

حيث يجد نفسه في الموقع الذي تتجاذبه وتتنابذه في الآن الواحد تيارات فكرية وثقافية ساخنة متضاربة وضاربة في كل زاوية وفناء من الوطن العربي الكبير. وفي دوامة هذه التيارات المتنافرة يقع الإنسان العربي فريسة للضياع الفكري والثقافي ويتصدع لديه إمكان التوافق بين الذات والوجود، ويضعف لديه إمكان الخروج من الدوائر والمآزق الخانقة إلى دائرة الوعي الإيجابي بما ينطوي عليه هذا الوعي من إمكانات امتلاك الواقع والسيطرة على المصير.

ففي ظل التحولات التاريخية الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية التي يشهدها عالمنا المعاصر، بدأ الوطن العربي يشكل موضوعا لاجتياح ثقافي أدى إلى تصدع كبير في بنية الوعي القومي والتقليدي استطاع أن يجرف مقومات وركائز الهوية الوطنية والقومية. وفي مهب هذه التصدعات الثقافية بدأ الوعي الثقافي والسياسي عند الناشئة والشباب يشهد حالة اغتراب شاملة تطرح نفسها بمزيد من الإلحاح على الباحثين والمفكرين في مختلف الميادين.

(*) أستاذ علم الاجتماع التربوي - كلية التربية - جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية.

فواقعنا هو واقع المآسي السياسية والعسكرية بما تنطوي عليه من حروب وويلات ودمار ترمز إلى مظاهر وجود متخلف رهيب ومظلم، واقعنا هو نتاج حروب ومآس لا تنقطع، تتصدرها حربا الخليج الأولى والثانية بكل ما حملته هاتان الحربان من آلام وجودية تفوق حدود التصور. ناهيك عن هذه الحروب المتفجرة مع عدو غادر خطير، مع العدو الصهيوني الذي يستلب الكرامة والأرض والإنسان. وفوق ذلك كله يأتي القهر الثقافي بمؤسساته الطاغية التي تريد اليوم أن تستلب منا خبز عروبتنا وأملاح انتمائنا إلى الأرض والإسلام والجذور. لقد ألغى الغزو العراقي للكويت الزخم الروحي والمعنوي الذي كانت توفره القومية العربية، وقد أدى هذا الغزو إلى احتضار الفكرة القومية العربية وإجهاض الإمكانات القومية العربية، بكل ما كانت تنطوي عليه هذه القومية من طاقات هائلة في القدرة على تحريك الوجدان العربي والشارع العربي. وهذا ما يؤكده محمدجواد رضا بقوله «لقد ألغى الغزو العراقي للكويت ذلك الاكتفاء الروحي الذي كانت توفره فكرة القومية العربية، وخلق فراغا روحيا»[1].

«فالوطن العربي كيان ثقافي معقد مركب، تتداخل فيه عناصر الولاءات المحلية بالولاءات الوطنية، ولا تتطابق فيه حدود الجغرافيا مع حدود المشاعر، ولا حدود السياسة مع حدود الأمة»[2]. وفي غمرة هذا الواقع، بما ينطوي عليه من إشكاليات وتحديات، يجد الباحث نفسه في مواجهة واقع ثقافي واجتماعي يعاند حدود الدراسة ويرفض آليات التصنيف بما ينطوي عليه من تعقيد وتشابك. وفي قلب هذا الواقع المركب تنبثق تحديات معرفية وسوسيولوجية، تتمثل في هاجس الكشف عن مجاهل الحقيقة الاجتماعية لوعي الإنسان العربي، بما يحيط به من مآزق وتحديات، وبما يعتمل في أعماقه من طموحات، إنه هاجس الكشف العلمي عن هذا الوعي بما يعتمل في أعماقه من قانونيات تحكم مسار نمائه وتطوره.

وفي هذا السياق فإن السؤال الذي ينهض أمام الوجدان هو: كيف يتجلى الواقع السياسي والاجتماعي في وعي الأفراد والجماعات؟ وما أولويات هذا الواقع وتحدياته؟ وما الصورة التي ترتسم فيها الطموحات في أعماق هذا الوعي في أبعاد الزمان والمكان؟

وإذا كان الطموح السوسيولوجي لا يمكنه أن يأتي على مساحة الحقيقة كاملة، فإن الخيار البحثي يمكنه أن يركن في سعيه إلى دائرة قد تتميز بطابع الأهمية والخصوصية في مساحة هذه الحقيقة، وخيارنا هنا يتمركز في دائرة الحياة الواعية للطلبة الجامعيين في جامعة الكويت، التي تمثل موقعا ثقافيا واجتماعيا متقدما في مساحة الحقيقة الاجتماعية في الكويت. والسؤال من جديد هو: كيف يرسم الوعي الطلابي حقيقة التحديات التاريخية التي تواجه المجتمع العربي المعاصر؟ ومن ثم ما أولويات هذه التحديات؟ وأيضا ما أولوية الطموحات التي تسجل حضورها بوصفها خطوات على طريق خروج المجتمع العربي المعاصر من تحدياته ومن واقعه الذي يفيض بالمشكلات والمعاناة والتخلف والصراعات؟

ومن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة وما يتفرع عنها ترتب علينا أن نوجه أنظارنا إلى عينة من الطلاب الجامعيين في جامعة الكويت، وأن نوجه إليهم مجموعة من الأسئلة في مقدمتها سؤال مفتوح يطلب من أفراد العينة أن يذكروا أهم التحديات السياسية والاجتماعية التي تواجه المجتمع العربي المعاصر، وفي وسطها أسئلة تستوجب وعيا بما ينطوي عليه وعي الطلاب من أولويات تتعلق بأبعاد الوجود السياسي والاجتماعي للإنسان العربي بدءا بالانتماء القومي وانتهاء بأهمية الولاء المتجدد لقضايا اجتماعية متفجرة في واقع الحياة الاجتماعية اليومية للإنسان العربي في القرن الحادي والعشرين.

إشكالية الدراسة:

سجلت مأساة الاجتياح العراقي للكويت، والأحداث التي سبقته ولا سيما حرب الخليج الأولى، تحولات عميقة وشاملة في بنية التصورات السياسية والمشاعر القومية والأحاسيس الوطنية في المجتمع العربي بصورة عامة و في المجتمع الكويتي على وجه الخصوص، وانبثقت اتجاهات ورؤى فلسفية جديدة أسست لقيم جديدة ونماذج وعي جديد يستوجب التحليل والدراسة العلمية.

فالغزو كان بمنزلة صدمة تاريخية ارتج لها الوجدان الجمعي في المجتمع الكويتي. فالإنسان العربي في الكويت، الذي سجل أروع المواقف القومية العربية، فقدم الدعم وشارك في مختلف الأحداث التاريخية القومية مشاركة تاريخية في جبهات القتال مع العدو الصهيوني، والذي سجل أروع مواقف المشاركة والدعم للعراق في حربه المجنونة مع إيران، فوجئ على حين غرة بصدمة غدر موجعة جاءته من أقرب المقربين - أصدقاء الأمس - الذين طالما تشدقوا بشعارات العروبة والإسلام. وكانت الصدمة أكبر من القدرة على الاحتمال تأسيسا على القول بأن «ظلم ذوي القربى أشد مضاضة، وفتكا وقهرا».

وما يمكن أن يسجل هنا يشكل غيضاً من فيض، فأغلب الدراسات والبحوث السيكولوجية التي أجريت في المجتمع الكويتي تشهد بحقائق تقول إن الغزو العراقي أحدث ثورة في المفاهيم وفي التصورات والمشاعر السيكولوجية. وهذه الحقيقة تدعمها رؤى وتصورات تلمسناها في ميدان الحياة الاجتماعية في المجتمع الكويتي.

فأغلب الوافدين العرب الذين عاصروا الغزو العراقي يميزون بين شخصية الإنسان الكويتي ما قبل الغزو وتلك ما بعد الغزو: هؤلاء الوافدون يرون على العموم أن فضائل الكويتيين ما قبل الغزو كانت أكثر منها فيما بعد الغزو. ومثل هذه النتائج ليست غريبة أبدا فهي طبيعية ومشروعة، ربما لأي شعب يتعرض لهزيمة ويعاني من حالة دمار واجتياح. ومع ذلك فإن السؤال العلمي الذي يطرح نفسه في هذا السياق: هل بدأ حقا الإنسان الكويتي يتشبع بوعي سياسي واجتماعي جديد مختلف، ولا سيما فيما يتعلق بمفاهيمه وتصوراته حول القضايا القومية والاجتماعية؟

وفي كل الأحوال فإنه يجب علينا ألا ننسى التحولات السياسية في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية، ولا سيما التسويات السلمية والسياسية والتطبيع وتراجع الموقف العربي والخلافات العربية التي أدت في جملتها إلى تحولات في الوعي العربي برمته، ولا سيما في الموقف من الأرض المحتلة ومعاهدات السلام. وهذه مجموعة من العوامل التاريخية التي تلقي بثقلها في دائرة التحولات التي يشهدها الموقف ويسجلها الوعي في هذه المرحلة التاريخية الساخنة بكل المعاني والمضامين.

وإلى جانب هذه التحولات بطابعها السياسي لا يمكن لأحد أن يتجاهل تأثير التحولات الاجتماعية والتاريخية لعصر بدأت ملامحه ترتسم على صورة عولمة جديدة تقطعت لها أوصال الوجود القديم، وبدأ الكون يطل برائحة جديدة وقامة جديدة وصورة جديدة. عولمة شكلتها وتشكلها وتعيد تشكيلها طاقة عقل إنساني متفجر بالإبداع التكنولوجي والاتصالي الذي حطم كل القيود، وفجر أطر العالم القديم ووضع الإنسان في مواجهة تحديات جديدة دفعت في أعماقه روحا جدية مفعمة بالحرية والإباحة بلا حدود. وهذه هي المطارق التي بدأت تشكل روحا جديدة ووعيا جديدا يتفجر في كل ثنايا وجودنا الاجتماعي والإنساني. وهنا يمكن التساؤل: أليس حريا بنا أن نتأمل في هذه الصورة الجديدة لوعي مختلف ينمو في رحم التحولات العاصفة؟ هذا هو السؤال المحوري الذي تثقله الأهمية وينوء بالخطورة، وهو سؤال يتعلق بآلية انبعاث قيم جديدة عبر تحولات جديدة في وعي قديم.

وفي غمرة هذه أو تلك من التحولات العميقة والشاملة تبرز إشكالية منهجية بالغة الخطورة، وهي أن الساحة الاجتماعية تكاد تخلو من الدراسات التي تجعلنا على يقين من إمكان قياس درجة التحولات التي تجري في دماء العقل وفي مظاهر الوجدان السياسي والاجتماعي في مجتمعنا. الدراسات السابقة التي كان يمكن أن تجرى في أزمان قديمة حول طبيعة الوعي والاتجاهات والقيم تسجل غيابها الشامل والعميق في المجتمع الكويتي والعربي إلى حد كبير.

وفي غيبة الدراسات السوسيولوجية القديمة حول هذه القضايا يمكننا أن نستند إلى طبيعة الرؤى العامة والأحداث التاريخية و الشواهد السياسية التي عرفها المجتمع الكويتي في مرحلة الثمانينيات. ومهما يكن الأمر فإن التعرف على طبيعة الوعي السياسي لعينات من المجتمع الكويتي تفرضها الحاجة العلمية التي تلح على العقل والتي تفرضها طبيعة التطورات الاجتماعية الجارية في هذا المجتمع. أو ليس ضروريا لجيل قادم من الباحثين في المستقبل أن يجد لديه ما يحتاج ربما من الوثائق حول إشكالية الوعي السياسي للشباب الجامعي في مطلع القرن الحادي والعشرين.

والسؤال هنا: لماذا طلاب الجامعة؟ فهناك من يعيب اليوم أن تكون الجامعة وحدها ميدانا للبحث الاجتماعي، ونحن إذ نوافق الآخرين على رأيهم مع بعض التحفظ نقول إن الاختيار قد

وقع على الجامعة لأسباب شتى منها: أن طلاب الجامعة في الكويت يمثلون الشباب المثقف في المجتمع وطليعة المجتمع الكويتي. فجامعة الكويت هي الجامعة الوحيدة في الكويت وهي المكان الذي يشتمل على خيرة المثقفين الواعدين في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية و السياسية. وبوصفها الجامعة الوحيدة فهي التي تشتمل على العمق الشبابي الطليعي في المستقبل. والشباب الجامعي يمثل في الوقت نفسه الشباب والأنتلجنسيا والطليعة المنظمة الأكثر وعيا في المجتمع. وهذا يعني أننا عندما نتحرى وعي الشباب في الجامعة فإننا نعمل على تحليل الحاضر والمستقبل في المجتمع الكويتي. ومع ذلك كله فهذه الشريحة هي الشريحة الأكثر تنظيما ووعيا وتجاوبا واستعدادا للتفاعل مع القضايا الاجتماعية، وما يعتري هذه الفئة يمكنه أن يقدم تصورا مستقبليا للروح المستقبلية في المجتمع المعني.

ويبدو لنا أنه يتوجب علينا أن نعلن بصوت مرتفع أن غياب الأبحاث الاجتماعية والتربوية وندرتها في جميع الميادين يطرح نفسه مظهرا متقدما من مظاهر التخلف الاجتماعي. إن الواقع الاجتماعي الذي تجهل حناياه وأبعاده ومضامينه قد يشكل مصادر أخطار محدقة بالمجتمع ربما تكون نتائجها أكثر تدميرا من ثورة بركان مدمر. وهكذا يمكن أن نستجمع القول بأن صورة الوعي السياسي والقومي والاجتماعي تطرح نفسها بإلحاح كبير كقضية إشكالية في هذه المرحلة التاريخية. وإن لم يكن في مقدورنا أن نرسم متغيرات هذا الوعي وحدوده، فإنه حري بنا أن نقدم في الحدود الدنيا رؤية ساكنة أو ستاتيكية، لهذا الوعي، بوصفها تعبيرا حيويا عن ضرورة تاريخية في المستوى العلمي والسوسيولوجي.

أسئلة الدراسة

تأسيسا على ما سبق يمكن القول إن ماهية الوعي السياسي الجامعي المعاصر تنهض على هيئة إشكالية سوسيولوجية تطرح نفسها بإلحاح على العقل العلمي. وفي التعرف على مجاهل وطبيعة هذا الوعي تتحدد إشكالية هذه الدراسة. وفي هذا العمق الإشكالي يمكن القول إن قضية التحولات في الوعي السياسي والاجتماعي للشباب قياسا على تأثير أحداث تاريخية تقع في قلب هذه الإشكالية العلمية. وفي هذا العمق تنهض قضية التحديات التاريخية التي تحيط بالوطن بأبعاده القومية والوطنية. فما طبيعة هذه التحديات، وكيف ترتسم في الوعي الشبابي عند طلاب الجامعة؟ وفي مضامين هذه القضية أيضا تتجلى قضية الطموحات كصيغة جديدة من صيغ الكشف عن مضامين الوعي السياسي والاجتماعي عند طلاب الجامعة في الكويت. والسؤال الذي ينهض أمام العقل ويماحكه هو: ما نسق هذه الطموحات التي ترسم في أبعاد قيمية سياسية واجتماعية في وعي الطلاب؟

وفي هذا المستوى تومض أمام العقل منظومة من الأسئلة المنهجية الإجرائية:

١- كيف ترتسم التحديات التاريخية التي تحاصر الوجود الاجتماعي والسياسي للمجتمعات العربية في وجدان الشباب الجامعي وفي وعيهم؟

٢- كيف يحدد الشباب الجامعي ويرسم هذه التحديات في إطار المجتمع الكويتي المعاصر؟

٣- كيف تأخذ الطموحات السياسية والاجتماعية نسق وجودها في وعي الشباب الجامعي وتصوراتهم؟

٤- ما نسق الطموحات السياسية وأولوياتها قياسا إلى الطموحات الاجتماعية؟

٥- ما مكان الاتجاهات القومية ونسق أولوياتها في وجدان الشباب وعقولهم.

٦- كيف ينظر الشباب الجامعي إلى القيم الاجتماعية الإيجابية في المجتمع الكويتي وكيف يحددون نسق تدرجها وأولوياتها وتكاملها؟

٧- ما القيم والعادات التي تجد استهجانا لوجودها من قبل الشباب الجامعي؟

٨- وفي مستوى البحث عن الخلفيات الاجتماعية والثقافية لهذا الوعي فإن أسئلة جوهرية بالغة العمق والأهمية تطرح نفسها وهي: هل هناك من فروق معنوية وجوهرية في وعي الشباب السياسي والاجتماعي وفقا لمتغيرات: الجنس، والعمر، والمحافظة، والسنوات الجامعية، والاختصاصات العلمية؟

في مفهوم الوعي والوعي السياسي

يشار إلى الوعي بوصفه حالة ذهنية تتمثل في إدراك الإنسان للعالم على نحو عقلي أو وجداني. وهذا يعني أن الوعي هو الخاصة التي تتيح للإنسان أن يمتلك شروط وجوده على نحو ذهني. وتأسيسا على هذا يتجلى الوعي الإنساني في صور شتى تتباين بتباين المجال المدرك، أو موضوع الوعي، حيث يعرف الإنسان أشكالا متنوعة من الوعي، كالوعي الديني والوعي السياسي والوعي العلمي والوعي الأخلاقي. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الوعي السياسي هو الحالة التي يتمثل فيها الفرد أو أفراد المجتمع قضايا الحياة السياسية بأبعادها المختلفة ويتخذون من هذه القضايا موقفا معرفيا ووجدانيا في الآن الواحد. فالوعي consciousness هو «شحنة عاطفية وجدانية قوية تتمكن في كثير من مظاهر السلوك لدى الفرد، ويتم تكوين الوعي من خلال مراحل العمل التربوي في مختلف مراحل التعليم، وكلما كان الوعي أكثر نضجا وثباتا كان أكثر قابلية لدعم وتوجيه السلوك في الاتجاه المرغوب فيه»[3]. ويمكن تعريف الوعي أيضا بأنه «الإدراك والتنبه والفهم للنفس والعالم الخارجي وللانتماء الاجتماعي، وينتج عن التأمل للعالم الموضوعي والعمل والفعل الاجتماعي بكل أوجهه. ويؤدي الوعي إلى اتخاذ مواقف فردية وجماعية عملية، أي أن الوعي مرتبط بالسلوك، وتلعب اللغة دورا مهما في عملية الوعي. أما في علم النفس فيستخدم معنى الشعور»[4].

أما الوعي السياسي فهو «مجموعة من القيم والاتجاهات والمبادئ السياسية التي تتيح للفرد أن يشارك مشاركة فعالة في أوضاع مجتمعه ومشكلاته: يحللها ويحكم عليها ويحدد موقفه منها ويدفعه إلى التحرك من أجل تطويرها وتغييرها»[٥].

أما الوعي القومي National Consciousness فهو «التحسس بالهوية القومية والانتماء إلى شعب أو أمة بفعل روابط الجنس والثقافة والتاريخ واللغة والمصالح والمصير المشترك، أي بفعل الإدراك والتفهم لكينونة الانتماء إلى قومية واحدة، وقبول هذا الانتماء»[٦].

«هذا ويميز الباحثون بين نوعين من الوعي: وعي التخلف وتخلف الوعي، فوعي التخلف يصدر عن بنية فكرية اجتماعية اقتصادية متخلفة. أما الوعي المتخلف فهو الوعي الذي يوجد في كل العينات المتقدمة والمتخلفة على السواء، فقد نجد في السويد واليابان وعيا متخلفا، فهو وعي قائم بذاته يحمل علامات المجتمع الذي أفرزه ثم يطبع هذا المجتمع بطباعه، لأنه وعي بنيوي يتخلل كل البنى في المجتمع»[٧].

وفي هذا الصدد يعلن محيي الدين صبحي أن وعي التخلف هو الوعي السائد في بلادنا، وأنه لا يمكن للإنسان العربي أن يخرج من دائرة هذا الوعي، إلا إذا استطاع أن يخرج من دائرة هذا الواقع المتخلف[٨]. وهذا يعني أنه من أجل أن يكون للعرب دور في هذا العالم لابد من أن تكون البداية في مستوى العقل وفي مستوى الخطاب ومن خلال نسق جديد للمعرفة يستوعب الحديث ولا يرفض القديم ولكنه لا يغرق فيه[٩]. فكل النهضات الإنسانية المعروفة تاريخيا بدأت بنوع من الثورة الإيبستمولوجية التي غيرت من نظرة الإنسان إلى نفسه ومجتمعه وإلى العالم من حوله، سواء تحدثنا عن النهضة الإسلامية (وهي النهضة الناجحة الوحيدة في تاريخنا) أو النهضة الأوروبية أو النهضة اليابانية، ابتدأت هذه النهضات بثورة إبيستمولوجية غيرت من العلاقة الذهنية بين الكائن والمحيط الذي يعيش فيه، فكانت النهضة والإبداع والعقل الخطابي[١٠]. لم تتم نهضة في التاريخ إلا كانت مسبوقة بثورة الإيبستمولوجية غيرت من نسق القيم والمفاهيم والتصورات السائدة في هذه المرحلة أو في ذلك المجتمع.

الدراسات السابقة

تشكل ثقافة الشباب حقلا علميا متناميا ولا سيما في العقود الأخيرة من القرن العشرين. ويمكن القول إن المكتبة العربية بدأت تغتني إلى حد كبير بعطاءات الدراسات والأبحاث الأمبيريقية حول الشباب العربي وهمومه بصورة عامة. ومع أهمية هذه العطاءات يمكن القول إن الدراسات التي كرست نفسها لدراسة الوعي الشبابي بمستوياته السياسية مازالت في باكوراتها الأولى ومازالت هذه القضية تحتاج إلى همم الباحثين وجهودهم.

فالدراسات التي حاولت أن تتقصى واقع الحياة السياسية للشباب تعاني من ندرتها، إذ قلما نجد مثل هذه الدراسات لأسباب لا تخفى على العارفين. فدراسة مثل هذه القضية تستوجب الحذر وتقتضي مزيدا من اليقظة والإحساس بالمسؤولية في أجواء تختنق فيها الحريات العلمية والأكاديمية. ولذلك فإننا نستعرض في هذا السياق بعض الدراسات المجانسة لإشكالية بحثنا والقريبة من هاجسه.

وغني عن البيان أن أغلب الدراسات الجارية في هذا المجال تأخذ تسميات مختلفة مثل: دراسة القيم والاتجاهات وثقافة الشباب ومشكلات الشباب. وانطلاقا من هذا الواقع يترتب علينا أن نستعرض بعض الدراسات والأبحاث التي يمكنها أن تلقي الضوء على طبيعة المشكلة المطروحة في سياقات مختلفة.

دراسات لبعض الدول العربية

الكويت

تعد الدراسة التي أجراها مكتب الإنماء الاجتماعي في الكويت عام ١٩٩٤ تحت عنوان «البناء القيمي في المجتمع»[١١] بإشراف الديوان الأميري من أهم الدراسات التي شهدتها الساحة الكويتية في مستوى الدراسات الاجتماعية والقيمية في العقد الأخير من من القرن العشرين. وقد أشرف على هذه الدراسة الأستاذ الدكتور سعيد اسماعيل علي وساعده عشرون باحثا ومفكرا من الباحثين في المؤسسات العلمية الكويتية. ومع أن الدراسة تبحث في نسق القيم إلا أنها جاءت لتشتمل على جانب مهم جدا من جوانب الوعي السياسي والاجتماعي عند الكويتيين.

شملت هذه الدراسة عينة واسعة من الطلاب والمدرسين وأولياء الأمور قدرت بـ ٨٦٤ فردا. وقد تضمنت جوانب عديدة من جوانب الحياة الواعية في المجتمع الكويتي المعاصر. لقد بينت هذه الدراسة على وجه الإطلاق أن القيم الدينية تأخذ المرتبة الأولى على الإطلاق بوصفها قيما سائدة ومرغوبة في آن واحد، ومن ثم تأتي القيم الاجتماعية لتحتل المرتبة الثانية تليها القيم السياسية. أما القيم العلمية والجمالية والاقتصادية فإنها تأتي في المرتبة الأخيرة في سلم القيم السائد [١٢].

ويمكننا بعد قراءة معمقة لهذه الدراسة أن ننظم الجدول التالي الذي يتضمن صورة شمولية لبعض جوانب الوعي السياسي والاجتماعي لبعض القضايا الاجتماعية المهمة في المجتمع الكويتي. ونحن نقوم ببناء هذا الجدول وفقا لاعتبارات الدراسة الحالية [١٣].

اتجاه أفراد العينة المدروسة نحو القضايا التالية:

القضية	آباء نعم ٪	مدرسون نعم ٪	طلاب نعم ٪
متابعة تأييد القضية الفلسطينية	٣٧,٥	٤٩,٥	٤٢,٩
توطيد العلاقات السياسية مع العرب	٧٠,٨	٧٥,٣	٥٨,١
توطيد العلاقات السياسية مع الغرب	٥٢,١	٤٣,٠	٣٩,٠
رفض التعصب بمختلف أشكاله	٧٥,٠	٨٢,٨	٥٦,٢
رفض الوساطة والمحسوبية	٤٧,٩	٦٤,٥	٤٥,٢
الموافقة على التمييز بين المواطنين والوافدين	٤٤,٨	٦٥,٦	٣٦,٢
الحرص على الزي الوطني	٨٣,٣	٦١,٤	٤٧,٣
منح المرأة الحق الانتخابي	٢٨,٠	٥٧,٠	٤٠,٠

والجدول السابق يبين عددا من القضايا، أهمها تراجع كبير في تأييد القضية الفلسطينية، وذلك بعد غزو الكويت وما ترتب على ذلك من مواقف وأحداث سياسية. ومسألة تفاقم اتجاه التمييز بين المواطنين والوافدين ولا سيما عندالمدرسين. وتراجع الاهتمام بالزي الوطني عند الشباب من طلاب المرحلة الثانوية. وضعف وتيرة الميل إلى منح المرأة حقوقها الانتخابية.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى دراسة وليد سليم التميمي حول موقف القطاع الجامعي في الرأي العام العربي من التسوية السياسية للصراع العربي الصهيوني، حيث أجريت هذه الدراسة على عينة بلغت ١٢٠٠ عربي من العاملين أو المقيمين في الكويت العام ١٩٨٠ وشملت ٤٠٠ من المصريين و٢٠٠ من الفلسطينيين و٢٠٠ من السوريين و٢٠٠ من الخليج العربي وهدفت الدراسة إلى دراسة واقع الرأي العام من التسوية للصراع العربي الصهيوني (١٤).

وقد بينت النتائج تراجع الاهتمام بمبدأ التحرير الكامل لتراب الأرض الفلسطينية المغتصبة، ولا سيما عند أفراد العينة المصرية حيث بلغت نسبة الذين يؤمنون بتحرير كامل تراب الأرض المحتلة ٣٦,٢٪ عند المصريين مقابل ٤٠,٩٪ عند السوريين، ونسبة ٤٢,٤٪ عند الخليجيين (١٥). ويفسر الباحث هذا التراجع بأمرين هما: استمرار الهزائم العربية من جهة وغياب المحرض الأيديولوجي من جهة أخرى.

ويشهد مبدأ استخدام القوة في استرجاع الأرض المحتلة انحسارا واضحا بين أفراد العينة ولا سيما عند أفراد العينة المصرية: أفاد ٢٨٪ من المصريين بأهمية استخدام القوة في استرجاع الأرض مقابل ٤٥,٤٪ عند الفلسطينيين، و٤٢٪ عند السوريين، و٣٧٪ عند الخليجيين.

وقد بينت هذه الدراسة أيضا أهمية الحضور الديني كايديولوجيا رئيسة في وعي الشباب حيث أجمع أفراد العينة على مبدأ وحدة القدس عاصمة عربية موحدة أبدية لفلسطين. وأكد أفراد العينة اعتراضا كبيرا على مبدأ الاعتراف بإسرائيل: أعلن ٣٧,٢١٪ من أفراد العينة المصرية قبول مبدأ الاعتراف بإسرائيل، ولم يبد أي من أفراد العينة السورية والفلسطينية الموافقة على هذا المبدأ، وفي المقابل أعلن ١٧٪ من أفراد العينة الخليجية قبول هذا المبدأ.

وتعد دراسة إبراهيم كرم من الدراسات الحديثة التي شهدتها الساحة الكويتية، وتأتي هذه الدراسة تحت عنوان: «اتجاهات طلاب المرحلة الثانوية في دولة الكويت نحو مفاهيم التعاون الخليجي والوحدة العربية والتضامن الإسلامي بعد تحرر دولة الكويت». وقد شملت عينة قدرت بـ ٤٠٠ من طلاب المرحلة الثانوية في دولة الكويت العام ١٩٩٢، ومن أهم نتائج هذه الدراسة [١٦]:

٧٠٪	يوافقون على قيام كونفدرالية بين دول مجلس التعاون.
٨٥٪	يوافقون على توحيد الجيوش العربية تحت قيادة واحدة.
٦٢,٥٪	يؤكدون أهمية توحيد المناهج الدراسية.

فيما يتعلق بالوحدة العربية:

٦٢,٩٪	يوافقون على الوحدة العربية الشاملة.
٦٥,٥٪	يؤكدون أهمية التضامن العربي.
٩٠,٢٪	يؤيدون تدعيم العلاقات مع دول إسلامية.
٩١,٧٨٪	يؤيدون تعزيز العلاقات الإسلامية.

وكانت الكويت أيضا مسرحا لدراسة أحمد البغدادي وفلاح المديريس [١٧]: دراسة تحليلية لاتجاهات الراي العام الكويتي حول مختلف القضايا السياسية المحلية، حيث أجريت هذه الدراسة على عينة عشوائية بلغت ٣٠٠٠ فرد من المجتمع الكويتي حيث بلغت نسبة الذكور في العينة ٦٩,٧٪ مقابل ٣٠,٣٪ من الإناث، وطبقت في الديوانيات وكانت نسبة الحاصلين على شهادات عليا ٧٢,٦٪ من أفراد العينة، وقد تطرقت الدراسة إلى موضوعات عدة تتعلق بالقضايا السياسية نختار منها ما يتعلق ببحثنا، حيث أسفرت الدراسة عن النتائج التالية:

١- هل تؤيد إعطاء المرأة حق الانتخاب: أجاب ٤٨٪ من أفراد العينة بالإيجاب بينما بلغ عدد المعارضين ٥١,٧٪ من أفراد العينة.

٢- هل تؤيد إعطاء المرأة حق الانتخاب والترشيح: أجاب ٢٥,٣٪ بالإيجاب مقابل ٧٣,٧٪ بالرفض [١٨].

هذه الصورة السوسيولوجية التي تقدمها هذه الدراسة تبين بكل وضوح أن الوعي الديموقراطي يعاني إشكالية كبيرة، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن أغلب أفراد العينة يحملون شهادات جامعية وعليا.

فإعطاء المرأة حقوقها السياسية تشكل القضايا المحورية للمسألة الديموقراطية المعاصرة في المجتمع الكويتي، ومع ذلك فإن الوعي الديموقراطي يمر بمفازات عريضة ومازال المجتمع الكويتي يواجه عددا من التحديات الديموقراطية التي تواجه مسار نمائه وتطوره في مستوى تشكل الوعي الديموقراطي.

تعد دراسة سعد الدين إبراهيم حول اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة العربية من الدراسات الكبرى التي أجريت في مجال الوعي السياسي الوحدوي العربي عند الشباب والمثقفين في الوطن العربي [١٩].

أجريت الدراسة في العام ١٩٧٩، وشملت عشرة أقطار عربية، وبلغت العينة ٥٥٥٧ مستفتى أغلبهم من المثقفين: والبلدان التي شملتها الدراسة هي: الكويت (بلغت عينة الكويت ١٦١ مستجوبا)، الأردن، فلسطين، لبنان، مصر، اليمن، السودان، تونس. ومن النتائج المهمة لهذه الدراسة يمكننا الإشارة إلى النتائج التالية (أخذنا بالحسبان الإشارة إلى نتائج العينة الكويتية مقابل العينة العربية برمتها وذلك للضرورة المنهجية لهذه الدراسة):

جدول توضيحي لأهم نتائج هذه الدراسة

القضايا المعالجة	العينة العربية	العينة الكويتية
يؤمنون بأن سكان الوطن العربي يشكلون أمة واحدة	٧٨٪	٧٨,٣٪
يؤمنون بالوحدة العربية الاندماجية	٢١,٢٪	١٩,٣٪
يؤمنون بأهمية الاتحاد العربي الفيدرالي	٥٧,٩٪	٧٢,٢٪
يؤمنون بالتنسيق في إطار الجامعة العربية	١٧,٨٪	٧,٣٪
يؤمنون بأن الدين الإسلامي منطلق للوحدة العربية	٨٨٪	٩٨٪
يؤمنون بأن تحرير فلسطين بالثورة العربية الشاملة	٢٥,٥٪	٣٤,٩٪
تحرير فلسطين يتطلب استخدام القوة العسكرية المنظمة	١٢,٦٪	٣٧٪
يؤمنون بإمكان الحل السلمي مع إسرائيل	١٥,٩٪	٣,٤٪
لا مانع من التفاوض مع إسرائيل	١٥,٤١٪	٨,٩٪

الإمارات العربية المتحدة:

في دراسة إجلال إسماعيل حلمي حول «الاغتراب الاجتماعي بين الشباب في مجتمع الإمارات» درس الباحث ظاهرة الاغتراب عند الشباب بوصفها حالة من حالات اللاتوافق مع القيم الاجتماعية والمعيارية السائدة في المجتمع وصيغة من صيغ اللاتكيف مع القيم الاجتماعية السائدة. في هذه الدراسة يبين الباحث تراجع القيم الاجتماعية التقليدية من دون وجود قيم جديدة معاصرة تقوم مقامها. وانطلاقا من هذه النتيجة ينبه الباحث إلى التحديات التي تتعرض لها الثقافة العربية والمخاطر الكبرى التي يواجهها التراث الثقافي من حيث قدرته على توجيه الأفراد والجماعات وتحديد الأنماط السلوكية المناسبة [٢٠].

وفي هذه الدراسة يبين الباحث أن بعض القيم القديمة اختفت وظهرت قيم جديدة. ومن القيم التقليدية التي انحسرت: الولاء والاندماج الاجتماعي، أما القيم الجديدة التي ظهرت فهي الفردية والقيم المادية والمصلحة الشخصية والاهتمام بالذات. وقد خلق ذلك إحساسا

بالفراغ والغربة والقلق والانحراف عن معايير المجتمع وقيمه ولكن هذا الاهتزاز لم يصل إلى مستوى (الأنومية) أو اللامعيارية في مفهوم دور كهايم.

وفي الإمارات العربية المتحدة أيضا يشار إلى دراسة جمال علي سند السويدي وشملان يوسف العيسى الموسومة «اتجاهات طلبة جامعة الإمارات العربية المتحدة حول أزمة الخليج»، وقد أجريت هذه الدراسة على عينة بلغت ٣٩٩ طالبا وطالبة من طلاب جامعة الإمارات العربية في العام ١٩٩١، وهدفت الدراسة إلى تحليل مواقف الطلاب من أزمة الخليج وتحديد سمات الوعي السياسي عند الطلاب، من أهم النتائج التي وصلت إليها هذه الدراسة [٣١].

١- أهمية الانتماء الديني منطلقا للهوية، حيث اختار ٦٨٪ من أفراد عينة الانتماء الديني مقابل ١٠٪ للانتماء العربي ١٠٪ إلى الدولة و٤٪ إلى الخليج العربي ١٤,٨٪ أثر الانتماء إلى قبيلة توضح الدراسة أثر أزمة الخليج أسفرت عن تراجع وانحسار المد القومي واهتزاز قيم ومعاني العروبة والثقافة العربية والوحدة العربية وغيرها من المفاهيم والقيم المتأصلة في الثقافة السياسية العربية» [٣٢].

وبينت الدراسة أن ٧٨,٩٪ يؤيدون الحركات الإسلامية في المجتمع [٣٣].

قطر:

يشار إلى دراسة جهينة العيسى حول: «الاغتراب بين الطلبة الجامعيين القطريين والبحرين واليمنيين» العام ١٩٨٦، حيث أجريت على خمس عينات واسعة من الطلبة المسجلين بجامعة قطر من مختلف الجنسيات العربية، تبين الباحثة أن ٥٦٪ من الطلبة الذكور يشعرون بأزمة الانتماء القيمي، وأنهم غير قادرين على التكيف مع القيم الاجتماعية السائدة، وإن ٥٧٪ يشعرون بأنهم لا يملكون طاقة توجيه الذات، وأن قوى خارجية تسيطر على وجودهم وقواهم [٣٤].

المملكة العربية السعودية:

وقد شهد التعليم الجامعي في السعودية دراسة هند ماجد الخثيلة: «التعليم الجامعي وأثره على اتجاهات طالبات جامعة الملك سعود حول بعض المفاهيم الأساسية»، التي أجريت العام ١٩٨٥ على عينة بلغت ٢٠٠ طالبة جامعية من كليات مركز الدراسات الجامعية للبنات في جامعة الملك سعود. وقد حاولت الباحثة عبر دراستها هذه أن تدرس أثر التعليم الجامعي في بنية المفاهيم الأساسية للحياة عند الطالبات وانتهت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج المهمة أبرزها:

١- أن الجامعة تؤدي دورا بارزا تربويا منهجيا متناميا يتصل ببناء المفاهيم والقيم والاتجاهات السلوكية نحو مختلف جوانب الحياة.

٢- أن الجامعة تعزز مبدأ الثقة بالنفس والقدرة على تصريف الأمور والتعرف على المشكلات الراهنة عند الطالبات، وأنها تؤدي إلى تنمية القدرات النقدية عند الطالبات، وتؤكد لديهن التحليل بأساليب منطقية والقدرة على مواجهة مشكلات الحياة [٢٥].

وانتهت هذه الدراسة إلى أن الجامعة تلعب دورا عظيما في تكوين شخصية الطلاب وتوسيع اهتماماتهم [٢٦].

المملكة الأردنية الهاشمية:

تجدر الإشارة إلى دراسة أحمد جمال ظاهر حول: «اتجاهات التنشئة السياسية والاجتماعية في المجتمع الأردني» وهي دراسة ميدانية أجريت على عينة واسعة من طلبة مدارس منطقة شمال الأردن. وهدفت إلى دراسة منظومة القيم الاجتماعية والسياسية التي تكرسها اتجاهات التنشئة الاجتماعية. بينت هذه الدراسة أن القيم السائدة هي: الولاء للعائلة أولا، ثم الدين ثانيا، فالقومية في المرتبة الثالثة، وتأتي الدولة في المرتبة الرابعة. وقد أجمع أفراد العينة على أن الأمة العربية تشكل أمة واحدة بسبب اللغة العربية. وقد أجمع أفراد العينة تقريبا على تفضيل العائلة على الأرض، وأن فقدان الأرض خير من فقدان أحد أعضاء الجسد، ولكنهم يفضلون فقدان الوالدين من دون أن يفقدوا الأرض [٢٧].

تونس:

يشار بالبنان إلى الدراسة المهمة أيضا التي أجراها ميخائيل وديع سليمان حول: «التوجهات السياسية لدى الشباب التونسي» في العام ١٩٨٨ [٢٨]، وهي دراسة مسحية أجريت على عينات واسعة من الشباب التونسي من الجنسين، الذين تتراوح أعمارهم بين ٩ سنوات و١٧ سنة، وقد تناولت الدراسة مختلف مظاهر المجتمع، وشمل البحث عينة بلغت ١٦١٨ طالبا (٥٧٪ ذكور ٤٦٪ إناث). ومن النتائج التي أجلتها هذه الدراسة يمكن الإشارة إلى ما يلي:

بينت الدراسة أن ٤٥.٦٪ من أفراد العينة أعلنوا أن إسرائيل هي البلد الذي لا يحبونه تليها الولايات المتحدة الأمريكية بنسبة ١٣.٢٪ (سليمان: ١٩٩٣). وقد أبدى ٧٠٪ من أفراد العينة أهمية القيمة الدينية حيث أعلنوا حبهم للبلدان المسلمة وبالمقابل أعلن ٤٨.٦٪ من أفراد العينة أنهم يكرهون البلدان غير المسلمة، وأعرب ٣٧.٩ ٪ منهم عن كراهيتهم للدول المعادية للعرب وفلسطين. وقد بينت هذه الدراسة أهمية القيم العائلية بين الشباب التونسي حيث أبدى ٨٢.٧ ٪ أن أسوأ خطأ يرتكب هو عصيان الوالدين، وهذا يعني أن الرابطة العائلية قوية جدا. ويؤمن الشباب التونسي بدرجة عالية بأهمية قيمة الطاعة وخاصة طاعة الوالدين. وتأخذ قيمة العمل أهمية كبرى في نسق القيم في ثقافة الشباب، إذ يعلن ٤٧ ٪ من أفراد العينة أن المواطن الفاضل هو الذي يعمل بجد، ويليه الشخص الذي يصلي بانتظام، وتبين الدراسة إضافة إلى ذلك أهمية قيمة التعليم والأمن والنظام.

ومن الدراسات المهمة في تونس أيضا تبرز دراسة عبداللطيف الحناشي [٢٩] التي أجريت على عينة بلغت ٨٠ عاملا من أصل مجتمع قدره ٩٠٠ عامل، واعتمدت الدراسة على المقابلة الشخصية، وأجريت في الفترة الزمنية التي تمتد من شهر أكتوبر من العام ١٩٨٨حتى مايو ١٩٨٩ في تونس، وهدفت إلى استطلاع مواقف العمال من الوحدة العربية.

وتشير نتائج هذه الدراسة إلى أن العمال ينظرون إلى الوحدة بوصفها ضرورية، ولكنهم يختلفون حول مبرراتها، حيث يرى ٣٤,١٢٪ أن التحديات الخارجية المتمثلة في الكيان الصهيوني والإمبريالية هي العامل الأساسي للمطلب الوحدوي. ضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١، واحتلال الجنوب اللبناني ١٩٧٨، واحتلال العاصمة بيروت ١٩٨٢، وضرب مقر قيادة التحرير الفلسطينية في تونس١٩٨٥. وهذه العمليات كانت نتاجا للتحالف مع القوى الإمبريالية العالمية. ويعتقد ٢٥,٥٩٪ من أفراد العينة أن مبررات الوحدة تعود إلى أسباب تتعلق بالتحديات الداخلية مثل التخلف الاقتصادي والتبعية والمديونية والبطالة، وبالإضافة إلى بروز المشاكل الطائفية والأقليات في بعض الأقطار العربية. ويرى ٢٠,٣٪ أن دواعي الوحدة تكون لأسباب تاريخية. هذا وقد أعلن أكثرية أفراد العينة أن الوحدة تعمل على حماية الأمن القومي ومجابهة الصهيونية والإمبريالية وتأمين القوة الاقتصادية، وأهم القضايا التي درست كانت حول ماهية الوحدة، حيث أعطى ٥٨,٧٥٪ للوحدة طابعا إسلاميا عربيا، بينما يرى ٢١,٢٥٪ أن الوحدة يجب أن تكون على أساس علماني، في حين اعتبر ١٥٪ أنه لا هوية للوحدة غير الإسلام، وقد أعلن ٥٪ أن هوية الوحدة تقتصر على فكرة العروبة بشكلها التقليدي [٣٠].

مصر:

تبرز دراسة محمد إبراهيم كاظم حول: تطورات في قيم الطلبة المصريين بين العامين ١٩٥٧ و١٩٦٢، وقد هدفت هذه الدراسة إلى تحديد القيم السائدة لدى طلاب المراحل النهائية من السلم التعليمي وتطورها خلال خمس سنوات من العام ١٩٥٧ إلى العام ١٩٦٢. وأجري البحث على عينة تتكون من ٤٠ طالبا من طلاب السنتين الأخيرتين في الجامعة. وبينت الدراسة أن هناك تغيرا في اتجاهات القيم بين المرحلتين، وذلك لمصلحة قيم الأمن، وانخفضت اتجاهات القيم الذاتية والجسمانية والزوجية [٣١].

ومن الدراسات العالمية هذه التي قام بها مكتب اليونيسكو العام ١٩٨٤ يشار إلى الدراسة الاستطلاعية لرأي الشباب العالمي، وذلك لمعرفة قيمهم وتطلعاتهم ومخاوفهم، حيث أرسلت الاستبيانات الخاصة بذلك إلى أندية اليونيسكو في أنحاء مختلفة من العالم وإلى المنظمات الدولية، وتلقت إدارة البحوث ١٠٥٠ استبانة مملوءة من ٤١ دولة بينها ثلاث دول عربية هي مصر ولبنان وتونس. وقد بين البحث أن مسألة الحرب والسلم تستقطب اهتمام غالبية الشباب في العالم، وترتبط هذه المسألة بالمشكلات التالية: القضاء على الجوع، وتصفية الأسلحة النووية، والقضاء على التمييز العنصري وتقديم المساعدات إلى الدول النامية [٣٢].

وفي جمهورية مصر العربية يمكن الإشارة أيضا إلى دراسة محمد عبدالحليم طنطاوي التي أجريت عام ١٩٩٦ حول طبيعة الوعي السياسي عند طلاب جامعة الزقازيق. وقد هدفت الدراسة إلى التعرف على درجة الوعي السياسي للطالب الجامعي، ومدى فهمه لواقع الحياة الاجتماعية والسياسية. وقد شملت الدراسة عينة بلغت ٨٢٠ طالبا وطالبة من جامعة الزقازيق، وبينت الدراسة النتائج التالية:

- انخفاض درجة وعي الطلاب بالأمور والقضايا السياسية في المجتمع.
- ارتفاع درجة وعي الطلاب بأهمية المشاركة السياسية.
- انخفاض درجة وعي الطلاب بالقضايا والأمور الاقتصادية في المجتمع.
- ارتفاع درجة وعي الطلاب بالأمور والقضايا الاجتماعية في المجتمع.
- ارتفاع درجة وعي الطلاب ببعض القضايا والأمور العربية، وعلاقة مصر بالدول العربية.
- لا توجد فروق في درجة الوعي بين الطلاب والطالبات في المجالات السابقة.

سوريا:

تعد الدراسة التي أجراها الباحث [٣٢] في سوريا حول «الأبعاد القومية والاجتماعية للطموحات السياسية لدى عينة من طلاب جامعة دمشق» عام ١٩٩٧ من الدراسات الحديثة والمهمة أيضا في سياق البحث في ماهية الوعي الطلابي بالقضايا السياسية والاجتماعية. فالدراسة تعالج الوعي الاجتماعي والقومي عند الطلاب أفراد العينة، وقد أجريت الدراسة في سوريا في جامعة دمشق في بداية العام الدراسي ١٩٩٧ على عينة من الطلاب الجامعيين بلغت ٣٢٢ طالبا وطالبة. وقد صممت استبانة لهذا الغرض قادرة على تحديد الملامح الأساسية لاتجاهات الطلاب نحو القضايا السياسية القومية والاجتماعية. وقد نهجت الدراسة منهج البحث الوصفي ووظفت إمكانات الإحصاء التحليلي لدراسة أوجه التباين بين متغيرات الدراسة المختلفة.

ينطلق البحث للإجابة عن مجموعة من الأسئلة المنهجية التي تتصل بواقع الاتجاهات السياسية عند الطلاب، ومن أهم الجوانب التي تطرقت إليها الدراسة يمكن الإشارة إلى ما يلي: عملت الدراسة على رصد مدى حضور المشاعر القومية في وعي الشباب الجامعي، وبينت بالتالي أن الشعور القومي بأبعاده المختلفة مازال جارفا في مختلف مستوياته. وقد عملت الدراسة على تحديد سلم أولويات القيم والطموحات السياسية السائدة اليوم عند الشباب المستفتين وبينت أن تسلسل القيم يأخذ النسق التالي:

التضامن العربي، فالعدالة الاجتماعية، فكرامة الإنسان وحقوقه، ومن ثم الوحدة العربية، وإعادة الأرض المغتصبة، وتحسين الشروط الاجتماعية لحياة المواطنين، وبالتالي تحقيق التقدم الاجتماعي وأخيرا تحقيق السلام العادل في المنطقة.

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة هي: أن البعد الاجتماعي يأخذ أهمية أكبر من البعد القومي في اهتمامات الشباب واتجاهاتهم. وبينت الدراسة أن المفاهيم الجديدة، ولا سيما السلام العادل في المنطقة، ما زالت تأخذ مكانا في أسفل السلم القيمي للشباب. كما اتضح أن عامل الجنس يمارس دورا جوهريا في تحديد نسق الطموحات والقيم عند الشباب. وتبين أيضا أن الاختصاص العلمي يلعب دورا جوهريا في التأثير في نسق الطموحات السياسية بأبعادها القومية والاجتماعية. واتضح أيضا تأثير عامل الاختصاص، فطلاب العلوم الإنسانية أكثر ميلا إلى تحقيق الطموحات الاجتماعية قياسا إلى الطموحات القومية. وبين التحليل غياب تأثير متغير الريف والمدينة في بنية الطموحات السياسية والاجتماعية عند طلاب الجامعة.

ومن الأفكار المهمة التي تجليها هذه الدراسة العلاقة الجوهرية بين الظروف الاجتماعية للطلاب وتوجهاتهم القومية. لقد بدا واضحا أن الوضع الاجتماعي المتراجع يؤدي إلى غلبة الطموحات الاجتماعية على القومية.

يمكن الإشارة إلى الدراسة المهمة التي أجراها عدنان أبو عمشة في عام ١٩٦٨ لقيم الطلبة في جامعات الجمهورية العربية السورية والتي هدفت إلى الكشف عن القيم السائدة عند طلاب الجامعة في سوريا ساعيا إلى استطلاع القيم التالية: النظرية الاقتصادية والجمالية والاجتماعية والسياسية. تناولت هذه الدراسة عينة شملت ٢٤٠ طالبا و٧٣ طالبة، وبينت الدراسة أن الطلبة السوريين يميلون إلى القيم المثالية حسب الترتيب التالي: القيم النظرية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، ثم الدينية، وأخيرا الجمالية. وبينت المقارنة التي أجراها الباحث أن الطالبات يفضلن القيم الجمالية والاجتماعية والدينية، بينما يفضل الطلاب القيم النظرية والاقتصادية والسياسية [٣٤].

وقد أجرت الدكتورة ملكة أبيض ثلاث دراسات تناولت فيها مسألة القيم عند الشباب الجامعي، ويمكن عرض هذه الدراسات المهمة كما يلي:

الدراسة الأولى: قيم الشباب التي أجريت في العام ١٩٦٧ على عينة من طلاب جامعة دمشق بلغت ٢٦٥طالبا وطالبة من مختلف السنوات الدراسية، وهدفت الدراسة إلى استطلاع الجوانب الاجتماعية التي تتعلق بالقيم، حيث جاءت قيمة المهنة في مطلع سلم القيم الذي يتعلق بمصدر الرضا في الحياة، تلتها الأسرة، فالقومية، فالمواطنة، فالإنسانية، وأخيرا الترويح[٣٥].

الدراسة الثانية: أجرتها الباحثة بعنوان أهداف التربية عام ١٩٧٠ على عينة واسعة من الطلاب بلغت ٣٠٥ من طلاب معهد إعداد المدرسين في دمشق الذين تتراوح أعمارهم بين ١٧ و٢٢ سنة. وبينت نتائج هذه الدراسة أن الشباب يعولون على تحقيق الوحدة العربية من أجل

تحقيق النهوض الحضاري في المستقبل، يلي ذلك الاشتراكية، وعلى التوالي التقدم العلمي ثم الحرية، والتحرر، فالنمو الاقتصادي، فالقوة العسكرية، وأخيرا العمل الفدائي. وبينت هذه الدراسة أن الشباب يتمسكون بالأخلاق والعادات الأصيلة في التراث العربي ثم بالعلوم، على التوالي، بالآداب والفنون، وأخيرا بالأصل العربي. أما الأخلاق والعادات والتقاليد التي يتمسك بها أفراد العينة فتتسلسل كالتالي: الشجاعة، الكرم، المروءة، طلب العلم، الأمانة والإخلاص والصدق، العدل والمساواة والاشتراكية، والوفاء، والتعاون، الجهاد في سبيل الوطن، الشورى الانفتاح الحضاري، الإيثار، الروابط العائلية، وأخيرا التواضع.

وعلى خلاف ذلك فإن القيم التي يرفضها الشباب تأخذ الاتجاه التالي: عبودية المرأة، العادات القديمة والبدع، التعصب الديني والطائفي، العصبية القبلية (الثأر)، تعدد الزوجات، الطلاق والمهور... إلخ (أبيض ملكة: ١٩٨٤).

الدراسة الثالثة: أجرتها الباحثة في العام ١٩٨٣، وهدفت إلى المقارنة بين طلاب هذه المرحلة والدراسة التي أجرتها عام ١٩٦٧، وهي بعنوان «قيم الشباب» أيضا، وتناولت الباحثة عينة بلغت ٣١٥ طالبا وطالبة من طلاب جامعة دمشق. ومن النتائج التي تبينها هذه الدراسة تراجع قيمة القومية وذلك بالقياس إلى دراسة ١٩٦٧. ففي الدراسة الأولى كانت المهنة ثم الأسرة فالقومية هي مصادر الرضا الثلاثة الأولى ولكن ذلك النسق يأخذ المهنة فالمواطنة فالأسرة في الدراسة الثانية.

لبنان:

ويقتضي الموقف العلمي في هذا السياق أن يشار إلى الدراسة المهمة لنزار إبراهيم بعنوان «البنى الاعتقادية في الذهنية الشبابية العربية المثقفة»، حيث تناول الباحث عينة واسعة من الشباب العربي وهدفت دراسته إلى تقصي الوعي السياسي بمختلف تجلياته الاجتماعية والدينية والقومية. وقد بينت هذه الدراسة أولوية الانتماء الضيق عند الشباب العربي حيث أخذت الانتماءات إلى العائلة والقبيلة أهمية وأولوية على الانتماء الوطني والقومي [٣٩].

وفي هذا المستوى يمكن الإشارة إلى دراسة لاحقة للباحث نفسه [٤٠] حول: «الوعي السياسي لدى الشباب العربي المثقف». وقد أجريت الدراسة على عينة من الشباب المثقف (الباحث لا يحدد التاريخ أو حدود الدراسة)، وبينت الدراسة أن ٣٧٪ من الشباب يعطون الاشتراكية المرتبة الأولى تليها الوحدة بنسبة ٣٢٪. أما الأممية فصنفت أخيرا وفي نهاية السلم الاجتماعي.

وقد حمّل أفراد العينة الأنظمة العربية مسؤولية ضياع فلسطين بنسبة ٩٣٪، وأعلن ٨٩٪ أنهم يرفضون إجراء مصالحة مع إسرائيل، كما أن ٩٠٪ منهم عارضوا زيارة السادات إلى الكيان الصهيوني، ورفض ٩١٪ من أفراد العينة شعار «رمي اليهود في البحر». وأعرب ٦٩٪ من أفراد العينة عن اهتمامهم فقط بأمورهم الذاتية، وأنهم لا علاقة لهم بقضايا الأيديولوجيا

والسياسة والأحزاب، بينما عارض ذلك ٢٤٪، معتبرين أنهم معنيون بكل أمور المجتمع والوطن، وأن قضاياهم الذاتية هي جزء من تلك القضايا.

نتائج تتعلق بالدراسات السابقة:

تبين القراءة النقدية للدراسات العربية السابقة مجموعة من النقاط المهمة وهي:

- تراجع خصوصية النزعة القومية في بنية الوعي السياسي العربي.
- الحضور المتقدم للانتماء الإسلامي وتنامي أهميته في بنية هذا الوعي.
- ضعف وتيرة الانتماء الوطني والمدني، لا سيما في بلدان الخليج العربي.
- حضور قيم الانتماء القبلي في نسق المفاهيم والتصورات السياسية السائدة في بنية الوعي السياسي.
- تنامي الإحساس بأهمية الانتماء الإقليمي، ولا سيما في منطقة الخليج العربي.
- تنامي الوعي الاجتماعي وتقدمه فيما يتعلق بجوانب الحياة الاجتماعية، ولا سيما الحياة الديموقراطية وحقوق الإنسان.
- تزايد وتيرة القبول للحلول السلمية والتطبيع مع العدو الصهيوني عند شرائح محددة من الشباب والمثقفين العرب.
- أن الشباب والمثقفين يمتلكون صورة متقدمة للتحديات التي تواجه مصير بلدانهم ويؤمنون أيضا بأهمية التضامن العربي والإسلامي في مواجهة هذه التحديات المصيرية.

منهج الدراسة وأداتها

تُجرى الدراسة وفقا لمنهج البحث الوصفي بما يشتمل عليه هذا المنهج من خطوات علمية ومنهجية. وغني عن البيان أن هذا المنهج يستجيب لطبيعة القضية المطروحة التي تحتاج إلى خطة ميدانية يتم وفقا لها تحديد الفرضيات، ويمكّن من اختبار الفرضيات والتساؤلات وفقا لمعطيات البحث، وعلى أساس الاختبارات الإحصائية القادرة على الفصل بين مختلف الجوانب الإشكالية للقضية المدروسة.

أعدت استبانة البحث بناء على عدد من القراءات المنهجية حول مواقف الشباب واتجاهاتهم نحو قضايا الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات العربية المعاصرة. وتتصف أداة الدراسة الحالية بطابع شمولي فهي تتضمن قضايا متنوعة تتصل بمضامين الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للشباب [٤١].

اشتملت الأداة (استبانة البحث) على صحيفة المعلومات الأساسية، وعلى عدد من الأسئلة الأساسية المتعلقة بمواقف الطلاب السياسية ومضامين وعيهم الاجتماعي. لقد طُلب من

الشباب، وعبر سؤال مفتوح، تحديد أهم التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر. ومن ثم طلب منهم ترتيب بعض الطموحات السياسية والاجتماعية في نسق هرمي يتشكل من ثمانية طموحات قومية واجتماعية. ويضاف إلى ذلك أن الاستبانة، قد تضمنت سؤالين مفتوحين حول العادات والقيم الإيجابية السائدة في المجتمع الكويتي من جهة، ومن ثم تحديد العادات والقيم السلبية السائدة في هذا المجتمع من جهة أخرى.

صدق الأداة وثباتها Validity and Reliability of the scale

حُسب الصدق الخارجي وفقا لآراء عدد من المحكمين في كلية التربية وفي كلية الآداب قسم علم الاجتماع في جامعة الكويت وبعض الزملاء في جامعات عربية أخرى، وعُدِّلت وفقا للملاحظات التي أبداها السادة المحكمون [٤٢].

ومن ثم حُسب صدق المضمون أو صدق المحتوى Content validity وفقا لمصفوفة الارتباط والاتساق الداخلي للفقرات التي تتعلق بنسق الطموحات السياسية. وقد بينت مصفوفة الارتباط الخاصة بالأداة أن الارتباط بين مختلف العبارات دالّ بصورة كاملة ١٠٠٪. واتضح أن الارتباط قد تحقق في مستوى ٠.٠١ بصورة كلية. وهذه النتيجة تدل على درجة عالية من صدق الاتساق الداخلي لبنود المقياس.

وفيما يتعلق بثبات الأداة Reliability of the scale حُسب معامل الثبات وفقا لمعادلة جرونباخ ألفا Gronbach Alpha لحساب الثبات. وتعد هذه الطريقة هي الأفضل والأكثر شيوعا لحساب الثبات (Nunnaly 1978) [٤٣].

ويعرف معامل الثبات:

$$\text{ألفا} = \frac{\text{ن}}{(\text{ن}-١)} \times ١ - \frac{\text{مجع ٢.٠}}{\text{ع٢ن}}$$

وقد بلغ معامل الثبات للأداة فيما يتعلق بنسق الطموحات ٥١٥. ٠ وهذه النتيجة تشير إلى معامل ثبات عال مناسب.

عينة البحث

بدأت إجراءات الدراسة في عام ١٩٩٩، واختيرت عينة البحث وفقا لمنهجية العينة بالحصة، وتعد هذه العينة مناسبة جدا لأغراض البحث الحالي، حيث روعي في هذه العينة أن تشمل أغلب الكليات الجامعية [٤٤]. ومن أجل ضمان قدرة هذه العينة على تمثيل المجتمع الإحصائي المدروس أُكِّد على أهمية حجم العينة، حيث بلغت ٧١٤ طالبا وطالبة. وفي هذا الصدد تؤكد الأبحاث الإحصائية أنه كلما ازداد حجم العينة قل الخطأ المعياري للمعاينة وازدادت قدرتها على تمثيل المجتمع المدروس. ويضاف إلى ذلك أن العينة التي نحن بصددها تتجانس، إلى حد كبير، مع خصائص المجتمع الجامعي المدروس،

حيث بلغ متوسط أعمار أفراد العينة ٢٠,١٤ والوسيط ٢٠ عاما، بينما بلغ المتوال ١٩ عاما. وهذه هي تقريبا مواصفات المجتمع الأصلي للعينة (جدول رقم ١). وقد بلغ عدد الذكور ٢٩٧ طالبا بنسبة ٤١,٦٪، وبلغ عدد الطالبات الإناث ٤١٧ طالبة بنسبة ٥٨,٤٪ (انظر الجدول رقم ٢).

جدول رقم ١: المواصفات والخصائص الإحصائية لعينة البحث

الفئات العمرية لأفراد العينة	التكرار	نسبة مئوية	نسبة مئوية تراكمية
١٨	١١٧	١٦,٤	١٦,٥
١٩	١٧٣	٢٤,٢	٤١,٠
٢٠	١٥٤	٢١,٦	٦٢,٧
٢١	٩٧	١٣,٦	٧٦,٤
٢٢	٨٥	١١,٩	٨٨,٤
٢٣	٨٢	١١,٥	١٠٠
المجموع	٧٠٨	٩٩,٢	
الخصائص الإحصائية للعينة	متوسط	وسيط	متوال
	٢٠,١٤٩٧	٢٠	١٩

الجدول رقم (٢) توزع أفراد العينة وفقا لمتغيري الجنس والكلية

		ذكور	إناث	المجموع
حقوق وتجارة	عدد	٢٧	٢٩	٦٦
	نسبة	١٢,٥٪	٧,٠٪	٩,٢٪
علوم	عدد	٥٣	١٢٥	١٧٨
	نسبة	١٧,٨٪	٣٠,٠٪	٢٤,٩٪
هندسة	عدد	٨٧	٣١	١١٨
	نسبة	٢٩,٣٪	٧,٤٪	١٦,٥٪
طب وصيدلة	عدد	٢٦	٤١	٦٧
	نسبة	٨,٨٪	٩,٨٪	٩,٤٪
تربية وآداب وشريعة	عدد	٩٤	١٩١	٢٨٥
	نسبة	٣١,٦٪	٤٥,٨٪	٣٩,٩٪
المجموع	عدد	٢٩٧	٤١٧	٧١٤
	نسبة	١٠٠	١٠٠	١٠٠

نتائج الدراسة:

أولا: التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر

في معرض الإجابة عن السؤال المفتوح حول أهم التحديات السياسية والاجتماعية والتي يواجهها المجتمع العربي المعاصر يمكن للمستقتي أن يقدم أربع إجابات تمثل أربعة تحديات، وقد صُنفت هذه التحديات في الجدول رقم (٣):

الجدول رقم (٣)

السؤال ١: التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر وفقا لمتغير الجنس

	التحديات التي أعلنها أفراد العينة	ذكور ٪	إناث ٪	مجموع ٪
١	التقليد الأعمى للغرب وضياع الهوية العربية الإسلامية	٢٤,٧	٢٣,٣	٢٣,٩
٢	غياب الديموقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي	١٩,٨	١٩,١	١٩,٤
٣	تحقيق الوحدة العربية الإسلامية	١٩,٠	١٨,٠	١٨,٤
٤	الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية	١١,٩	٩,٦	١٠,٦
٥	تحقيق السلام العادل في المنطقة	٤,٤	٧,٧	٦,٣
٦	الطلاق والتفكك الأسري	٣,٧	٦,٤	٥,٣
٧	التخلف التكنولوجي والعلمي والاقتصادي	٣,٨	٢,٢	٣,٥
٨	التعصب والتمييز والعنصرية	٣,٣	٢,٨	٣,٠
٩	المخدرات وانحراف الشباب	٢,٩	٣,٠	٣,٠
١٠	التطرف والإرهاب السياسي والفكري	٣,٠	٢,٧	٢,٨
١١	الاعتداءات الإسرائيلية على جنوب لبنان	٢,٣	١,٧	٢,٠
١٢	قضية الأسرى والمفقودين الكويتيين	١,٣	٢,٣	١,٩
المجموع	٪	١٠٠	١٠٠	١٠٠
	تكرارات	٨٦٠	١١٥٨	٢٠١٨

اختبار كا٢ (Chi-Square Test) لدلالة الفروق الإحصائية			
دلالة Asymp. Sig. (2-sided)	درجة الحرية Df	قيمة كا٢ Value	
دالة في مستوى ٠١٨.	١١	٢٢,٩٢٠	Pearson chi-Square

لقد حدد الشباب أفراد العينة اثني عشر تحديا رئيسا تواجه المجتمع العربي المعاصر. وفي طليعة هذه التحديات يعلن الشباب بأن الهوية العربية الإسلامية في خطر وأن التقليد للغرب والتماهي فيه يضع العرب والمسلمين على شفا هاوية خطرة، حيث بلغت تكرارات هذا التحدي ٢٣,٩٪، ويلي ذلك مباشرة غياب الديموقراطية، وحقوق الإنسان في الوطن العربي ١٩,٤٪ من التكرارات. ومن يتابع قراءة الجدول يجد أن أفراد العينة استطاعوا تشخيص الواقع الاجتماعي بتحدياته المختلفة التي تتمثل في التعصب والعنف والإرهاب وغياب الديموقراطية والتخلف العلمي والتكنولوجي. وهذا يعني أن وعي الطلاب يتميز بقدرة عالية على تحديد المشكلات الحقيقية التي تواجه المجتمعات العربية المعاصرة. وفي هذا السياق يجب أن نلاحظ أيضا أن أفراد العينة لا يحاولون الفصل بين المفهوم القومي والمفهوم الإسلامي، فأغلب الطلاب يزاوجون بين هذين المفهومين، وفي هذا التمازج نوع من الغموض في الرؤية العلمية لقضية العلاقة بين الدين والقومية، ونحن نعتقد في هذا الخصوص أن هذه المزاوجة تعود إلى تعرض الطلاب لجرعات فكرية تحاول تجاوز البعد القومي العربي للقضايا العربية ذات الطابع القومي.

وبعد المقارنة بين إجابات أفراد العينة وفقا لمتغير الجنس تبين وجود فروق دالة، هناك فروق إحصائية بين الذكور والإناث، فالإناث يعطين أهمية أكبر لمسألة السلام العادل في المنطقة ٧,٧٪ مقابل ٤,٤٪ عند الذكور، وهذا ينسحب أيضا على قضية التفكك الأسري والطلاق، حيث تبدي الإناث لهذه القضية درجة أكبر من الذكور: ٦,٤٪ مقابل ٣,٧٠٪.

وفي مستوى المقارنة بين إجابات الطلاب وفقا لمتغيرات المحافظة وثقافة الأبوين تبين أيضا ضآلة الفروق المعنوية بين إجابات الطلاب، وهذا يعني بصورة إحصائية أن إجابات الطلاب متجانسة حول مسألة التحديات السياسية والاجتماعية التي تواجه المجتمعات العربية كما هي معلنة في الجدول رقم (١).

ومن أجل بناء تصور آخر يتكامل مع التصور الأول حول التحديات التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر طلبنا من أفراد العينة في سؤال مفتوح آخر تحديد أربعة من التحديات

الاجتماعية التي يواجهها المجتمع الكويتي المعاصر بخاصة. وهذا السؤال يأخذ بعين الاعتبار الأوضاع الاجتماعية السلبية التي يواجهها المجتمع الكويتي. وبلغت المفردات التي أعلنها الطلاب ٢٢٠٩ مفردات صنفت في الجدول رقم (٤) وفقا لمعيار النسب المئوية.

السؤال ٤: التحديات الاجتماعية في المجتمع الكويتي وفقا لمتغير الجنس

		ذكور	إناث	المجموع
١	حب المظهر والترف والإسراف	٢٠,٧٪	٢١,١٪	٢٠,٩٪
٢	التعصب القبلي والاجتماعي والطائفي	١٩,٥٪	١٧,٠٪	١٨,٠٪
٣	الوساطة والرشوة والمحسوبية	١٧,٠٪	١٦,٠٪	١٦,٤٪
٤	التقليد الأعمى	١١,٧٪	٨,٥٪	٩,٨٪
٥	الزواج المبكر	٢,٢٪	٨,٥٪	٥,٩٪
٦	الفساد الاجتماعي: الغش والخداع والنميمة وقطع الأرحام	٨,٠٪	٣,٦٪	٥,٤٪
٧	الاختلاط بين الجنسين	٤,٥٪	٥,٠٪	٤,٨٪
٨	المربيات الأجنبيات والخدم	٣,٢٪	٤,١٪	٣,٨٪
٩	الطلاق والتفكك الأسري	٣,١٪	٤,١٪	٣,٧٪
١٠	غلاء المهور	٤,٢٪	٢,٩٪	٣,٤٪
١١	النظرة الدونية للمرأة	١,٣٪	٣,٧٪	٢,٨٪
١٢	غياب الإحساس بالمسؤولية عند المواطن	٢,٠٪	٢,٣٪	٢,٢٪
١٣	الزواج من غير الكويتيات	٠,٧٪	٢,٢٪	١,٦٪
١٤	المخدرات والخمور والتدخين	١,٨٪	١,٠٪	١,٣٪
المجموع	تكرارات	٨٩٨	١٣١١	٢٢٠٩
	٪	١٠٠	١٠٠	١٠٠

والجدول السابق واضح بذاته حيث رُصد ١٤ محورا من محاور التحديات الاجتماعية المعاصرة. ويتضح من الجدول عمق إحساس الطلاب بالمشكلات والتحديات الاجتماعية التي يواجهها المجتمع الكويتي والخليجي بصورة عامة. فالأدبيات الاجتماعية تؤكد، وبصورة دائمة، عمق المعاناة الناجمة عن البذخ والإسراف وحب المظاهر، حيث احتل هذا التحدي صدارة التحديات، ثم تلاه تحدي التعصب الذي يعد أخطبوط المخاطر التي تهدد الوجود العربي الإسلامي. وفي المرتبة الثالثة جاء خطر الوساطة والرشوة والمحسوبية التي تنخر الوجود العربي الاجتماعي. وبصورة عامة يمكن القول إن الصورة التي قدمها الطلاب للواقع الاجتماعي تقترب إلى حد كبير من الصورة التي تقدمها التصورات السوسيولوجية في المنطقة العربية.

وتبين المقارنة بين إجابات الجنسين، فيما يتعلق بالتحديات الاجتماعية في الكويت، وجود فروق دالة إحصائيا بين الطرفين، كما يسفر عن ذلك اختبار كا٢ الذي يؤكد هذه الفروق على النحو الذي رسم له في الجدول التالي رقم (٥).

جدول رقم (٥) اختبار كا٢ لدلالة الفروق الإحصائية بين الجنسين

Asymp. Sig. (2-sided) الدلالة	Df د.ح	Value قيمة كا٢	Pearson Chi-Square
٠	١٢	٨٩،٤٦٩	كا٢

ومن أجل تحديد جوانب هذه الفروق الإحصائية يمكن العودة إلى الجدول (٢)، حيث نلاحظ هذه الفروق فيما يتعلق بالزواج المبكر، إذ تمحورت ٨،٥ ٪ من إجابات الإناث حول أهمية هذه المشكلة الاجتماعية مقابل نسبة مئوية متدنية عند الذكور بلغت ٢،٢٪. وهذا يعني أن الإناث يتحسسن مشكلة الزواج المبكر بدرجة أكبر من الذكور. ومن جهة أخرى يشار إلى الفروق الخاصة بالفساد الاجتماعي حيث يتحسس الذكور هذه القضية بدرجة أكبر من الإناث: ٨٪ للذكور مقابل ٣،٦٪ عند الإناث.

وتأخذ هذه الفروق مداها أيضا في مختلف القضايا التي تخص الجنسين ولا سيما فيما يتعلق بغلاء المهور حيث يتحسس الذكور هذه المشكلة بدرجة أكبر من الإناث: ٤،٢٪ للذكور مقابل ٢،٩٪ للإناث. وفيما يتعلق بالنظرة الدونية للمرأة حيث، تتحسس المرأة هذه المشكلة بدرجة أكبر من الذكور ٣،٧٪ عند الإناث مقابل ١،٣٪ عند الذكور. وقد تبين بعد إجراء

اختبار كا٢ للفروق بين إجابات الطلاب وفقا لمتغير المحافظات غياب الفروق الدالة إحصائيا بين إجابات الطلاب، كما هو موضح في الجدول رقم (٦):

جدول رقم ٦: اختبار كا٢ مربع لدلالة الفروق الإحصائية

Pearson Chi-Square	Value قيمة كا٢	Df د . ح	Asymp. Sig. (2-sided) الدلالة
كا٢	(a) ٦١,٧٨٢	٥٢	٠,١٦٦

الجوانب الإيجابية للحياة الاجتماعية في الكويت:

لكي لا تكون رؤيتنا للواقع العربي قاتمة جدا، ولكي لا تتخندق رؤيتنا في الجانب الأسود من الواقع العربي طلبنا من الطلاب أفراد العينة أن يرسموا لنا أهم الجوانب الإيجابية في الحياة الاجتماعية العربية. ففي السؤال الثالث المفتوح طلب من الطلاب تقويم الواقع من الناحية الإيجابية وتحديد القيم والعادات الإيجابية في الحياة الاجتماعية الكويتية. ويرتسم هذا السؤال تحديدا كما يلي: اذكر أربع عادات أو قيم إيجابية تفضلها في المجتمع الكويتي:

وبعد تفريغ السؤال وتصنيف الإجابات تم الحصول على ١٨٥٩ مفردة تتضمن كل منها قيمة أو عادة اجتماعية في المجتمع الكويتي، وصنفت هذه المفردات في الجدول رقم (٧).

الجدول رقم (٧)

سؤال ٢٦: القيم والعادات الإيجابية في المجتمع الكويتي وفقا لمتغير الجنس

	المظاهر الإيجابية في الحياة الاجتماعية في الكويت		ذكور	إناث	المجموع
١	عادات وقيم التماسك الاجتماعي: التواد والتراحم والترابط الأسري والتآلف والمحبة وعمل الخير	عدد	٣٧٨	٦١٣	٩٩١
		٪	٪٤٨,١	٪٥٧,١	٪٥٣,٣
٢	قيم المودة والصداقة والأخوة والحب والوفاء وقيم الخير والتسامح	عدد	٢٠٥	٢٤٥	٤٥٠
		٪	٪٢٦,١	٪٢٢,٨	٪٢٤,٢
٣	المجالس والديوانيات كصيغة من صيغ التماسك الاجتماعي	عدد	١٢٨	١٣٦	٢٦٤
		٪	٪١٦,٣	٪١٢,٧	٪١٤,٢
٤	التمسك بعادات وقيم الدين الإسلامي الحنيف	عدد	٧٥	٧٩	١٥٤
		٪	٪٩,٥	٪٧,٤	٪٨,٣
	المجموع	عدد	٧٨٦	١٠٧٣	١٨٥٩
		٪	١٠٠	١٠٠	١٠٠

ويتضح من الجدول السابق أن أغلب القيم والعادات التي أشار إليها الطلاب هي القيم الثقافية العربية التي تؤكد التواصل والتراحم والتمسك بقيم الدين الإسلامي الحنيف. وقد بين اختبار كا٢ وجود فروق دالة إحصائيا بين الجنسين، كما يبين الجدول التالي رقم (٨).

جدول رقم ٨: اختبار كا٢ لدلالة الفروق الإحصائية

Pearson Chi-Square	Value قيمة كا٢	Df د.ح	Asymp. Sig. (2-sided) الدلالة
كا٢	١٥,٦٩٤	٣	٠,٠٠١

وتعود الفروق الملاحظة إلى تشديد الإناث على أهمية عادات التماسك الاجتماعي والتراحم حيث بلغت نسبة الشدة ٥٧,١٪ عند الإناث مقابل ٤٨,١٪ عند الذكور، كما تعود هذه الفروق إلى تأكيد الذكور أهمية الديوانيات بدرجة أكبر من الإناث: ١٦,٣٪ عند الذكور مقابل ١٢,٧٪ عند الإناث.

من التحديات إلى الطموحات السياسية والاجتماعية:

«يعيش الفرد العربي ضمن ولاء وانتماء مزدوج فهو مواطن في دولة قطرية حديثة، كما أنه ينتمي بشكل أو بآخر إلى أمة أوسع مدى من الدولة القطرية هي الأمة العربية الإسلامية. ويعيش كلا الانتماءين في الذات العربية... ويؤدي بالتالي هذا الانتماء المزدوج إلى نوع من ازدواج الشخصية ويخلق نوعا من انقسام الذاتية والهوية»[٤٥].

ومن أجل استجلاء جوهر هذا التناقض في وعي الشباب الجامعي، ومن أجل أن تكتمل ملامح وعي الشباب لهذا الموقع ترتب علينا أن نستنفر صورة الطموحات التي تأخذ مكانها في داخل هذا الوعي، وأن نحدد أولويات هذه الطموحات ومحاور اتجاهاتها. ومن أجل هذه الغاية وضعنا أمام الطلاب افراد العينة جدولا يتضمن منظومة من الطموحات، وطلبنا إليهم ترتيب هذه الطموحات وفقا لأهميتها وضرورتها في الواقع العربي بتناقضاته العربية والإسلامية. وتتضمن هذه الطموحات ثماني عبارات تشمل جوانب الواقع السياسي والاجتماعي العربي، ورتبت هذه الطموحات في الجدول رقم (٩) وفقا لمتغير الجنس عند الشباب الجامعي:

جدول رقم ٩: جدول مقارن لنسق الطموحات السياسية والاجتماعية عند الذكور والإناث

الذكور		الطموحات السياسية والاجتماعية	الإناث	
نسق الأولوية	متوسط		متوسط	نسق الأولوية
٢	٥,٩٠٦	تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان	٦,٢٦٧	١
١	٦,١٣٢	تحقيق التضامن الإسلامي	٥,٩١٤	٢
٤	٥,٠٢٤	تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية	٥,٢٧٨	٣
٥	٤,٨٥٨	تحقيق الوحدة العربية	٤,٨٠١	٤
٦	٤,٨٧٢	تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي	٤,٥١٢	٥
٧	٤,٨٢٨	تحقيق التضامن العربي	٤,٤٧٤	٦
٣	٥,٠٢٤	إعادة الأرض العربية المغتصبة (فلسطين)	٤,٠٩٤	٧
٨	٣,٩٨٧	تحقيق الديموقراطية السياسية	٣,٩٥٢	٨

يتضح من الجدول السابق (٩) أن تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان يتصدر سلم طموحات الشباب، ويحتل المرتبة الأولى، ويلي ذلك تحقيق التضامن الإسلامي (المرتبة الثانية)، ومن ثم تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية (المرتبة الثالثة)، وفي المرتبة الرابعة تأتي الوحدة العربية، وفي الخامسة يأتي التضامن العربي، ثم تأتي قضية استعادة الأرض المغتصبة في المرتبة السابعة، ثم تأتي الديموقراطية السياسية في المرتبة الأخيرة.

وفي هذا التصنيف الذي تضمنه الجدول رقم (٩) يمكن ملاحظة النقاط التالية:

١- تعاظم أهمية العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان (المرتبة الأولى) قياسا إلى قضية الديموقراطية السياسية التي احتلت المرتبة الأخيرة.

٢- أن التضامن الإسلامي يأخذ أهمية كبيرة جدا (المرتبة الثانية) بالقياس إلى التضامن العربي (المرتبة السادسة) أو الوحدة العربية (المرتبة الرابعة).

٣- تراجع الاهتمام بقضية الأرض المغتصبة (فلسطين) مع ما لهذه القضية من أهمية تاريخية عند العرب والمسلمين. وهنا يمكن لنا القول بأن التسوية السلمية بدأت تنمو على حساب أهمية الأرض المغتصبة.

٤- لم يأخذ التقدم العلمي والتكنولوجي الأهمية المتوقعة في عصر الثورات العلمية والمعرفية المتصاعدة.

٥- يبين الجدول السابق أن المفارقة الكبيرة بين الذكور والإناث تكمن في مسألة الأرض العربية المغتصبة فهذه القضية تأخذ مرتبة متأخرة عند الإناث (المرتبة السابعة) بينما تأخذ مكانة مهمة (المرتبة الثالثة) عند الذكور.

٦- وبصورة عامة وبالمقارنة بين المتوسطات يلاحظ أن الإناث يولين القضايا التالية أهمية أكبر من الذكور وهي: العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، ثم تحقيق السلام العادل في المنطقة. وفيما عدا ذلك فإن القضايا الأخرى تأخذ اهتماما أكبر من قبل الذكور مثل: التضامن الإسلامي، والوحدة العربية، والأرض المغتصبة، والديموقراطية السياسية.

٧- بصورة عامة يمكن القول إن الذكور أكثر ميلا إلى الاهتمام بالقضايا السياسية، بينما نجد أن الإناث أكثر ميلا إلى الاهتمام بالقضايا الاجتماعية.

الفروق المعنوية بين الشباب وفقا لمتغير الجنس:

ومن أجل اختبار معنوية الفروق الإحصائية لأولوية الطموحات السياسية عند الطلاب وفقا لمتغير الجنس أجري اختبار ستيودنت (T) وعرضت نتائجه في الجدول رقم (١٠):

جدول رقم (١٠) اختبار ستيودنت .ت. للفروق الإحصائية بين إجابات الجنسين حول تصنيف الطموحات الاجتماعية والسياسية

العبارات	الجنس	N	متوسط	قيمة T	د. حرية	مستوى الدلالة
تحقيق العدالة الاجتماعية	ذكور	٢٩٧	٥,٩٠٦			
وحقوق الإنسان	إناث	٤١٧	٦,٣٦٧	-٣,٧٧٦	٧١٢	٠,٠٠٦ **
إعادة الأرض العربية المغتصبة	ذكور	٢٩٦	٥,٠٢٤			
(فلسطين)	إناث	٤١٧	٤,٠٩٤	٤,٦١٥	٧١١	٠ **
تحقيق السلام العادل	ذكور	٢٩٧	٤,٨٧٢			
في المنطقة العربية	إناث	٤١٧	٥,٢٧٨	-٢,٥١٢	٧١٢	٠,٠١٢
تحقيق التقدم الاجتماعي	ذكور	٢٩٧	٤,٨٢٨			
والتكنولوجي	إناث	٤١٧	٤,٥١٣	١,٧٦٢	٧١٢	٠,٠٧٩
تحقيق الوحدة العربية	ذكور	٢٩٦	٤,٨٥٨			
	إناث	٤١٦	٤,٨٠١	٠,٣٣٢	٧١٠	٠,٧٤
تحقيق التضامن العربي	ذكور	٢٩٥	٤,٦			
	إناث	٤١٦	٤,٤٧٤	٠,٧٧٥	٧٠٩	٠,٤٣٨
تحقيق الديموقراطية	ذكور	٢٩٧	٣,٩٨٧			
السياسية	إناث	٤١٤	٣,٩٥٢	٠,١٨٨	٧٠٩	٠,٨٥١
	ذكور	٢٩٦	٦,١٣٢			
تحقيق التضامن الإسلامي	إناث	٤١٧	٥,٩١٤	١,٢٧	٧١١	٠,٢٠٥

** دال في مستوى ٠,٠١   * دال في مستوى ٠,٠٥

بيّن الجدول السابق وجود فروق معنوية بين الجنسين في البنود الثلاثة التالية:

- فيما يتعلق بالعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، حيث أبدت الإناث اهتماما أكبر في هذا المستوى، كما يتضح من فروق المتوسطات.
- تبدت هذه الفروق المعنوية أيضا في بند إعادة الأراضي العربية المحتلة، حيث يبدي الذكور اهتماما سياسيا أكبر بهذا الجانب السياسي.
- ظهرت هذه الفروق أيضا في بند تحقيق السلام العادل في المنطقة، حيث أبدت الإناث اهتماما أكبر بهذه القضية من الذكور.
- وعلى خلاف هذه المستويات الثلاثة يبين التحليل الإحصائي أن الفروق الملاحظة غير معنوية أو دالة في مستوى البنود الأخرى.

معنوية الفروق وفقا لمتغير الحالة المدنية:

من أجل تحديد طبيعة الفروق الإحصائية الملاحظة بين إجابات الشباب حول أولويات الطموحات السياسية والاجتماعية أجري اختبار تحليل التباين أحادي الاتجاه (معامل فيشر) لقياس الفروق الإحصائية ووُضعت النتائج في الجدول رقم (١١):

جدول رقم (١١): نتائج اختبار تحليل التباين أحادي الاتجاه (معامل فيشر) لأولوية الطموحات السياسية والاجتماعية وفقا لمتغير الحالة المدنية للطالب:

عبارات المقياس	قيمة F	مستوى الدلالة	
تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان	٠,٠٠٦	٠,٩٤	-
تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي	٠,١٨١	٠,٦٧١	-
إعادة الأرض العربية المغتصبة (فلسطين)	٠,١٤	٠,٧٠٩	-
تحقيق الوحدة العربية	٠,١٧٩	٠,٦٧٣	-
تحقيق التضامن العربي	٠,٠١٤	٠,٩٠٥	-
تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية	٠,٣٠١	٠,٥٨٤	-
تحقيق التضامن الإسلامي	٤,١٥٩	٠,٠٤٢	*
تحقيق الديموقراطية السياسية	٣,٨٢	٠,٠٥١	-

* دال في مستوى ٠,٠٥

ويتضح من الجدول رقم (١١) غياب الفروق الإحصائية بين إجابات الطلاب وفقا لمتغير الحالة المدنية، باستثناء عبارة التضامن الإسلامي، حيث سجل الاختبار الفائي وجود فروق إحصائية في مستوى ٠,٠٥، وتعود هذه الفروق إلى اهتمام أكبر للطلاب المتزوجين بالتضامن الإسلامي قياسا إلى الطلاب العزاب. حيث بلغ متوسط النقاط التي حصلت عليها هذه العبارة ٦,٤١٣ عند الطلبة المتزوجين مقابل ٥,٩٦ عند الطلاب العزاب. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن عدد العزاب بلغ ٥٩٣ عازبا وعازبة مقابل ١٠٩ من المتزوجين في العينة المسحوبة.

معنوية الفروق وفقا لمتغير الاختصاص الجامعي:

أظهر تحليل النتائج وفقا لمتغير الاختصاص الجامعي (الكليات العلمية والإنسانية) وجود بعض الفروق الدالة إحصائيا في مستوى إجابات الطلاب حول سؤال الطموحات السياسية والاجتماعية. ومن أجل اختبار معنوية هذه الفروق أجري اختبار ستيودنت الذي أفرز عدة فروق معنوية دالة كما هو موضح في الجدول رقم (١٢):

جدول رقم (١٢): نتائج الاختبار التائي
لأولوية الطموحات السياسية والاجتماعية وفقا لمتغير الاختصاص الجامعي

	قيمة T	دلالة	
تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان	-١,٣١	٠,١٩١	-
تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي	-٢,٩٠٧	٠,٠٠٤	**
إعادة الأرض العربية المغتصبة (فلسطين)	٢	٠,٠٤٦	*
تحقيق الوحدة العربية	١,١٢٣	٠,٢٥٨	-
تحقيق التضامن العربي	٠,٥٩١	٠,٥٥٤	-
تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية	٠,٥١٣	٠,٦٠٨	-
تحقيق الديموقراطية السياسية	-١,٢٠٥	٠,١٩٢	-
تحقيق التضامن الإسلامي	٢,٧٨١	٠,٠٠٦	**

* دال في مستوى ٠,٠٥ ** دال في مستوى ٠,٠١

يبين الجدول رقم (١٢) وجود فروق دالة إحصائيا في ثلاثة من بنود المقياس وهي: تحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي، وإعادة الأرض العربية المحتلة (فلسطين). وأخيرا تحقيق التضامن الإسلامي. وبعد العودة إلى المتوسطات تبين أن طلاب العلوم التطبيقية أكثر اهتماما بتحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي بلغ متوسط إجاباتهم ٤,٨٩٥ مقابل ٤,٣٨٥ عند طلاب العلوم الإنسانية.

وفيما يتعلق بإعادة الأرض المغتصبة، ومن ثم تحقيق التضامن الإسلامي، فقد تبين أن هذه الفروق المعنوية تعود لمصلحة اتجاه أكبر عند طلاب العلوم الإنسانية نحو التضامن الإسلامي وإعادة الأرض المغتصبة بالقياس إلى طلاب العلوم التطبيقية: بلغ متوسط إجابات طلاب العلوم الإنسانية، فيما يتعلق بإعادة الأرض المغتصبة ٤,٦٨٤ مقابل ٤,٢٨٢. وهذا ينسحب على قضية تحقيق التضامن الإسلامي، حيث بلغ متوسط طلاب العلوم الإنسانية ٦,٢٤٢ مقابل ٥,٧٧٤ عند طلاب العلوم التطبيقية. وباختصار يمكن القول بأن متغير الاختصاص العلمي يتدخل ليؤثر في اتجاهات الشباب وطموحاتهم السياسية فيما يتعلق بالبنود الثلاثة وهي: التقدم العلمي التكنولوجي لصالح طلاب العلوم التطبيقية، ومن ثم التضامن الإسلامي وتحرير فلسطين لصالح طلاب العلوم الإنسانية.

تأثير متغير السنوات الجامعية:

وفيما يتعلق بمتغير السنوات الجامعية تبين أن الفروق المشاهدة ليست فروقا معنوية في مختلف بنود المقياس، وذلك وفقا لاختبار تحليل التباين البسيط. وهذا يعني أن متغير توزع الطلاب في مختلف السنوات الجامعية لا يؤثر في اتجاهاتهم وطبيعة طموحاتهم الاجتماعية والسياسية. وقد فُرغت نتائج اختبار تحليل التباين في الجدول ١٣:

جدول رقم (١٣): نتائج اختبار تحليل التباين أحادي الاتجاه (معامل فيشر) لأولوية الطموحات السياسية والاجتماعية وفقا لمتغير السنة الجامعية.

عبارات المقياس	F	Sig.
تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان	٠,٢٥٢	٠,٨٦
تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي	٢,١٢٤	٠,٠٩٦
إعادة الأرض العربية المغتصبة (فلسطين)	٢,٤٦	٠,٠٦١
تحقيق الوحدة العربية	٠,١١٢	٠,٩٥٣
تحقيق التضامن العربي	١,١٥٥	٠,٣٢٦
تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية	٠,٨٠٨	٠,٤٩
تحقيق الديموقراطية السياسية	٢,٤٥	٠,٠٦٢
تحقيق التضامن الإسلامي	١,١٧١	٠,٣٢

يوضح الجدول أعلاه أن إجابات الطلاب متجانسة وأنه لا تأثير لمتغير السنة الجامعية. إذ ليس في الجدول ما يشير إلى فروق دالة إحصائيا.

خلاصة الدراسة

على هدي أسئلة منهجية نهض العمل في هذه الدراسة يستجوب عقل الشباب الجامعي ويستلهم مستوى وعيهم السياسي في مرحلة خطرة وعصيبة في تاريخ هذه الأمة التي تواجه تحديات تغيرات سياسية واجتماعية بالغة الشمول والعمق. وكانت الأسئلة المنهجة تدور حول هذه المحاور:

١- كيف يرتسم واقع التحديات التي تحيق بالأمة العربية في وعي الشباب الجامعي؟

٢- وكيف ترتسم صورة هذه التحديات التاريخية في المستوى الوطني الكويتي؟

٣- كيف تأخذ الطموحات السياسية والاجتماعية نسق وجودها في وعي الشباب الجامعي وتصوراتهم؟

٤- كيف ينظر الشباب الجامعي إلى القيم الاجتماعية الإيجابية والسلبية في المجتمع الكويتي؟ وكيف يحددون نسق تدرجها وأولويات تكاملها؟

٥- وفي مستوى البحث عن الخلفيات الاجتماعية والثقافية لهذا الوعي فإن أسئلة جوهرية بالغة العمق والأهمية تطرح نفسها وهي: هل هناك فروق معنوية وجوهرية في وعي الشباب السياسي والاجتماعي وفقا لمتغيرات: الجنس، والعمر، والمحافظة، والسنوات الجامعية، والاختصاصات العلمية؟

وفي ما يلي نقدم صورة مختصرة لأهم نتائج هذه الأسئلة:

أولا: فيما يتعلق بنسق التحديات التاريخية التي تحيط بالأمة العربية: في هذا النسق يرى الطلاب أن التحدي الأكبر يكمن في التقليد الأعمى للغرب وضياع الهوية العربية الإسلامية ٢٤.٧٪، يليه غياب الديموقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي ١٩.٤٪، ومن ثم تحقيق الوحدة العربية الإسلامية ١٨.٤٪، ثم الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية ١٠.٦٪، يليه مباشرة تحقيق السلام العادل في المنطقة ٦.٣٪، ثم التفكك الأسري، فالتخلف التكنولوجي والاقتصادي.

ثانيا: أما التحديات التي تواجه المجتمع الكويتي المعاصر فقد جاءت وفق نسق الأهمية التالي:

حب المظهر والترف والإسراف ٢٠.٩٪، التعصب القبلي والاجتماعي والطائفي ١٨.٠٪، الوساطة والرشوة والمحسوبية ١٦.٤٪، التقليد الأعمى للغرب ٩.٨٪، الزواج المبكر ٥.٩٪، الفساد الاجتماعي: الغش والخداع والنميمة وقطع الأرحام ٥.٤٪، الاختلاط بين الجنسين ٤.٨٪، المربيات الأجنبيات والخدم ٣.٨٪، الطلاق والتفكك الأسري ٣.٧٪، غلاء المهور ٣.٤٪، النظرة الدونية للمرأة ٢.٨٪، غياب الإحساس بالمسؤولية عند المواطن ٢.٢٪ الزواج من غير الكويتيات ١.٦٪، المخدرات والخمور والتدخين ١.٣٪.

ثالثا: أما المظاهر الإيجابية للحياة الاجتماعية في الكويت فقد أخذت السياق التالي:

جاءت عادات وقيم التماسك الاجتماعي: التواد والتراحم والترابط الأسري والتآلف والمحبة وعمل الخير لتحتل المرتبة الأولى ٣. ٥٣٪، ثم تلتها قيم المودة والصداقة والأخوة والحب والوفاء وقيم الخير والتسامح ٢. ٢٤٪، المجالس والديوانيات كصيغة من صيغ التماسك الاجتماعي ٢. ١٤٪، التمسك بعادات وقيم الدين الإسلامي الحنيف ٣. ٨٪.

رابعا: فيما يتعلق بنسق الطموحات السياسية والاجتماعية أخذت طموحات أفراد العينة النسق التالي:

تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان في المرتبة الأولى تلاها: تحقيق التضامن الإسلامي، ثم تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية، فتحقيق الوحدة العربية، ثم تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي، فتحقيق التضامن العربي، فإعادة الأرض العربية المغتصبة (فلسطين)، وأخيرا تحقيق الديموقراطية السياسية.

خامسا: فيما يتعلق بالفروق الإحصائية لتأثير متغيرات: الجنس، والاختصاص، والحالة المدنية، والسنوات الجامعية فإن الدراسة تكشفت عن الفروق التالية:

- فيما يتعلق بالجنس اتضحت هذه الفروق الإحصائية في مفاهيم: العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان لمصلحة الإناث. في بند إعادة الأراضي العربية المحتلة حيث يبدي الذكور اهتماما سياسيا أكبر في هذا الجانب السياسي. ثم ظهرت هذه الفروق أيضا في بند تحقيق السلام العادل في المنطقة حيث أبدت الإناث اهتماما أكبر بهذه القضية من الذكور.

- أما فيما يتعلق بالحالة المدنية: سجلت الدراسة غياب الفروق الإحصائية بين إجابات الطلاب وفقا لمتغير الحالة المدنية باستثناء عبارة التضامن الإسلامي، وتعود إلى اهتمام أكبر للطلاب المتزوجين بالتضامن الإسلامي قياسا إلى الطلاب العزاب.

- وفيما يتعلق بتأثير الاختصاص الجامعي: كشفت الدراسة وجود فروق دالة إحصائيا في عدة جوانب هي: تحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي، وإعادة الأرض العربية المحتلة (فلسطين)، وأخيرا تحقيق التضامن الإسلامي. وبعد العودة إلى المتوسطات تبين أن طلاب العلوم التطبيقية أكثر اهتماما بتحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي. وتجلت هذه الفروق بمبدأ إعادة الأرض المغتصبة ومن ثم تحقيق التضامن الإسلامي، فقد تبين أن هذه الفروق المعنوية تعود لمصلحة اتجاه أكبر عند طلاب العلوم الإنسانية نحو التضامن الإسلامي وإعادة الأرض المغتصبة، بالقياس إلى طلاب العلوم التطبيقية. وباختصار يمكن القول إن متغير الاختصاص العلمي يتدخل ليؤثر في اتجاهات الشباب وطموحاتهم السياسية فيما يتعلق بالبنود الثلاثة وهي: التقدم العلمي التكنولوجي لمصلحة طلاب العلوم التطبيقية، ثم التضامن الإسلامي وتحريرفلسطين لمصلحة طلاب العلوم الإنسانية.

- وفيما يتعلق بمتغير السنوات الجامعية تبين أن الفروق المشاهدة ليست فروقا معنوية في مختلف بنود المقياس، وذلك وفقا لاختبار تحليل التباين البسيط. وهذا يعني أن متغير توزع الطلاب في مختلف السنوات الجامعية لا يؤثر في اتجاهاتهم وطبيعة طموحاتهم الاجتماعية والسياسية.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

الصناديق العربية ودورها الإنمائي

أ. عبداللطيف يوسف الحمد (*)

١ - مقدمة

يرجع تاريخ بدء السعي في ظهور الصناديق الإنمائية العربية إلى السنوات الأولى من عقد الستينيات، حيث كان لدولة الكويت قصب السبق في هذا المجال، إذ تجلت اهتماماتها في العون الإنمائي مبكرا قبل غيرها من الدول النفطية، بإنشاء الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية في نهاية ١٩٦١، الذي كان، عند إنشائه، النموذج الوحيد لجهاز تمويل، أسسته دولة غير صناعية تواجه تحديات التنمية للإسهام في الجهود الإنمائية المبذولة في دول غير صناعية أخرى، وقد تعددت الأمثلة لهذا النموذج بعد ذلك، إما في صورة صناديق وطنية، وإما في صورة صناديق ومؤسسات عربية متعددة الأطراف.

وقد ساهمت كل هذه المؤسسات في ظهور ما يسمى «العون الإنمائي العربي المؤسسي» الذي تبلور طيلة العقود السابقة، وتمكن من أن يحقق قدرا مرموقا من النجاح في مؤازرة الدول النامية بشكل لا يقل أهمية عن الجهات المانحة للعون بمعيار نسبة التدفقات، إذ تجاوزت نسبة تدفقات العون الذي تقدمه الدول العربية المانحة إلى ناتجها القومي الإجمالي ٠,٧٪، وهي النسبة المحددة من قبل الأمم المتحدة كهدف للمساعدات الإنمائية المقدمة من الدول الصناعية

(*) المدير العام / رئيس مجلس إدارة الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي.

المتقدمة، حيث بلغ متوسط نسبة العون المقدم من المجموعة العربية المانحة (وبخاصة الكويت والسعودية والإمارات) خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات حوالى ٢,٨٪ و٣,٥٪ من ناتجها القومي، وهو ما يفوق بدرجة ملحوظة نسبة المساعدات المقدمة من الدول المتقدمة اقتصاديا.

وتستهدف هذه الورقة تقديم عرض للصناديق الإنمائية العربية (بما فيها مؤسستان دوليتان تشارك فيهما أغلبية عربية)، التي يتم من خلالها «العون الإنمائي العربي المؤسسي»، وذلك من خلال إعطاء لمحة تعريفية لها، ولخصائص عونها، وحجمه، واستعراض صورة موجزة لمداخلاتها وأنشطتها ومحصلة دورها في دعم اقتصادات الدول العربية، والكثير من الدول النامية، بما فيه تطوير قدراتها الإنتاجية والبشرية، ومساعدتها على تحقيق بعض طموحاتها الإنمائية.

٢ - لمحة تعريفية

يرتبط العون الإنمائي العربي المؤسسي بثلاث مجموعات متكاملة من الصناديق الإنمائية الوطنية، والإقليمية، ومؤسسات تمويلية إنمائية دولية تشارك فيها جهات عربية وغير عربية، يبلغ مجموع رؤوس أموالها في الوقت الحاضر نحو ٢٥ مليار دولار أمريكي، ويمتد نشاطها إلى عدد كبير من الدول النامية، بما فيها الدول العربية، تقدم لها القروض لتمويل بعض مشاريعها الإنمائية بشروط ميسرة. وتتسم أعمال هذه الصناديق بالتشابك، واتخاذ مسالك متشابهة تنعكس في علاقات وروابط تجمعها في إطار مجموعة تسمى «مجموعة التنسيق العربية»(*)، تمكنت من خلالها من تحسين فاعلية العون الذي تقدمه، وتحقيق مساهمات كبيرة في التمويل المشترك على جبهة عريضة من القطاعات الاقتصادية في كثير من الدول المستفيدة.

وتتألف الصناديق الوطنية في إطار هذه المجموعة من الصندوق الكويتي (١٩٦١)، وصندوق أبوظبي للتنمية (١٩٧١)، والصندوق السعودي للتنمية (١٩٧٤)(**)، وتتلخص أهدافها الرئيسية بالمساهمة في تمويل مشاريع التنمية في الدول العربية، وغيرها من الدول النامية، وذلك عن طريق تقديم القروض الميسرة والمنح اللازمة لتمويل مشاريع التنمية التي تتوافق مع متطلبات الأولويات المدرجة في الخطط والبرامج الإنمائية للدول المستفيدة.

(*) أسست هذه المجموعة في عام ١٩٧٥ بمبادرة من الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية، وتضم في الوقت الحاضر البنك الإسلامي للتنمية، وصندوق أبوظبي للتنمية، وصندوق أوبك للتنمية الدولية، والصندوق السعودي للتنمية، والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية، والمصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا، وصندوق النقد العربي، والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، الذي يقوم بالإضافة إلى عضويته في المجموعة بمهمة أمانة التنسيق.

(**) هناك بعض المساهمات القطرية الأخرى خارج نطاق هذه الصناديق تتمثل بما تقدمه قطر وعمان من قروض تنموية ميسرة من خلال أجهزتها الحكومية الرسمية، وما قدمته الجزائر وليبيا (المصرف الليبي الخارجي) من مساعدات إنمائية ميسرة حتى منتصف التسعينيات.

وتكتسب هذه الصناديق الوطنية الثلاثة أهمية خاصة في التعاون الاقتصادي فيما بين الدول العربية بعضها مع بعض، وبينها وبين الدول النامية، وتمثل أنموذجا مهما للتعاون بين دول الجنوب، إذ إن الدول المؤسسة لهذه الصناديق، دول نامية، تواجه تحديات التنمية، بما في ذلك تنويع القاعدة الإنتاجية لاقتصاداتها، وتطوير وصيانة بناها الأساسية، وتعتمد في مواجهة أعبائها والتزاماتها المالية الداخلية والخارجية، بما فيها التزاماتها في إطار العون الإنمائي المقدمة من خلال صناديقها موضوع البحث، على إيرادات بيع سلعة استراتيجية (النفط) مآلها النضوب، وتتعرض أسعارها في السوق الدولية لتقلبات مستمرة.

وغني عن البيان أنه على الرغم من تذبذب أسعار النفط منذ منتصف الثمانينيات، وتراجع العوائد النفطية، ودخول الدول العربية النفطية، بما فيها الكويت والسعودية والإمارات، مرحلة جديدة تعاني فيها عجزا في ميزانياتها الحكومية وموازين مدفوعاتها الخارجية، فإن هذه الدول الثلاث، قد حرصت على الاستمرارية في تقديم العون الإنمائي، من خلال صناديقها الوطنية السابق ذكرها، للدول العربية وللدول النامية، لمساعدتها في إنجاز مشاريعها الإنمائية، وتعزيز قدراتها الاقتصادية التي تتلخص أهدافها بتقديم القروض الميسرة، والمساعدات والمعونات، وتعبئة الموارد العامة والخاصة في تمويل التنمية في الدول المستفيدة، ويتسع نطاق عملها جغرافيا، إذ بلغ عدد الدول المستفيدة من العون المقدم منها حتى نهاية ٢٠٠٠ حوالى ١٢٧ دولة في جميع أقاليم العالم باستثناء غرب أوروبا وأمريكا الشمالية.

من ناحية أخرى، تتألف الصناديق الإقليمية من الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي الذي أنشئ بعد عام ١٩٦٧ تجسيدا لرغبة عربية في التحرر من تداعيات حرب حزيران (يونيو)، وتكثيف الجهود في تدعيم التنمية العربية والتعاون الاقتصادي العربي، وتنحصر أهدافه في دعم وتنمية الدول العربية على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، وإنجاز المشاريع العربية المشتركة التي تهدف إلى تحقيق التكامل العربي، وتوثيق الصلة بين الدول العربية، وتنسيق سياساتها، وتعزيز التعاون فيما بينها، وفي هذا الإطار حددت اتفاقية الصندوق وظيفته الإنمائية، فنصت تباعا على تكليفه بتمويل المشاريع، وتشجيع توظيف الأموال، وتوفير الخبرات والمعونات الفنية.

ومن الصناديق الإقليمية أيضا، صندوق النقد العربي، الذي أسس عام ١٩٧٦، بهدف تمويلي محدد هو دعم موازين مدفوعات الدول الأعضاء، ويتصدر النشاط الإقراضي قائمة الوسائل المتاحة لهذا الصندوق لتحقيق أهدافه بموجب اتفاقية إنشائه.

وبعكس الصناديق العربية الوطنية التي يمتد نشاطها جغرافيا إلى جميع الدول النامية، فإن عمليات الصناديق العربية الإقليمية تنحصر بالدول العربية المحتاجة إلى الدعم المالي والفني، كذلك تختلف الصناديق العربية الإقليمية عن الصناديق العربية الوطنية من حيث العضوية، إذ

تمتد عضويتها إلى كل الدول العربية الأعضاء في جامعة الدول العربية(*)، بينما تنحصر عضوية الصناديق العربية الوطنية بدولها فقط.

وهناك أيضا في إطار مجموعة الصناديق الإقليمية، المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا الذي أنشئ عام ١٩٧٤ بمقتضى قرار مؤتمر القمة العربي السادس، بهدف تمويل مشاريع التنمية في الدول الأفريقية غير العربية، وتشجيع مشاركة رؤوس الأموال العربية في التنمية الأفريقية، والإسهام في توفير المعونة الفنية اللازمة للتنمية في أفريقيا، وذلك استجابة لهدف دعم التعاون الاقتصادي بين المنطقتين العربية والأفريقية، وتجسيدا للتضامن العربي - الأفريقي، وترسيخا لمشروع التعاون على أسس المساواة والصداقة.

أما على المستوى الدولي، فإن العون الإنمائي العربي يتجسد بمؤسستين ماليتين تشارك فيهما مع الدول العربية جهات أخرى غير عربية، المؤسسة الأولى منهما، هي البنك الإسلامي للتنمية الذي أنشئ عام ١٩٧٥ بناء على دعوة عربية، ويضم في عضويته ٢١ دولة عربية و ٣٢ دولة غير عربية، ويستمد نحو ٧٠٪ من موارده المالية من الدول العربية، وتتلخص أهدافه في دعم التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي لشعوب الدول الأعضاء والمجتمعات الإسلامية في الدول غير الأعضاء، مجتمعة ومنفردة.

والمؤسسة المالية الدولية الثانية، هي صندوق الأوبك للتنمية الدولية، الذي أنشئ عام ١٩٧٦، ويستمد نحو ثلثي مجموع موارده المالية من سبع دول عربية نفطية، ويهدف إلى تعزيز التعاون بين الدول الأعضاء في الأوبك، وسائر البلدان النامية، تعبيرا عن التضامن فيما بين دول الجنوب، وكذلك تقديم المساعدة على وجه الخصوص، إلى البلدان الفقيرة المنخفضة الدخل في سعيها نحو التقدم الاجتماعي والاقتصادي.

ولا نغفل في سياق هذه اللمحة التعريفية ذكر استدراك أساسي مؤداه أن بعض المؤسسات الإنمائية العربية كالصندوق العربي، وصندوق الأوبك، وصندوق أبوظبي، وكذلك البنك الإسلامي للتنمية، توجه عناية خاصة لتعزيز القطاع الخاص في الدول المستفيدة خارج مسارات مداخلاتها التمويلية التقليدية، وذلك بما يتناسب مع تنامي الدور الإنمائي للقطاع الخاص في الدول العربية وغيرها من الدول النامية التي اهتمت في الفترة السابقة بتنفيذ برامج إصلاحية لإزالة الاختلالات الداخلية والخارجية التي تعانيها اقتصاداتها، ويتلاءم أيضا مع انتهاجها سياسة الخصخصة لرفع مستوى الكفاءة في استخدام الموارد، وكذلك مع واقع تجليات العولمة وتداعياتها، وما تفرضه من ضرورة سعي الدول العربية إلى رفع قدراتها التنافسية، وزيادة حجم صادراتها من السلع والخدمات، وترشيد القطاع العام فيها، والاعتماد على آليات السوق، وتعزيز دور القطاع الخاص في جميع الأنشطة الإنمائية.

(*) باستثناء المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا إذ تنحصر عضويته بثماني عشرة دولة عربية فقط من أعضاء جامعة الدول العربية.

٣ - خصائص عون الصناديق العربية

يتسم العون المقدم من الصناديق الإنمائية العربية بمزايا استثنائية، لكونه يقدم من دول نامية إلى دول نامية أخرى، وإن اختلفت إمكاناتهما المالية، ولهذا فإن شروطه منزهة عن أي استغلال، وغير مرتبطة بأي شروط تجارية أو سياسية، بأي شكل كان، ولا يشكل أي تهديد للدول المتلقية، فلا تخشى هذه الدول ضغوطا سياسية لاتباع أو تبني مواقف سياسية محددة، اقتصادية كانت أو مالية، إضافة إلى أن قروض الصناديق العربية تتميز بشروط مالية وقانونية ميسرة، أكثر يسرا من مصادر التمويل الدولية، ويتمثل هذا اليسر في انخفاض سعر الفائدة وطول فترتي السماح والسداد، الأمر الذي ينعكس إيجابا على نسبة عنصر المنح، الذي يرتفع في العون المقدم من الصناديق العربية لاشتماله على معدلات من الهبات والمنح التي تميزت بالاستقرار طيلة العقود الفائتة، إذ تراوحت في المتوسط بالنسبة إلى الصندوق الكويتي والصندوق العربي، على سبيل المثال لا الحصر بين ٤٣٪ و٤٥٪ على عكس العون المقدم من الدول المانحة المتقدمة اقتصاديا، الذي يرتبط بشروط مجحفة بحق الدول النامية، إذ تميل هذه الدول إلى فرض قيود على اختيارات الدول المتلقية في أشكال عدة، تتضمن شكل المساعدة، وطرق إنفاقها.

وعموما تختلف شروط تمويل الصناديق الإنمائية العربية، باختلاف درجة نمو البلدان المستفيدة، ووضع المشروع الممول وقطاعه الاقتصادي، أي أنه تؤخذ بعين الاعتبار حقيقة الهيكل الاقتصادي المميز للدول المستفيدة، ومدى ما يحرزه هذا الهيكل من تقدم فعلي، وذلك لمد يد المساعدة للدول الأشد فقرا في مقومات الحياة الاقتصادية والاجتماعية الحديثة، ومساعدتها في رسم سياستها الإنمائية، وبناء كوادرها الفنية والإدارية.

وهكذا يتراوح سعر الفائدة بين ٠٫٥٪ و ٧٪ حسب المؤسسة المانحة، والوضع الإنمائي للدول المستفيدة، وحسب القطاعات المعنية في تلك الدول، كما تتراوح فترة السداد بين ٢٠ سنة و٣٠ سنة، وقد تزيد في بعض الحالات لتصل إلى ٤٠ و ٥٠ سنة، حسب المشروعات المختلفة، ومستوى دخل الدول المستفيدة، كما قد تنخفض هذه المدة لتبلغ عشر سنوات في حالة المشاريع ذات الصبغة التجارية، وتتراوح فترات السماح ما بين سنة وعشر سنوات.

يضاف إلى هذا أن قروض الصناديق الإنمائية العربية توفر قدرا كبيرا من حرية الاختيار في أوجه استخدام أموال القروض التي تقدمها، حيث تتبع مبدأ المنافسة الدولية عند التعاقد مع المقاولين والموردين والاستشاريين، ولهذا يختلف العون المقدم منها عن معظم المعونات التي تقدمها الدول المتقدمة اقتصاديا، والتي تجبر الدول المستفيدة على شراء منتجاتها وخدماتها بالأسعار والمواصفات المتوافرة في أسواقها.

من جانب آخر تتميز قروض الصناديق الإنمائية العربية بقدرتها على تعبئة موارد إضافية من مصادر غير عربية، وهذا يعني أنها تحفز على تنفيذ استثمارات تزيد قيمتها على قيمة قروضها، خصوصا في حالة المشاريع الكبرى، مما يزيد من دورها الإنمائي في الدول المستفيدة.

كذلك تتميز الصناديق الإنمائية العربية باهتمامها بالتمويل المشترك، الذي يساعد على التقليل من المخاطر والظروف الطارئة غير المنظورة، التي قد تتعرض لها مساهماتها في حالة المشاريع الكبيرة، وقد بلغ إجمالي التمويل المشترك للصناديق العربية خلال الفترة ١٩٧٤ - ٢٠٠٠ نحو ١٨ مليار دولار أمريكي، ساهم فيها الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي بنسبة ٣٢,٦٪ ، والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية بـ ٩,٢٪، والصندوق السعودي للتنمية ٤,٧٪، والبنك الاسلامي للتنمية ٤,٤٪ وصندوق أبو ظبي للتنمية ١,٦٪، ومصادر عربية أخرى ٩٪، كما ساهمت فيها مؤسسات تمويل دولية (البنك الدولي، صندوق إيفاد والبنك الأفريقي للتنمية) بنسبة ١٧٪، وحكومات أجنبية ومؤسساتها التمويلية بنسبة ٢١,٥٪.

٤ - حجم العون الإنمائي للصناديق العربية

بلغ المجموع التراكمي لالتزام العمليات التمويلية للصناديق الإنمائية العربية بنهاية العام ٢٠٠٠ نحو ٥٦,٧ مليار دولار أمريكي(*)، وقد توزعت هذه العمليات على ١٢٧ دولة نامية عربية وغير عربية، بلغت حصة الدول العربية منها نحو ٣٤,٥ مليار دولار أمريكي، أي حوالي ٦٠,٩٪، وبلغت حصة الدول الآسيوية والدول الأفريقية ودول أمريكا اللاتينية نحو ١٢ مليار دولار أمريكي، و ٩ مليارات دولار أمريكي، و٠,٨ مليار دولار أمريكي على التوالي، ودول أخرى ٠,٤ مليار دولار أمريكي.

وقد بلغت مساهمة البنك الإسلامي للتنمية من إجمالي هذه الالتزامات التمويلية حوالى ٢٥,٩٪،والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي حوالى ٢١,١٪، والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ١٩,٦٪، والصندوق السعودي للتنمية ١١,٩٪، وصندوق الأوبك للتنمية ٧,٤، وصندوق النقد العربي ٦٪، والمصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا ٤,١٪، وصندوق أبوظبي للتنمية ٤٪.

واستجابة للاحتياجات التمويلية في الدول المستفيدة وأولوياتها الإنمائية، وبصفة خاصة ما يتعلق باستكمال وتطوير البنى الأساسية والخدمات، وتهيئة القاعدة

(*) أمانة التنسيق لمؤسسات التنمية العربية، بالصندوق العربي: خلاصة العمليات التمويلية لمؤسسات التنمية العربية كما في ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠.

الضرورية للتنمية الاقتصادية حازت قطاعات البنى الأساسية والخدمات نحو ٦٨,٨٪ من إجمالي التزامات العمليات التمويلية السابق ذكرها التي قدمتها الصناديق العربية حتى نهاية عام ٢٠٠٠، وفي المقابل، بلغت حصة القطاعات الإنتاجية حوالى ٣١,٢٪، ويستند هذا التوزيع إلى اختيارات الدول المستفيدة نفسها، وحسب أولوياتها، ويعكس تحسسا واضحا من قبل الصناديق الإنمائية العربية لمشاكلها العاجلة، واستجابة لحاجاتها الملحة إلى إقامة البنى الأساسية.

من جانب آخر لا يقتصر العون الإنمائي للصناديق الإنمائية العربية على تقديم القروض الميسرة لتمويل المشاريع المختلفة فحسب، بل يشتمل أيضا على تقديم معونات فنية تأخذ غالبا شكل منح لا تسترد، قدم منها، على سبيل المثال لا الحصر، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي ٦٥٠ معونة فنية منذ بدء نشاطه وحتى نهاية ٢٠٠٠، بلغ إجمالي قيمتها نحو ٨٤ مليون دينار كويتي، وقد تضمنت ٣٢٩ معونة قطرية بلغت قيمتها نحو ٥٤,٧ مليون دينار كويتي، تركزت بصفة خاصة على حل الاختناقات التنموية في الدول المستفيدة، بما في ذلك رفع كفاءة الموارد البشرية، وتحسين الإطارات المؤسسية اللازمة في تلك الدول، وتمويل دراسات جدوى وإعداد المشاريع ودراسات عامة وبحوث، ودعم الصمود في فلسطين المحتلة، كما تضمنت أيضا ٣٢١ معونة فنية قومية بقيمة إجمالية نحو ٢٩,٤ مليون دينار كويتي، استهدفت دعم الجهود التكاملية للدول العربية، وإعداد دراسات ومشروعات مشتركة وبرامج إقليمية لتعزيز العون والترابط على امتداد الوطن العربي، وذلك في مجالات كثيرة من أبرزها مشاريع ربط الكهرباء وشبكات النقل العربية وشبكة الاتصالات العربية، ومشاريع إنتاجية مشتركة.

كذلك قدم الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ١٩٦ معونة للدول المستفيدة، خلال مسيرته وحتى عام ٢٠٠٠، بلغت قيمتها نحو ٥٥ مليون دينار كويتي، وبلغت قيمة المعونات الفنية التي قدمت كمنح خالصة لا تسترد نحو ٥١ مليون دينار كويتي، إذ تم دمج ما قيمته نحو ٤ ملايين دينار كويتي مع القروض، وذلك تماشيا مع سياسة الصندوق الكويتي في هذا الخصوص.

وليس من شك في أن العون الفني الذي تقدمه الصناديق العربية يقوم بدور كبير في جذب مزيد من الاستثمارات الجديدة في الدول المستفيدة، من خلال تمويل دراسات الجدوى الفنية والاقتصادية للمشاريع الجديدة، وكذلك تمويل الدراسات القطاعية لتحديد المشاريع الاستثمارية ذات الأولوية، بالإضافة إلى رفع كفاءة المؤسسات التخطيطية والتنفيذية في تلك الدول وتحسين قدرتها على إعداد وتنفيذ وتشغيل المشاريع الاستثمارية.

٥ - الدور الإنمائي للصناديق العربية

لقد تواصلت تجارب الصناديق الإنمائية العربية طيلة العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، وفق سياقات، كبرت واتسعت دوائر تفاعلها، وامتد تأثيرها إلى مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، وتركت بذلك ظلالا وانعكاسات على شتى مناحي الحياة المعيشية في عدد كبير من الدول المستفيدة، وثمة ثلاث حقائق لابد من توضيحها بداية قبل الدخول في إطلالة تقييمية لتجارب تلك الصناديق:

الحقيقة الأولى وهي: محدودية الموارد المالية للصناديق الإنمائية العربية، وعدم قدرتها وحدها على تلبية حاجة الدول العربية، وبقية الدول النامية من القروض الميسرة، لأن ما تعانيه هذه الدول من آثار وانعكاسات ضغوط التخلف الاقتصادي والاجتماعي، وما تفرزه من إشكاليات تحديات متشابكة تواجه تطلعاتها الإنمائية، تحتاج، لمواجهتها، إلى تضافر جهود كل مؤسسات العون الإنمائية الفاعلة على المستويين الإقليمي والدولي، وفق سياقات وخيارات قادرة على إجراء تغييرات هيكلية في الأوزان الاقتصادية للدول العربية والدول النامية.

إن تثبيت هذه الحقيقة ضروري في هذا السياق، لكي نؤكد على عدم المغالاة وتعظيم دور الصناديق الإنمائية العربية، لإضافة أحكام تميزها وترفع من مكانتها، ومنسوب أدائها.

وتؤكد الحقيقة الثانية على: اعتبار العمليات التمويلية للصناديق الإنمائية العربية، كغيرها من قروض مؤسسات التمويل الإنمائي، حافزا لتنفيذ استثمارات تزيد قيمتها على قيمة قروضها بصورة ملموسة، ويقدر أن قروض الصناديق العربية تغطي في المتوسط ٢٥٪ من إجمالي التكلفة الإجمالية للمشاريع الممولة، أي أنها ساهمت حتى نهاية ٢٠٠٠ في تمويل مشاريع إنمائية في الدول العربية، والدول النامية الأخرى، تبلغ تكلفتها نحو ٢٢٧ مليار دولار أمريكي، وساعدت على اجتذاب قدر لا بأس به من التمويل اللازم لها من مصادر غير عربية.

ولا غرو في أن هذا الحجم من العمليات المالية يعتبر قياسيا بالنظر إلى الفترة الزمنية التي تم خلالها.

وأما الحقيقة الثالثة فمؤداها: أن مداخلات الصناديق الإنمائية العربية لا تنحصر فقط بحدود عملياتها التمويلية الإقراضية في تمويل العناصر الأساسية لتنفيذ المشاريع الإنمائية، بل تشتمل في كثير من الحالات، حيثما كان ذلك ضروريا، على توفير الشروط التكميلية لنجاحها عند التنفيذ، كالإسهام في تمويل مختلف الدراسات المتعلقة بالمشاريع الممولة، إلى جانب تقديم الدعم المؤسسي، وتطوير أساليب الإدارة، وتمويل برامج تدريب وتطوير الكوادر البشرية العاملة في المؤسسات المعنية بتنفيذ وتشغيل المشاريع الممولة لرفع مستوى الأداء فيها، وكذلك تمويل الصيانة والتشغيل من أجل المحافظة على الاستثمارات الضخمة التي تنفق على المشاريع، وذلك من خلال المساهمة في توفير الإمكانات المادية والبشرية اللازمة والقادرة على

إدارة واستغلال هذه المشاريع، مما يعني أن إنجازات الصناديق العربية الإنمائية لا تقف عند حدود الأرقام المجردة لعملياتها التمويلية، بل تمتد أيضا إلى المساهمة في حل المشاكل الإنمائية التي تعانيها الدول المستفيدة، إذ إن لمداخلاتها آثارا إيجابية كبيرة على الجهود الإنمائية، من خلال ما تمنحه من معونات فنية للدراسات القطاعية، ودراسات الجدوى الاقتصادية الفنية، والدعم المؤسسي وتدريب الكوادر الفنية.

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن بعد هذه التوطئة الاستدراكية، هو: ما الأثر الإنمائي للعون المقدم من الصناديق العربية؟ إن الإجابة عن مثل هذا التساؤل تكمن في حصاد الجهود الإنمائية والاجتماعية الكبيرة والمتواصلة طيلة أربعة عقود، استطاعت فيها الصناديق العربية مساندة الجهود الإنمائية الاقتصادية والاجتماعية في عدد كبير من الدول العربية والدول النامية الأخرى، من خلال المساهمة في تمويل عدد كبير من المشاريع الإنمائية التي اعتبرتها الدول المستفيدة ذات أولوية كبرى لها.

ومما لا شك فيه أن جهود الصناديق العربية قد أسفرت عن نتائج وآثار إنمائية في مناطق كثيرة من العالم، يصعب حصرها في هذه العجالة. لكن أقل ما يمكن أن يقال أنها ساهمت في إقامة مقومات البنى الأساسية في الدول المستفيدة، واستطاعت تحقيق إنجازات إنمائية في القطاعات الإنتاجية، وبخاصة في قطاعي الزراعة والصناعة، تتمثل باستصلاح الأراضي وتحسين مصادر المياه وتطوير الإرشاد الزراعي، والأبحاث الزراعية، وتوفير الإقراض الزراعي للمشروعات الممولة، وإضافة طاقات إنتاجية كبيرة إلى عدد من الصناعات الأساسية في كثير من الدول المستفيدة.

من جانب آخر امتدت جهود الصناديق الإنمائية العربية إلى تحقيق إنجازات كثيرة في مجال مياه الشرب والصرف الصحي، والخدمات التعليمية والصحية، والتدريب، وغيرها من الأنشطة الاجتماعية الأخرى، وإضافة إلى كل هذا ثمة آثار إيجابية مميزة للعون الفني الذي تقدمه الصناديق العربية، إلى الحكومات والهيئات المنفذة للمشاريع، وخاصة فيما تقدمه من دراسات للقطاعات المختلفة، ولجدوى المشاريع، وما تقدمه أيضا من دعم مؤسسي لرفع كفاءة الأجهزة التخطيطية والتنفيذية والتدريبية في الدول المستفيدة لزيادة قدراتها على إعداد وتنفيذ المشروعات الإنمائية.

وسوف نحاول في هذا السياق إلقاء الضوء على أهم معالم إنجازات الصناديق العربية في دعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وإعطاء لمحة موجزة عن دورها في تعزيز التجارة العربية البينية، ودور الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي في تعزيز التعاون الاقتصادي العربي.

١ - **دعم التنمية الاقتصادية**: ويمكننا تلخيص أهم الشواهد والأدلة في مجالها بما يلي:

أ - المساهمة في تطوير قطاعات البنى الأساسية في الدول العربية والدول النامية

الأخرى، التي تشتمل على أبرز الاختناقات التي تعانيها الدول النامية، وتعتبر شرطا مسبقا لتعزيز الإنماء الاقتصادي والاجتماعي، لما لمرونة عرضها من أهمية كبيرة في تحسين مناخ الاستثمار، وإيجاد البيئة المناسبة لزيادة الطاقة الاستيعابية للدول المستفيدة، وبالتالي زيادة الفرص لتحقيق المشروعات الإنتاجية، والخدمات الضرورية للمواطنين، وتلبية المستلزمات الإنمائية للتنمية.

وهكذا أولت جميع الدول النامية، بما فيها الدول العربية، ضمن جهودها الإنمائية القطرية، اهتماما خاصا، خلال العقود السابقة، بالبنى الأساسية، لأنها كانت تعاني في مجموعها قصورا شديدا فيها يتجسد في محدودية شبكات النقل، والطاقة الكهربائية، ووسائل الاتصال السلكي واللاسلكي، وافتقار عشرات الملايين من السكان إلى ضروريات الحياة الأساسية كالمياه النقية، وغيرها من الأمور الأخرى، التي دفعت الدول العربية والدول النامية إلى إنشاء وتطوير البنى الأساسية، وذلك لأن التنمية بكل أبعادها ومساراتها لا يمكنها أن تأخذ مجراها الحقيقي من دون هذه البنى، فهي أهم ركائزها، إذ تساهم في زيادة الإنتاجية وتقليص تكاليف الإنتاج وتنويعه، وتوسيع آفاق التجارة، وتحسين ظروف العيش.

وهذا هو الذي دعا الصناديق الإنمائية العربية إلى الاستجابة لتوجه الدول العربية والدول النامية الأخرى في هذا المجال، والتفاعل معها، بإعطائها أولوية متقدمة في مداخلاتها التمويلية للبنى الأساسية، مما يعبر عن تفهمها للمشاكل العاجلة لهذه الدول والاستجابة السريعة لحاجاتها الملحة في تنميتها الاقتصادية، وقد تفاوت مستوى مداخلاتها في كل قطاع من قطاعات البنى الأساسية بين دولة وأخرى بتفاوت طبيعة ونوع المشاريع في كل قطاع، كما تأثر بشكل أساسي بأولويات خطط التنمية، وحجم الاستثمارات المستهدفة في تلك الدول، والموارد المتاحة لتمويل برامجها الإنمائية.

وبإيجاز اشتملت مداخلات الصناديق الإنمائية العربية، في إطار قطاعات البنى الأساسية المختلفة، على شق وتعبيد الطرق، بما فيها الطرق الريفية المهمة للتنمية الزراعية وتطوير الإنتاج الزراعي، وكذلك تطوير الموانئ البحرية والسكك الحديدية والمطارات، وشبكات الاتصالات السلكية واللاسلكية، وتوليد ونقل وتوزيع الكهرباء، ونقل وجر مياه الشرب وتوزيعها، وتجميع ومعالجة واستخدام مياه الصرف الصحي ومحطات المعالجة.

ب - المساهمة في تعزيز القطاعات الإنتاجية في الدول المستفيدة، وقد تفاوتت مساهمات الصناديق الإنمائية العربية في هذه القطاعات (الزراعة والصناعة) من دولة مستفيدة إلى أخرى، حيث ارتبط ذلك بأولويات تلك الدول، واحتياجاتها الملحة في إطار خططها الإنمائية وبرامجها الاستثمارية، بالإضافة إلى قدرتها على استيعاب حجم التمويل في حدود إمكاناتها المتوافرة.

وعموما استهدفت المداخلات الإنتاجية للصناديق الإنمائية العربية، تطوير الإنتاج الزراعي في الدول المستفيدة، وتحقيق مستويات مقبولة من الاكتفاء الذاتي الغذائي العربي، وتطوير استغلال الموارد الزراعية أفقيا وعموديا، مع التركيز بخاصة على استثمار الموارد المائية، بتشييد وصيانة السدود، وإقامة شبكات الري وصرف المياه، واستصلاح الأراضي الزراعية، وبناء الطرق الريفية، ومنح القروض الزراعية، وإدخال التقانة الحديثة في الإنتاج الزراعي، وتوفير الخدمات الزراعية، وتحويل نظم الإنتاج الزراعي في مساحات كبيرة من الأراضي المطرية إلى الزراعة المروية بهدف زيادة الإنتاج الزراعي واستقراره، بالإضافة إلى زيادة دخل المزارعين، وتحسين مستويات معيشتهم ومقاومة التصحر، والحد من الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، استفاد من المشاريع الزراعية الممولة من الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي أكثر من مليوني عائلة عربية بصورة مباشرة، وحوالى ٤ ملايين عائلة بصورة غير مباشرة، أو ما يعادل نحو ٣٥ مليون نسمة من مواطني الدول العربية.

وإلى جانب هذا شملت مداخلات الصناديق الإنمائية العربية في قطاع الصناعة، توفير التمويل اللازم لمشاريع استخراجية في مجال المعادن، ومشاريع التصنيع الأساسي كالإسمنت والحديد والصلب والفوسفات والأسمدة الكيماوية وغيرها، إضافة إلى إعادة تأهيل مصانع قائمة لها أثرها الكبير في تعزيز القدرة الإنتاجية للدول المستفيدة.

٢ - دعم التنمية الاجتماعية: حيث حرصت الصناديق الإنمائية العربية، على إعطاء أهمية خاصة لعناصر التنمية الاجتماعية في الدول المستفيدة، وقد انحصرت مداخلاتها في هذا المجال في نوعين من المداخلات: أحدهما غير مباشر يترتب على مداخلاتها في مجال التنمية الاقتصادية، وتشكل حزمة من المنافع على انعكاساتها الاجتماعية، تتمثل في تحقيق زيادة في حجم ومدى العمالة المجزية التي توفرها المشاريع التي تساهم في تمويلها الصناديق الإنمائية العربية، إضافة إلى ما تحققه مشاريع البنى الأساسية التي تمولها هذه الصناديق من تغيرات هيكلية مادية واجتماعية في الدول المستفيدة، بتوفير الإضاءة الكهربائية، ومياه الشرب، وخدمات الاتصال الداخلي والخارجي، لنسبة كبيرة من السكان، الذين يعيشون في ضواحي المدن والأرياف، وكذلك فك عزلة المواطنين من المناطق النائية من خلال تطوير النقل وربطهم بالمدن، إضافة إلى تطوير شبكات تصريف المياه، والنفايات التي يؤثر قصورها في إلحاق أضرار صحية بالسكان نتيجة انتشار الأمراض.

وتتصل المداخلات المباشرة لبعض الصناديق الإنمائية العربية في المجال الاجتماعي بنواح كثيرة، تموّل من خلالها مشاريع محددة في مجال التنمية الريفية، يمكننا إيجازها، بتمويل

النشاطات المتعلقة بدعم التعليم النظامي، وتربية النشء، والتثقيف التربوي، والتدريب المهني، والتعليم الفني، والتدريب القطاعي، ومحو الأمية، والتعليم عن بعد، وكذلك تطوير الخدمات الصحية بما فيها أنشطة التعليم الصحي، إضافة إلى مكافحة الفقر والبطالة في الدول المستفيدة من خلال تقديم قروض التسليف الإنمائي الصناعي والزراعي والحرفي لمساعدة الشرائح الاجتماعية الأقل دخلا، وكذلك تقديم قروض مشاريع التنمية الريفية المتكاملة، وقروض السكن الاجتماعي للمواطنين من ذوي الدخل المحدود، وقروض تمويل الصناديق الاجتماعية، التي ازداد الاهتمام بها في السنوات الأخيرة من عقد التسعينيات، وبخاصة في الدول العربية للحد من الآثار السلبية لبرامج التصحيح الاقتصادي.

٣ - دعم التجارة العربية: حيث ساهمت الصناديق الإنمائية العربية بشكل مباشر في توجيه عملية التنمية نحو المزيد من استهلاك السلع والخدمات، بغرض توفير التجهيزات والمعدات اللازمة للمشاريع المنفذة، مما ساعد على تنشيط الحركة التجارية في الدول العربية المستفيدة، كما ساهمت أيضا في تسهيل نقل السلع من خلال تطوير النقل البري، والسكك الحديدية، وزيادة طاقاتها للنقل والمناولة في كثير من الدول العربية، إضافة إلى إنشاء موانئ جديدة وتطوير عدد من الموانئ القائمة، وزيادة طاقاتها بإقامة أرصفة جديدة، وتحديث معداتها، ونظم الإدارة فيها، وبالتالي حل كثير من المشاكل المزمنة في الموانئ العربية، وزيادة طاقاتها وقدراتها على مناولة قدر أكبر من السلع والبضائع والمعدات المستوردة والمصدرة.

ولا نغفل في هذا السياق أيضا ذكر مساهمة معظم الصناديق الإنمائية العربية في إعادة فتح قناة السويس وتوسيعها وتعميقها، لتمكينها من استقبال السفن الكبيرة وناقلات النفط العملاقة، وزيادة قدراتها الفنية والإدارية الضرورية لتنشيط الحركة التجارية.

من ناحية أخرى، تكللت جهود صندوق النقد العربي، والصندوق العربي، ومؤسسات تمويل عربية مشتركة، ومؤسسات مالية ومصرفية أخرى في إنشاء برنامج تمويل التجارة العربية برأسمال قدره ٥٠٠ مليون دولار، وذلك بهدف الإسهام في تعزيز وتنمية المبادلات التجارية بين الدول العربية، وتعزيز القدرات الإنتاجية والتنافسية للمنتج والمصدر العربي. وقد وافق هذا البرنامج، منذ بدأ نشاطه في مطلع ١٩٩١ وحتى نهاية عام ٢٠٠٠، على إعادة تمويل ٧٧٣ طلبا بمبلغ ١.٨٦١ مليون دولار أمريكي، كما أبرمت ٢٢٥ اتفاقية خط ائتمان، بلغت قيمتها الإجمالية ١.٧٥٤ مليون دولار أمريكي، سحب منها نحو ١.٣٩٨ مليون دولار أمريكي، وسددت الوكالات الوطنية ١.١٣٠ مليون دولار أمريكي، تمثل إجمالي المبالغ المستحقة خلال تلك الفترة.

كذلك، وفي إطار هذه الجهود وُسّع نشاط البنك الإسلامي للتنمية في مجال دعم التبادل التجاري بين دوله الأعضاء، حيث يقوم بتنفيذ برنامج خاص لتمويل التجارة الخارجية للدول

الأعضاء، يركز على تمويل الواردات من السلع ذات الصبغة التنموية لآجال قصيرة، وبرنامج محفظة البنوك الإسلامية الذي يقدم التمويل اللازم لعمليات التجارة للمستوردين والمصدرين من القطاع الخاص، كما يقوم البنك بتمويل عمليات وبرنامج التمويل الأطول أجلا للتجارة (تمويل الصادرات).

٤ - **تعزيز التعاون الاقتصادي العربي:** وهو من الأنشطة المحورية للصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، إذ عمل منذ إنشائه على تعزيز التقارب والتعاون العربيين، وإعطاء الأولوية للمشاريع الحيوية في البلاد العربية، التي من شأنها أن تزيد الترابط والتكامل بين أجزائه، وقد تعددت وتنوعت مداخلاته في مجال المشروعات العربية المشتركة الحيوية، فأدى ذلك إلى تزايد الدول العربية ترابطا، ويمكننا تلخيص أهم إنجازاته في هذا الشأن بما يلي:

أ - المساهمة في الربط الكهربائي بين الدول العربية، الذي يساعد على زيادة روابط الصلة والترابط القومي بين أطراف الوطن العربي، ويعمل في الوقت نفسه على تقليل القدرة الاحتياطية المركبة في كل شبكة، وبالتالي تخفيض الاستثمارات الرأسمالية اللازمة لتلبية الطلب من دون المساس بدرجة الأمان والاعتمادية في الشبكات المرتبطة، وتؤدي في الوقت نفسه إلى التقليل من الاحتياطي الدوار، والاستفادة من إقامة محطات التوليد في المواقع المناسبة لها، الأكثر جدوى من الناحية الاقتصادية، نتيجة لتوافر وقود رخيص فائض (صعب التصدير أو صعب التخزين) في إحدى الدول المرتبطة، كما تؤدي أيضا إلى التقليل من تلوث البيئة، وكذلك توحيد المواصفات الأساسية للمعدات الكهربائية، وتوسيع السوق العربية أمام صناعة المعدات الكهربائية.

ومن المقدر أن يبلغ الوفر في النفقات الرأسمالية عند اكتمال الربط الشامل للدول العربية بشبكة موحدة طولها ٤ آلاف كم حوالى ٢.٤ مليار دولار أمريكي، ولا يتضمن هذا الوفر في نفقات التشغيل، الذي يقدر بضعف هذا المبلغ تقريبا، طيلة عمر خطوط الربط الداخلة في هذه المشاريع.

وبشكل عام تتمحور مداخلات الصندوق العربي في هذا المجال حول تمويل مشاريع لإنشاء شبكتين رئيسيتين للربط الكهربائي في الوطن العربي، تقدر تكاليفهما الاستثمارية بنحو مليار دولار أمريكي، هما:

- شبكة ربط دول شمال المشرق العربي: حيث ربطت شبكات الكهرباء في مصر والأردن عام ١٩٩٨ والأردن وسوريا عام ٢٠٠٠ على التوتر ٥٠٠/٤٠٠ ك.ف. كما ربطت الشبكة السورية بشبكات الكهرباء في لبنان وتركيا على التوتر ٤٠٠ ك.ف. ومن المقرر ربط شبكات الكهرباء في سوريا وتركيا بشبكة الكهرباء العراقية على التوتر ٤٠٠ ك.ف. في وقت لاحق. وتبلغ قدرة شبكة الربط هذه حوالى ٦٠٠ م.و. وفي الحالات العادية،

يمكن زيادتها إلى ٨٠٠ م. وفي حالات الضرورة، ويمكن في وقت لاحق زيادة قدرة الشبكة إلى ١٢٠٠م. و. عن طريق تحويل خطوط الربط من التيار المتردد إلى التيار المستمر.

- شبكة ربط دول المغرب العربي: وقد رُبطت شبكات الكهرباء في مصر وليبيا على التوتر ٢٢٠ ك.ف. في عام ١٩٩٨، وشبكات الكهرباء في تونس والجزائر والمغرب على التوتر نفسه، وقد أنجز هذا الربط في عام ٢٠٠١، كما تجرى أيضا دراسة رفع خط التوتر بين مصر وليبيا وتونس والجزائر، والمغرب إلى ٥٠٠/٤٠٠ ك.ف.

ب - المساهمة في ربط شبكات الاتصالات العربية، بهدف خلق شبكة اتصالات دولية على مستوى جيد، خاصة أن الاتصالات بين الدول العربية كانت تتم حتى عقد السبعينيات إما عن طريق شبكة الترددات العالية، التي كان مستواها متدنيا، وإما عن طريق الشبكة الفضائية الدولية التابعة للمنظمة الدولية (إنتلسات)، والتي كان معظمها يتم بصورة غير مباشرة عن طريق أوروبا أو أمريكا، لعدم وجود ربط للاتصالات بين الدول العربية المتجاورة، أو كان عددها محدودا.

لهذا كله، عمد الصندوق العربي مبكرا منذ إنشائه إلى المشاركة ماليا وفنيا مع الاتحاد الدولي للاتصالات في إعداد خطة متكاملة للاتصالات العربية في عام ١٩٧٦، وبرنامج عملي لتنفيذ الخطة، كما شارك في تمويل مشاريع أخرى لم تشملها الخطة، إذ ظهرت أهميتها فيما بعد نتيجة لازدياد الحركة الهاتفية، والاتصالات الأخرى بين الدول العربية، نتيجة لازدياد التقارب الاقتصادي والاجتماعي فيما بينها.

وإجمالا ساهم الصندوق العربي في تمويل شبكة للاتصالات بين الدول العربية، تتكون من سبعة مشاريع اكتمل تنفيذها ودخلت الخدمة، يهدف المشروع الأول منها إلى ربط شبكة الاتصالات بين المغرب والجزائر، ويهدف الثاني إلى ربط شبكات الاتصالات بين العراق وسوريا والأردن والسعودية ومصر، ويهدف الثالث إلى ربط شبكات الاتصالات بين الصومال وجيبوتي واليمن والسعودية، ويهدف الرابع إلى ربط شبكات الاتصالات بين الجزائر وتونس وليبيا، ويهدف الخامس إلى ربط شبكات الاتصالات بين الدول العربية عن طريق الشبكة الفضائية العربية (عربسات)، ويشمل إنشاء محطات أرضية في كل من موريتانيا وتونس والمغرب والجزائر وجيبوتي والصومال واليمن والأردن وسوريا والعراق، وقد اكتمل تنفيذ هذا المشروع ودخل الخدمة عام ١٩٨٧، وأدى إلى ربط الدول العربية المعنية بشبكة اتصالات فضائية مكملة لشبكة الاتصالات الأرضية، وبديلة لها حين تعطلها. أما المشروع السادس فيهدف إلى ربط شبكات الاتصالات بين البحرين وقطر والإمارات، ويهدف المشروع السابع إلى ربط شبكات الاتصالات بين أربع عشرة دولة منها سبع دول عربية هي الجزائر وتونس ومصر والسعودية وجيبوتي واليمن وسوريا، ويشمل إنشاء كيبلين بحريين بين جنوب شرق آسيا وغرب أوروبا عبر

الدول العربية، أحدهما نحاسي يعمل بالنظام التماثلي، وآخر ألياف بصرية يعمل بالنظام الرقمي، ويمران بالدول المذكورة، وقد اكتمل تنفيذ المشروع ودخل الخدمة في عام ١٩٩٥ وأدى إلى تطور كبير في حجم ونوعية الاتصالات الهاتفية الدولية بين الدول التي تمر عليها الكيبلات البحرية. وقد ساهمت هذه المشروعات في زيادة الحركة الهاتفية بين الدول العربية، وفي تحسين وسائل الاتصالات، وزيادة التقارب الاقتصادي والاجتماعي فيما بينها.

جـ - المساهمة في ربط شبكات النقل العربية، وقد تركزت مداخلات الصندوق العربي في هذا المجال بشكل خاص في دراسات قطاعية في فروع النقل المختلفة، ذات الصيغة المشتركة بين الدول العربية، وذلك بهدف التعرف على المشاريع العربية المشتركة، ودعم الاستثمارات ذات الأولوية في قطاع النقل.

ومن هذه الدراسات، دراسة الإطار العام للنقل في الوطن العربي التي قام الصندوق العربي في إطارها بدراسة مسحية شمولية استهدفت وضع إطار عام لتحديد شبكات الطرق والسكك الحديدية العربية المشتركة، وذلك بهدف التعرف على أوضاعها، وتحديد أولويات المشاريع الواجب تنفيذها، من أجل تلبية الاحتياجات الأساسية للربط بين الدول العربية، والعالم الخارجي، وقد أمكن بفضل هذه الدراسة تحديد الوصلات الرئيسية في أجزاء الشبكات التي تربط بين الدول العربية، واقتراح أولويات المشاريع الواجبة دراستها وتنفيذها في إطار برنامج زمني تقديري، واعتمادا على متطلبات النقل في الأمدين القصير والطويل، بالإضافة إلى تقدير حجم الاستثمارات المطلوبة لإنجاز هذه المشاريع على مراحل متتالية حسبما تقتضيه احتياجات حركة المرور، وقد ساهم الصندوق العربي في تمويل دراسات للمشاريع التي تبلورت في إطار دراسة الإطار العام للنقل في الوطن العربي، ونُفِّذ بعضها من قبله ومن قبل مؤسسات تمويلية أخرى.

ومن الدراسات الأخرى التي تستحق الذكر في هذا السياق، دراسة أنماط النقل في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، التي مولها الصندوق العربي، وأنجزها في عام ١٩٩١، وساعدت في رسم سياسات النقل في الدول المعنية، وكذلك دراسة ما قبل الجدوى لطريق الوحدة المغاربي السريع، التي مولها الصندوق العربي في عام ١٩٩٤، استجابة لطلب دول الاتحاد المغاربي، وتضمنت دراسة أولية شاملة للربط البري بين دول الاتحاد بطريق سريع يبدأ من ليبيا وينتهي في موريتانيا، مرورا بتونس والمغرب والجزائر بطول إجمالي حوالى سبعة آلاف كيلومتر، وقد أُعِدَّت هذه الدراسة عام ١٩٩٥، من قبل أحد بيوت الخبرة الاستشارية العالمية المتخصصة، وبمشاركة مكاتب الدراسات العربية في دول الاتحاد المغاربي الخمس، وتحت إشراف الصندوق العربي، ولجنة التنسيق التي اختارتها دول الاتحاد لهذا الغرض، وقد وُضع على أساس هذه الدراسة، برنامج زمني يتسم بالمرونة لتطوير الوصلات المشمولة في الطريق في خمس مراحل ينجز كل منها حتى تصل إلى مستوى طريق سريع بجميع أقسامه عام ٢٠٢٥، وقد أُخضِعت

المشاريع ذات الأولوية التي تبلورت في هذه الدراسة لمزيد من الدراسات التنفيذية في كل من دول الاتحاد، وقام الصندوق العربي بالإسهام، في تمويل بعضها في تونس والمغرب، وما زال البعض قيد الدراسة، ومن المتوقع أن يتابع الصندوق العربي مداخلاته لإنجاز مراحل لاحقة لهذه الدراسة في دول الاتحاد، كما يتوقع أن يواصل الإسهام في تمويل المشاريع القطرية التي تشكل أجزاء من هذا الطريق حسب الأولويات التي تحددها دول الاتحاد.

٦ - خاتمة

تبدى مما سبق أن الصناديق الإنمائية العربية قد تمكنت خلال العقود الفائتة من ترسيخ وجودها على الساحتين العربية والدولية، والعمل بصورة كفؤة ومنتظمة في الدول المستفيدة، مما زاد من نفع مساهماتها، وامتداد إنجازاتها في شتى ميادين الحياة الاقتصادية، من إشباع الاحتياجات الرئيسية للمواطنين، وتمكينهم من العمل، إلى تطوير القطاعات الاقتصادية المختلفة، وتخفيف حدة عوامل الإفقار، وتحسين مستوى الحياة الاجتماعية.

وترجع هذه النتائج الايجابية في أساسها إلى ارتباط مساهمات الصناديق الإنمائية العربية ومداخلاتها باحتياجات الدول المستفيدة، وإدراكها لحقيقة آمالها المتنامية للتخلص من التخلف والفقر، علاوة على تعاونها الوثيق مع حكومات تلك الدول لما فيه مصلحتها.

وكما سبق ذكره فإننا لا ننزع في بلورة إنجازات الصناديق الإنمائية العربية إلى المغالاة في تعظيم دورها، لأننا على يقين بأن ضخامة التحديات الإنمائية، التي تواجه الدول العربية والدول النامية الأخرى، تحتاج إلى تضافر جهود كل مؤسسات العون الإنمائية الفاعلة على المستويين الإقليمي والعالمي، وفق سياقات وخيارات قادرة على إجراء تغييرات هيكلية في الأوزان الاقتصادية للدول المستفيدة.

وهذا يزيد من أهمية التنسيق مستقبلا ما بين الصناديق الإنمائية العربية من جهة، والصناديق والمؤسسات التمويلية الدولية من ناحية أخرى، بما يساعد على حشد التمويل المشترك وتوسيع آفاقه، ليس في المدى الكمي فحسب، وإنما أيضا في نوعية وفاعلية هذا النوع من التمويل، والمدى الذي يمكن تعبئته في أنساق قطاعية متوازنة، تؤدي إلى سلامة استخدامه للأغراض الإنمائية في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية، وبما يعود بالنفع الكبير على الدول المستفيدة.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

آثار اتفاقيات منظمة التجارة العالمية WTO على القطاع الصناعي في دولة الكويت : الواقع والتحديات المستقبلية

د. أحمد منير نجار(*)

مقدمة :

تهدف الاتفاقيات الدولية في إطار منظمة التجارة العالمية W.T.O إلى تحرير التجارة الدولية وتنظيم انفتاحها، بناء على قواعد قانونية وإجرائية تضمن الاستقرار والشفافية أمام المتعاملين في المبادلات التجارية الدولية. وترتكز الاتفاقيات الدولية متعددة الأطراف في إطار W.T.O على ثلاثة محاور أساسية:

١ - التجارة في السلع الصناعية والمواد الأولية والمنتجات الزراعية.

٢ - التجارة في قطاع الخدمات المعتمدة لدى W.T.O وكذلك لدى الأمم المتحدة.

٣ - التجارة المتعلقة بحقوق الملكية الفكرية.

كما تستند الاتفاقيات الدولية في إطار W.T.O إلى آلية لحل المنازعات التجارية بين الدول الأعضاء، بحيث تعتبر هذه الآلية محفلا للتشاور والاحتكام والتقاضي حول النزاعات التي قد تحدث بسبب عدم الالتزام أو التفسير الخاطئ لأحكام الاتفاقيات التجارية الدولية. ويتوقع لهذه الاتفاقيات الاستمرار في تحرير النشاطات الاقتصادية ذات الصلة بالتجارة الدولية بشكل تصل معه إلى التحرير الشامل للاقتصاد العالمي.

(*) مشرف وحدة منظمة التجارة العالمية WTO، مركز التميز في الإدارة - كلية العلوم الإدارية - جامعة الكويت - الكويت.

وبناء على ما سبق فإن القطاع الصناعي سيتأثر بشكل مباشر أو غير مباشر بالاتفاقيات الدولية متعددة الأطراف المتعلقة بـ W.T.O، وسيكون بالضرورة أمام القطاع تحديات كبيرة تفرضها التزامات الدول تجاه المنظمة. والسؤال الذي يحاول البحث الإجابة عليه هو: إلى أي مدى يمكن تعظيم الفوائد من الاتفاقيات الدولية متعددة الأطراف في إطار W.T.O ، وتخفيض السلبيات المحتملة إلى أقل قدر ممكن في القطاع الصناعي عموما والقطاع الصناعي الكويتي على وجه الخصوص؟ كيف يمكن تحويل الدعم المحظور من قبل المنظمة إلى دعم غير محظور بحيث تبقى للصناعة الكويتية حماية حكومية ولكن بشكل غير مباشر؟ كيف يمكن مواءمة التزامات الكويت وفق السقوف الزمنية الممنوحة لها مع واقع ومستقبل القطاع الصناعي الكويتي؟

إن ما سبق من أسئلة وغيرها ستشكل التحديات أمام القطاع الصناعي الكويتي، كما سيحاول البحث إلقاء بعض الضوء على هذه التساؤلات (التحديات) ومناقشة بعض المقترحات حول الموضوع من خلال الفقرات التالية:

أولا: المبادئ العامة لمنظمة التجارة العالمية وانعكاساتها على القطاع الصناعي.

ثانيا: الأحكام التي تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في القطاع الصناعي.

ثالثا: القطاع الصناعي الكويتي في مواجهة قواعد منظمة التجارة العالمية W.T.O والتزامات الكويت تجاه المنظمة.

رابعا: الخلاصة: التحديات والفرص أمام القطاع الصناعي الكويتي.

أولا: المبادئ العامة لمنظمة التجارة العالمية وانعكاساتها على القطاع الصناعي

تعتمد منظمة التجارة العالمية W.T.O على أربعة مبادئ أساسية على الدول الأعضاء الالتزام بها في علاقاتها التجارية وهي (زروق، ١٩٩٨):

١ - استخدام التعريفات الجمركية فقط لحماية الصناعة الوطنية، على أن تبقى هذه الحماية في حدودها الدنيا. والابتعاد عن استعمال القيود غير الجمركية وخاصة القيود الكمية على المستوردات من السلع إلا في الحالات الخاصة المنصوص عليها في الاتفاقيات ذات الصلة.

٢ - تثبيت الدول الأعضاء تعريفاتها الجمركية، سواء المخفضة أو غير المخفضة، وعدم زيادة نسبها التي جاءت في جداول التزاماتها مستقبلا. ويعتبر هذا المبدأ جزءاً لا يتجزأ من النظام القانوني للمنظمة.

٣ - عدم التمييز بين السلع حسب مصدرها. أي الالتزام بمبدأ الدولة الأولى بالرعاية (MFN)، بحيث تمنح لباقي أعضاء المنظمة أي معاملة تفضيلية تقدمها دولة ما لسلع دولة أخرى. أي لا يجوز فرض رسوم جمركية أعلى من الرسوم المفروضة على سلع دولة أخرى.

٤ - تطبيق مبدأ المعاملة الوطنية وهو مبدأ تكميلي لمبدأ الدولة الأولى بالرعاية، إذ يمنع التمييز بين السلع الوطنية والأجنبية، سواء فيما يتعلق بالضرائب المحلية أو التشريعات والقوانين التي تؤثر في عمليات البيع والشراء داخل الأسواق المحلية.

ثانيا: الأحكام التي تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في القطاع الصناعي

هناك أنواع متعددة من الأحكام منها ما يتعلق بالسلع، ومنها ما يتعلق بالخدمات ومنها ما يتعلق بحماية الملكية الفكرية، وأخيرا إجراءات لتسوية النزاعات (هلال، ٢٠٠٠).

١- في مجال تجارة السلع:

وهي الأحكام المتعلقة بـ:

(١) الإجراءات الوطنية المتخذة عند المنافذ

(٢) التدابير الحكومية الداخلية التي تنظم تجارة السلع.

١ - ففي مجال إجراءات المنافذ والحدود هناك جداول موحدة لتسمية السلع وترقيمها وطرق حساب قيمتها للأغراض الجمركية مما يسهل تطبيق التعريفات الجمركية وشفافية المبادلات التجارية، وهنا يتعين على الحكومات تخفيض رسومها الجمركية وربطها بسقف التزاماتها المقدمة للمنظمة عند الانضمام.

كما أن الدول الأعضاء لا تستطيع فرض قيود كمية على المستوردات، لأن ذلك يعتبر تحديدا للتحرير والانفتاح التجاري الدولي... إلا أن هذه القاعدة كان لها استثناءات لبعض الدول التي تعاني صعوبات في ميزان مدفوعاتها، وبالتالي سمحت قواعد المنظمة لمثل هذه الدول بتحديد كميات من المستوردات للمحافظة على الاحتياطيات النقدية والمركز المالي الخارجي.

وقد حاز القطاع الزراعي استثناء من هذه القاعدة نظرا إلى خصوصيته وقوة جانب الاتحاد الأوروبي في عزل القطاع الزراعي عن المنافسة الدولية.

وكذلك قطاع صناعة المنسوجات الذي ظل يحكمه اتفاق (تعدد الألياف) ولمدة ٤٠ عاما، حيث يسمح بموجب هذا الاتفاق بتطبيق نظام الحصص بدلا من منع القيود الكمية، كما هي حال القطاعات الصناعية الأخرى. ووضع برنامج تحريري يطبق على أربع مراحل حيث ينتهي نظام الحصص نهائيا، مع حلول عام ٢٠٠٥ (الوثيقة الختامية ١٩٩٤).

٢ - وفيما يتعلق بالتدابير الحكومية الداخلية (الوثيقة الختامية ١٩٩٤)، فقد التزمت الدول الأعضاء بالتزامات دولية تتعلق بتطبيق: (أ) المعايير والمواصفات الإلزامية على السلع. (ب) تقديم الدعم الحكومي للصناعات المحلية. (جـ) اتخاذ إجراءات وقائية. (د) تدابير مكافحة الإغراق. (هـ) تدابير الاستثمار المتصلة بالتجارة.

أ - المعايير والمواصفات الإلزامية: إن المنظمة وضعت قواعد دولية لمنع استعمال «المعايير الإلزامية» بشكل يضر التجارة الدولية ويضع حواجز أمامها بشكل أن تستند (المعايير الإلزامية) إلى لوائح فنية ومعايير إنتاجية دولية ومعلومات ودلائل علمية دون الإخلال بمبدأ الدولة الأولى بالرعاية (MFN)، وكذلك مبدأ المعاملة الوطنية وعدم التمييز بين السلع الوطنية (NT) والأجنبية، والا تشكل هذه «المعايير الإلزامية» حواجز أمام التجارة الدولية.

وفي مجال الإجراءات الداخلية وضعت المنظمة ضوابط معايير الصحة العامة والصحة النباتية بشكل لا يعيق التجارة الدولية، ومعايير وجود أخطار على الصحة والحياة عند دخول منتجات مستوردة.

ب - الدعم الحكومي: لضمان تطبيق شروط المنافسة الدولية، فقد نظمت قواعد المنظمة شروط تقديم الدعم الحكومي للصناعات المحلية. إذ يعتبر الدعم والرسوم التعويضية التي تتمتع بها الصناعات من المواضيع الأساسية التي نالت اهتماما متميزا من جانب الدول الأعضاء في المنظمة، ولهذا الموضوع أهمية خاصة جدا بالنسبة إلى الصناعات الوطنية التي تحظى بدعم متميز. إن المناقشات المطولة والمستفيضة حول موضوع الدعم بدأت بجولة طوكيو عام ١٩٧٣، وانتهت بجولة الأوروغواي عام ١٩٩٣ بحيث جاء الاتفاق بشكل عام ليشمل:

- حظر استعمال الدعم الحكومي الذي يترك آثارا سلبية على التجارة الدولية.
- عدم السماح في جميع الأحوال بزيادة مستويات الدعم على المستوى الذي كان سائدا عام ١٩٨٦، مع حتمية إلغائه متى بلغت الصادرات مرحلة تنافسية في السوق العالمية.
- إعطاء مزايا تفضيلية للدول النامية، وخاصة تلك التي يقل فيها نصيب الفرد من الناتج القومي عن ١٠٠٠ دولار سنويا.

وكذلك فقد قسم الدعم الحكومي إلى نوعين:

● دعم محظور: ويشمل:

- دعم التصدير الذي يؤدي إلى زيادة الصادرات من سلعة صناعية معينة، وهنا يحق للدولة المستوردة فرض رسوم تعويضية على مستورداتها من هذا المنتج المدعوم.
- الدعم الذي يزيد على ٥٪ من قيمة السلعة، ويسبب بالتالي ضررا للمصالح التجارية للدول الأخرى، ويجب على الدولة التي تقدم هذا الدعم وقفه، أو فرض رسوم تعويضية لمواجهة الآثار لهذا الدعم من قبل الدول المتضررة.

● دعم مسموح: ويشمل:

- دعما مسموحا لكن يجوز التقاضي حوله لأنه قد يسبب أضرارا لفروع إنتاج دول أخرى.
- دعما مسموحا غير قابل للتقاضي والمتعلق بدعم المشاريع الصغيرة والمتوسطة بدون تميز، وكذلك الدعم المقدم لتطوير الصناعات في المناطق النائية والبعيدة والتي تحتاج إلى تطوير

وتنمية، كذلك الدعم المقدم لنشاطات البحث والتنمية، والبنية التحتية وتكييف مرافق الإنتاج للتطابق مع متطلبات البيئة.

إن حظر الدعم يطبق على جميع الدول الأعضاء في المنظمة، مما يحقق التنافس العادل بين جميع دول المنظمة. ويفتح الدعم المسموح الباب أمام البحوث والدراسات للتطوير، حيث إن نفقات البحث لا تعتبر نوعا من الدعم المحظور، مما يتيح للقطاع الخاص، ومنه القطاع الصناعي، تنمية البحث والتطوير التقني لرفع الكفاءة الإنتاجية، كما يتيح للحكومات الفرصة لتطوير وتنمية المناطق الجديدة وتقديم الدعم والحوافز للمستثمرين في هذه المناطق، مما يشجع على زيادة الاستثمارات ورفع مستوى العمالة وزيادة الدخول، وهذا ما يدخل ضمن تشجيع برامج التخطيط الإقليمي (Regional Planning) وخاصة في الدول النامية.

جـ - التدابير الوقائية: حيث تسمح قواعد المنظمة للدول المستوردة بالحد من مستورداتها لفترة مؤقتة، وذلك كتدبير طارئ لمساعدة الصناعة المحلية، إذا أثبت استنادا إلى أسس علمية وحقائق لا تقبل الجدل أن الصناعة المحلية أو أحد فروعها ونشاطاتها قد تضررت بسبب المستوردات من السلع المنافسة. وتستطيع الدول المستوردة أن تقوم بما يلي كتدابير وقائية:

- زيادة الرسوم الجمركية.
- أو وقف المزايا الجمركية الممنوحة للسلعة المنافسة.
- أو وقف الاستيراد بالكامل.
- أو وضع حدود كمية على المستوردات من السلع المنافسة.

وتتبع الدولة المستوردة هذه الإجراءات حسب الظروف، وفي كل حالة على حدة، مع ضرورة الالتزام بالشروط والقواعد التي نصت عليها اتفاقية التدابير الوقائية. إلا أن هذه التدابير سيكون الحد الأقصى لسريانها هو أربع سنوات إلى ثماني سنوات اعتبارا من عام ١٩٩٥.

وفي المقابل يمكن للدولة التي تضررت من اتخاذ التدابير الوقائية ضدها أن تلجأ إلى جهاز تسوية المنازعات Disputes Settlement في حال اعتبار هذه التدابير الوقائية غير مبررة ولا تتوافق مع نصوص الاتفاقية.

يلاحظ أن اتفاقية التدابير الوقائية وجدت لتوفر حماية كافية للقطاع الصناعي على وجه الخصوص بالنسبة إلى المنتجات المحلية، وتحول دون التعرض للمنافسة غير العادلة من سلعة مستوردة معينة تكون سببا في الإضرار بالصناعة الوطنية.

وما يجب الإشارة إليه أن اتفاقية التدابير الوقائية استثنت الدول النامية من الإجراءات، حيث لا يجوز استخدام هذه التدابير ضد صادرات الدول النامية ما دامت لم تتجاوز نسبة ٣٪ من مستوردات الدول المتقدمة من سلعة أو سلع معينة، وهذه بحد ذاتها ميزة للقطاع الصناعي وفرصة لدراسة الصادرات الصناعية للدول المتقدمة ومعرفة النسبية لكل سلعة بالنسبة إلى مستوردات الدول المتقدمة.

د - تدابير مكافحة الإغراق: أباحت اتفاقيات المنظمة للدول الأعضاء اتخاذ بعض التدابير الضرورية لمنع بعض السلع التي تدخل إلى سوق الدول المستوردة بأسعار تقل عن أسعار السلع نفسها في الدول المصدرة لها، وبأسعار تقل عن تكلفتها الحقيقية، مما يؤدي إلى إغراق السوق المحلية للدول المستوردة. وتسمح اتفاقية مكافحة الإغراق باتخاذ تدابير مضادة لدرء الضرر عن الصناعة الوطنية بسبب الإغراق، ومن هذه التدابير:

- فرض رسوم تعويضية على المستوردات من السلع التي كانت السبب في الإغراق وزيادة الرسوم الجمركية عليها بشكل لا يزيد على الفرق بين سعر السلعة المستوردة وسعر السلعة المماثلة في السوق المحلية للمصدر.

- الامتناع عن تقديم التخفيضات الجمركية التي تكون الدولة المتضررة قد التزمت بها سابقا.

إلا أن لهذه الاتفاقية نصوصا متعددة ملزمة للدول الأعضاء، وذلك حتى لا تستعمل بشكل سيئ تحت ذريعة حماية المنتج المحلي من دون مبرر.

إن هذه الاتفاقية تفيد القطاع الصناعي بشكل خاص، حيث تكفل الحماية من المنافسة غير المشروعة، وتشترط الاتفاقية أن يقدم طلب الإغراق من منتج محلي متضرر وليس من جهة حكومية.

والملاحظ في دول مجلس التعاون أنه لا يوجد قوانين لمكافحة الإغراق أو أجهزة متخصصة لمتابعة حالات الإغراق، وقد يكون ذلك بسبب عدم وجود صناعات خليجية يمكن أن تتضرر من الإغراق، هذا في السابق، أما اليوم فإنه من الضروري أن تصدر دول المجلس قوانين موحدة للإغراق، وتشكيل جهاز حكومي (على مستوى دول المجلس مع فروع له في كل دولة على حدة)، وذلك تحقيقا لمصلحة دول المجلس والقطاع الصناعي. ونشير هنا إلى أن عدم وجود قانون وجهاز حكومي مختص بمجالات الإغراق لا يمنع قيام أي دولة أخرى عضو المنظمة من اتخاذ إجراءات مكافحة الإغراق ضد دول المجلس، إذا ثبت قيام أي دولة من دول المجلس بإغراق الدولة المتضررة (البتروكيماويات مثلا)، وهنا يحق للدولة، التي فرضت عليها إجراءات وتدابير مكافحة الإغراق، اللجوء إلى جهاز فض المنازعات في حال إثباتها أن هذه الإجراءات المتخذة ضدها غير عادلة، وأن سلعها المصدرة لا تدخل ضمن مفهوم الإغراق. وهنا تظهر أهمية القوة التفاوضية والإلمام التام بقواعد وقوانين المنظمة وكيفية استخدامها وتقديم وثائق إثبات الضرر مستوفية للشروط القانونية المطلوبة.

هـ - تدابير الاستثمار المتصلة بالتجارة: بما أن أعضاء المنظمة لم يستطيعوا التوصل لاتفاقية دولية متعددة الأطراف في مجال الاستثمار بأنواعه ومنه الصناعي، فقد اكتفت المنظمة من خلال الاعتماد على جولة الأورغواي بوضع اتفاقية تدابير الاستثمار المتصلة بالتجارة والتي لها انعكاس وآثار على المبادئ العامة لقواعد الجات (GATT)، حيث تقوم الدول عادة بفرض بعض

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

الشروط على المستثمرين الأجانب، وذلك حسب أولوياتها الوطنية، وحسب أنواع الاستثمار الأجنبي المراد استقطابه. وجاء اتفاق منظمة التجارة العالمية المعروف باسم TRIMs ليفرض على الدول الأعضاء إلغاء تدابير الاستثمار المتعلقة بالتجارة، والتي لا تتوافق مع قواعد الجات GATT، وخاصة تلك المتعلقة بمبدأ «المعاملة الوطنية National Treatment» وقاعدة منع وحظر القيود الكمية. استنادا لذلك فقد جرى حظر بعض التدابير منها:

- إلزام المستثمر بشراء منتجات محلية بدلاً من المواد المستوردة (شرط المكونات المحلية).
- ربط شراء أو استخدام منتجات أجنبية بحجم أو قيمة المنتجات المحلية التي يقوم المستثمر بتصديرها (متطلبات التوازن التجاري).
- ربط المستوردات بكمية أو قيمة الصادرات (قيود على المستوردات).
- ربط الصادرات بكمية أو قيمة الإنتاج المحلي (قيود على الصادرات).
- ربط الحصول من طرف المستثمر الأجنبي على القطع الأجنبي بمقدار ما يحققه من قطع أجنبي.

يلاحظ أن جميع التدابير أعلاه ستؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على القطاع الصناعي للدول الموقعة على اتفاقية (TRIMs).

إن ما سبق أن تناولناه من إجراءات وطنية عند الحدود والمنافذ، وكذلك التدابير الخمسة الحكومية الداخلية يتعلق بالأحكام المتعلقة في مجال السلع، وسنحاول أن نلقي الضوء على الأحكام الواردة في مجال الخدمات.

٢ - أحكام منظمة التجارة العالمية في مجال الخدمات (الوثيقة الختامية ١٩٩٤)

تعد اتفاقية الخدمات (GATS) من المخرجات المباشرة لمفاوضات جولة الأوروغواي، حيث لم يكن قطاع الخدمات ضمن مجال الجات (GATT). واشتملت الاتفاقية على الخدمات المتعلقة بالتجارة. وقسمت الخدمات إلى ١٢ قطاعا رئيسيا وما يقارب ١٥٥ قطاعا فرعيا شملت العديد من النشاطات التي لها علاقة بشكل مباشر أو غير مباشر بالقطاع الصناعي، مثل الخدمات المالية والنقل البحري والجوي والاتصالات والسياحة والخدمات المهنية... إلخ. وقد قدمت دول مجلس التعاون الأعضاء في المنظمة ومنها الكويت التزامات في هذا المجال.

لقد ألزمت الدول الأعضاء وفق أحكام اتفاقية الخدمات بقواعد عامة يجب تطبيقها على جميع الدول وجميع القطاعات الخدمية وفق أشكال التوريد الأربعة للخدمات وهي:

- التوريد عبر الحدود.
- الاستهلاك خارج الحدود.
- الوجود التجاري.
- التنقل المؤقت للأشخاص الطبيعيين.

- القواعد العامة للاتفاقية:

- مبدأ الدولة الأولى بالرعاية الذي يتطلب عدم التمييز بين موردي الخدمات المحلية والأجانب فيما يتعلق بالتدابير والإجراءات التي تنظم عملية تجارة الخدمات.

- مبدأ الشفافية الذي يتطلب إعلان اللوائح والتشريعات التي تنظم تجارة الخدمات في الدول الأعضاء، وإقامة مكاتب استعلام معلنة تقدم للمتعاملين الأجانب استفسارات وتوضيحات عن اللوائح والتشريعات المطبقة والشروط اللازمة من كفاءة وتأهيل لتقديم كل نوع من أنواع الخدمات التي تناولتها الاتفاقية، خاصة في الدول النامية التي تفتقر إلى نقاط الاتصال هذه.

- الترتيبات الثنائية أو الجماعية بهدف الاعتراف المتبادل بالمؤهلات اللازمة للحصول على تراخيص تقديم الخدمات، بما يسهل على الموردين الأجانب تقديم الخدمة.

- القواعد الخاصة للاتفاقية:

- قواعد النفاذ للسوق وتطبيق مبدأ المعاملة الوطنية حصرا في القطاعات الخدمية التي تختار الدولة فتحها للأجانب.

- في حال فرض شروط على القطاعات الخدمية المراد تحديدها (وهذا مسموح به في قواعد الاتفاقية) فإن هذه الشروط أو القيود يجب أن تكون نفسها بالنسبة إلى الموردين المحليين والموردين الأجانب.

- قيود على المشاركة في رأس المال وخاصة بالنسبة إلى الشكل الثالث من توريد الخدمات الذي يعتمد على الوجود التجاري في الدول الأجنبية.

وبالنسبة إلى قطاع الخدمات في دول المجلس فإن له علاقة كبيرة غير مباشرة مع القطاع الصناعي، وخاصة أن القسم الأعظم من قطاع الخدمات يقوم به القطاع الخاص، وإن قيام الاتحاد الجمركي بين دول المجلس سيمكن من امتداد هذه الخدمات واتساعها وتبادل المزايا بين دول الاتحاد من دون امتدادها إلى الدول الأعضاء الآخرين من خارج دول المجلس. إلا أن على دول المجلس أن تقدم جداول التزاماتها في القطاعات المناسبة لها لتستفيد منها سواء محليا أو الاستفادة من الالتزامات التي تتقدم بها الدول الأخرى.

٢ - أحكام منظمة التجارة العالمية في مجال حماية الملكية الفكرية المتعلقة بالتجارة والصناعة (الوثيقة الختامية ١٩٩٤ الفصل - ٢ ، سكرتارية منظمة التجارة العالمية WTO)

قد تكون الأحكام الواردة بخصوص حقوق الملكية الفكرية ذات اتصال مباشر بالتجارة وهذا ما يدل عليه مصطلح TRIPs0 . إلا أن لهذه الأحكام علاقة غير مباشرة بالقطاع الصناعي، وخاصة عندما تتناول إجراءات الاختراع والنماذج الصناعية ومخططات التصاميم والمعلومات السرية التي تدخل من ضمنها المعلومات السرية الصناعية.

لقد جاء الاتفاق الخاص بحماية الملكية الفكرية لوضع معايير الحد الأدنى اللازم لحماية حقوق الملكية الفكرية، ووضع الإجراءات اللازمة لضمان احترام هذه المعايير وحسن تنفيذها. كما وضعت آلية للتشاور والمراقبة على مستوى دولي لضمان الاحترام والتطبيق على المستوى المحلي. إلا أن قواعد الحماية وضع لها بعض الاستثناءات تجنبا للتعسف في استعمال الحقوق من قبل أصحابها وبهدف إيجاد نوع من التوازن بين أصحاب الملكية الفكرية من جهة والمستفيدين منها من جهة أخرى.

وستنعكس نتائج تطبيق هذه الاتفاقية على الأسعار. إذ ستتراجع السلع المقلدة وسترتفع أسعار السلع الأساسية. إلا أن تطبيق قواعد الاتفاقية سيؤدي إلى دعم حقل الابتكار والتجديد ونقل التقنية والإبداع فيها، وسيترجم ذلك بحماية المستهلكين وتطوير التجارة الدولية من سلع صناعية وغيرها، وكذلك الخدمات. لذلك فمن الضروري أن يتابع القطاع الصناعي تطورات هذه الاتفاقية وتطبيقاتها، لما لذلك من أبعاد وانعكاسات على الأسواق الوطنية والدولية في تصريف السلع الصناعية.

٤- إجراءات وآلية تسوية النزاعات:

(اتفاق الإنشاء، المادة الثالثة فقرة ٣، والمادة الرابعة فقرة ٣)

وضعت منظمة التجارة العالمية تفاهما خاصا بتسوية النزاعات من خلال جهاز فض المنازعات (DSB). حيث يمكن لأي دولة عضو في المنظمة التقدم بشكوى ضد أي إجراء تتخذه دولة أخرى عضو أيضا، ويؤدي إلى ضرر بأي من النشاطات الاقتصادية للدولة المتضررة.

إلا أنه، وإن كانت الدولة المتضررة ستتقدم بالشكوى لجهاز فض المنازعات، ستكون هذه الشكوى في الأساس مقدمة من قبل القطاع الخاص الاقتصادي المتضرر الذي قد يكون القطاع الصناعي أو غيره.

إن آلية تسوية النزاعات وضعت لحل الخلافات التي قد تنشأ بسبب إخلال إحدى الدول بالتزاماتها أو بسبب التأويل الخاطئ لأحكام الاتفاقيات الدولية الموقعة داخل إطار المنظمة. ويحل الخلاف إما بالمشاورات بين الأطراف المعنية، أو التحكيم، أو التقاضي في إطار الأجهزة المتوافرة وحسب القواعد والإجراءات المنصوص عليها في مذكرة التفاهم الخاصة بنظام تسوية المنازعات.

ويتضح أن للقطاع الخاص الصناعي دورا أساسيا في استعمال الدولة لآلية حل النزاعات. كما أن أغلب القضايا المطروحة أمام جهاز فض النزاعات يكون القطاع الخاص الصناعي خلفها، حيث إنه المتضرر الرئيسي من عدم احترام الاتفاقيات الدولية أو الإخلال بها أو تأويلها بشكل خاطئ. ويكون من المتعذر جدا على أي دولة إثبات الضرر من دون أن ينبه إليه أو يتقدم به القطاع أو النشاط الاقتصادي الخاص المتضرر.

إن ما سبق يؤدي إلى أنه من الضروري للقطاع الصناعي فهم القواعد الأساسية للمنظمة عموما والقواعد والإجراءات التي تحكم آلية تسوية النزاعات على وجه الخصوص.

ثالثا: القطاع الصناعي الكويتي في مواجهة قواعد منظمة التجارة العالمية WTO والتزامات الكويت تجاه المنظمة

(اتحاد الصناعات الكويتية ١٩٩٩: ١٠٨-١٣٢، ٢٠٠٠-٢٢٠)

١ - واقع القطاع الصناعي الكويتي

من دون الدخول في تفاصيل رقمية كبيرة (يمكن الرجوع إليها من خلال أرقام المجموعات الإحصائية لوزارة التخطيط)، وإنما استنادا إليها، يمكن القول إن الكويت حققت نموا اقتصاديا مطردا خلال الثلاثين سنة الماضية، منذ الفورة النفطية الأولى عام ١٩٧٣، مع ما تخلل هذه الفترة من اضطرابات دراماتيكية عصفت بالاقتصاد الكويتي بشكل واضح. وقد كان لهذه التطورات الإيجابية والسلبية في الاقتصاد الكويتي أثر واضح على القطاع الصناعي، وعلى رغم ما قدمه القطاع الصناعي من مساهمة فعالة في الناتج المحلي الكويتي (التقرير الاقتصادي السنوي لعام ٢٠٠٠ البنك المركزي)، وفي التنمية الشاملة الكويتية عموما، إلا أن بعض العقبات والصعوبات والتحديات ما زالت تعترض مسيرته ومن هذه العقبات نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- الازدواجية في العديد من المشاريع الصناعية المتماثلة مما أدى إلى عدم التنسيق داخل القطاع الصناعي وزيادة الطاقة الإنتاجية النظرية للمشاريع عن الطاقة الاستيعابية للسوق المحلية.
- غياب الحماية الفعلية للصناعة المحلية نظرا إلى غياب قانون وجهات الإشراف على الإغراق. فالصناعة الوطنية تشكو من سياسة الإغراق التي تتبعها بعض الدول الصناعية مما يؤثر بالضرورة سلبا في الصناعة الوطنية. فأسواق الدولة مفتوحة أمام المنتجات الأجنبية بأسعار أقل من تكاليف إنتاجها محليا، وبمواصفات مغايرة للمواصفات العالمية، وهذا يضعف بالضرورة إمكان الصناعات الوطنية في المقاومة من دون حماية لها. وهنا تظهر أهمية وجود قانون وجهاز حكومي للحماية يستفيد من اتفاقية منظمة التجارة العالمية في التدابير الوقائية ودراستها بشكل مستفيض للإفادة من القواعد المنظمة فيها.
- عدم وجود جهاز نوعي صناعي متخصص لتوحيد أسس ومبادئ دراسات الجدوى الاقتصادية، مما يجعل مؤشرات الربحية تختلف من مشروع إلى آخر.
- ضعف التنسيق بين هيئة المواصفات والمقاييس الخليجية وهيئة المواصفات العالمية ISO، إذ يتطلب القطاع الصناعي توافر جهاز فني متخصص وفعال لتحديد مواصفات الإنتاج المحلي والتثبت (باستمرار) من توافرها، والأهم من ذلك مراقبة الإنتاج الصناعي المستورد، والتثبت

من توافر الشروط والمواصفات العالمية فيه. فجهاز المراقبة هذا يخدم المنتج المحلي، من جهة، لأنه يشجع على الجودة في الإنتاج وفي الوقت نفسه يضمن الحماية من مزاحمة الإنتاج المستورد المماثل الذي لا تتوافر فيه المواصفات المطلوبة، كما أنه يخدم المستهلك بإعطائه الثقة في سلامة ومستوى الإنتاج المحلي من جهة أخرى.

■ عدم وجود جهاز فني متخصص لدراسة الاتفاقيات مع الشريك الأجنبي، خاصة في الشركات الأجنبية الصناعية التي تتولى نقل التقنية للقطاع الصناعي الكويتي، من دون وجود قواعد محددة تكون قابلة للتطبيق والمراقبة منعا من إلحاق الغبن والضرر بأصحاب المشاريع الصناعية وعدم نجاحها أحيانا أو انخفاض كفاءتها الإنتاجية وفقدان ميزتها النسبية أحيانا أخرى.

■ صغرحجم السوق المحلية، وبالتالي ضرورة لجوء الصناعات المحلية إلى السوق الخارجية مع ما يحمل ذلك من صعوبات المنافسة الخارجية.

■ غياب الوعي لدى المستهلك المحلي بأهمية اقتناء السلع محلية الصنع.

٢ - انعكاسات اتفاقيات المنظمة على القطاع الصناعي الكويتي

تتجلى انعكاسات الاتفاقيات الدولية على القطاع الصناعي الكويتي (أ) بآثار عامة (ب) آثار خاصة (ج) آثار الدعم الصناعي.

أ - الآثار العامة: وتشمل آثارا نافعة وآثارا ضارة.

❖ الآثار العامة النافعة وهي:

- زيادة الصادرات من المنتجات البتروكيماوية بسبب إلغاء أو تخفيض الحواجز الجمركية، مع التحفظ على إمكان المجابهة باستخدام مبدأ مكافحة الإغراق من قبل الدول المستوردة.
- انخفاض أسعار بعض السلع الاستهلاكية بسبب المنافسة العالمية.
- زيادة الطلب على النفط بسبب حدوث تزايد في معدلات النمو العالمية.
- الوقاية من سياسة الإغراق التي قد تمارسها بعض الدول الصناعية ضد الصناعات الوطنية الكويتية.

❖ الآثار العامة الضارة وهي:

- ارتفاع أسعار المنتجات الزراعية بسبب إلغاء دعم المنتجات الزراعية.
- إلحاق الضرر بالصناعة الوطنية بسبب إلغاء الدعم، وهذا ما سيجري بحثه بتفصيل أكثر في الآثار الخاصة.
- عدم شمول الاتفاقيات لسلعة النفط ومنتجاته، وذلك بسبب غياب دول مجلس التعاون وعدم اشتراكها في المفاوضات لإدراج النفط ضمن المداولات، وكان المستفيد الأول من ذلك هو الدول المتقدمة، وكانت الذريعة ان النفط يجب ألا يخرج عن إطار منظمة (أوبك) OPEC، على

رغم أن اتفاقيات منظمة التجارة العالمية لا تمنع من التفاوض حول النفط، باعتباره من السلع التي تدخل في التجارة الدولية (هلال، ١٩٩٩).

- ارتفاع أسعار بعض السلع والخدمات بسبب تطبيق إجراءات اتفاقية حماية الملكية الفكرية (UNDP 1999).

- الأضرار المتوقعة في القطاع المالي والمصرفي بسبب المنافسة غير العادلة التي ستنجم عن الإمكانات غير المتكافئة بين المؤسسات الوطنية والمؤسسات المالية الأجنبية.

ب- الآثار الخاصة:

انطلاقا من أن الكويت كانت أول دولة عربية انضمت إلى اتفاقية الجات عام ١٩٦٣، كما انضمت كعضو في منظمة التجارة العالمية بتاريخ ٩٤/٤/١٥ تاريخ التصديق على الوثيقة الختامية لجولة الأورغواي والتي تحولت إلى منظمة التجارة العالمية W.T.O في ١٩٩٥/١/١، فإن الكويت أصبحت مطالبة بضرورة الالتزام والوفاء بمتطلبات الانضمام للمنظمة ومنها: (وزارة التجارة والصناعة، من دون تاريخ).

- تقديم التزامات بتحديد الحد الأقصى للتعرفة الجمركية على قائمة السلع والخدمات التي تشكل تجارتها الخارجية، وهي ما قامت الكويت بتقديمه، حيث وضعت سقوفها في الحد الأقصى وهو ١٠٠٪ على رغم عدم تطبيق هذه السقوف على أي من السلع المستوردة.

- إلغاء الدعم التدريجي المقدم للصناعات الوطنية وفق الجداول الزمنية المحددة، وخاصة الدعم المقدم في مجال الطاقة.

- فتح الأسواق أمام السلع المستوردة.

- إجراء تغيرات جذرية في الأنظمة والتشريعات والقوانين التجارية بما يتلاءم مع متطلبات الاتفاقيات الدولية.

- معالجة الخلل في هيكل التجارة الخارجية لدولة الكويت.

والأصل أن تلتزم الدول أعضاء المنظمة بالمتطلبات أعلاه ومنذ انضمامها إلى المنظمة، إلا أن الدول النامية أعطيت فترات انتقالية لتوفيق أوضاعها، وقد كان هناك محاولات لإدراج الكويت ضمن الدول المتقدمة استنادا إلى معدلات الدخول الفردية فيها فقط لحرمانها من فترات السماح الانتقالية الممنوحة للدول النامية (الإسكوا ١٩٩٧).

ج- الدعم الصناعي وآثار الاتفاقيات الدولية للمنظمة:

من المعلوم أن الصناعة الكويتية تتمتع بأوجه عديدة من الدعم الحكومي متمثلا في:

- خدمات البنية الأساسية في الدولة: وهذه الخدمات لن تتأثر، حتى ويمكن التوسع فيها بما يكفل رفع كفاءة الصناعة الوطنية.

- العون الفني والمساعدة في مرحلة ما قبل الاستثمار، ويتجلى (نظريا) في تقديم المساعدة في مجال دراسات فرص الاستثمار، وكذلك في مساهمة الحكومة في بعض نفقات دراسات الجدوى الاقتصادية للمشاريع الصناعية. إن المتتبع لقانون الصناعة الكويتي لا يجد نصا صريحا يشير إلى مساعدة المستثمرين في تحديد فرص الاستثمار المتاحة، وإن كانت المادة (١٥) تشير إلى إمكان المستثمر الحصول من وزارة التجارة والصناعة على معلومات وبيانات إحصائية وخرائط فنية ودراسات متعلقة بصناعة معينة تهم صاحب المشروع بشروط توافرها لدى الوزارة.

كما نصت المادة (١٦) بأنه يجوز للدولة أن تساهم ماديا في نفقات الدراسة والبحوث للمشاريع الصناعية الحديثة، وذلك للتأكد من الجدوى، وبناء على توصية لجنة تنمية الصناعة وموافقة الوزير. وفي حال نجاح المشروع يتكفل صاحب المشروع بكامل النفقات وفي حال الفشل تتحمل الدولة نصف التكاليف.

إن هذا النوع من العون أيضا يعتبر من الدعم غير المحظور، ويبقى موضوع التقاضي فيه مجال نقاش فيما إذا أثبتت دولة ما أن هذا العون يشكل ضررا لها.

- إنشاء المدن الصناعية وتوفير الخدمات بأسعار مدعمة: أجاز قانون الصناعة لمالك المشروع الصناعي التقدم بطلب تخصيص قسيمة من الأراضي المخصصة للصناعة، وذلك إلى وزارة التجارة والصناعة وبإيجار رمزي. كما تقدم الحكومة بأسعار تشجيعية كلا من الكهرباء والماء والغاز. ووفقا لالتزامات الكويت تجاه المنظمة فإنه لن يكون هناك اعتراض على إقامة المدن والمناطق الصناعية في حد ذاتها، بل على وسائل الدعم المتوافرة داخل هذه المناطق.

- الدعم المالي والقروض والتسهيلات المالية الميسرة:

لقد أشار قانون الصناعة إلى أن لأصحاب المشاريع الصناعية أفضلية الحصول على قرض من بنك الكويت الصناعي بعد موافقة وزير المالية ووزير الصناعة ويحدد البنك شروط القرض وقيمته وسعر الفائدة وفترة السماح وفترة السداد. وبمقتضى اتفاقيات المنظمة يجب إعادة النظر في هذا النوع من الدعم مما يضطر المستثمرين الصناعيين للاقتراض بسعر السوق، وهذا سيؤدي بالضرورة إلى زيادة تكاليف الإنتاج وإضعاف القدرة التنافسية للمنتج الوطني من جهة أخرى.

- الإعفاءات الضريبية والجمركية:

حيث تتمتع بعض السلع المستوردة بإعفاء من الرسوم الجمركية كأحد حوافز التصنيع، وكذلك إعفاء الصادرات من الرسوم والضرائب مما يقوي القدرة التنافسية. وقد وضعت الكويت ضريبة جمركية بمعدل ٤٪ على المستوردات، وإعفاء المستوردات الصناعية من المعدات والآلات والمواد الأولية من الرسوم الجمركية.

وفي مجال الاتفاقيات الدولية فمن غير المنتظر أن تفقد الصناعة الكويتية هذه الميزة بحكم أن سقوف الكويت هي (١٠٠٪ + ١٥٪).

- الحماية الجمركية للمنتجات الوطنية: حيث وضعت الحكومة إجراءات حماية للصناعة المحلية بوضع نسبة معينة للتعرفة الجمركية ١٥٪ لبعض المواد و٣٠٪ لمواد أخرى، ومنع أو حظر استيراد مواد وسلع محددة تكون منتجة محليا. إلا أن هذه الإجراءات ستفقد فعاليتها مع نهاية الفترة الانتقالية الممنوحة للكويت لإلغاء إجراءات الحماية وفق متطلبات اتفاقيات المنظمة.

- الأفضلية في المشتريات الحكومية

نصت المادة (١٨) من قانون الصناعة على إعطاء الأفضلية في المشتريات الحكومية لمنتجات الصناعة المحلية بشرط تماثلها مع المنتجات الأجنبية من حيث الجودة والسعر السائد. وكذلك قرار مجلس الوزراء في ١٩٨٢/٧/٣ الذي أعطى أفضلية المناقصات الحكومية للمنتجات المحلية المطابقة للمواصفات المطلوبة في حال عرض سلع مستوردة مماثلة للمحلية، وذلك دعما وحماية للإنتاج المحلي، كما يمكن في مناقصات التوريد إعطاء الأولوية للعطاءات المحلية، حتى لو زادت ١٠٪ على أدنى سعر لمنتجات مستوردة مماثلة.

وتطبيقا لمبدأ عدم التمييز بين السلع المحلية والأجنبية ومبدأ الدولة الأولى بالرعاية، فإنه سيتعين على الكويت وقف العمل بهذا النوع من الدعم أو تخفيضه تدريجيا حسب المدد الزمنية الممنوحة، مما سيزيد حدة المنافسة الأجنبية. مع الإشارة إلى أن الكويت لم توقع بعد على اتفاقيات المشتريات الحكومية لدى منظمة التجارة العالمية، حيث إن هذه الاتفاقيات غير ملزمة للدول الأعضاء في WTO للانضمام إليها.

رابعا: الخلاصة: التحديات والفرص أمام القطاع الصناعي الكويتي

❖ التحديات أمام القطاع الصناعي: (الهيئة العامة للصناعة، من دون تاريخ)

١- من خلال ما استُعرض سابقا، وخاصة في مجال الدعم الحكومي، فإن مطالبة المنظمة بإزالة الدعم تدريجيا تشكل تحديا كبيرا للصناعة الوطنية على رغم أن الكويت غير مطالبة بإزالة الدعم الحكومي عن الصناعات المحلية بشكل فوري، بسبب أن الكويت قد صنفت ضمن الدول النامية كما أسلفنا، مما يعني أن هناك مهلة تصل إلى تسع سنوات (تبدأ من عام ١٩٩٥) لإزالة الدعم نهائيا.

إلا إن مهلة السنوات التسع للالتزام بأحكام الاتفاقيات مشروطة بمجموعة من النصوص والضوابط القانونية التي قد تمنع الاستفادة من كامل المدة، خصوصا في الصناعات الوطنية ذات الميزة التنافسية الكبيرة كالبتروكيماويات، وكذلك صناعات مشتقات البترول التي تعتمد بشكل أساسي على الطاقة في عملياتها الإنتاجية. إن هذه الصناعات يفترض (نظريا) أن

تنفتح أمامها أسواق الدول المتقدمة في أوروبا واليابان، (والصين حاليا بعد انضمامها إلى المنظمة رسميا في نوفمبر ٢٠٠١)، إلا أن هذه المنتجات تخضع حاليا، وبشكل فعلي، لنظام الحصص ولقيود حمائية متعددة. وستبقى هذه الدول مستمرة بفرض أشكال حمائية غير معهودة أو غير متوقعة من قبل دولة الكويت. فقد تلجأ إلى مبدأ مكافحة الإغراق أو غيره ما دامت لديها قوة تفاوضية كبيرة، ومعرفة تامة بحيثيات ودقائق بنود الاتفاقيات، ويظهر التحدي هنا مرة أخرى أمام الصناعة البتروكيماوية الكويتية متمثلا في ضرورة رفع المقدرة التفاوضية والإلمام التام ببنود الاتفاقيات. إن هذا التحدي لا يمكن مجابهته على المستوى الكويتي الوطني فقط، بل لا بد من أن يجابه على مستوى دول مجلس التعاون من جهة وعلى مستوى الدول النامية الأخرى ذات المصالح المشتركة والتي لها مزايا نسبية في الصناعات البتروكيماوية من جهة أخرى. (بن عبيد، ٢٠٠١).

٢- تتعرض الصناعة الوطنية الكويتية بسبب اتفاقيات المنظمة لتحدٍّ مزدوج آخر يتمثل من جهة في إمكان خسارة جزء كبير من السوق المحلية التي ستفتح أمام المستوردات الأجنبية من دون قيد أو حماية، وذلك بعد انتهاء الفترة الانتقالية المشار إليها أعلاه، وعلى رغم أنه من جهة أخرى وفي المقابل فإن القدرة التنافسية قد لا تكون قوية بشكل كاف لاختراق تلك الأسواق، وخاصة على المدى القصير الذي يتطلب إعادة هيكلة القطاع الصناعي.

٣- ناحية أخرى تتمثل بأن تقوم الحكومة الكويتية لمقابلة إزالة الدعم عن الصناعات الوطنية بأن ترفع نسبة الرسوم الجمركية المطبقة حاليا وهي ٤٪ إلى نسب أعلى وتقع ضمن سقوف الالتزامات المحددة سابقا وهي (١٠٠٪ + ١٥٪) كإجراءات حماية مسموحة ما دامت ضمن سقوف الالتزامات. إلا أن ذلك قد يصيب مستلزمات الإنتاج، مما يعني زيادة تكاليف الإنتاج وفقدان جزء من الميزة التنافسية، أي أن سقوف الالتزامات سلاح ذو حدين، والتحدي يكمن في كيفية استخدام هذا السلاح بشكل يؤدي إلى أقصى منافع ممكنة وأقل التكاليف (الخسائر) على الصناعة الوطنية.

٤- في مجال الرسوم العالية والتصاعدية، فإن توقعات المزيد من تحرير تجارة السلع الصناعية لا بد من أخذه بعين الاعتبار عند وضع استراتيجيات القطاع الصناعي الكويتي، حيث إن الرسوم الجمركية رغم تخفيضها وربطها (تثبيتها) في عدد من القطاعات الاقتصادية، إلا أن رسوما عالية وتصاعدية ما زالت تعيق الصادرات الصناعية للدول النامية ومنها الكويت.

٥- هناك تحدٍّ كبير آخر يتعلق بالاندماجات الصناعية على مستوى دول مجلس التعاون. فالاندماجات الإقليمية تلعب دورا أساسيا في العلاقات التجارية الصناعية الدولية. لقد تعددت الاندماجات الصناعية في دول العالم، وما لم تكن أهداف هذه الاندماجات متعارضة مع

اتفاقيات المنظمة، فإن المنظمة تسمح بإنشاء وتطوير هذه التجمعات الاقتصادية. وقد سمحت قواعد المنظمة بإمكان تبادل الامتيازات الجمركية والتجارية فيما بين أعضاء التكتلات أو الاندماجات الإقليمية من دون سحبها على دول أخرى خارجها، وذلك استثناء من مبدأ الدولة الأولى بالرعاية MFN. إن لهذا البعد انعكاسات مهمة على القطاع الصناعي الخليجي عامة والكويتي على وجه الخصوص (البنك الإسلامي للتنمية، ٢٠٠١). إذ يتطلب الأمر أن توضع الاستراتيجية على مستوى دول المجلس، وحتى على مستوى دول أخرى ذات مصالح مشتركة.

كما أن الاندماجات الإقليمية على مستوى دول المجلس تشكل عنصرا أساسيا في توسيع الأسواق وتخفيض القيود على الاستيراد والتصدير وتوحيد القوانين والأنظمة، وتحقيق التكامل الصناعي الخليجي بدلا من التنافس. إلا أن المشكلة تكمن في إيجاد التناغم والتنسيق بين السياسات الصناعية الإقليمية من جهة والدولية من جهة أخرى وفي إطار الاتفاقيات الدولية للمنظمة WTO.

٦- أيضا لدى القطاع الصناعي الكويتي تحدٍّ آخر يتعلق بالمعايير الإلزامية والاختيارية التي تضمنتها اتفاقيات المنظمة. حيث تلعب المعايير واللوائح الفنية والمواصفات دورا أساسيا في نفاذ السلع الصناعية الكويتية إلى الأسواق العالمية. على رغم أن اتفاقيات المنظمة الخاصة بكل من نظام الحواجز الفنية للتجارة T.B.T، وكذلك اتفاقية تدابير الصحة والصحة النباتية، قد وضعت قواعد لمنع استعمال هذه المعايير واللوائح الفنية كقيود أمام التجارة الدولية، فإنها قد تستعمل لإعاقة تداول السلع الصناعية الوطنية. أي أن التحدي يكمن في تطوير وسائل الإنتاج والمعرفة التامة بتفاصيل تلك المعايير في إطار قواعد المنظمة مما يساعد على وضع خطط النفاذ إلى السوق من دون فقدان الميزة النسبية للصناعات الوطنية. بمعنى أن تحسين جودة المنتج وفق المواصفات الدولية لنظم الجودة يعتبر من أبرز التحديات التي ستواجه الصناعات الكويتية. (منظمة الخليج، ٢٠٠٠).

❖ الفرص أمام القطاع الصناعي الكويتي:

١- يعتبر التدرج في رفع الدعم عن الصناعات الوطنية (على مدى تسع سنوات) دافعا لتوفيق الصناعات لأوضاعها مع المتطلبات الملزمة الجديدة، ومنعا لتراجع أوضاعها ومزاياها التنافسية.

٢- فرص دخول الصناعات البتروكيماوية والصناعات الأخرى ذات المزايا النسبية للأسواق الأجنبية، بسبب تخفيض أو إزالة القيود المفروضة عليها حاليا، وضرورة معرفة كيفية إثبات الضرر في حال بقاء هذه القيود أو بعضها أمام الصناعات الوطنية.

٣- إن الانضمام للمنظمة يعني فتح الأسواق المحلية أمام المنتجات الأجنبية مما يؤدي إلى شدة المنافسة التي قد تدفع لرفع الكفاءة الإنتاجية للصناعة الوطنية وتحسين الجودة فيها.

٤- تطرقنا سابقا إلى أن العضوية داخل المنظمة تعطي الحق لاستخدام آلية مكافحة الإغراق، مما يعطي فرصة لحماية الصناعة الوطنية من عمليات الإغراق، لكن هذه الفرصة مشروطة بالمعرفة التامة لشروط إثبات الضرر.

٥- أمام القطاع الصناعي فرصة أخرى هي استغلال ميزة موقع الدولة الجغرافي وقربها من السوق الإيراني، وكذلك السوق العراقي الكامن والمرتقب، وكذلك الاستقرار السياسي والنقدي، وهذه عوامل تعطي ميزة تنافسية للصناعة الوطنية.

٦- من الفرص الممكنة أيضا، ولفتح أسواق خارجية، فرصة استخدام منتجات الصناعة الوطنية كجزء من برامج الإعانات الخارجية، وخاصة الهبات وهذه من المواضيع التي تعتبر كدعم غير محظور، وحتى إن كان قابلا للتقاضي، إلا أن إثبات الضرر فيه يكتنفه الكثير من الصعوبات.

٧- ضرورة التنسيق بين النشاطات الصناعية على مستوى دول المجلس من جهة ومع تكتلات اقتصادية عالمية أخرى، مما يعطي قوة وميزة تفاوضية أكبر، وإذا ما كانت القوة التفاوضية موسعة مع تكتلات عالمية فهذا ما يمنح الأطراف التفاوضية صفة المجموعة الاقتصادية ذات الطبيعة التبادلية الداخلية (داخل التجمع)، وليس دولية، أي تخرج من إطار الدولة الأولى بالرعاية. (مصرف الإمارات الصناعي، ٢٠٠١).

إلا أن ما سبق من فرص يفرض على دول المجلس الإسراع بالوسائل الإجرائية التالية:

- الاتفاق على التعرفة الجمركية الخليجية الموحدة والإسراع بإقامة منطقة تجارة حرة (المتوقع إقامتها عام ٢٠٠٣).
- الاتفاق على مثبت مشترك لعملات دول المجلس كخطوة على طريق الوحدة النقدية.
- السماح بحرية تنقل رؤوس الأموال وتملك الأسهم (بدأت بعض دول الخليج بتطبيقها).

ختاما نقول إن الاتفاقيات الدولية في إطار منظمة التجارة العالمية WTO ليست الحل الأمثل السحري لمشاكل القطاع الصناعي الوطني ما دامت هذه الاتفاقيات لم تدرس بعمق ودقة شديدة، كما أنها في الوقت نفسه ليست الشر المستطير ما دام متخذو القرار في القطاع الصناعي (الصناعيون - واتحاد الصناعيين - وغرف التجارة والصناعة) قاموا بالدراسة التفصيلية لما يهمهم من مواد اتفاقيات المنظمة وآليات تطبيقها بشكل نوعي متخصص حسب كل نشاط صناعي على حدة.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

الاقتصاد السياسي للبطالة

تحليل لأخطر مشكلات الرأسمالية المعاصرة

تأليف: د. رمزي زكي(*)
عرض وتقييم: د. عباس المجرن(**)

تقديم:

صدر كتاب الاقتصاد السياسي للبطالة لمؤلفه الأستاذ الدكتور رمزي زكي ضمن سلسلة «عالم المعرفة»، وهي سلسلة الكتب الثقافية الشهرية التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في شهر أكتوبر عام ١٩٩٧. ويقع الكتاب في نحو ٥٠٠ صفحة من القطع الصغير، ويتضمن ثلاثة أبواب رئيسية هي:

الباب الأول: محنة البطالة في عالم اليوم.

الباب الثاني: تفسير البطالة في الفكر الاقتصادي.

الباب الثالث: الخروج من مأزق البطالة.

ويضم كل باب من هذه الأبواب حزمة من المباحث أو الفصول، تبدأ بعد المبحث الأول وعنوانه: البطالة، معناها، قياسها وأنواعها. وهذه المباحث التي تتقدم كل حزمة منها في كل باب مقدمة تمهيدية معروضة على النحو التالي:

أولا: مباحث الباب الأول، وهي أربعة تعرض لمشكلات البطالة في البلدان الصناعية الرأسمالية، والدول التي انتقلت من النظام الاشتراكي إلى النظام الرأسمالي، والبلاد النامية، ثم البلاد العربية.

(*) كان استاذا للاقتصاد بجامعة القاهرة وخبيرا اقتصاديا في الكويت.

(**) قسم الاقتصاد - كلية العلوم الإدارية - جامعة الكويت.

ثانيا: مباحث الباب الثاني، وهي ثمانية ويتناول كل منها أحد الموضوعات النظرية التالية: تفسير البطالة في الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، تفسير البطالة في الفكر الماركسي، تفسير البطالة عند النيوكلاسيك، تفسير البطالة في المدرسة الكينزية، نماذج النمو الكينزية ومشكلة البطالة، النظريات النقدية في تفسير البطالة، صعود وهبوط منحنى فيلبس، والتفسير التكنولوجي للبطالة.

ثالثا: ضم الباب الثالث مبحثا واحدا استُعرض فيه عدد من المحاور تحت عنوان رئيسي تضمن تساؤلا مهما: تحدي أزمة البطالة: هل يمكن العودة إلى هدف التوظف الكامل؟ وتضمنت محاور هذا المبحث ما يأتي:

أولا: حصاد الحوار حول تجاوز أزمة البطالة، حيث استُعرضت وجهات نظر كل من مدرسة شيكاغو، مدرسة اقتصاديات جانب العرض، مدرسة التوقعات الرشيدة، المدرسة المؤسسية، ووجهات نظر الكينزيين الجدد.

ثانيا: الحلول العاجلة المطروحة لعلاج البطالة، حيث استعرض المؤلف ثلاثة حلول هي: الارتفاع بمعدل النمو الاقتصادي، خفض تكلفة العمل، وتعديل ظروف سوق العمل، ثم تحدث عن الحاجة إلى بيئة دولية مواتية.

ثالثا: مواجهة أزمة البطالة في البلاد النامية، حيث جرى تصنيف المواجهة إلى نوعين من الإجراءات: الإجراءات العاجلة للأجل القصير، وإجراءات الأجل الطويل.

واختتم الكاتب هذه المباحث بخاتمة ضمنها مجموعة من التساؤلات العميقة التي مازالت تنتظر الإجابة.

المؤلف:

والكاتب علم من أعلام الاقتصاد السياسي، وهو حائز على شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية من ألمانيا في عام ١٩٧٤، وعلى جائزة الدولة في الاقتصاد والمالية العامة، ووسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى من جمهورية مصر العربية في عام ١٩٧٤، وكان مستشارا في البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة UNDP، وعمل مستشارا في وزارة التخطيط في الكويت وأستاذا في جامعة الكويت، وله نحو ٢٦ مؤلفا في قضايا التنمية الاقتصادية والاقتصاد الكلي... ويعالج كتابه «الاقتصاد السياسي للبطالة» واحدة من أخطر المشكلات التي تواجهها مختلف بلدان العالم، المتقدمة منها والنامية، على حد سواء، وهي مشكلة البطالة التي وصل عدد المنضوين تحت تعريفها إلى ما يقرب المليار شخص.

ويحاول الكتاب تفحص مسببات هذه المشكلة وبحث الآثار والنتائج الاجتماعية والسياسية الخطيرة التي تترتب عليها، ويحاول البحث عن مخرج من مأزق البطالة، ويحدد الشروط اللازمة لذلك.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

توطئة:

ويمهد المؤلف لكتابه بتوطئة جميلة يشير فيها إلى قصاصة صحافية عثر عليها في النمسا أثناء مهمة علمية، وكانت السبب وراء انشغاله الطويل بمشكلة البطالة في العالم، تقول القصاصة:

«وقف طفل صغير أمام والدته وهو يرتعش من قسوة البرد في أحد أيام شتاء عام ١٩٢٩، وسألها ببراءة: لماذا لا تدفئين المنزل يا أمي؟ قالت الأم: لأنه لا يوجد لدينا فحم بالمنزل يا ولدي. فسألها الطفل: ولماذا لا يوجد فحم بالمنزل؟ أجابت الأم: لأن والدك متعطل عن العمل. وعاد الابن يسألها: ولماذا يتعطل أبي عن العمل؟ قالت الأم: لأنه يوجد فحم كثير بالأسواق يا ولدي».

فصول الكتاب:

المبحث الأول: البطالة: معناها، قياسها، أنواعها

في هذا المبحث يشير الكاتب إلى ما استقر عليه رأي الاقتصاديين والخبراء بشأن تعريف العاطل عن العمل وهو «كل من هو قادر على العمل، وراغب فيه، ويبحث عنه ويقبله عند مستوى الأجر السائد ولكن دون جدوى» ثم يعرض المبحث لطرق حساب معدل البطالة، ويشير إلى عدم تجانس فئات العاطلين عن العمل، ثم ينتقل إلى تعداد أنواع البطالة، حيث يعرف البطالة الدورية والبطالة الاحتكاكية والبطالة الهيكلية، ثم يميز بين البطالة السافرة والبطالة المقنعة، وبين البطالة الاختيارية والبطالة الإجبارية. ويعرف بعد ذلك معنى مصطلح التوظف الكامل، وما يعنيه معدل البطالة الطبيعي، ثم يفرد جزءا لعرض مشكلة إحصاءات البطالة.

المبحث الثاني: البطالة في البلدان الصناعية الرأسمالية: نهاية عصر وبداية عصر جديد

يعرض المبحث الثاني للحقبة التي انتقل فيها العالم الصناعي من مرحلة النمو المزدهر والاستقرار الذي حقق التوظف الكامل بعد الحرب العالمية الثانية إلى مرحلة الأزمة الاقتصادية المستمرة التي بدأت في عقد السبعينات، حيث حل عصر «البطالة المستمرة». ويستعرض المبحث أهم التغيرات التي أدت إلى مشكلة البطالة وهي: تحلل نظام النقد الدولي وما تبع ذلك من فوضى في أسواق النقد الدولية، الصدمات النفطية، تزايد وزن أوروبا واليابان على حساب الولايات المتحدة، وما أدى إليه ذلك من ظهور عناصر الصراع والتوتر، تعاظم دور التدويل والعولمة، اضطراب حالة السيولة الدولية بسبب اندماج أسواق المال العالمية، تفاقم علاقات العجز والفائض بين الدول النامية والدول الصناعية، السياسات العامة الانكماشية، وشيوع ظاهرة الخصخصة. وخلص هذا المبحث إلى القول بأن مشكلة البطالة مازالت هي المشكلة الأولى التي تهدد بانفجار الوضع الاقتصادي والسياسي في البلدان الصناعية.

المبحث الثالث: البطالة في الدول التي كانت «اشتراكية»: من الأمن الوظيفي إلى البطالة السافرة

يلقي هذا المبحث الأضواء على واقع البطالة في الدول التي شهدت عملية انتقال من النظام الاشتراكي إلى النظام الرأسمالي في فترة التسعينات، وهو واقع يتسم بالقسوة ويشكل مشكلة ضخمة وخطيرة لهذه الدول. ويستنتج الكاتب ان هذه المشكلة تشكل مأزقا ضخما وقعت فيه شعوب هذه الدول، حيث فقدت «مزايا الاشتراكية» في مجالات الضمان الاجتماعي والأمن الوظيفي والحماية الاجتماعية ولم تحصل على «مزايا الرأسمالية» في مجال الاستهلاك.

المبحث الرابع: البطالة في البلاد النامية: آثار فشل التنمية وتفاقم المديونية الخارجية

يعرض هذا المبحث أسباب البطالة في البلاد النامية، وفي مقدمتها النمو السكاني السريع مقارنة بالنمو الاقتصادي، ثم يعرض أهم ملامح البطالة في هذه البلدان، وهي ملامح قاسية وتزداد قسوة عبر الزمن بسبب تردي الأوضاع الاقتصادية وتراجع جهود التنمية وضعف الدور الحكومي، فضلا عن آثار رياح العولمة وضغوط برامج التثبيت والتكيف الهيكلي التي تفرضها المنظمات الدولية مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي. ويضيف الكاتب إلى كل ذلك ما تتعرض له أنظمة الضمان الاجتماعي في البلاد النامية من صعوبات وتراجعات، ترافقت مع تزايد موجات البطالة وعمليات تسريح الموظفين من مشروعات القطاع العام.

المبحث الخامس: البطالة في البلاد العربية: آثار أفول عصر النفط

يقسم هذا المبحث البلدان العربية إلى مجموعتين: البلاد العربية النفطية والبلاد غير النفطية، ويعرض لظروف التوظيف والمشكلات الاقتصادية في كل من هاتين المجموعتين، ويخلص المبحث إلى حقيقة مفادها تدهور أوضاع المتعطلين عن العمل في البلاد العربية غير النفطية، تحت تأثير فقدان الدخل وفرص التشغيل، وتأثير الاتجاه التصاعدي لأسعار السلع والخدمات، وزيادة الضرائب غير المباشرة، وتقليص الإنفاق العام الموجه للخدمات الاجتماعية الأساسية مثل الصحة والتعليم والإسكان، ومحدودية مشروعات الضمان الاجتماعي.

المبحث السادس: تفسير البطالة في الاقتصاد السياسي الكلاسيكي

يشكل هذا المبحث الفصل الأول في الباب الثاني من أبواب الكتاب، وهو يتناول البناء الفكري للاقتصاد الكلاسيكي، ومشكلة البطالة عند الكلاسيك، ثم يعرض لما أسماه الاستثناء الكلاسيكي في أفكار روبرت مالتوس الذي حذر من انتشار البطالة والفقر في الأجل القصير.

المبحث السابع: تفسير البطالة في الفكر الماركسي: الميل الكامن إلى معدل الربح للتدهور على المدى الطويل

يعرض المبحث السابع من الكتاب للفلسفة الاقتصادية الماركسية، كما يتناول التحليل الماركسي للبطالة، ودور الاقتصاد الرأسمالي في تفاقم مشكلة البطالة، ويعرض المبحث لأفكار

روز لوكسمبورج في كتابها الشهير «تراكم رأس المال» والتي خلصت إلى أن استمرار نمو الرأسمالية لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال التوسع والسيطرة على بيئات وأسواق جديدة (غير رأسمالية)، كما يعرض لأفكار بول سويزي وبول باران، وصولا إلى أفكار جيرارد دومنيل ودومينكو ليفي التي تمثلت في دراسة نشرت عام ١٩٩٣ تحت عنوان «اقتصادات معدل الربح» والتي خلصت إلى تصور ثلاثة سيناريوهات محتملة للمستقبل هي:

السيناريو الأول: يفترض استمرار تدهور معدل الربح، وهو افتراض يقود إلى وضع انكماش حيث تحاول الحكومات خفض عجز موازناتها العامة، مما يؤدي إلى التأثير سلبا على توزيع الدخل ومن ثم تفاقم مشكلة البطالة.

السيناريو الثاني: يفترض استمرار حالة الهبوط في معدل الربح، وإذا ما حدث تدهور محتمل في المعدل، فإن ذلك سيكون على حساب وقف التقدم التكنولوجي، ومن ثم حدوث أزمة لا تقل خطراً عن الأزمة التي تنتج عن السيناريو الأول.

السيناريو الثالث: وهو أكثر السيناريوهات تفاؤلا، ويقوم على تصور بدء اتجاه معدل الربح نحو الصعود مرة أخرى لفترة قادمة، وهو يفترض أن تحقيق ذلك سوف يتطلب استمرار الاستخدام المكثف للكمبيوتر ونظم المعلومات، ووجود أشكال جديدة مرنة من العلاقات بين الشركات والمؤسسات، وبين الشركات والمؤسسات وباقي المجتمع، كما أن ذلك يتطلب التمويل المجتمعي لعمليات البحث والتطوير، وإنجاز ثورة إدارية جديدة بإمكانها التحرك باتجاه زيادة معدلات التراكم والنمو والتشغيل والأجور.

المبحث الثامن: تفسير البطالة عند النيوكلاسيك

جاء هذا المبحث في سياقه المنطقي، حيث تناول في مقدمته الآثار التي نتجت عن خريطة الواقع الاجتماعي الذي انبثقت من خلاله أفكار المدرسة النيوكلاسيكية، والتي تعرف بالمدرسة الحدية، ويخلص الكاتب من هذه الآثار إلى القول بأن مدرسة التحليل الحدي تمثل إرهاصا من إرهاصات النخبة البورجوازية، وأن الهدف من أفكارها كان هو التصدي للهجمات والانتقادات العنيفة التي تعرض لها أسلوب الإنتاج الرأسمالي، وأن المهمة الرئيسية لهذه المدرسة كانت ابتكار أسلوب جديد للتحليل الاقتصادي ينأى بعلم الاقتصاد من نطاق تحليل العلاقات الاجتماعية إلى دائرة التحليل السلوكي لتصرفات المنتج والمستهلك، مستندة في ذلك إلى بلسفة اللذة والألم، ولذا أهمل عنصر الزمن من التحليل وأصبح التحليل الحدي ستاتيكيا إلى حد كبير، وذلك على النقيض من الفكر الاقتصادي الكلاسيكي. ويستنتج المؤلف من هذا العرض الأسباب التي أدت إلى إهمال قضية البطالة في الفكر النيوكلاسيكي، الذي آمن بقانون ساي للأسواق ومن ثم افترض حالة التوظف الكامل.

المبحث التاسع: تفسير البطالة في المدرسة الكينزية

يعرض المبحث التاسع أفكار المدرسة الكينزية التي قلبت المائدة على رؤوس الاقتصاديين الكلاسيك والنيوكلاسيك، وذلك بعد أن حل الكساد الكبير في الدول الصناعية، وهو الكساد المدمر الذي وضع الفكر النيوكلاسيكي في محنة شديدة، حيث لم يعجز عن توقع الكارثة فحسب، بل عجز عن تفسير مسبباتها أيضا. ويصور الكاتب في عرض مشوق تداعيات كارثة عام ١٩٢٩، وآثارها العميقة على المجتمعات، قبل أن يعرض البناء الفكري لكينز، ويخلص الكاتب إلى نتيجة مهمة بقوله إن كينز وهو يهدم البناء الكلاسيكي والنيوكلاسيكي لم ينجح في إقامة بناء أكثر قوة منه، بسبب العيوب الكثيرة التي شابت نظريته، وهو الأمر الذي أثبته واقع النظرية العامة وانزوائها في الوقت الحاضر على الرغم من طغيانها على مدى ثلاثة عقود زمنية متتالية.

المبحث العاشر: نماذج النمو الكينزية ومشكلة البطالة

يقدم هذا المبحث لموضوعه بالتأكيد على رؤية كينز لكيفية حل المشكلة الاقتصادية، وذلك من خلال الدعوة إلى تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، أي على نقيض ما كان يؤمن به الفكر الكلاسيكي. ثم يستعرض المبحث نتائج نماذج للنمو هي نموذج هارود وكالدور وجوان روبنسون، التي هدفت إلى إعطاء النمو طويل المدى للنظام الرأسمالي دوره في التحليل بعد أن اقتصر تحليل كينز على متغيرات المدى القصير. وقد حاولت هذه النماذج تحديد معدل النمو الضروري الذي يجب أن يتحقق في الاقتصاد حتى يمكن تجنب البطالة والوصول إلى حالة التوظف الكامل للطاقة الإنتاجية والموارد البشرية.

المبحث الحادي عشر: النظريات النقدية في تفسير البطالة: هوتري، فيكسل، هايك، فريدمان

يعرض المبحث الحادي عشر أفكار تيار مميز في الفكر الاقتصادي حاول تفسير البطالة الدورية من خلال التركيز على العوامل النقدية البحتة Monetary Factors، ومن ثم يرى هذا التيار أن علاج هذه المشكلات يتحقق من خلال استخدام أدوات السياسة النقدية. وينتمي رواد هذا التيار بهذا القدر أو ذلك إلى المدرسة الكلاسيكية في التفكير التي ترى أن الرأسمالية نظام يتمتع بالقدرة على التصحيح التلقائي للاختلالات دونما حاجة إلى التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي. ويعرض المبحث لنظرية هوتري حول الدورة الاقتصادية، ثم نظرية فيكسل في تفسير هذه الدورة من خلال تتبع الفروقات بين ما أطلق عليه سعر الفائدة الطبيعي، ونظرية هايك التي تأثرت بالنظرية النمساوية في رأس المال في تفسيرها لأسباب البطالة الدورية، ثم نظرية ميلتون فريدمان الذي صار يعرف مع تياره بالمدرسة النقدية Monetarist أو مدرسة شيكاغو، والذي طور معادلة كمية النقود الكلاسيكية، وأعطى للنقود أهمية رئيسية في

تفسير التقلبات التي تحدث في مستويات الدخل والناتج والتوظف. ويخلص التحليل النقدي إلى اعتبار البطالة السائدة في البلدان الرأسمالية بطالة اختيارية، لأن العمال يتعطلون بمحض إرادتهم لأنهم يطالبون بأجور أعلى من الأجور السائدة، ومن ثم فإن البطالة الإجبارية ليس لها مكان في هذا التحليل. ويشير الكاتب في ختام مبحثه هذا إلى عجز المدرسة النقدية عن توفير إجابات مقنعة لأسئلة كثيرة حول أنواع البطالة الأخرى.

المبحث الثاني عشر: صعود وهبوط منحنى فيليبس: حول المقايضة بين البطالة والتضخم

يستعرض هذا المبحث ما توصل إليه فيليبس في عام ١٩٥٨ من علاقة إحصائية قوية بين نسبة العاطلين إلى اجمالي السكان، ومعدل التغير في أجر الساعة للعامل خلال مدة زمنية تقترب من القرن، ومن ثم انتشار فكرة فيليبس في التحليل الاقتصادي، وهي الفكرة التي أعطت انطباعا بأن البطالة هي الثمن الذي يتوجب على المجتمع أن يدفعه مقابل تحقيق التوظف الكامل، وسرعان ما انتقلت هذه الفكرة إلى البرامج الاقتصادية في الدول الصناعية التي اعتمدت سياسات تهدف إلى الوصول إلى نقطة محددة على منحنى فيليبس تمثل معدلا معينا من البطالة يقابله معدل معين من التضخم، وهما المعدلان المرغوبان من وجهة نظر السياسة الاقتصادية المعنية. ثم ينتقل المبحث إلى بيان انهيار تحليل منحنى فيليبس بعد أن ثبت من الناحية العملية وجود أكثر من معدل للتضخم مقابل معدل معين للبطالة، مما يشير إلى عدم استقرار منحنى فيليبس.

المبحث الثالث عشر: نظرية ارتفاع معدل البطالة الطبيعي

معدل البطالة الطبيعي يقصد به المعدل الذي تكون عنده القوى المؤثرة في ارتفاع أو انخفاض الأسعار (الأجور) في حالة توازن، بحيث لا يكون هناك ميل لزيادة أو انخفاض معدلات التضخم. وقد حاول تيار فكري معاصر أن يعيد النظر في تقدير هذا «المعدل الطبيعي» لتفسير مشكلة البطالة في الاقتصادات الرأسمالية المعاصرة. ويرى رواد هذا التفكير أن معدل البطالة الطبيعي قد اتجه إلى الارتفاع في العقود الأخيرة بسبب عدة عوامل، ويعرض المبحث لهذه العوامل بقدر واف من التفصيل. ويخلص أنصار هذا التفكير إلى القول بأن هناك معدل بطالة وحيدا، يتوافق ويتناسب مع حالة الاستقرار النقدي والسعري، وأن أي محاولة لخفض البطالة من دون هذا المعدل سوف تؤدي إلى تسريع معدل التضخم، وهو تضخم يموَّل من خلال زيادة كمية النقود.

المبحث الرابع عشر: التفسير التكنولوجي للبطالة: كوندراتيف وشومبيتر

يعرض هذا المبحث لأفكار كوندراتيف بشأن الموجات (الرواج والركود) التي يشهدها النشاط الاقتصادي في الدول الرأسمالية في الأجل الطويل (٥٠ و٦٠ عاما)، وأنتجت هذه

الأفكار نقاشا ضخما بين الاقتصاديين في محاولة لتفسير مسببات هذه الموجات، وجاء شومبيتر ليحسم الجدل في هذا الموضوع في كتابه «الدورات الاقتصادية» حيث استنتج أن مثل هذه الدورات تكون مقترنة بحدوث تغير هيكلي في البلدان الصناعية ناجم عن تغيرات ابتكارية وتكنولوجية من شأنها دفع صناعات وقطاعات معينة للازدهار، وتعرض صناعات وقطاعات أخرى للانهيار، على النحو الذي من شأنه إعادة تشكيل بنيان الإنتاج القومي. ويخلص الكاتب إلى القول بأن برامج إعانات البطالة والضمان الاجتماعي كانت قد أسهمت حتى عهد قريب في تخفيف حدة هذه التغيرات الهيكلية، إلا أن صعود الليبرالية الجديدة وتصاعد الدعوة إلى العودة إلى آليات السوق المطلقة، ومن ثم إعادة النظر في مشاريع إعانات البطالة والضمان الاجتماعي، من شأنها أن تؤدي إلى تفاقم آثار البطالة الناجمة عن التغيرات الهيكلية.

المبحث الخامس عشر: تحدي أزمة البطالة: هل يمكن العودة إلى هدف التوظف الكامل؟

يحاول هذا المبحث، وهو في الباب الثالث من الكتاب، التقديم للإجابة عن سؤال يتعلق بكيفية الخروج من مأزق البطالة. وبعد عرض سريع لمخاطر وآثار البطالة، يعرض الكاتب المدارس الرئيسية الأربع التي دار بينها صراع فكري حاد بشأن سبل الخروج من المشكلة (مدرسة شيكاغو، مدرسة اقتصاديات جانب العرض، مدرسة التوقعات الرشيدة، والمدرسة المؤسسية). كما يعرض وجهة نظر الكينزيين الجدد الذين رأوا أن اختلالات مراحل السبعينيات من القرن العشرين وما بعدها ناتجة عن الصدمات وفي مقدمتها صدمة ارتفاع أسعار النفط، وارتفاع أسعار الواردات، وأسعار الفائدة، وتقلبات سعر الصرف... إلخ.

ويتناول المبحث بعد ذلك الحلول العاجلة المطروحة لعلاج مشكلة البطالة، حيث يصنف هذه الحلول إلى ثلاث مجموعات رئيسية هي: الارتفاع بمعدل النمو الاقتصادي، وخفض تكلفة العمل، وتعديل ظروف سوق العمل. ثم ينتقل المبحث إلى الحديث عن مواجهة أزمة البطالة في البلاد النامية، والتصدي لها من خلال مستويين من الإجراءات: إجراءات الأجل القصير، وإجراءات الأجلين المتوسط والطويل.

خاتمة وتساؤلات تنتظر الإجابة

في نهاية الكتاب خاتمة تلخص بعضا من النقاط والمرتكزات الأساسية للاستنتاجات التي خلص إليها المؤلف من تناوله لهذه القضية الخطيرة والمهمة، وينتهي الكاتب إلى التأكيد على أن وجود البطالة واستمرارها لفترة طويلة تعبير عن فشل واضح لآليات السوق في تحقيق التوظف الكامل، وأن علاج الأزمة بحاجة إلى سياسات واعية وفاعلة، وأن الدولة التي كانت

تتولى مثل هذه السياسات تتعرض إلى حالة من الإضعاف الشديد والمتعمد على يد «الرأسمالية المعولمة»، ويطرح المؤلف حزمة من الأسئلة عن الجهة التي ستقود مثل هذه السياسات الضرورية في ظل هذا التراجع السريع لدور الدولة في النشاط الاقتصادي، وهي أسئلة ما زالت تبحث عن إجاباتها.

الخلاصة

لقد اعتمد كتاب «الاقتصاد السياسي للبطالة: تحليل لأخطر مشكلات الرأسمالية المعاصرة» على قائمة ثرية من المراجع والإسنادات العلمية الغنية، فضلا عن إلحاق كل فصل من فصوله بهوامش مفصلة مما يدل على موضوعية المنهجية العلمية التي اتبعها الكاتب في تسلسل أفكار الكتاب وبنائه المنطقي. ولا يقلل التوجه الفكري للكاتب، وهو توجه واضح في الجوانب التحليلية والنقدية، من الأهمية العلمية والموضوعية لهذا الكتاب الذي يسلط الضوء على مختلف زوايا مشكلة البطالة، وهي مشكلة شائكة وبالغة التعقيد، على مدى القرنين الماضيين. ويشكل هذا الكتاب إضافة غنية إلى المكتبة العربية في هذا الموضوع ذي الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وهو كتاب يستحق القراءة بعناية واهتمام شديدين.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

تقويم أخطار الملوثات البيئية الخطرة على الصحة العامة

د. عادل عوض (*)

١ - المقدمة

أدت رغبة الإنسان في تحسين جودة المياه إلى تحسين مستمر في معايير مياه الشرب المراد من وضعها تأمين مياه شرب آمنة، وضمانها من النواحي الكيميائية والبيولوجية للمستهلك، وفي الوقت نفسه بكلفة اقتصادية معقولة، وحاليا هناك تحول في الاهتمام من النواحي المرضية المرتبطة بالتلوث الجرثومي إلى مشكلات أكثر تعقيدا وجدية وخطورة على الصحة العامة، تتعلق بالإحالات المسببة للأمراض السرطانية والتشوهات الخلقية الناتجة عن المركبات السامة الموجودة في مياه الشرب.

إن تحقيق شروط المياه الصالحة للشرب يتطلب تعقيم مياه التزويد للشرب. ومن أهم المواد المعقمة المستخدمة بشكل واسع عالميا الأمونيا وشوارد الهيبوكلوريد وحمض الهيبوكلوروز والأوزون[1]. ومن بين هذه المواد نلاحظ استعمال غاز الكلورين كمادة تعقيم بشكل عادي في مختلف أقطار العالم ومن بينها الأقطار العربية.

وتلزم المعايير القياسية العالمية لمياه الشرب، ومن بينها معايير منظمة الصحة العالمية والمعايير العربية - ومنها على سبيل المثال السورية والأردنية - وجود مستوى معين من غاز الكلور الحر المتبقي في مياه الشرب[٢،٣،٤].

(*) دكتوراه في الهندسة البيئية ودكتوراه في هندسة تخطيط المدن جامعة تشرين - كلية الهندسة المدنية - قسم الهندسة البيئية - الجمهورية العربية السورية.

يمكن أن يقود تعقيم المياه بالكلور ومن خلال تفاعله مع المواد العضوية إلى تشكل مركبات جانبية خطرة جدا على الصحة العامة، وتعد مركبات ثلاثي هالوميثان (THM) مجموعة من هذه المركبات الخطرة ذات علاقة بالتسبب بأخطار السرطانات [٥]. وهناك نتائج بحثية مهمة تدل على وجود علامة أكيدة بين تزايد المركبات العضوية الموجودة في مياه الشرب المعالجة بالكلور، وبين تشكل مركبات ثلاثي هالوميثان [٦،٧].

في الولايات المتحدة الأمريكية تم في عام ١٩٧٩ تحري أربعة من هذه المركبات في مياه الشرب: الكلوروفورم (CHCl3)، البروم ثنائي كلور الميثان (CHBr CL2)، ثنائي البروم كلورميثان (CHBr2 CL) والبروموفورم (CHBr3)، ومن بين هذه المركبات يعد الكلوروفورم أكثرها ظهورا وبتراكيز عالية [٦،٧،٨].

أما المركبات الأخرى الكلور العضوية مثل المبيدات الزراعية المستخدمة بشكل واسع الانتشار للأغراض الزراعية، فقد أصبح وصولها إلى مصادر مياه الشرب (السطحية والجوفية)، متوقعا إن لم يكن مؤكدا، وخاصة من خلال الهطولات المطرية وجريانها التي تسوق المبيدات في طريقها، سواء من التربة أو الهواء، لتصب في إحدى البحيرات أو الأنهار، وفي الوقت نفسه ترشح شيئا فشيئا، لتصل إلى الطبقات الحاملة للمياه الجوفية. ومن بين هذه المركبات الـ د د ت والدرين والديلدرين وغيرها، وهي أساسا من مركبات الكلور العضوية.

كما أن هناك مركبات عضوية منتشرة بشكل واسع في الصناعة كمذيبات أو مزيلات الزيوت والدهون، مثل رابع كلوريد الكربون وثنائي الفينيل المتعدد الكلور (pcb) وثلاثي كلور إيتين أو إيتيلين (TCE). وهذه المركبات تصل إلى المصادر المائية بشكل أساسي من خلال شبكات الصرف الصحي، التي تجرف فيها نواتج غسيل الجريانات المطرية في مناطق انتشارها أو تجمعها بجوار مواقع المنشآت الصناعية. ومخاطر هذه المركبات المذكورة شبيهة بمخاطر مركبات ثلاثي هالوميثان.

ومن المركبات شديدة السمية نجد الديوكسين، ومن أشهر أنواعه مركب البنزين الثنائي والرباعي الكلور (٢،٣،٧،٨ - TCDD)، والمعروف بسمّ سيفيسو، ويحدد انتشاره في البيئة من خلال المياه العادمة (مياه الصرف الصحي)، حيث يمكن أن نتوقع وجوده في حالة ادمصاص مع المواد العالقة أو الطافية الموجودة عادة بتراكيز عالية نسبيا. وتعد التربة من أكبر وأهم المصادر التي تساهم في نقل مركب (TCDD) إلى البيئة.

إن انتقال الديوكسين في التربة وحركته فيها، يعتمدان على درجة الهلجنة، وعلى الخواص الفيزيائية والكيميائية للمركب وخصائص التربة الموجود فيها. كما تقدر كمية الديوكسين حسب نتائج الأبحاث الألمانية المخزونة والمتراكمة في التربة بحدود ١٠٠سم في السنة [٩].

كما تشير الأبحاث العديدة إلى حدوث عملية انتقال كبيرة للمواد السامة خلال مسافات كبيرة ومناطق شاسعة، وهذا يؤكد وصول هذه المركبات من المواقع الصناعية (مصادر تشكلها) إلى المصادر المائية. كما يلاحظ وجودها في رواسب البحيرات وعند مصبات الأنهار، ويعزى وجودها إلى ما بعد عام ١٩٤٠، حيث كان قد بدأ الإنتاج الصناعي لمواد تحتوي على مركبات الكلور العطرية [١٠].

وقد حدد استقبال الإنسان للديوكسين من ثلاث قنوات هي: (التربة، الحيوان، الإنسان)، (النبات - الإنسان)، (النباتات - الحيوانات التي تعيش على الأعلاف - الإنسان).

لا توجد هناك أي فوائد عملية لمركبات الديوكسين، وهي تظهر كمنتجات ثانوية غير مرغوب فيها أصلا، تصاحب العمليات الكيميائية والعمليات الحرارية [١١]. وكمصادر ثابتة لإنتاج مركبات البنزين الثنائية والمتعددة الكلور مع الديوكسين يمكن ذكر المصادر التالية:

- ❖ النواتج التي تصاحب مركب «الكلوروفينول» وكل المركبات التي يكون الكلور طرفا فيها.
- ❖ نواتج العمليات الحرارية، وهي عمليات حرق القمامة المنزلية ومخلفات العيادات الطبية وعمليات احتراق زيوت المحركات، وكذلك من آليات الاحتراق الصغيرة كتلك المستعملة في المنازل (المدافئ، بوابير الكاز ...).

أما مركبات الكلوروفينولات (أو الفينولات المكلورة) فإنها تستعمل مادة واقية ومبيدا للفطريات، في الأخشاب والجلود والمعاجين، وتستعمل مادة مطهرة ومقاومة للحشرات، ويمكن القول إن استعمالها مطهرا، بشكل خاص، يشير إلى إمكان مساهمتها في زيادة إنتاج مركبات البنزين الثنائية والمتعددة الكلور في مياه المجاري.

ومن بين مركبات الكلوروفينولات، يحتل مركب الكلوروفينول الخماسي PCP مكانة خاصة، فيما يتعلق بمساهمته في إنتاج مركبات البنزين الثنائية والمتعددة الكلور مع الديوكسين في البيئة، فهو يستعمل بشكل واسع وعلى نطاق عالمي، مبيدا للفطر ومادة واقية للأخشاب، ومادة حافظة للمواد الجلدية والمنسوجات، والمواد اللاصقة. وقد فُرِضَ حظر على إنتاج هذا المركب (PCP) واستعماله في بعض الدول الغربية.

أيضا يوجد مركب البنزين الثنائي والمتعدد الكلور/مع الديوكسين قابعا في المركبات العضوية عديدة الكلورين ثنائي الفينيل (PCB). وهي توجد في زيوت المحولات الكهربائية وتعرف بأسماء تجارية مختلفة.

أما البنزين ومشتقاته فقد صنف تحت مركبات مسرطنة مؤكدة، أو كطفرات بيولوجية خطرة، ويتميز البنزين ومشتقاته بأنها مركبات عضوية متطايرة (VOC) بدرجة غليان أقل أو تساوي ١٠٠° م و/أو ضغط بخار أكبر من ١ ملم في الدرجة ٢٥°م. ويعود الاهتمام الحديث بهذه

المركبات إلى كونها في حالة بخار، مما يجعلها أكثر حركة وانتشارا في الوسط المحيط بها وتصعب بذلك السيطرة عليها.

توجد هذه المركبات في مياه الصرف الصحي المتجمعة في المدن بكميات كبيرة، فعلى سبيل المثال قدرت كميتها في مياه الصرف الصحي الداخلة إلى محطات المعالجة في كاليفورنيا بحوالى ٧٢٥ طنا سنويا، حيث إن المحطات التقليدية للمعالجة لا تستطيع إزالة هذه المركبات أو معالجتها [١٢].

إن حوادث انسكاب النفط من الناقلات أو الشاحنات أو تسربه ستؤدي إلى وصول المركبات العضوية المتطايرة إلى التربة أو المياه الجوفية أو مياه البحار أو الأنهار أو البحيرات المستخدمة لأغراض الشرب، مما يؤدي إلى تلويثها بمواد خطرة. كما يمكن أن يصل النفط إلى شبكات الصرف الصحي وبمقادير معتبرة من خلال الكراجات والمخازن والشوارع. إضافة إلى عدم وجود مراقبة كافية على الملوثات السائلة التي تطرحها المصانع، سواء في شبكات الصرف الصحي العامة أو في المصادر المائية العذبة أو المالحة.

وبخصوص الملوثات اللاعضوية مثل المعادن الثقيلة (الزرنيخ، الكروم، النيكل، الأسبستوس وغيرها) فتعد ذات سمية عالية ومسرطنة أيضا، حيث يمكن أن تصل إلى المصادر المائية المستخدمة لأغراض الشرب من خلال الملوثات السائلة التي تطرحها المصانع دون معالجتها أو إزالتها عند مصدرها.

لقد استندت المعايير الإرشادية أو القياسية لمياه الشرب في المراحل السابقة إلى افتراض أن وجود الملوثات ضمن الحدود المسموح بها، أو أقل، لن يشكل خطرا أو ضررا على الصحة، إلا أن المشكلات المرتبطة بالملوثات السامة قد أقرت واعتُرف بوجودها ومخاطرها حاليا. ونجد من الضروري هنا التحدث عن المخاطر الصحية، والتعرض بشكل محدد لهذه الملوثات المذكورة، لأن خطر السرطان أو الولادات المشوهة أو الطفرات البيولوجية الخطرة أصبح قائما، وبالتالي يطرح السؤال نفسه: هل يمكن أن نقبل بمستويات دنيا للخطر؟

تناقش الدراسة بالتفصيل منظومة تقويم الأخطار من حيث:

١- تقدير أخطار التعرض للملوثات الضارة أو السامة الموجودة في مصادر المياه، وخاصة المستخدمة لأغراض الشرب.

٢- حجم الخطر الكامن نتيجة انتقال هذه الملوثات.

٣- الريبة أو اللايقين في حساب أو نمذجة التأثيرات الصحية نتيجة احتمالات التعرض، هادفين من ذلك كله إلى تحديد الأخطار الصحية بشكل منهجي لتقويمها بالتطبيق على حالات دراسة، انطلاقا من المعايير العالمية الإرشادية أو القياسية لمواصفات مياه الشرب.

٢ - منظومة تقويم الأخطار (Risk Assessment)

تقوم عملية تقويم الأخطار المتوقع أن تلحق بالبيئة على جمع المعطيات (البيانات) المستخدمة في إيجاد العلاقة ما بين التجاوب وجرعة التلوث [١٣]. وتدمج هذه التقديرات بشكل عام مع معطيات التعرض الإنساني للحصول على تقدير عام للخطر. وهذا يتطلب استخدام معلومات حقيقية لتحري التأثيرات الصحية التي تترتب نتيجة تعرض الإنسان و/أو البيئة للمواد والظروف الخطرة. مثلا قياس إلى أي مدى يمكن أن ينتقل تأثير المواد الكيميائية بدءا من موقع التسريب أو الانسكاب لهذه المواد من خلال حادثة أو أكثر، ليشكل خطرا على مجمعات سكانية مجاورة، ثم تقويم الأضرار التي تترتب على واقعة التلويث وتعريض السكان والبيئة المجاورة للخطر [١٤]. ويتداخل موضوع تقويم الأخطار مع موضوع إدارة الأخطار (Risk management) المعرّف كعملية أخذ القرار المتعلق برد الفعل الإنساني المسؤول إزاء هذه الملوثات. وهذا يشمل دراسة الإجراءات الطارئة والحلول البديلة لتدارك تلك الأخطار المحتملة، وكذلك التنسيق بين نتائج عملية تقويم الأخطار والمعطيات الهندسية. وإذا ما توافرت معطيات الخطر، فإن الحكم السياسي والاجتماعي يكون لازما لتقرير الحد المسموح به (مثال جزء في المليون) من الخطر وكيفية تحقيق مثل هذا الحد.

غير أننا لكي نحصل على معطيات إحصائية ذات قيمة، فيما يخص قضايا البيئة، يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن قدرا كبيرا من الارتياب أو اللايقين (uncertainties) قد يحيط بعملية تقويم احتمالات الخطر. ولا تقتصر مسائل الارتياب أو اللايقين على عملية تقويم احتمالات الخطر، إذ إن الارتياب هو الدافع المحرك للعلوم كافة، فلو لم يكن هناك شك وارتياب لما كان هناك بحث علمي. فالعلوم هي سلسلة من العمليات التجريبية والبحثية دائمة التغير، والبحث العلمي يقوم على التصدي لاستنتاجات قابلة للقياس والاختبار، تعتمد غالبا على حقائق جدلية [١٥].

٢ - ١ : تقدير أخطار التعرض

٢ - ١ - ١ : أخطار التعرض في حياتنا اليومية والمعدلات المقبولة للتعرض

إن عثورنا على العديد من العناصر الكيميائية في مصادر المياه سببه الأول هو تطور تقنيات اكتشاف أدق تراكيز تلك المركبات الكيميائية في مصادر المياه المذكورة، وليس السبب في تزايد استخدام تلك المركبات أو سوء استخدامها. وليس بالضرورة أن يكون تعرضنا للأخطار هو أكبر مما كان عليه منذ بضعة عقود مضت، بل إن غاية الأمر هي أننا بتنا نملك تقنيات أحدث اليوم لاكتشاف المواد

الكيميائية الموجودة. هناك نقطتان لا بد من أخذهما بعين الاعتبار حين استخدام الوسائل المتوافرة لتقويم الأخطار:

١ - إن هناك حدودا معينة لفعالية عملية «إدارة الأخطار» في تقليص الأخطار التي تلحق بالبيئة والحد منها. وليس هناك من سلطة تملك القدرة على أن تضع يدها على كل مصادر الأخطار التي تهدد مجتمعنا ... وعلى سبيل تقريب وجهات النظر حول هذه المسألة أصبحنا اليوم نعد عملية «إدارة الأخطار البيئية» قائمة في الغالب على تقليص احتمالات الخطر إلى واحد في المليون، وهو ما يعرف قانونيا باسم «de minimis Risk»، أي الأخطار الطفيفة والمعدومة التأثير. ونحن - أفراد هذا المجتمع - نتعرض لمواجهة بعض الأخطار التي لا نملك أن نتفاداها، كأن تضربنا صاعقة، وهو احتمال نسبته واحد في المليون [١٦] (الجدول١).

لقد وصلنا الآن إلى نقطة نعد فيها الخطر المقبول بواقع نسبة واحد على مائة ألف (١:١٠٠٠٠٠) لاحتمال الموت نتيجة التعرض للخطر طيلة حياتنا [١٧]. إن قبولنا الخطر بنسبة واحد في المليون عن الذي ينجم مثلا عن عملية تطهير موقع ملوث وإعادة تأهيله يعني محاولة تقليص الخطر الناجم عن تطهير الموقع إلى حجم الأخطار الأخرى التي تحيق بأفراد المجتمعات الحديثة.

٢ - إن ما يعيق عمليات تقويم الأخطار المحتملة هو عدم توفير المعطيات الكافية اللازمة. وهكذا فإن الهم الرئيسي بالنسبة إلى عملية تقويم الأخطار تلك هو درجة الثقة بتلك العملية.

إذن فهناك ارتياب أو لايقين فيما يتعلق بتقويم احتمال تعرض البشر للظواهر البيئية. ونحن قد نستخدم معطيات ناتجة عن المراقبة أو الرصد للوصول إلى تمثيل للمعدلات والتراكيز، وبالتالي تقويم الأخطار اعتمادا على المقارنات مع المعايير والمقاييس التي تعنى بحماية البيئة. ويمكن تطبيق هذه الطريقة فقط في الحالات التي تتوافر فيها معطيات المراقبة (الرصد) في النقطة المطلوبة، كما يتضح في الشكل (١) سيناريو A.

وبالمقابل، قد نحتاج إلى استخدام المعطيات الواردة إلينا من آبار المراقبة والرصد بغرض قياس العوامل (البارامترات) اللازمة لاستخدامها في نماذج رياضية حيث ستستخدم النماذج المذكورة عقب ذلك لقياس قيم التعرض ومعدلاته (انظر سيناريو B من الشكل ١).

وعند إجراء عملية النمذجة الرياضية علينا أن نهتم بطرق انتقال العنصر المكون البيئي من المصدر، بحيث إنه يخلق أخطار تعرض على المتقبِّل. وفي حالات كثيرة نجد هناك العديد من الطرق التي تؤثر في درجة دقة حساب قيم احتمالات التعرض للخطر [١٨].

الجدول (١): الأخطار التي تزيد احتمالات الموت بنسبة واحد في المليون
تدخين عدد ١,٤ سيجارة.
شرب ٠,٥ لتر خمر.
قضاء ساعة واحدة في منجم فحم.
السفر مدة ٦ دقائق بوساطة زورق تجديف.
السفر لمسافة ١٠ أميال بوساطة دراجة هوائية.
السفر لمسافة ١٠٠٠ ميل بالطائرة النفاثة.
تناول مياه الشرب في مدينة ميامي لمدة سنة واحدة.
تناول عدد ٤٠ ملعقة كبيرة من زبدة الفستق.
تناول عدد ١٠٠ شريحة لحم مشوية على فحم الخشب.
المصدر (Wilson,1979).

٢ - ١ - ٢ : الارتياب (اللايقين) في التأثيرات الحاصلة نتيجة احتمالات التعرض للبيئة الملوثة

إن العنصر الأساسي في تقويم احتمال الخطر هو تحديد النقطة التي يتعرض فيها الناس للأذى. وتتوافر المعلومات اللازمة لهذا الغرض اعتمادا على نتائج الدراسات السمية والوبائية ... ومعظم الدراسات السمية تنطبق عليها بنود تصنيف الدراسات الاختبارية التجريبية ... ففي مثل هذه الدراسة تكون كل الشروط البيئية ثابتة إلى أقصى درجة ممكنة، بينما لا يختلف سوى شرط واحد فقط، أو عدد قليل من الشروط، مع توقع أن تؤدي عمليات تعديل احتمالات التعرض للأخطار إلى إعطاء نتائج مختلفة في المحصلة النهائية.

وتتزايد ثقتنا بالنتيجة بشكل يدفعنا إلى التعرف على كل العوامل المسببة، ومن ثم التحكم بها من خلال الاختبار الجاري. وفي المقابل فإن معظم الدراسات الوبائية ذات الأهمية بالنسبة إلى عملية تقويم الأخطار تعتمد على الملاحظة والمشاهدة. أي أن العملية لا تقوم على تناول الظروف والأوضاع التي يعيش فيها الناس، بل إن الدراسة تعتمد في تصميمها على الإفادة من «الاختبارات الطبيعية» حيث تتعرض فيها مجموعات من الناس والأفراد - بصورة عارضة عادة - لمستويات مختلفة من المؤثرات والمواد ذات الخطورة.

إن القوانين والأنظمة الاقتصادية تضع قيودا على عدد الحيوانات التي يمكن أن تغطيها الدراسة الانسمامية. ومعظم التشريعات البيئية الناظمة لاستخدام المواد والمركبات المسرطنة وتداولها وُضعت بشكل يراعي ضمان عدم زيادة احتمال التعرض لخطر الإصابة بالسرطان على مدى عمر الإنسان عن $١٠^{-٤}$ أو $١٠^{-٥}$ أو $١٠^{-٦}$. وإذا تعرضت الحيوانات الاختبارية الداخلة في دراسة مؤثرات المعالجة الدوائية لمواد كيميائية مسرطنة بتراكيز

مماثلة لتلك التي توجد في البيئات الملوثة نسبيا يكون احتمال حصول الورم الخبيث أقل من $١٠^{-٤}$ عادة، وهذا يتطلب أن تشمل الدراسة أكثر من ١٠٠ ألف حيوان لأجل التوصل إلى نتائج ذات أهمية إحصائية عالية. وحيث إن هذا غير مجد يتم تصميم الاختبار عادة باستخدام تراكيز مركبات كيميائية عالية نسبيا مع عدد قليل من الحيوانات لكي نحصل على نتائج تعرض أكثر خطورة. وبعد ذلك نستخدم تلك النتائج لكي نستقرئ أو نحسب التأثيرات الحاصلة في معدلات تعرض أقل بكثير، وضمن الحدود الاعتيادية، في البيئة التي يقيم فيها الإنسان أو الوسط الذي يحيا وسطه وضمنه. وتشير التقديرات إلى أن قيم الاستقراء اللايقيني في النتائج الإحصائية عند تراكيز جرعات مؤثرة صغيرة من الملوثات قد تختلف بنسبة ٤٠ ضعفا، وذلك بحسب نموذج الاستقراء [١٩]. ومن ناحية أخرى، تقوم الدراسات الوبائية عادة على مجموعات مهنية معينة. وهنا يتم تقويم احتمال التعرض لخطر الإصابة بالسرطان - على سبيل المثال - لدى العمال المعرضين لخطر المواد الملوثة بتراكيز عالية أكبر مما نراه عادة في البيئة الطبيعية. كذلك مطلوب استكمال أو استقراء النتائج والمعطيات من معدلات تعرض عالية إلى معدلات تعرض أدنى بكثير. وعلى الرغم من ذلك تمتاز النتائج الوبائية بأنها أفضل من المعطيات الانسمامية الحيوانية، فيما يخص عملية تقويم الأخطار، نظرا لعدم وجود حاجة إلى الانتقال بنتائج الاختبارات الجارية على الحيوان وتعميمها على البشر. فهناك أوجه اختلاف بين الإنسان والحيوانات الاختبارية فيما يتعلق بجملة صفات منها: الحجم ومعدل الاستقلاب والأجهزة والأعضاء موضوع الدراسة، إضافة إلى أوجه الاختلاف البيوكيميائية.

ولذلك، فلو أننا حصلنا على أدق القيم لحساب التأثيرات الصحية المحتملة بفعل التعرض للبيئة الملوثة، لظل هناك قدر من الارتياب أو اللايقين يحيط بتلك القيم، وعلى أساس ذلك نلجأ إلى الاقتصاد والحذر في عملية استقراء أو تعميم المعطيات الناتجة. إننا نملك قدرا كبيرا من المعطيات ذات العلاقة بالآثار المحتملة لتعرض الإنسان لبعض الأخطار.

وحاليا تجرى سلسلة من الدراسات التي تهدف إلى تفعيل أوجه الاستفادة من معطيات الدراسات الوبائية لحساب احتمالات الخطر، غير أن أخطاء جسيمة تحدث عند قياس عواقب التعرض لتراكيز صغيرة في الظروف البيئية الواقعية [٢٠] كما أن معطيات الدراسات الانسمامية تشير إلى وجود مؤثرات بسيطة تتضاءل سريعا (لا تتناقص بصورة خطية) حين تكون تراكيز العناصر الملوثة منخفضة [٢١]. تعتمد طريقة عامل الأمان (Safety factor) أولا على قياس حجم الجرعة الاختبارية الأكبر، التي لا تختلف جذريا عن حجم الجرعة الصفر (zero - dose control group) لدى مجموعة مقارنة (مستوى الآثار الضارة غير المنظورة أو NOAEL). وهذا المستوى يمثل القيم الدنيا المسموحة (الحدية) لاحتمال

التعرض لخطر معين. وبعد ذلك نقوم بتعديل مستوى NOAEL لتمثيل مختلف مستويات الارتياب، وهو عامل أمان يصلح عادة للحصول على حجم جرعة مرجعية RFD (REFERENCE DOSE) أو حجم تركيز مرجعي RFC (REFERENCE CONCENTRATION). تشمل النتائج المترتبة على هذه الدراسات والقياسات المخرجات التالية:

١ - الجرعة المرجعية RFD: تعني حجم التعرض الأعظمي المسموح به في اليوم لمادة ملوثة غير مسرطنة نسبة إلى وزن جسم معين، مع عدم وجود احتمال التسبب في حصول أضرار وأذيات جهازية جسدية طيلة حياة الشخص المعرض للجرعات بوساطة تعرض أو بأخرى (وحدات مج/ كج وزن الجسم/ يوم).

٢ - معامل ميول أو انحدار السرطان CSF (CANCER SLOPE FACTOR) أو قيمة الفعالية، وهو مقياس تبدل احتمال الخطورة حسب تبدل حجم الجرعة لمادة كيماوية مسرطنة بعينها. ويفترض هنا وجود تعرض للإصابة بالسرطان نتيجة أي جرعات مسرطنة.

ومنذ عام ١٩٩٠ قامت وكالة EPA الأمريكية [٢٢] بتعيين قيم الجرعات التالية الأعظمية من $١٠^{-٤}$ × ١ حتى $١٠^{-٦}$ × ١ كحدود لقيم الأخطار المقبولة عموما. وبدءا من حجم الجرعات $١٠^{-٤}$ × ١ وما فوق يجب أن نعد احتمالية الإصابة بالسرطان وحجم السكان المعرضين للخطر غير مقبولين بالنسبة إلى أي نموذج سيناريو للسكان أو للتعرض.

٢ - ١ - ٣ : تقدير حجم الخطر (انتقال العناصر الملوثة)

هناك دائما مصدر موجود لاحتمال وصول خطر تعرض للمواد الملوثة للبيئة المحيطة. غير أنه لكي يكون هناك احتمال خطر يجب توافر ثلاثة عناصر رئيسية تساهم في ذلك وهي:

١ - وجود مصدر للمواد الملوثة. ٢ - توافر واسطة أو أكثر لانتقال المواد الملوثة. ٣ - وجود المتلقي الذي سيلحقه الأذى في حال تعرض لفترات وحجم جرعات عالية، حيث نشاهد هذه العوامل الثلاثة ممثلة في الشكل (٢). وفي حال انتفاء وجود أي عامل من العوامل الثلاثة عندها لا يكون هناك أي خطر. ولذلك فإن تقويم الخطر هو في الحقيقة عملية منهجية تهدف إلى تقويم أهمية ودرجة تأثير مصادر التلوث وطرق التعرض المحتملة للخطر وقياسها الموجودة في نطاق كامل من وضعيات الفشل و/ أو سيناريوهات التعرض. قد تحدث واحدة من العمليات أو أكثر تؤدي إلى تعريض السكان والحيوان والبيئة المحيطة للخطر. وتشمل العمليات التي تؤدي إلى وجود الأخطار طرق انتقال التلوث البيئي من المصدر إلى المتقبل (الشكل٣).

وحين تتلوث البيئة بأحد المركبات الكيماوية تقوم الخواص الفيزيائية للمادة الملوثة وكذلك خواص وطبيعة البيئة المعرضة بدور مؤثر. ومن الضروري للغاية إجراء دراسات وقياسات لحجم تأثير ودور طرق انتقال المركبات الكيميائية الملوثة للبيئة من المصدر،

مرورا بالبيئة، ثم إلى الكائن المتلقي أو المتقبل. ويمكن في هذه الحالة اللجوء إلى استخدام النماذج لتوضيح العوامل المؤثرة والمساعدة. إن توافر معطيات مراقبة ورصد لأجل معايرة أو ضبط توابع تحويل النموذج يساعد كثيرا على زيادة درجة الثقة بنتائج عملية النمذجة.

مثلا استخدم شارما وآخرون [٣٣] عام ١٩٩٤ المعطيات المقيسة (المراقبة) لضمان صحة ودقة توقعات النموذج الرياضي لتوضعات مركبات الهيدروكربونات العطرية متعددة النوى (PAH) Poly Aromatic Hydrocarbones (الشكل ٤). ويؤدي هذا إلى زيادة درجة الثقة بتوقعات التوضع الناتجة اعتمادا على النموذج الذي نستخدمه في المواقع التي لا تجري فيها قياسات أو مراقبة. ففي بعض الحالات تكون إحدى طرق انتقال الملوثات هي الصفة الأبرز، وبالمقابل نشاهد وجود أشكال متعددة من طرق الانتقال ذات الأهمية، وهذا يعكس لنا درجة صعوبة القيام بعملية تقويم احتمالات الخطر الشاملة (الجدولان ٢ أ و ٢ب).

قد تشمل طرق الانتقال المختلفة هذه وصول المواد الملوثة عن طريق وسط معين (ويشمل الهواء والتربة والرواسب والمياه السطحية والمياه الجوفية) إلى متقبلين محتملين عن طريق الجهاز التنفسي مثلا او ملامسة الجلد أو الجهاز الهضمي، وإن وجود العديد من الطرق لتعريض مختلف أجهزة وأعضاء الجسم للملوثات (طريق التنشق يعني أن الجهاز المهدد بالخطر هو الرئتان، أما وصول التلوث عن طريق الفم فيؤدي إلى تعرض المعدة للخطر)، هو مؤشر إلى ضرورة القيام بعمل كبير لحسابات أخطار التعرض ولتقويم طرق وصول المؤثرات الملوثة إلى الإنسان والحيوان.

الجدول (٢ أ): أمثلة على آليات انتقال الملوثات من منطقة المصدر

انبعاث الغبار في الجو.

انبعاث الغبار وترسبه فوق التربة المجاورة.

سيلان وتدفق رشاحة الطمر الصحي إلى مستوى المياه الجوفية.

التعرض البشري من خلال الملامسة المباشرة أو الابتلاع أو التنشق.

الجريانات السطحية المتجهة نحو الأنهار عقب تساقط الأمطار.

سيلان المياه الجوفية نحو الأنهار.

التشريب إلى الحياة المائية من خلال الملامسة.

الجدول (٢ ب): وسائط التعرض للملوثات

الوسط	
المياه الجوفية	شرب المياه الملوثة.
	تنشق الغازات المتطايرة.
	تلوث الجلد من الاستحمام بالماء.
مياه سطحية	شرب المياه الملوثة.
	تنشق الغازات المتطايرة.
	تلوث الجلد من الاستحمام بالماء الملوث.
	مقدار الماء الداخل إلى المعدة بطريق الفم خلال السباحة.
	تناول أسماك ملوثة.
التربة	الابتلاع عن طريق الفم.
	تنشق الجزيئات (الجسيمات).
	تنشق الغازات المتطايرة.
	تناول الخضراوات الملوثة.
	تلوث الجلد عند ملامسته للنباتات الملوثة.

ومن المهم كذلك تحديد الأهمية النسبية لمختلف أنواع سيناريوهات التعرض. ويجب عند تقويم وقياس احتمال الخطر الناجم عن التعرض للملوثات إلى ايضاح خصائص عملية التعرض والخواص الفيزيائية، خاصة عملية انتقال المواد الملوثة من مصدر التلوث البيئي إلى مواقع التعرض، وكذلك تعيين طرق انتقال الملوثات والتعرض لها والحمولات الكيميائية والجرعات التي يتعرض لها أي متقبل.

إن النماذج الرياضية لحساب وتقويم سيناريوهات التعرض هي عناصر مهمة في هذه العمليات. هناك العديد من أنظمة تصنيف النماذج الرياضية، خاصة منها ما يلي:

١ - نماذج الصندوق الأسود. ٢ - النماذج التحليلية. ٣ - النماذج العددية.

وتخضع عملية اختيار النموذج لما لا يقل عن ثلاثة شروط [٢١] وهي:

١ - رغبة وتقدير الباحث فيما يخص استخدام مختلف تقنيات النمذجة.

٢ - حجم وامتداد قاعدة البيانات المتوافرة.

٣ - النظام الفيزيائي موضوع النمذجة.

هناك تفاصيل توضيحية عن ميزات وإشكالات مختلف النماذج يمكن العودة إليها في المصدر[٢٥].

وهكذا تتم عملية حساب احتمالات الخطر من خلال التنسيق بين طرق انتقال تأثيرات المواد الملوثة واحتمالات حدوث التعرض. وتعتبر نماذج API [٢٦] أو AERIS [٢٧] أمثلة على النماذج المستخدمة لإنجاز العمليات الحسابية المذكورة.

أخطار التعرض للملوثات غير المسرطنة

بالنسبة للملوثات غير المسرطنة تحسب محصلات أو روائز الخطر (HQ) ومؤشرات الخطر (HI) لأجل كل مادة ملوثة ذات علاقة ولأجل كل طريقة تعريض اعتمادا على العلاقة التالية:

$$HQ_{ij} = \frac{CDI_{ij}}{RFD_{ij}}$$ حيث يكون:

CDI_{ij} = الامتصاص أو التراكم اليومي المستديم لطريقة التعرض j من المادة الكيميائية i.

RFD_{ij} = الجرعة المرجعية لطريقة التعرض j من المادة الكيميائية i.

HQ_{ij} = محصلة أو رائز الخطر غير المسرطن للمادة الكيميائية i من خلال طريقة التعرض j.

وحيث إن أخطار التعرض للمواد الكيميائية غير المسرطنة تبقى عملية إضافية نحسب مؤشر الخطر لأجل كل طريقة تعرض j لجميع المواد الكيميائية الملوثة.

$i = 1 ......I$ لكافة المواد الكيماوية $HI_j = \sum_{i=1}^{I} HQ_{ij}$ حيث يكون:

HI_j = مؤشر الخطر لطريقة التعرض j وبعد ذلك نجمع مؤشرات طريقة التعرض في جميع الطرق معا $j = 1......J$ لنحصل على إجمالي مؤشر خطر التعرض $HI = \sum_{j=1}^{J} HI_j$ وإذا كان الدليل الإجمالي لخطر التعرض أكبر من واحد عندئذ تعتبر عملية إدارة الأخطار مطلوبة.

أخطار التعرض للملوثات المسرطنة

نحسب احتمال التعرض للخطر المتراكم على مدى عمر الإنسان للمواد المسرطنة (ELCR) كما يلي:

$$ELCR_{ij} = CDI_{ij} \times CSF_{ij}$$

حيث $ELCR_{ij}$ = احتمالية إصابة شخص بالسرطان نتيجة التعرض لمركب كيميائي i (دون واحدة) و CDI_{ij} = الامتصاص أو التراكم اليومي على امتداد فترة زمنية معينة (مج/كج/يوم) للمركب الكيميائي i مع طريقة تعرض j و CSF_{ij} معامل ميول أو انحدار السرطان (مج/كج/يوم)$^{-١}$.

ونحسب خطر التعرض للسرطان كليا طيلة حياة الانسان بإضافة الخطر الناجم عن عملية التعرض. وإذا كان خطر الإصابة بالسرطان طيلة الحياة نتيجة التعرض أكبر من خطر التعرض المعتبر مقبولا (مثلا $١٠^{-٦}$) يجب اللجوء حينئذ إلى إدارة الخطر.

وبذلك فإن عملية تقويم الخطر تؤدي إلى تقسيم المسألة إلى عناصرها المنطقية. غير أنه قد تكون هناك مشاكل مهمة في النموذج المستخدم في تمثيل خواص عملية انتقال المكونات الملوثة وتوضيحها من المصدر إلى المتقبل والمعطيات المستخدمة كإدخالات إلى النماذج والفهم

العلمي للجرعات المرجعية. ولإثبات هذه المسألة نأخذ الحالة المذكورة في الشكل (٥) الذي يوضح انبعاثات الدخان من مداخن مصنع فولاذ التي تسبب أخطارا على المدى البعيد للمناطق السكنية المجاورة. وتتضمن الغازات المنبعثة متجها (vector) للمكونات البيئية (هيدروكربونات عطرية متعددة النوى PAHs) والمعروفة بتأثيرها المسرطن. ونشير هنا إلى وجود جملة من الاعتبارات المهمة، وهي كما يلي:

١ - مدى دقة حساب الغازات المنبعثة.

٢ - إلى أي درجة تؤثر الترسبات على انتقال مكون PAHs قبل وصوله موقع المتقبل.

٣ - مدى تأثير تبدلات اتجاه الرياح وتأثير سرعات الرياح في حدوث التلوث والخطر.

٤ - في حال بلوغ معدلات التعرض قيما معينة فما هو احتمال تعرض صحة المواطن للخطر؟ ما هو مقدار الثقة بحجم الجرعة المرجعية؟

تدل النقاط من ١ حتى ٤ على بعض حالات عدم الثقة المرتبطة بتقويم احتمالات التعرض للخطر. وكذلك الأمر نشاهد وجود حالات ارتياب وعدم ثقة بما يتعلق بقيم التراكيز في المياه الجوفية في موقع أو نقطة عميقة بعيدة عن موقع الطمر الصحي حيث يكون احتمال انتقال رشاحة الطمر الصحي (leachate) مرتبطا بخواص التربة والآليات المعيقة، ونستخدم هنا نموذج انتقال للملوثات الخطرة للربط بين مختلف العوامل العشوائية للوصول إلى تقدير نوعية المياه في الموقع المذكور.

إن تعرض المتقبل للتلوث يؤدي إلى احتمال إصابته بالمرض، حيث نستخدم عادة نوعين من المتقبلات: الصغار السن والبالغين.. يتم تخصيص الأطفال والبالغين بنماذج سلوكية وظروف معيشية لأجل تمثيل قيم الامتصاص الأعظمية التراكمية للشخص في موقع التعرض.

ونفترض أن تتراوح سن المتقبل البالغ بين ٢٠ و٣٩ سنة، ووزنه ٧٠ كغ ومعدل تنفسه اليومي ٢٢م٣. نفترض أن عمر الطفل الصغير يتراوح بين سنتين وثلاث سنوات ووزن جسمه ١٠ كغ ومعدل تنفسه اليومي ٥م٣. هناك ثلاث طرق لوصول الملوثات إلى أجهزة وأعضاء الجسم في كل متقبل وهي:

- طريقة الابتلاع وطريقة التعرض الجلدي وطريقة الجهاز التنفسي.

وتقوم الخطوة الأخيرة في عملية تقويم الخطر على تكامل مختلف نتائج تقويم التعرض والتأثيرات السامة.

٢ - ٢ مراحل تقويم الأخطار

تعتمد منهجيات تقويم الأخطار على تحديد الخطوات الأربع التالية [٣٨]:

١ - تحديد الحدث أو الخطر (Hazard Identification)؛ ٢ - تقويم الجرعة - التجاوب (Dose - Respones Assessment)؛ ٣ - تقويم التعرض (Exposure Assessment)؛ ٤ - تصنيف الأخطار (Risk Characterization). وفيما يلي وصف مختصر لكل خطوة من هذه الخطوات.

٢ - ٢ - ١ تحديد الأخطار

وتمثل هذه الخطوة عملية موجهة لتحديد الآثار الصحية مثل السرطانات أو التشوهات الولادية المتشكلة عن مواد أو مركبات كيميائية ذات علاقة، مستخدمين نتائج الاختبارات على الحيوانات أو كائنات اختبارية أخرى.

في البلدان النامية، تقيد المتطلبات التمويلية والتقنية من إمكانية إجراء الدراسات والبحوث العلمية للكشف عن الأخطار المرتبطة بمركبات كيميائية معينة، لذا ينصح في هذه الحالة باستخدام المعلومات ونتائج البحوث المنشورة دوليا من قبل جمعيات أو منظمات أو وكالات علمية متخصصة معروفة مثل الوكالة الدولية لبحوث السرطان (IARC) ووكالة حماية البيئة الأمريكية (EPA). استنادا إلى الحوادث المتراكمة من حالات دراسة عديدة وإلى دراسات وبائية ومعطيات عن التجارب الحيوانية، تستخدم وكالة حماية البيئة الامريكية التصنيفات الخمسة التالية (E A) للمركبات الكيميائية ذات العلاقة بالتسبب بالسرطانات:

المجموعة A: مسرطنات مؤكدة للإنسان. هناك ظواهر وبائية كافية تدعم العلاقة الثابتة ما بين التعرض لجرعة تلوث محرضة وحدوث السرطان.

المجموعة B: احتمال إصابة الإنسان بالسرطانات وتتضمن مجموعتين (B2,B1). B1 تشير إلى حوادث وبائية محدودة، ولكن حوادث كافية من السرطانات على الحيوانات، B2 تعني معطيات إنسانية غير كافية ولكن حوادث سرطانية كافية على الحيوانات.

المجموعة C: إمكان إصابة الإنسان بالسرطانات. ويستخدم هذا التصنيف لمواد محرضة معينة مرافقة بحوادث محدودة من السرطانات على الحيوانات، ولكن مع عدم توافر معطيات إنسانية.

المجموعة D: غير مصنفة سرطانيا. وتشمل المواد المحرضة ذات الآثار الضارة أو المؤذية غير المرافقة بحوادث سرطانية كافية سواء على الحيوان أو الإنسان، أو عدم توافر معطيات عنها.

المجموعة E: حوادث غير مسرطنة. وتستخدم لمواد محرضة لا يظهر من جرائها أي حوادث مسرطنة على الأقل في اختبارين كافيين على الحيوانات في أنواع مختلفة منها أو في الدراسات الكافية الوراثية الإنسانية والحيوانية معا.

فمركبات الكلوروفورم المتشكلة كنواتج جانبية عن كلورة مياه الشرب مصنفة ضمن المجموعة B2. وكذلك مركبات المبيدات الزراعية (د د ت والديلدرين) وثنائي الفينيل المتعدد الكلور وثلاثي كلورو الايثلين (الإيثين) ورابع كلوريدالكربون والديوكسين والبينزو (أ) بيرين فكلها مصنفة أيضا ضمن المجموعة B2 (الجدول رقم ٣)، ويعني ذلك أن احتمال الإصابة للإنسان بالسرطانات قائم ما دامت هناك حوادث سرطانية كافية على الحيوانات ولكنها غير كافية على الإنسان.

أما مركبات البنزين والزرنيخ والكروم والنيكل فهي مصنفة ضمن المجموعة A (الجدول رقم ٤) أي أنها مواد مؤكد تسببها بإصابة الإنسان بالسرطانات.

هناك تجارب ألمانية أخرى أجريت على الحيوانات وبالتحديد مركب البنزين الثنائي والرباعي الكلور مع الديوكسين (TCDD - ٢،٣،٧،٨) وبينت اختلاف درجة سميته وأثره بين حيوان وآخر، فهو في الخنزير البحري يعادل ١ ميكرو جرام/١ كج من وزن الحيوان في اليوم، وفي حيوان الهاميستر يصل إلى 5000 ميكروغرام/كج من وزنه. أما العمر النصفي لمركب الديوكسين فهو ١٧ يوما في الجرذان و ٧ سنوات في جسم الإنسان، ويكثر في الأنسجة الدهنية [٢٩].

تعتبر بذلك الفئران والجرذان وحيوانات الهاميستر المحتوية أجسامها على المركب ضمن المجموعة (B2) حيوانات مصابة بالسرطان. ولكن الميكانيكية المولدة للسرطان هنا ما زالت غامضة، حيث إن فحوصات الجينات أو المورثات تدل على التدرج في محفزات الورم السرطاني، بينما تدل الفحوصات طويلة المدى على الجينات المورثة للسرطان، وهذا يعني أن تبدأ بعض المواد بالاتحاد مع الحامض الأميني DNA، حيث يؤدي ذلك إلى بدء عملية السرطنة، وتعمل محفزات الورم السرطاني على تحويل الخلايا المحرضة إلى خلايا سرطانية، وتكون هذه المحفزات ذات تأثير بيولوجي فعال، عندما يتم تجاوز القيم الحرجة المحددة (المسموح بها) مدة أطول وبالتالي فإن مرض السرطان ما هو إلا خروج الخلية الطبيعية عن معدل النمو أو التكاثر الطبيعي.

٢ - ٢ - ٢ تقويم (الجرعة - التجاوب)

وتميز هذه الخطوة صفات العلاقة ما بين جرعة المادة المتناولة (الملوث) وظهور الآثار الصحية الضارة. ففي التجاوب لحالات أو لمواد غير سرطانية، فإنه يفترض أن هناك عادة جرعة قياسية (تكون ذات مستوى تركيز محدد لا يجوز تجاوزه)، إذا ما تم التعرض لها، لن تكون هناك آثار ضارة. أما في حالة المواد المحرضة لتجاوبات سرطانية، فإننا لأسباب الوقاية نفترض أن التعرض لأي كمية من الملوثات المسرطنة سيخلق أو سيسبب مرضا سرطانيا، وهذا يعني أنه لا توجد معايير قياسية لتراكيز محددة، من دون أي تجاوب! ونظرا لعدم وجود معطيات حقيقية لتجارب على حيوانات تمت في منطقتنا العربية، فإن ذلك يضعنا دوما أمام نواح جدلية في اختيار الطريقة التي بها نسحب نتائج الجرعات من التراكيز العالية إلى التراكيز المنخفضة. هناك العديد من النماذج الرياضية الموجودة والمطبقة للانتقال من التراكيز العالية إلى التراكيز المنخفضة. إن بعض النماذج الشائعة هي نماذج الطور الواحد والنماذج

المتعددة الأطوار أو المراحل (Multistage Model) وما دام الاختيار ليس قائما على معطيات متوافرة فإننا انطلقنا من طريقة اعتمدتها وكالة حماية البيئة الأمريكية (EPA) حماية للصحة العامة، وهي اختيار نموذج يقدر الخطر بالشكل الأمثل، وكان ذلك محققا في تبني النموذج الاستقرائي الخطي المتعدد المراحل أو الأطوار (Linear Multistage Model) الذي هو نموذج خطي عند الجرعات الصغيرة أو المنخفضة المرافقة بشكل طردي مع منحى الخطر المحدد خطيا بحيث يكون مجال الثقة إحصائيا أكبر من ٩٥٪ (أي حدود الخطأ أقل من ٥٪). وهذا يعني بشكل أدق أن احتمال تعرض الإنسان لخطر الإصابة بالسرطان مرتبط خطيا مع قيمة أو تركيز جرعة الملوث. يسمى ميل منحنى (الجرعة - التجاوب)، عند الجرعات المنخفضة باستخدام النموذج الاستقرائي المتعدد الأطوار، بمعامل انحدار أو ميول السرطان أو بمعامل الفعالية (Cancer Slope Factor Or Potency Factor) (الشكل ٦). وتعطى المعادلة المستخدمة في حساب الخطر السرطاني المتراكم على مدى عمر الإنسان على الشكل التالي:

الخطر السرطاني المتراكم على مدى عمر الإنسان =

الجرعة اليومية الوسطية × معامل انحدار أو ميول السرطان

LIFETIME RISK = AVERAGE DAILY DOSE (MG/KG/DAY)

X POTENCY FACTOR (1/[MG/KG/DAY])

LIFETIME RISK = CDE X CSF

وتؤخذ الجرعة كقيمة وسطية محددة على طول فترة عمر الإنسان المفترضة (٧٠ عاما). وتدعى هذه القيمة بالمعدل اليومي المستديم لتجرع الملوث (CDI). ويسمى نظام المعلومات المطلوبة لإجراء هذه الحسابات المستندة إلى قواعد المعلومات الخاصة بالمواد السامة، «نظام المعلومات للخطر المتراكم» (IRIS)، وهي بهذا تشكل الإطار التقديري للخطر الإنساني.

٢ - ٢ - ٢ تقويم التعرض

وتتضمن هذه الخطوة تحديد حجم وطبيعة السكان الذين تعرضوا للمواد السامة المعتبرة، ولأجل تقدير الخطر المسبب بوساطة مياه الشرب الحاوية لبعض المواد السامة، فإنه من الضروري تحديد المعدل اليومي المستديم لتجرع الملوث (CDI) ووزن جسم الإنسان.

ويقدر المعدل اليومي لتجرع الملوث من خلال معرفة كمية المياه المستهلكة يوميا وتركيز المادة المسرطنة في مياه الشرب. (الجدول ٥) يعطي القيم المعيارية (القياسية) التالية المستخدمة في تقييم التعرض.

الجدول (٥): القيم المعيارية الموصى بها لغرض حسابات المعدل اليومي للتجرع حسب وكالة حماية البيئة الأمريكية [٢٠].

العامل	القيمة المعيارية
الوزن الوسطي لجسم الإنسان (بالغ)	٧٠ كغ
الوزن الوسطي لجسم الإنسان (طفل)	١٠ كغ
كمية المياه المستهلكة يوميا (بالغ)	٢ ليتر
كمية المياه المستهلكة يوميا (طفل)	١ ليتر
مدة التعرض على مدى متوسط عمر الإنسان	٧٠ عاما

٢-٢-٤ تصنيف الأخطار

إن عملية التكامل والربط بين الخطوات الثلاث السابقة تمكننا من استنتاج تقدير حجم المشكلة الصحية الواقعة في مجتمع إنساني ما يتجرع المياه الحاوية لمواد مسرطنة وبذلك نستطيع تحديد الخطر الإجمالي الصحي ككل على أي مدينة او اي تجمع سكاني.

٣ - حالات دراسة مع النتائج

في تحديدنا للخطر الأعظمي المتوقع من أمراض السرطانات، انطلقنا من المعايير الإرشادية (لمنظمة الصحة العالمية أو السورية المأخوذة منها) المسموح بها لبعض المركبات الخطرة في مياه الشرب (الجدولان ٣ و٤ العمود الثالث). فهي على سبيل المثال في حالة الكلوروفورم (Chloroform) محددة في المعايير السورية بتركيز أعظمي مسموح به ٣٠ ميكروغرام/ليتر، بينما هي في المعايير الإرشادية لمنظمة الصحة العالمية ٢٠٠ ميكروغرام / ليتر.

وبالنسبة للمبيد الزراعي د.د.ت فإن المعيار المسموح به هو ١ ميكروغرام/ ليتر وبالنسبة للمبيدين الزراعيين معا الدرين والديلدرين فإن المعيار المسموح به هو ٠,٠٣ ميكروغرام/ليتر، وبالنسبة لمركب عديد الكلورين ثنائي الفينيل (PCB) فهو ٠,٥ ميكروغرام/ليتر، وهكذا بالنسبة لبقية المركبات الواردة في الجدولين (٣، ٤).

ولحساب الخطر المتوقع من السرطانات على طول فترة عمر الإنسان، افترضنا أن كمية تراكيز الملوثات الخطرة الموجودة في مياه الشرب هي نفسها ضمن المعايير المسموح بها. ولتبيان ذلك بالتفصيل اخترنا مركب الكلوروفورم كمثال حسابي بتركيز مسموح به حسب المعايير السورية وهو ٣٠ مكغ/ل:

المعدل اليومي المستديم لتجرع التلوث =

CDI = (30ug/1×mg/ 1000 ug × 2L/day/70 kg

= 0.000857mg/kg/day

الخطر السرطاني الممتد على طول عمر الإنسان =

المعدل اليومي المستديم × معامل الانحدار أو الميول

Pisk = 0.000857 ×0.0061

$= ٥,٢٣ \times 10^{-6}$

يمكن أن نلاحظ من هذه النتيجة أن الخطر السرطاني الممتد على فترة عمر الإنسان حسب المعايير الإرشادية السورية نتيجة استهلاكه مياه الشرب المحتوية على تركيز أعظمي من الكلورفورم مساويا لما هو مسموح به سيؤدي إلى موت خمسة أشخاص لكل مليون نسمة، وإذا أجرينا الحساب على أساس التركيز المسموح به حسب المعايير الإرشادية لمنظمة الصحة العالمية وهو ٢٠٠مكغ/ل، فإن الخطر السرطاني الممتد على طول فترة عمر الإنسان سيكون مساويا حوالى ٣٥ شخصا لكل مليون نسمة.

وطبيعي أن الأمور ستكون أسوأ بكثير فيما لو أجريت قياسات لتراكيز ثلاثي الهالومينات في مصادرنا المائية العذبة المستخدمة مصدرا لمياه الشرب في البلدان العربية، وكانت قيمة تراكيز الكلوروفورم المقيسة أكبر مما هو مسموح به (حسب معايير منظمة الصحة العالمية) وليكن على سبيل المثال أكبر بـ (١٠) أضعاف وبالتالي سيكون الخطر السرطاني هو موت (٣٥٠) شخصا لكل مليون نسمة.

ليس هناك قياسات تجرى حاليا في بعض البلدان العربية إن لم يكن معظمها أو كلها، وذلك لتراكيز ثلاثي الهالومينات (THM) في مياه الشرب المعالجة أو مياه الصرف الصحي المعالجة. هناك دراسة وحيدة في المنطقة العربية على حد علم المؤلف قد أجريت لتقدير مستويات الـ THM في مياه الصرف الصحي الخارجة من محطة المعالجة، وذلك في الأردن[٣١]. وقد بينت نتائج هذه الدراسة أن مركبات ثلاثي الهالومينات التي تم التحري عنها كانت من مركب الكلوروفورم، والتي ازداد تركيزها بشكل كبير وسريع جدا مباشرة بعد عملية التعقيم لمياه الصرف الصحي المعالجة بيولوجيا. وهذا يدل على أن هذه العملية كانت مسؤولة عن تشكل هذه المركبات. كما دلت نتائج هذه الدراسة على أن الكلوروفورم شكل أكثر من ٨٠٪ من تراكيز ثلاثي الهالومينات الكلية.

وبشكل مشابه لما سبق تم تحديد الخطر السرطاني الناتج عن المركبات الأخرى التي هي ضمن التصنيف B2 مثل DDT حيث قدرت الوفيات بـ ١٠ أشخاص لكل مليون نسمة، والديلدرين حيث قدرت الوفيات بـ ٢٤ شخصا لكل مليون نسمة، وثنائي الفينيل المتعدد الكلور

(PCB) حيث قدرت الوفيات بـ ١٠٩ أشخاص لكل مليون نسمة، والـ TCE حيث قدرت الوفيات بحوالى شخصين لكل مليون نسمة، ورابع كلوريد الكربون حيث قدرت الوفيات بـ ٧,٠ أشخاص لكل مليون نسمة، والديوكسين حيث قدرت الوفيات بـ ٣١ شخصا لكل مليون نسمة، والبنزو(أ) بيرين حيث قدرت الوفيات بشخصين لكل مليون نسمة.

أما الخطر السرطاني الناتج عن المركبات المصنفة ضمن المجموعة الأولى (٨) فقد كانت نتائجها كما يلي (الجدولان ٣ و٤):

في حال وجود كلوريد الفينيل في مياه الشرب: قدرت الوفيات بـ ٣٢٨ شخصا لكل مليون شخص، وفي حال وجود البنزين في مياه الشرب: قدرت الوفيات بـ ٨ أشخاص لكل مليون شخص، وفي حال وجود الزرنيخ في مياه الشرب: قدرت الوفيات بـ ٥٠٠ شخص لكل مليون شخص.

نلاحظ مما سبق الأعداد الكبيرة المتوقعة لحدوث وفيات من أمراض السرطانات الناتجة فقط عن مياه الشرب. هذا فيما لو وجدت هذه الملوثات مجتمعة أو بعض منها في مياه الشرب، حتى عندما تحقق هذه المياه أو تلتزم بالمعايير القياسية العالمية المسموح بها، خاصة أننا نجد الخطر الكبير يأتي من المركبات العضوية عديدة الكلورين ثنائي الفينيل (PCB) وكلوريد الفينيل والديوكسين، ويبدو الأمر خطيرا جدا في حال معدن الزرنيخ الذي تصل نتائج خطورته إلى حدوث وفيات بمعدل ٥٠٠ شخص لكل مليون نسمة.

ولكن كيف ستكون النتائج فيما لو كانت هناك قياسات وتحاليل مخبرية حقيقية للمركبات الخطرة المذكورة في مصادرنا المائية العربية وأعطت فعلا تراكيز أكبر مما هو مسموح به بكثير، وبالتالي سيكون عدد الوفيات المتوقع بشكل أكيد من أمراض السرطانات عاليا جدا.

٤ - المناقشة

في حالة مركبات ثلاثي الهالومينات، صحيح أن عملية التعقيم هي خطوة مهمة في وحدات تنقية المياه وتستخدم عند مواضع معينة في هذه الوحدات إلا أنه يمكن أن تسبب نواتج جانبية شديدة الخطورة مرتبطة بحدوث أمراض السرطانات. ففي الحالات التي تحتوي فيها مصادر مياه الشرب على ملوثات عضوية فإنه من الأفضل هنا، تجنبا لخطر السرطانات عدم تعقيم مياه الشرب بالكلور، لأن ذلك سيؤدي إلى تشكل مركبات هي أكثر خطرا وضررا من إيجابيات تعقيم المياه بالكلور للقضاء على التلوث الجرثومي. وقد أفردنا الحديث هنا حول هذه المركبات أكثر من أي ملوثات أخرى، نظرا لأهميتها وتوقع وجودها في مياه الشرب بشكل أكبر.

لقد تم حساب المخاطر الصحية الناتجة عن أمراض السرطانات على مدى عمر الإنسان استنادا إلى العوامل الموصى بها من قبل وكالة حماية البيئة الأميركية (EPA). أي مدة تعرض

الإنسان على مدى ٧٠ عاما، واستهلاك يومي للمياه بمعدل ٢ ليتر للشخص الواحد ووزن الجسم ٧٠ كغ. ولدى تغيير أي قيمة من هذه العوامل، يمكن تقدير المعدل اليومي المستديم لتجرع الملوث CDI من خلال تقسيم الجرعة الكلية المحددة من خلال (تركيز الملوث × معدل استهلاك المياه × مدة التعرض × معدل الامتصاص) على وزن جسم الإنسان وعلى متوسط عمره.

إن الحسابات أو التقديرات الممثلة هنا في الدراسة جاءت استنادا إلى التراكيز الأعظمية للملوثات المدروسة المسموح بها، حسب المعايير الإرشادية أو القياسية السورية أو منظمة الصحة العالمية. ولأجل الحصول على تقديرات حقيقية، فإنه يجب إجراء قياسات ميدانية ومخبرية لكل الملوثات المدروسة بدءا من الكلوروفورم إلى جميع الملوثات التي تشكل خطرا سرطانيا أكيدا أو احتماليا أو ممكنا. وإذا ما كانت القيم الفعلية المقيسة ذات تراكيز عالية فعندها ستعطي الحسابات قيما أعلى لتقويم الخطر الصحي.

إن المعالجة المثلى لمياه الشرب المحتوية على الملوثات الخطرة المدروسة مثل الكلوروفورم والمبيدات وغيرها من المركبات العضوية الهالوجينية والمركبات العضوية الأروماتية أو العطرية مثل البنزين يمكن أن تتحقق من خلال وحدات معالجة متقدمة مثل المرشحات الفحمية المنشطة (GAC) ووحدات أبراج التهوية PTA (PAKED TOWER AERATION OR AIR STRIPPING)[٣٢].

إن تحديد الخطر الإجمالي الكلي المتشكل من عينات المياه المحتوية على تراكيز لملوثات مختلفة مثل ما هو جار عندنا في الدراسة، يمكن أن يحسب من خلال تكامل مجموع الأخطار المرتبطة والناتجة عن كل ملوث على حدة. وإجراءات الحسابات أو التقديرات هي متشابهة لكل الملوثات، إلا أن لكل ملوث معامل ميل سرطاني أو معامل تحريض (CANCER SLOPE FACTOR) مختلف عن الآخر.

وفي حالات التعرض للملوثات الخطرة المسرطنة بطرق أخرى غير التي تصل عن طريق الشرب، عند ذلك سيكون هناك معاملات ميول مختلفة حيث يكون معامل الميل للملوث عن طريق مياه الشرب مختلفا عن معامل الميل لنفس الملوث ولكن عن طريق الهواء من خلال الاستنشاق. أما في حالة الملوثات التقليدية غير المسرطنة فإن تحديد خطرها يكون بإجراءات أخرى واردة (في الفقرة ٢-١-٣) وهي ترتبط أساسا بمقارنة تراكيزها مع المعايير الأعظمية المسموح بها.

تبقى إجراءات تقويم الأخطار (risk assessment) التي جاء عرضها في هذه الدراسة خاضعة لنواح جدلية، ما دامت لا تتوافر معطيات عن قيم الجرعات المنخفضة (low doses) التي تشكل خطرا أكيدا مع تراكمها الزمني، ولكنها ومهما يكن فهي تبقى الإجراءات العملية التي أوصت بها وكالة علمية مرجعية متخصصة على المستوى القومي، مثل وكالة حماية البيئة في أمريكا التي تنطلق من الحماية الأفضل أو الوقاية المثلى للسكان.

٥- التوصيات

- وضع برنامج مراقبة للمصادر المائية السطحية والجوفية المستخدمة لأغراض الشرب في الأقطار العربية ورصدها ضمانا لخلوها من المركبات العضوية الخطرة (سواء الهالوجينية أو العطرية أو المتطايرة) ومن المعادن السامة، إضافة إلى تحديد مصادرها وضبطها.
- وضع معايير حازمة لتصريف النفايات الصناعية الخطرة ومنتوجاتها الثانوية الأكثر خطرا إلى المصادر المائية العذبة.
- تزويد محطات معالجة مياه الشرب التقليدية القائمة حاليا بوحدات معالجة متقدمة مثل عمليات الادمصاص بواسطة المرشحات الفحمية المنشطة أو من خلال وحدات الرذاذ الهوائية، وذلك من أجل تنقية مياه الشرب المحتوية على الملوثات الخطرة.
- في حال وجود ملوثات عضوية في مصادرنا المائية العربية (السطحية والجوفية) المستخدمة لأغراض الشرب يلزم هنا استبدال أسلوب التعقيم المتبع بالكلور بحيث تتم عملية التعقيم أولا للمياه المعالجة بالأشعة فوق البنفسجية (UV) أو بالأوزون لأكسدة الملوثات العضوية قدر الإمكان، ومن ثم يليها التعقيم بالكلور بحيث تضمن وجود الكلور المتبقي في المياه النقية للشرب لمنع أي عملية لإعادة التجرثم في شبكات التزويد بمياه الشرب.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

بيير بورديو بين المادية الماركسية والروحانية الفيبرية

«نحو اقتصاد سياسي للظواهر الرمزية»

أ. عبدالكريم درويش (*)

مقدمة

يُعد بيير بورديو واحدا من أهم علماء الاجتماع في فرنسا اليوم، بل لعله أهمهم على الإطلاق. وهو ينتمي من حيث العمر الزمني إلى الجيل الذي تلا جيل سارتر وريمون آرون وليفي ستراوس، على الرغم من اختلاف هؤلاء فيما بينهم. ولد عام ١٩٣٠ في دانقان في منطقة البيرن جنوب غرب فرنسا (جبال البيرنيه)، ونال شهادة الأغريغاسيون (التبريز) في الفلسفة من مدرسة المعلمين العليا عام ١٩٥٤.

وفي عام ١٩٦٤ أصبح مديرا لأحد أقسام الدراسات في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس، وعندئذ أصدر كتابا بعنوان «الورثة»، وذلك بالتعاون مع جان كلود باسرون، وكان السبب في شهرته، ثم تتالت كتبه ومقالاته العديدة حتى أصدر عام ١٩٧٠ كتابه المنهجي المهم «الحس العملي». وفي عام ١٩٨٢ أصبح أستاذا في الكوليج دوفرانس وراح يلقي دروسه منذ ذلك الوقت تحت عنوان «دروس في علم الاجتماع العام».

ينتمي بورديو إذن إلى الجيل الذي أتى لكي يحدث القطيعة مع الوجودية السارترية أو الفينومينولوجيا الوجودية على الطريقة السارترية، ويتحول إلى الأبستمولوجيا وفلسفة المصطلح والعلوم الإنسانية. وكان رائدَ هذا الاتجاه في فرنسا شخص غير معروف من قبل الجمهور العام هو: جورج كانغيلم، أستاذ فلسفة العلوم وخصوصا العلوم الطبيعية. في

(*) باحث وكاتب من سوريا

الواقع، أنه لكي نفهم «عقلية» هذا الجيل المسيطر الآن على الساحة الثقافية الفرنسية، يلزم أن نأخذ بعين الاعتبار وجود تيارين عريضين كانا قد سيطرا على الساحة طيلة الأربعين عاما الماضية هما:

١ - **التيار الوجودي**: ويمثله سارتر ومارلو بونتي. كان هذا التيار مهووسا بالبحث عن المعنى، معنى الظواهر والوجود، وكان منغمسا في السياسة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. كانت تلك هي الفترة التي ازدهرت فيها فلسفة الذات والحرية والالتزام والثورة.

٢ - **التيار الأبيستمولوجي**: الذي يمثله في فرنسا غاستون باشلار وأليكسندر كويري وخليفتهما جورج كانغيلم. وقد ركز هؤلاء على أهمية المصطلح والمفهوم والعقلانية وفلسفة العلوم، أي ما يسمى بشكل عام بالمنهجية الأبيستمولوجية. كان هذا التيار يبدو، ظاهريا، بعيدا عن السياسة وهمومها بالمعنى المباشر للكلمة، ولكنه في الواقع كان أكثر تأثيرا على المدى البعيد. وهو الذي انتصر في النهاية وأثار موجة العلوم الإنسانية التي نشهدها اليوم.

كان بورديو، كميشيل فوكو، قد أحس بالحاجة إلى الانخراط في المنهجية الأبيستمولوجية واعتناق «الروح العلمية الجديدة» بشكل كامل، وذلك بعد أن سقط في نظره الخطاب الفلسفي العمومي والتقليدي السائد في السوربون. لقد «انتهت» الفلسفة، ولا بد من أن يحل محلها شيء آخر هو: العلوم الإنسانية، ولكن الفرق بينه وبين فوكو وبارت وغيرهما من كبار المثقفين هو أنه لم تكن له «حسابات لكي يصفيها مع عائلته البورجوازية»، فهو قد ولد في جبال البيرنيه في بيئة ريفية فلاحية، في حين أن الاثنين الآخرين ينتميان إلى عائلات بورجوازية، أو على الأقل بورجوازية متوسطة، ولهذا السبب لم يتحمس بورديو كثيرا للموضوعات الأساسية التي كان يشيعها جورج باتاي، وموريس بلانشو في مجلة «نقد»، هذه الموضوعات الخاصة بنقد القيم العائلية واختراق المعايير الأخلاقية التقليدية في مجالات شتى. ويعترف بورديو بصراحة عالم الاجتماع الذي يعرف ما يقول بأن ذلك عائد فعلا إلى «أسباب سوسيولوجية».

كان بورديو مشغولا من جهته باختراق المعايير المؤسساتية وخصوصا الجامعة. وكان يشعر نحوها بالكره ويرى أنها مبنية على العنف أو اختزان العنف. كما أنها مبنية على الخداع والغش والمظاهر والحماقات التي تتخذ شكل القوانين الأبدية. هكذا كانت تبدو له السوربون في سني الخمسينيات. وكان يريد أن يتحداها ويتحدى من خلالها كل النظام الاجتماعي القائم.

لقد مر بورديو بقسم الفلسفة كبقية مشاهير جيله، ولكنه أحس بالخواء والعدم في أقسام الفلسفة وأراد التحول عنها بشكل أو بآخر. كان هناك أستاذ واحد يعجبه نسبيا في هذا القسم في السوربون هو «هنري غوهييه»، وقد حضّر تحت إشرافه أطروحة جامعية صغيرة بعنوان «لايبنتز ناقدا لديكارت». ما عدا ذلك لم يكن هناك شيء يعجبه. كان تدريس الفلسفة محصورا آنذاك في تكرار النصوص الكلاسيكية المقدسة ذاتها. هذه النصوص المقطوعة عن

الواقع والحياة والمشغولة بالتهويم في متاهات الميتافيزقا والكلام الغامض المعقد الذي يعني كل شيء ولا يعني شيئا يذكر.

لهذا السبب راح بورديو الشاب يبحث عن دروس لها معنى في باريس، ويبحث عن الأساتذة الذين يصنعون العلم الحقيقي. ولم يكن أمرا سهلا، لأن هؤلاء الأساتذة لم يكونوا معروفين كثيرا، كما أنهم لم يكونوا مقرّرين في البرنامج العام للامتحان.

ولذلك كان على الطالب الذي يريد أن يثقف نفسه فعلا أن يبحث عنهم على «ضوء الفتيل» في مجاهل باريس وأروقة معاهدها المبعثرة. كان هناك غاستون باشلار وجورج كانغيلم المذكوران آنفا، وكان هناك أيضا أشخاص في مدرسة الدراسات العليا والكوليج دوفرانس من أمثال: أريك فيل، ألكسندر كويري، غيرو، أيتيان جيلسون ... يقول بورديو واصفا تلك الفترة: [كنت أحاول ككل أولئك الذين تعبوا من الوجودية أن أذهب إلى أبعد من مجرد قراءة المؤلفين الكلاسيكيين وأن أحاول إعطاء معنى ما للفلسفة. وكان جورج كانغيلم وغاستون باشلار بالنسبة إلي بمنزلة «الأنبياء المثاليين أو الأنبياء القدوة» بالمعنى الذي يعطيه ماكس فيبر لهذه العبارة. ولما كانت الحركة الفينومينولوجية - الوجودية مسيطرة على الساحة، فلم يكن أحد تقريبا يعلم بوجود هذين المفكرين، على الرغم من أن دروسهما كانت تفتح خطا جديدا][1].

لم تبدأ المؤسسة الجامعية التقليدية بالانهيار بكل مناهجها البالية والإرهاب المخزون في أحشائها أو العنف الموظف في شهاداتها، إلا بعد أحداث مايو ١٩٦٨. لكن «جراثيم التغيير» كانت قد ابتدأت منذ أوائل الستينيات عندما أصدر ليفي ستراوس كتابيه «الأنثروبولوجيا البنيوية» عام ١٩٥٨ و«الفكر المتوحش» عام ١٩٦٢. وفي ذلك الوقت كان ميشيل فوكو أيضا يترجم كتاب كانط «الأنثروبولوجيا من وجهة نظر براغماتية» ويقدم له (صدر عام ١٩٦٤ عن دار فران الفلسفية). وقد ساهم ليفي ستراوس في إعادة الاحترام والتقدير لعلوم الإنسان عن طريق الإشارة إلى سوسور والألسنيات وتطبيق مصطلحاتها في ساحة الأنثروبولوجيا ودراسة بُنى القرابة. وبعدئذ ظهرت العلوم الجديدة التي اكتسحت الساحة فيما بعد، والتي تنتهي باللاحقة «لوجيا» من مثل «أركيولوجيا» (ميشيل فوكو) أو «غراماتولوجيا» (جاك دريدا ومذهب التفكيك) أو سيميولوجيا (رولان بارت وعلم الدلالة)... إلخ. ثم بلغت هذه الحركة الثقافية والاحتجاجية الواسعة ذروتها بانفجار الثورة الطلابية والعمالية عام ١٩٦٨. وقد أدت هذه الحركة إلى الإطاحة بنظام التعليم السابق وبقيمه، وأحلت محله نظاما آخر جديدا. وكان لأفكار بورديو بعض الفضل في ذلك، بالإضافة إلى الآخرين.

لكن بورديو ليس راضيا تماما عن فلاسفة جيله الذين سيطروا على الساحة منذ الستينيات حتى أوائل الثمانينيات. وهو كثيرا ما يهاجم الفلاسفة في دروسه أو كتاباته، كما كان يفعل سلفه دوركهايم. يقول عنه: [صحيح أنهم أحدثوا قطيعة مع الفينومينولوجيا السارترية

والنزعة الإنسانية الهشة أو المجردة والمثالية، ولكنهم انضموا نصف انضمام إلى المنهجية الأبيستمولوجية واعتنقوها نصف اعتناق[٧].

عندما يقول بورديو هذا الكلام فإنه يريد أن يوحي ضمنيا أنه الوحيد الذي أحدث القطيعة الكاملة مع الفلسفة التقليدية وانخرط بشكل كامل وتام في مجالات البحث العلمي الدقيق.

في الواقع، إن بورديو يعيب على الفلاسفة (ألتوسير، شاتليه، دريدا، وغيرهم) أنهم ينظّرون من موقع عال يتعالى على الواقع ويتجاوز الآخرين. بل أكثر من ذلك: أنهم «يسرقون» أعمال الباحثين المنخرطين على أرض الواقع في دراسات ميدانية عملية. ويسبغون على نتائجهم هيئة فلسفية تعميمية من دون أن يذكروا مصدرها أو يتعبوا في التوصل إليها. حتى قال: إن فرانسوا شاتليه قد فعل ذلك معه بالإضافة إلى ألتوسير وآخرين.

أما موقفه من ميشيل فوكو، فقد كان كلامه عنه أكثر اعتدالا وأقل سلبية. قال عنه بما معناه: لم يقم بأبحاث ميدانية محسوسة مثل بقية الفلاسفة. ولكنه كان يتميز بذكاء حاد نادر الوجود. وكان يشتغل عن طريق الحدس أكثر مما يشتغل عن طريق المنهج، وغالبا ما كان حدسه يصيب نظرا لذكائه. بمعنى آخر، فإنه كان يتوصل إلى النتيجة نفسها التي يتوصل إليها الباحثون الميدانيون بجهد أقل ووقت أقصر. يضاف إلى ذلك أنه أول فيلسوف انتبه إلى أهمية علم التاريخ ومارسه.

مهما يكن الرأي في تأكيدات بورديو هذه، وحتى لو خالفناه في هجومه الحاد على الفلاسفة، فإننا لا نملك إلا الموافقة على دعوته لأن ينخرط الباحث على أرضية الواقع المعيش، وعدم اكتفائه بأخذ العلم من بطون الكتب، وإنما أيضا من واقع الحياة والتحريات الميدانية والتجارب المختبرية إذا أمكن.

إن المنهجية التي يستخدمها بورديو مادية، ولكنها ليست مادية سلبية أو ميكانيكية، وإنما هي مادية ناشطة فاعلة. وهو يلوم المفكرين «الماديين» لأنهم تركوا الساحة خالية للمثاليين يصولون فيها ويجولون، في حين راحوا هم يلغون عقولهم ويستسلمون لنظرية الانعكاس والعقائدية الضيقة. إنه يرى أن ذلك هو الذي جمد نظرية المعرفة في الماركسية وأفقرها كثيرا. وهو هنا يستشهد بماركس نفسه الذي يقول في إحدى أطروحاته الشهيرة حول فيورباخ ما معناه: «تكمن مأساة المادية في أنها تخلت للمثالية عن الجانب الناشط للمعرفة». ولهذا السبب ينبغي إعادة الجانب الناشط و«الروحي» الفعال للمعرفة إلى المادية. وهذا ما يزعم بيير بورديو القيام به عن طريق تأسيس نظريته المرتكزة على «مادية الأشكال الرمزية».

ولكن من أجل تزويد الذات العارفة بالمنهجية المادية المحسوسة، ومن أجل تزويدها بالمقدرة على اكتشاف عالم الأشياء وإعادة تشكيله من جديد، فإنه ينبغي عدم الاكتفاء بالتنظير البحت، لأن ذلك يؤدي إلى الوقوع في الطرف الآخر، طرف المثالية، وإنما ينبغي «صنع» المعرفة بشكل عملي، ومن داخل الممارسة الميدانية.

لهذا السبب راح بيير بورديو يخوض بنفسه الأوساط الاجتماعية - الثقافية كافة. وقد مارس البحث الميداني في أكثر من عشرين وسطا وبيئة: فمن بيئة الفلاحين القبائليين في الجزائر، إلى بيئته الأصلية الريفية في جبال البيرنيه، إلى الأوساط «الحضارية الراقية» في باريس (وسط الأزياء الغالية والموضة... إلخ)، مرورا بأوساط نقابات العمال وأرباب العمل والطلاب ونظام التعليم... إلخ. يكون بورديو قد تعرف المجتمع بكل حقوله وفئاته، ولعل هذا هو السبب الذي جعله يقسم العالم الاجتماعي إلى مجموعة حقول أو ساحات مغلقة ومستقلة نسبيا لكي يفهم آلية كل حقل ووظائفه وطرائق اشتغاله قبل أن يخاطر بإطلاق حكم ما على المجتمع ككل. لقد خلقت هذه التجربة الميدانية الواسعة من بيير بورديو عالم اجتماع مائة في المائة، وفتحت عينيه على حقيقة الإنسان الاجتماعية ومشروطية الإنسان في هذا العالم الاجتماعي الذي لا يرحم.

هل يعني ذلك أن بورديو متشائم؟ هل يعني أنه مع الحتمية ضد الحرية كما يكرر بعضهم كثيرا؟ عن هذين السؤالين المزمنين أجاب عالم الاجتماع الشهير أكثر من مرة، واشتكى من اتهام الناس له بأنه «حتموي» أو قدري متشائم. يقول: «إن من يمارس علم الاجتماع والتحليل الدقيق لأوضاع البشر في العالم الاجتماعي لا يستطيع أن يكون متفائلا جدا. إن العلم الذي يريد أن يفهم ويكتشف علة ما هو موجود من ظواهر يفترض حتما أنه لا شيء موجود من دون علة وجود. لكن عالم الاجتماع يضيف إلى هذه العبارة كلمة «اجتماعي» فتصبح: من دون علة وجود اجتماعية»[3].

ولكن الناس يخلطون، تحت اسم الحتمية، بين شيئين مختلفين جدا. الأول: هو الضرورة الموضوعية الكامنة في الأشياء، والثاني: الضرورة «المعيشة» الظاهرية والذاتية، أي عاطفة الشعور بالحتمية أو بالحرية. إن درجة الحتمية التي تتحكم في العالم الاجتماعي تعتمد على معرفتنا له، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فنحن نجد أن الدرجة التي يخضع بها العالم الاجتماعي للحتمية ليست مسألة رأي شخصي. [فأنا كعالم اجتماع لا يحق لي أن أكون مع «الحتمية» أو مع «الحرية». هذا شيء لا معنى له في نهاية المطاف. وإنما تكمن مهمتي في استكشاف الضرورة إذا كانت موجودة. وحيثما تكون موجودة، وكلما تقدم علم الاجتماع في معرفة العالم الاجتماعي واستكشاف قوانينه تزايدت أهمية الضرورة ووجودها في كل مكان. ولهذا السبب يتهمون علم الاجتماع بأنه «قدري» أو «حتموي» كلما كان أكثر تقدما] [4].

وفي مكان آخر يتحدث بورديو عن المثقفين ويقول ما معناه: إحدى السمات الخصوصية التي تميز موقع المثقفين داخل الفضاء الاجتماعي تكمن في أنهم يتوهمون الاستقلالية بالقياس إلى الحتميات والإكراهات الاجتماعية. ولهذا السبب بالذات فإن الحتمية الاجتماعية تضغط عليهم بشكل أكبر عن طريق وهم الحرية الذي يتغنون به. ثم يختتم بورديو كلامه بهذه العبارة الجميلة: إن علم الاجتماع يحررنا عن طريق تحريرنا من وهم الحرية...!

هل يعني ذلك أن التغيير غير ممكن، وأن الوضع القائم راسخ لأنه يمتلك علة وجود معينة؟ هل يعني ذلك أنه أبدي وأن المسيطر مسيطر حتى آخر الدهر والمغلوب مغلوب حتى آخر الدهر؟ يجيب بورديو بالنفي القاطع، وذلك لأن المجتمع في حالة تغير مستمر حتى لو بدا هادئا راكدا على السطح. ثم إن بورديو يدعو إلى تأسيس علم اجتماعي نقدي صارم وبالتالي تغييري، لا ثبوتي ولا سكوني محافظ. لكنه كأي باحث كبير يعرف أن التغيير ليس مسألة كلمات وشعارات وأحلام رومانطيقية، أو ليس كل هذا فقط. إنه شيء آخر. يقول: [من أجل أن يحصل التغيير ينبغي علينا كمرحلة أولى استكشاف القوانين السائدة في العالم الاجتماعي (المجتمع) ثم استغلال التناقضات الموجودة في هذا العالم وخصوصا عندما يعاني أزمة موضوعية. عندئذ يكون هناك حظ ما في إجراء التغيير ونجاح التغيير، وإلا فإننا نضيع وقتنا سدى ونكون كمن ينطح الصخر...][5].

بمن يستضيء بورديو في عمله التحليلي - النقدي هذا الذي يشمل في طريقه كل شيء؟ ما الأسلحة التي يستخدمها والشخصيات التي يتكئ عليها لمواجهة علم الاجتماع المدجن والرسمي، الذي يقف دائما إلى جانب السلطات المهيمنة (من مؤسسات وأرباب عمل ويمين سياسي وطبقات مترفة... إلخ)؟

في أحد الدروس التي ألقاها بورديو في الكوليج دوفرانس راح يقيم تجربته العملية فلسفيا ويعود على خطاه السابقة لكي يتأمل، ولو للحظة، مساره الخاص يقول: [سوف تتخيلون أنكم في درس فلسفة لا في درس علم اجتماع. ولكن أرجو أن تعرفوا أن ما أفعله ليس عملا نظريا بحتا، وإنما هو عمل نظري يجيء بعد انتهاء المعركة، أي بعد إجراء البحوث الميدانية والتطبيقية. إنه يهدف إلى التحقق من صحة العمل الميداني والسيطرة النظرية عليه. كان السؤال الأساسي الذي طرحناه هذا العام يخص العلاقة بين السلطة والمعرفة. وكان آخرون قد فعلوا ذلك في الفترة نفسها التي كنت أجري فيها أبحاثي الميدانية (يقصد فوكو لكن من دون أن يسميه). وقد رأيت أنه ينبغي تجاوز الموقف الأفلاطوني الذي يعاكس السياسة بالنظرية ويقيم جدارا عازلا بين الهموم السياسية والهموم الفكرية الصرف للفيلسوف. أريد أن أتجاوز ذلك لكي أبرهن على أن هناك سلطة للنظرية، أو سلطة نظرية. النظرية هي مبدأ الرؤية بالمعنى الأيتمولوجي للكلمة، وهي مبدأ التقسيم والتصنيف، أي تقسيم العالم الاجتماعي إلى فئات وأصناف، إلى خير وشر، وفوق وتحت، ومذكر ومؤنث، وغير ذلك. لقد قمت بهذا التمرين النظري كعالم اجتماع وباحث ميداني، وحاولت تحديد قوانين السلطة النظرية وآليات اشتغالها: أي الشروط الخصوصية لممارستها وتوزعها على البشر أو الفاعلين الاجتماعيين ضمن حقل معين. وهذا ما ينساه الفلاسفة عموما، لأنهم يفكرون دائما في مصطلحات الجواهر الخالصة. إنني أعود إلى الوراء بعد أن اجتزت الشوط عمليا، وذلك بغية استخلاص

النتائج. لقد حان موعد الحصار النظري. وما هذه الخلاصات أو التوليفات المتتالية، إلا عبارة عن تجميع لمساهمات قام بها فلاسفة وعلماء اجتماع ومنظرون. وهي تبدو للوهلة الأولى أو للأنظار الساذجة أنها غير متوافقة بعضها مع بعض. أقصد بالتوليفات هنا النتائج الأساسية لفكر ماركس وماكس فيبر ودوركهايم. يلومني البعض لأنني ماركسي وفيبري ودوركهايمي معا. اعتقد أن هذا مفخرتي لأني آخذ بعين الاعتبار الرأسمال النظري المتراكم من قبل مفكري الماضي. وأعتقد أن العمل العلمي لا يتمثل في محاولة التمايز والاختلاف عما فعله مفكرو الماضي من أجل التبجح بالتفرد والخصوصية، وإنما يتمثل في تجميع النتائج التي توصلوا إليها ولكن، ليس بطريقة تلفيقية، وإنما عن طريق تجاوز التناقضات الموجودة بينهم. إن هذه التناقضات ناتجة عن وجهات النظر التي يكونونها عن العالم الاجتماعي. ولهذا السبب ينبغي أن نأخذ أيضا بعين الاعتبار وجهة النظر التي يشكلها كل واحد منهم عن الآخرين. قد حصلت لدى كل منهم من خلال وجهة نظر محددة. وإن كلا منهم سجين وجهة نظره. وأقصد بوجهات النظر هنا النقاط التي انطلاقا منها تشكلت النظرات والرؤى عن العالم الاجتماعي، أقصد نظراتهم ورؤاهم. أعتقد أن أخطاء ماركس مثلا أو نواقصه قد اكتشفت بشكل رائع من قبل رجل مثل ماكس فيبر. لقد رأى ماكس فيبر ما لم يره ماركس في العالم الاجتماعي، لسبب بسيط هو أن ماركس قد رأى ما رآه ولم ير غيره ... وكذلك يمكن القول إن دوركهايم قد رأى ما لم يره فيبر... إلخ) [٦].

يرى بورديو أن نظريات هؤلاء المفكرين الكبار تبدو متناقضة أو متضادة فيما بينها. ولكن، إذا ما قمنا بعملية نقد جذري لها وارجعناها إلى منشئها الأصلي وإلى خطتها الأولية عرفنا أنها متكاملة لا متناقضة.

أولا - في المنهج: توليفة جديدة من ماركس وفيبر ودوركهايم

١ - ١: البناء الاجتماعي للحقيقة

ما الشيء الجديد الذي يميز بورديو من غيره من علماء الاجتماع؟ يقول بورديو: [إذا كان هناك حقيقة فهي أن حقيقة العالم الاجتماعي عبارة عن رهان من الصراعات: لأن العالم الاجتماعي تصور وإرادة من ناحية، ولأن التصور الذي تشكله المجموعات عن أنفسها وعن المجموعات الأخرى يؤدي من ناحية ثانية مهمة إلى عمل ما هي عليه المجموعات وما تقوم به. ليس تصور العالم الاجتماعي معطى أو تسجيلا وانعكاسا، إنما هو نتيجة أفعال كثيرة من البناء التي سبق أن حصلت أو ستحصل من جديد وباستمرار. فهو موضوع في الكلمات المتداولة، كلمات سبق أن تكونت، تعطي معنى للعالم الاجتماعي بقدر ما تسجله، كلمات أوامر تؤدي إلى إنتاج النظام الاجتماعي، وذلك بالإعلام عن فكر هذا العالم وبإنتاج المجموعات التي تشير إلى

هذه الكلمات وتحركها. باختصار فالبناء الاجتماعي للحقيقة الاجتماعية يتم من خلال (بوساطة) أفعال البناء الكثيرة والمتناقضة التي يقوم بها الفاعلون، في كل لحظة، في صراعاتهم الفردية أو الجماعية، العفوية أو المنظمة، وذلك لغرض تصور العالم الاجتماعي الأكثر توافقا مع مصالحهم، صراعات بالتأكيد غير متساوية على الإطلاق، لأن سيطرة الفاعلين على أدوات إنتاج تصور العالم الاجتماعي (وأكثر من ذلك على أدوات إنتاج هذه الأدوات) هي متنوعة جدا، ولأن الأدوات التي تقدم مباشرة إليهم تكون محضرة كليا، وبشكل خاص اللغة العادية والكلمات المتداولة التي هي، بسبب الفلسفة الاجتماعية التي تحملها بشكل خفي، متوافقة بشكل مختلف مع مصالحهم تبعا للوضع الذي يحتلونه في البنية الاجتماعية][٧]. يتمثل الجديد إذن في ربط ما هو ذاتي بما هو موضوعي، وعدم الفصل بينهما. فلا وجود لذاتية مستقلة وأساسية في فهم الواقع الاجتماعي كما هو الأمر عند ماكس فيبر أو تالكوت بارسونز أو إدموند هوسرل أوجان بول سارتر، كما لا وجود لموضوعية قائمة بذاتها كما عند كارل ماركس أو جورج لوكاتش أو إميل دوركهايم وكلود ليفي ستراوس. والحقيقة الاجتماعية، تبعا لذلك، في حالة من الصراع، وبالتالي من التغيير الدائم. والحقيقة الذاتية لا تفسر ذاتيا، بل على أساس ارتباطها بالحقيقة الاجتماعية، أي على أساس أنها جزء منها. والتناقضات في المفاهيم غير منفصلة عن التناقضات في الواقع الاجتماعي. ما يتميز به فكر بورديو هو أن الذاتية التي يعيد إليها الأهمية لا تشكل عنصرا من الحقيقة الاجتماعية فقط، إنما تتصف بالحركة والإبداع. فهي التي تعطي معنى جديدا للواقع، وتؤدي إلى مفاهيم جديدة. ولهذا السبب، فالمفاهيم نسبية، والحقيقة غير ثابتة أو أزلية. يقترب بورديو من ماكس فيبر حين يعيد الاعتبار إلى العنصر الذاتي الفردي، لكنه يبتعد عنه حين يربطه بالحقيقة الاجتماعية وبالظروف الاجتماعية. ويقترب من ماركس حين يربط الذاتي بالموضوعي على أساس جدلي، ويبتعد عنه حين لا يقر بوجود حقيقة موضوعية قائمة بذاتها. لذلك لا تعتبر مقاربته توفيقية بقدر ما تعتبر جديدة تدعو إلى إعادة النظر في أمور كثيرة، كما تدعو إلى مناقشات وآراء جديدة.

١ - ٢ : المحتمل والممكن

كيف يربط بورديو بين الموضوعي والذاتي؟ يقول: [ولكن خلافا مع الظاهر، برفع درجة الضرورة المدركة وبإعطاء معرفة جيدة لقوانين العالم الاجتماعي، يقدم العلم الاجتماعي حرية أكبر. إن كل تطور في معرفة الضرورة هو تطور في الحرية الممكنة. وفي حين أن تجاهل الضرورة يحتوي على شكل من معرفة الضرورة، ومن دون شك الضرورة «الأكثر مطلقة» والأكثر كلية، ولأنها تجهل نفسها كما هي، فمعرفة الضرورة لا توجب على الإطلاق ضرورة هذه المعرفة. وبالعكس، فهي تظهر إمكان الخيار في كل علاقة من نوع: إذا كان لدينا هذا

فسيكون لدينا ذلك، إن الحرية المتمثلة في اختيار القبول بـ «إذا» أو برفضها هي خالية من المعنى مادمنا نجهل العلاقة التي تجمع مع الـ «آنذاك». إن وضع القوانين التي تفترض حرية الفعل أي «القبول اللاواعي لشروط تحقيق تأثيرات متوقعة» يوسع من ميدان الحرية. القانون المجهول هو طبيعة، مصير (أي حالة العلاقة بين رأس المال الثقافي الموروث والنجاح المدرسي)، والقانون المعروف يظهر كإمكان للحرية[8].

يعتبر بورديو أنه لا توجد قوانين بذاتها ومستقلة عن الوعي. فأي قوانين تكون خاضعة للتعديل مع تطور الوعي. هذا يعني أن الضرورة غير منفصلة عنه، وبالتالي عن الحرية. ونظرا إلى هذا الارتباط لا توجد ضرورة مطلقة. كما تخف قيمة هذه الضرورة بقدر ما يتطور الوعي. يوضح بورديو فكرته هذه من خلال العلاقة بين رأس المال الثقافي الموروث والنجاح المدرسي. مادامت هذه العلاقة مجهولة، أي مادامت مجهولة الأسباب الحقيقية أو الظروف الاجتماعية التي لا تساعد فئات معينة من التلاميذ أو الطلاب، مثلا، على نجاحهن المدرسي أو الجامعي، مادامت عبارة عن طبيعة أو قدر. فمصير هؤلاء الطلاب هو الفشل، لأنه مقدر عليهم ذلك. إذ ينقصهم الذكاء والثقافة والمعرفة. فالذكاء هو من نصيب طلاب من فئات اجتماعية مختلفة لا يتعداها. وحين تعرف الأسباب الكامنة وراء هذا الإرث الثقافي أو وراء هذا «الذكاء»، وهي في الحقيقة أسباب اجتماعية طبقية، وحين تُعدّل هذه الشروط، عندها تتغير الصورة عن هذا القدر ويصبح حرية. ويعطي بورديو مثلا آخر فيقول إن أولئك الذين يتصورون أي ظاهرة اجتماعية كأنها قدر مرسوم في الطبيعة الاجتماعية، فإنهم في الحقيقة لا يدركون أنه لا وجود، بل لا معنى، لهذه الظاهرة من دون هذا الوعي، إذا ما تغير تتغير الصورة عن هذه الظاهرة، وبالتالي تتغير حقيقتها. إذن لا وجود لحقيقة اجتماعية من دون تصورات معينة أو فهم معين.

أليس من الخطورة التحدث عن قانون؟ إنعم من دون شك، أو تجنب قدر الإمكان القيام بذلك وأولئك الذين لهم مصلحة في الفعل الحر (أي في عدم تغيير «إذا») يرون القانون (عندما يرونه) كمصير، كقدر في الطبيعة الاجتماعية (مثلا قوانين الأوليغارشية القاسية للمكيافيليين الجدد كما يرى بعض المؤلفين)(*). وفي الواقع، فالقانون الاجتماعي هو قانون تاريخي، يدوم طويلا بقدر ما نتركه يعمل، أي بقدر ما أولئك الذين يستخدمونه (أحيانا بلا علمهم) هم في إطار استدامة شروط فعاليته. ما يتعين السؤال عنه، هو ما نقوم به عندما نعلن قانونا اجتماعيا مجهولا حتى ذلك الحين (مثلا قانون الرأسمال الثقافي/ المعنوي). يمكن به الادعاء بتثبيت قانون أبدي، كما يفعل علماء الاجتماع المحافظون بخصوص الميل نحو تمركز

(*) القوانين القاسية الأوليجارشية هي عبارة عن اتجاهات معتبرة طبيعية لا بد منها نحو تمركز السلطة في بعض الأيدي لدى التنظيمات (مثلا الأحزاب السياسية) بسبب الضرورات التقنية لتقسيم المهمات وتحديد الوظائف.

السلطة. وفي الحقيقة، فعلى العلم معرفة أنه لا يقوم إلا بتسجيل (تحت شكل قوانين ذات اتجاهات) المنطق الخاص بلعبة معينة في لحظة معينة، والذي يعمل لمصلحة أولئك الذين بهيمنتهم على اللعبة، هم في إطار التعريف الواقعي أو القانوني لقواعد اللعبة][٩]. بورديو هنا يؤكد صفتي النسبية والتغيير للقانون، وعلى بعده التاريخي، فعلماء الاجتماع الذين يقولون بالقانون الأبدي يتجاهلون حقيقة أن أي قانون مرتبط بوعي محدد وبتصورات محددة، وبأنه تتغير حقيقته بقدر ما يتغير الوعي هذا أو التصورات هذه. وهذا ينطبق على الموقف من الاتجاه نحو تمركز السلطة. لا يبدو أن هذا الموقف يختلف كثيرا عن الموقف الماركسي إلا من حيث الدور المعطى للوعي. ففي حين يعتبر البعض أن ماركس يعطي أهمية للحقيقة الموضوعية على حساب الوعي الذاتي، فإن البعض الآخر يعتبر أن بورديو يعطي أهمية للوعي على حساب الحقيقة الموضوعية. استنادا إلى هذا، فالعلم بالنسبة إلى بورديو عبارة عن قوانين ذات اتجاهات تعكس أوضاعا في لحظات معينة. وفي هذا الموقف يقترب من جورج غورفيتش في مقاربة التجريبية للواقع، أو من غاستون باشلار في عقلانيته التجريبية، أو من جان بياجيه في أبستيمولوجيته التوليدية. ولكي نكون على صلة وثيقة بالحقيقة الاجتماعية علينا أن ندرك طبيعة هذه الحقيقة المتبدلة بقوانين غير ثابتة.

يتابع: [ومنذ إعلانه، يصبح القانون رهانا من الصراعات: صراع من أجل الحفاظ على شروط عمل القانون، وصراع من أجل تحويل هذه الشروط. إن وضع قوانين ذات اتجاهات يعتبر شرطا لنجاح الأعمال التي تهدف إلى نفيها، والمهيمنون مرتبطون بالقانون، إذ بتفسير فيزيائي له يعيد إلى حالة من ميكانيزم ما تحت - الوعي. وبالعكس، فالمهيمن عليهم مرتبطون باكتشاف القانون كما هو، أي كقانون تاريخي، يمكن أن يمحى اذا محيت شروط عمله. ومعرفة القانون تعطيهم حظا، وإمكانا لمواجهة تأثيرات القانون، إمكانا لا يوجد لفترة طويلة مادام القانون مجهولا ويمارس بمعزل عن أولئك الذين يخضعون له باختصار، ولكون علم الاجتماع يبعد صفة القانون، فهو يبعد صفة القدر. سؤال: ألا يخشى من معرفة متعمقة أكثر فأكثر بالاجتماعي من إحباط أي فعل سياسي لتحويل العالم الاجتماعي؟ - إن معرفة الأكثر احتمالا هي تلك التي تجعل تحقيق الأقل احتمالا ممكنا، تبعا لأهداف أخرى. ومن خلال العمل بوعي مع منطق العالم الاجتماعي، يمكننا إحداث الأشياء الممكنة التي لا يبدو انها في هذا المنطق. يتمثل الفعل السياسي الحقيقي في استخدام معرفة المحتمل وذلك لتقوية الممكن ... والعلم الاجتماعي لن يقوم بدوره بشكل صحيح ما لم يقف في آن معا ضد الإرادوية غير المسؤولة وضد العلموية القدرية، وإذا لم يؤد إلى تعريف الطوباوية المعقلنة، القادرة على معرفة المحتمل من أجل إحداث الممكن][١٠]. يبدو تأثر بورديو بماركس واضحا حين يعتبر القانون الاجتماعي رهانا من الصراعات. لكن ما يبدو جديدا في موقفه هو دور الوعي الذاتي في عملية إلغاء

القوانين وإحداث أخرى جديدة. وكما فعل ماركس، يعتبر بورديو أن وضع القوانين وتغيرها مرتبطان بمصالح اجتماعية أو طبقية متناقضة. فالمقهورون بالسلطة لهم مصلحة في تغيير القانون، بينما القاهرون لهم مصلحة في الإبقاء عليه.

ما الدور الجيد الذي يحاول بورديو إعطاءه لعلم الاجتماع؟ نظرا لأهمية المعرفة الذاتية بالقوانين في الحصول على قدر كبير من الحرية في تغيير الواقع الاجتماعي، فإن المهمة الجديدة لعلم الاجتماع تتمثل في كشف الضرورة والقدر والمصير، أي في كشف الظروف الاجتماعية والتاريخية للقوانين، وفي مواجهة الإرادوية غير المسؤولة المتمثلة في التأكيد على حقائق يمكن أن تكون موضع تساؤل في لحظات مختلفة. وفي مواجهة العلموية أو الادعاء بكشف قوانين علمية. وعلى علم الاجتماع أن يدرك وجود طوباوية معقلنة في كل اللحظات. وهذا ما يكون مصدرا للاعتراف بوجود حقائق غير ثابتة وقوانين ذات اتجاهات.

١ - ٣ : العلم والواقع

ما الذي يميز بورديو عن ماركس أو دوركهايم بخصوص فهم الوقائع الاجتماعية؟ يقول بورديو: [ليس أكثر خطأ من الفكرة القائلة بأن «الوقائع تتحدث عن نفسها»، وهذا ليس فقط في نظام العلم بأن تكون «الوقائع» نتيجة اختيار وبناء هو دائما معرفي وتقويمي في الحقول السياسية والقانونية أو حتى الصحافية، مع أنه يأخذ من مثالية «تاريخية» للموضوعية ومن القناعة بأنه يمكننا بوضوح تفريق «الوقائع» عن «القيم». فـ «الوقائع» ناتجة عن الصراعات ومن أجلها وذلك لفرض معنى وقيمة للعالم الاجتماعي. وهذا بديهي في حالة الأحداث السياسية الكبيرة كـ «أعمال الدولة». ولكن ليس هذا أقل صحة من بساطة «الوقائع المتنوعة»، المتروكة عادة لإستراتيجيات الثرثرة اليومية، نميمة، فضفضة، اغتياب وثرثرة أو افتراءات، أو لـ «حكايات» الصحافة الواسعة الانتشار، التي تشكل ضدها «الإعلام» المسمى «موضوعيا» للصحف التي تود أن تكون محترمة. فالتحليلات والافتتاحيات والبيانات والمظاهرات والعرائض والاستجوابات والتصريحات عبارة عن ضربات رمزية تهدف إلى بناء «الوقائع» أكثر مما تهدف إلى شرحها وبطريقة أن يوجه الإدراك والتقدير اللذان، كالتدخلات البنوية (التبثية) للمفكرين الكبار، يدعيان قول «ما يجب التفكير فيه» أكثر من قول ما هو عليه. لا يمكننا التفكير في إخضاع الواقع للتحليل العلمي ما لم نقطع مع الوهم بأنه يمكننا فهم كل شيء دفعة واحدة. والذي يعرف العلاقة الطبيعية مع هذا المعطى المباشر للتجربة الاجتماعية. وتتمثل القطيعة في الحقيقة في أن نصوغ سؤالا مما يظهر خارج السؤال أمرا بديهيا، من هذه البديهة التي تفرض على الغضب الأخلاقي، وعلى التعاطف النضالي أو القناعة المعقلنة][11]. بعكس كل من ماركس ودوركهايم، يعتبر بورديو أن «الوقائع لا تتكلم عن نفسها»، أي لا وجود لوقائع اجتماعية قائمة بذاتها. إنها على علاقة جدلية بالوعي الذاتي، أو حتى هي نتيجة خيار ذاتي، هو معرفي وتقويمي، أي مرتبط بالقيم والتصورات

الذاتية. هذا الموقف يذكرنا بماكس فيبر الذي يربط فهم الواقع بالقيم والمثل. ويعتبر بورديو أن هذا الخيار واضح في الحقول الاجتماعية المختلفة. والشيء الذي يؤكد ربط الوقائع بالقيم هو أنه لا يمكن فصلها عن الصراعات التي تجري بين الفئات والطبقات الاجتماعية. وبالتالي لا يمكن فصلها عن المضامين أو المعاني المختلفة التي تعطى لها. ويمكن التحقق من ذلك مثلا من خلال المواقف إزاء الأحداث السياسية، لكونها تمس مباشرة مصالح الناس. وهناك الكثير من الوقائع السياسية التي تبين أنها عبارة عن قوى رمزية، أي عبارة عن معان وقيم وتصورات ذاتية. وما مواقف كبار المفكرين وادعاءاتهم البنّوية في وصف الوقائع إلا تأكيد على اتجاهاتهم وتصوراتهم ومثلهم الذاتية.

وفي النتيجة، يعتبر بورديو أن العلم لن يتقدم مالم تحصل القطيعة مع النظرة الكلية الشمولية إلى الأمور، أو مع القوانين العامة التي تحدد فهم أي واقعة. ولكي يخطو العلم إلى الأمام عليه أن يركز على خصوصية الواقعة، أي على فهمها مباشرة. والركيزة الأساسية لهذه القطيعة تتمثل في عدم التسليم بالبديهيات مهما كان نوعها.

١ - ٤ : المادية والمثالية

في بداية كتابه «الحس العملي» خصص بورديو صفحات مطولة لانتقاد المنهجية الذاتوية من خلال أعمال جان بول سارتر الفلسفية. ثم انتقد أيضا المنهجية الموضوعية «الباردة» من خلال أعمال كلود ليفي ستراوس. وفي أثناء محاضراته في الكوليج دوفرانس تحت عنوان «دروس في علم الاجتماع العام»، تحدث عن هذين الموقفين من خلال نيتشه وكانط. إذن فالمسألة قديمة جدا. أليست هي مسألة المادية والمثالية؟ وهل بورديو أقرب إلى كانط من نيتشه، وأقرب إلى المادية من المثالية إذا جاز لنا أن نطرح الأمور بهذا الشكل الحدي والتعسفي؟ ... أم أنه يريد أن يقترح خطا ثالثا يتجاوزهما؟

كان أحد أهداف أعماله، ولا يزال، يتمثل في معالجة الظواهر الرمزية ضمن منظور مادي. ذلك أن أشياء الثقافة أو (الأشياء الثقافية) مصنوعة أو (مبنية) تاريخيا ضد الاقتصاد والسياسة. ويبدا ماكس فيبر ضمن هذا المشروع المنقذ الأكبر له، لأن سوسيولوجيا الأديان التي أسسها تمثل تقدما كبيرا يذهب إلى أبعد من ماركس. يحلو لبعض علماء الاجتماع أن يجتروا باستمرار فكرة التضاد الشائعة التي تعاكس ماركس بماكس فيبر. وتراهم يعارضون بين المادية الماركسية و «الروحانية الفيبرية» أو «المثالية الفيبرية». هذا خطأ شائع، ذلك أن فيبر كان رائدا لما يمكن أن ندعوه بالماركسية الرمزية(*).

وإذا كانت الماركسية تعني أن القواعد الاقتصادية هي الحاسمة، فإن الشيء الذي حاول فيبر أن يفعله هو البرهنة على وجود قاعدة اقتصادية للظواهر الرمزية بعيدا عن مسألة العلة والمعلول.

(*) إن تأثير علم الاقتصاد في علم الاجتماع واضح في تحليلات بورديو وتحليلات ماكس فيبر أيضا.

وقد برهن بورديو في «اقتصاد السلع الرمزية»[12] على أن فيبر قد ذهب مسافة أبعد من ماركس في مجال تحليل الأديان، وكان أكثر جذرية منه.أو أكثر مادية، وهو يعتقد أن النظرية المادية للدين موجودة لدى ماركس. لأن ماركس كان قد اكتفى بتحليل وظيفة الأيديولوجيا الدينية. أما فيبر فقد تجاوز ذلك واتخذ موضوعا لدراسته سوسيولوجيا الفاعلين الدينيين، وعندما بلور مفهوم الحقل الديني[13] شكل هذا الفضاء المستقل نسبيا، والذي تدور فيه رهانات خاصة، ويتصارع فيه الفاعلون الاجتماعيون أي (البشر) بوساطة استخدام أشكال مختلفة من الرأسمال الديني[14] بغية «احتكار التلاعب (أو التحكم) الشرعي بالسلع الروحية»[15]. إن منطق هذا الصراع والاستراتيجيات الخاصة التي يستخدمها الفاعلون الدينيون بحسب كمية رأسمالهم ومواقعهم داخل موازين القوى الدينية البحتة، هو الذي يتحكم في اتخاذ المواقف الدينية.

والشيء نفسه ينطبق على الشعر وفن الرسم والعلم(*). فهل هذا يعني أن بورديو، يريد أن يتجاوز التضاد المشهور بين المادية والمثالية؟

١ - ينبغي التخلي عن نظرية الانعكاس وذلك لأن المنتوجات الثقافية هي تركيبات أو هياكل مشكلة لرؤيتنا عن العالم، بل أكثر من ذلك أنها تساهم في صنع العالم، وليست فقط مجرد انعكاس للعالم المادي كما كانوا يقولون سابقا. وكما ورد آنفا، فإننا نجد أسس النظرية المادية للأنظمة الرمزية، وخصوصا الدين لدى ماكس فيبر أكثر مما نجدها لدى ماركس. لم يحلل ماركس المنطق الخصوصي للإنتاج الديني لأنه كان مشغولا بشيء آخر، في حين راح فيبر يؤسس ما يدعوه بورديو باقتصاد الأديان. لقد حاول دراسة فضاء الإنتاج الديني عن طريق مقارنته وموازنته بفضاء الإنتاج الاقتصادي المادي نفسه.

٢ - الشيء الذي فعله بورديو هو أنه حور فيبر وأعاد التفكير في نظريته من جديد ضمن منظور بنيوي. لقد بين في دراساته حول الموضوع أن هناك حقلا دينيا وفاعلين اجتماعيين متنافسين داخله. وهم يستخدمون وسائل مختلفة وعديدة على طريقة الشركات الاقتصادية من أجل إنتاج السلع الدينية، ومن أجل بيعها واستجلاب الزبائن... إلخ. الشيء الجديد والمهم الذي أتى به فيبر هو تركيزه على المصالح الدينية البحتة. ذلك أن الممارسات الدينية تخلق أو (تثير) لدى المنتجين المحترفين من الكهنة وغيرهم مصالح ليست اقتصادية فقط على الرغم من أنها تتضمن عاجلا أو آجلا مصالح اقتصادية.

(*) كأن يقول شخص ما يحمل شهادة الليسانس (الإجازة) في الآداب مثلا عن شخص آخر يحمل شهادة الدكتوراه التي اقتنصها بسهولة وضمن ظروف معينة إنه أذكى منه! إن كل ما يقوله صحيح لمجرد أنه يحمل شهادة الدكتوراه! إنه بذلك يساهم في إخضاع نفسه للآخر. وتصبح هذه الشهادة الشكلية مخزناً للعنف الرمزي الذي يفرضه المجتمع بالقوة على الآخرين. الواقع أن الشهادات ليست مهمة وخطيرة إلا لمن لا يمتلكها. وأما الأشخاص الجديرون الذين وصلوا إليها فإنهم يعرفون مدى سخفها.

١ - ٥ : نقد المحاولات النبوئية

[ولأنه توجد في علم الاجتماع صعوبة أكثر من غيره في التخلص من وهم الشفافية (تخمين المعنى المخبأ) وفي تحقيق القطيعة حتى النهاية مع المفاهيم المسبقة، ولأنه يعطي لنفسه غالبا، سواء أراد ذلك أم لا، مهمة الإجابة عن الأسئلة النهائية حول مستقبل الحضارة، فهو مهيأ حاليا ليقيم، مع جمهور لا يتحول أبدا إلى مجموعة من الأشخاص المتساوين، علاقة غير واضحة يخشى من أن تجد من جديد وباستمرار منطق العلاقة بين المؤلف الناجح وجمهوره ... وأكثر من جميع الاختصاصيين، يكون عالم الاجتماع معرضا لحكم غامض ومزدوج من قبل غير الاختصاصيين الذين يعتبرون أنفسهم مخولين إعطاء أهمية للتحليلات المقترحة طالما أيقظت الافتراضات المسبقة لعلم اجتماعهم العفوي، لكنهم بذلك يحملون على التساؤل بخصوص صوابية علم لم يقروا به إلا في إطار معناه المزدوج. وفي الحقيقة، عندما لا يتناول عالم الاجتماع سوى مواضيع الحس المشترك، والتفكير المشترك حولها، فلن يكون لديه جديد يعارض به التأكيد المشترك حيث يحق لكل فرد التحدث عما هو إنساني والحكم على كل حديث، حتى العلمي عما هو إنساني، وكيف لا يشعر كل فرد قليلا بأنه عالم اجتماع عندما تتوافق تحليلات «عالم الاجتماع» كليا مع اقتراحات الثرثرة اليومية، وحيث لا ينفصل حديث المحلل عن الاقتراحات المحللة إلا بحاجز بسيط من المزدوجين؟][١٦].

يرى بورديو أن عالم الاجتماع ما زال يعاني مشاكل عديدة تمنعه من الترسخ كعالم، مع أنه خطا خطوات عديدة على طريق تطوره وتقدمه. والعائق الأساسي، بل الخطر الرئيسي الذي يواجهه، يتمثل في الاتجاه نحو النبوءة. فالعلم في رأيه، لا يعبر أو لا يفترض به التعبير عن عقائد أو مذاهب، لأن ذلك لا يكشف الواقع أو الظواهر الاجتماعية فيه، وإنما يعمل على تغطيته وتشويهه وإبرازه على غير ما هو عليه. وكما هو معروف، فالدعوات التنبئية ليست بأفكار أو مفاهيم علمية. فهي لم تتشكل علميا بوساطة مناهج علمية بقدر ما تتشكل من أفكار غامضة تعبر عن رغبات وتصورات ومطامح وأهداف. وهي لهذا السبب تحتوي على الكثير من المفاهيم المسبقة. إلى جانب هذه المشكلة، يمكن التحدث عن تعددية المعنى والنتائج السلبية التي تؤدي إليها في علم الاجتماع. تجدر الإشارة هنا إلى أهمية إعطاء معنى موحد للظاهرة الاجتماعية. لكن للوصول إلى ذلك، علينا تخطي عوائق إبيستمولوجية عديدة وكبيرة سواء على المستوى النظري أم على المستوى التطبيقي. يتعين التحقق من المفاهيم النظرية عن طريق النقد والتجربة. كذلك التثبت من المناهج النظرية والتجريبية. في الواقع الملموس يدعو بورديو إلى القطيعة مع المفاهيم المسبقة أو مع علم الاجتماع العفوي. لأن هذه المفاهيم عامية، لا تعكس حقيقة الوقائع الاجتماعية أو كما يقول دوركهايم: لن تسمح باكتشاف القوانين التي تتحكم في الواقع. فهي وليدة التجارب العامية الغامضة، كما أنها مرتبطة بالانطباعات والمشاعر

والانفعالات. لذلك لا تعد مفاهيم علمية مبنية على أساس منهج علمي أو على أساس الشك، كما كان الأمر عند رينيه ديكارت، أو النقد. وهي تعكس المعرفة المباشرة الغامضة للإحساس بدل المعرفة العقلية المرتكزة على التحليلات العلمية. وهذه القطيعة تعد شرطا لبناء علم اجتماع صحيح. موقف بورديو هذا يعبر عن الرغبة في محاربة المناهج التقليدية التي ما زالت مستمرة حاليا. وفي استخدام مناهج حديثة أكثر علمية. ومهما كانت طبيعة علم الاجتماع والنظريات السائدة فيه، فهو على علاقة بالناس، وبالتالي بمصالح وأهداف اجتماعية. لهذا السبب، لا بد أن يطرح تساؤلات بخصوص واقع المجتمعات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. ونظرا لإعطائه هذه المهمة يخشى من أن تتحول غايته العلمية إلى غايات أيديولوجية. ولهذا السبب أيضا، فحين يتوجه عالم الاجتماع إلى الجمهور غير الاختصاصي بعلمه، فهو يحاول تخطي الأهداف العلمية وذلك من أجل تحقيق مصالح ومطامح شخصية معينة. فالعلاقة التي على عالم الاجتماع إقامتها مع جمهوره يفترض أن تكون مبنية على أساس كشف الحقائق، لا على أساس تغليفها بغشاء من الشفافية الخداعة. فلا يتعين على عالم الاجتماع حديثا الإكثار من مؤيديه وأنصاره من خلال طرق رخيصة غير علمية،أو طرق مضللة. وينبه بورديو من منطق العلاقة الناجحة بين المؤلف المشهور وجمهوره، فمن غير الجائز أن يتوجه عالم الاجتماع إلى أصحاب العقول البسيطة كي يكسب رضاهم ومودتهم وتأييدهم له، لأن غايته ليست المعرفة العامية البسيطة، أو المعرفة العفوية الغامضة، إنما المعرفة العلمية التي تتجاوز المصالح الضيقة. ويدين بورديو بشدة موقف غير الاختصاصيين من علماء الاجتماع الذين لا يرتكزون في أحكامهم على حقيقة التحليلات، أو على ما هو علمي فيها. ويعتبر أن آراءهم التي تدعم المفاهيم المسبقة لديهم هي آراء غير علمية. وعلى الرغم من موقفهم هذا، فهم مضطرون إلى التساؤل بخصوص المعاني المختلفة في تفسير الوقائع، لأن الاختلاف لا يعبر عن صحة الموقف العلمي ويتفق كليا مع دوركهايم حول ضرورة ألا تشكل المعرفة المشتركة أو المفاهيم المسبقة موضوعا لعلم الاجتماع، حيث إن دور عالم الاجتماع ليس التأكيد على أفكار غامضة وحقائق مشوشة، وإنما كشف ما هو موجود في الواقع، وقول ما هو جديد. لهذا الأمر يسخر بورديو من «علماء الاجتماع» الذين تتوافق تحليلاتهم مع الصياغات العامية التي لا يفصل بعضها عن البعض الآخر شيء من الأهمية.

وفي الإشارة إلى موقف الكيميائي حديثا من ضرورة محاربة الاتجاه القديم اللاعلمي والسائد عنده، والمبني على التقنيات السرية والنظرية الصوفية، يخلص إلى ضرورة محاربة الاتجاه التنبئي عند عالم الاجتماع الذي لا يتوافق مع ضرورات العلم لأنه لا يخاطب أصحاب العقول النيرة بقدر ما يخاطب العقول البسيطة التي تود الحصول على نتائج تتوافق مع مخيلاتها وتصوراتها: اوإذن، كما يقول باشلار، «على الكيميائي أن يحارب في نفسه الكيمياء

القديمة»، وهكذا، على كل عالم اجتماع أن يحارب في نفسه النبي الاجتماعي، حيث يطلب جمهوره منه تجسيده، فالصياغة العاقلة ظاهريا للبديهيات الأفضل صنما لإيجاد جمهور لأنها بديهيات عامة، واستخدام لغة ذات كتب متعددة تضع جنبا إلى جنب الكلمات المشتركة والكلمات التقنية بقصد دعمها، يقدمان إلى علم الاجتماع غطاءه الأفضل عندما ينوي، مع كل ذلك، مفاجاة أولئك الذين يجيب على توقعاتهم بإعطائه تنسيقا أكبر لمواضيعهم المفضلة، وبتقديم حديث في الظاهر موجه إلى جمهور ضيق من التلاميذ، وهو يستخدم في الحقيقة الوظائف الموجهة إلى جمهور واسع من ضمن مشروع نبوي»[١٧]. إلى جانب أن هذا الاتجاه يخفي آراء وبديهيات وأفكارا غامضة، ويعبر عن رغبات ومصالح خاصة، فإنه يعمل على تغطية الواقع بحجج «علمية» وبأساليب ومصطلحات لا تدعم في الحقيقة سوى افتراضات مسبقة عن عالم الاجتماع، ما قيمة علم الاجتماع إذا لم يهدف إلى كشف الحقيقة والارتباط بجمهوره على هذا الأساس؟ وهل قيمة المشروع العلمي في تحوله إلى مذهب أو عقيدة؟ وإذا طبق الحذر الإيبستمولوجي من استخدام الافتراضات المسبقة، فهل يعد هذا كافيا، أو ضمانة أكيدة لعدم استخدامها؟ المواقف المسبقة لكل من سبنسر أو كونت أو ماركس أو دوركهايم تؤكد عكس هذه الحقيقة. ما يميز بورديو عن هؤلاء أنه لم يدع إلى محاربة أو تجنب هذه المفاهيم فقط، بل إخضاعها للنقد الدائم.

١ - ٦ : نقد الثنائية الزائفة ذاتية / موضوعية

ينتقد بورديو الفهم الموضوعي التقليدي للوقائع الاجتماعية: «يدرك التقليد الموضوعي العالم الاجتماعي لعالم من الانتظامات الموضوعية المستقلة عن الفاعلين والمبنية انطلاقا من وجهة نظر مراقب حيادي خارج الفعل فوق العالم الملاحظ»[١٨]. الاتهام موجه بشكل أساسي إلى كل العلماء الذين حاولوا تنظيم الواقع أو الظواهر الاجتماعية من خلال قوانين أو انتظامات موضوعية. وهنا يمكن ذكر سبنسر وكونت ودوركهايم وماركس... إلخ. نقطة الضعف الأساسية عند هؤلاء في رأي بورديو هي أنهم لم يدركوا الدور الحقيقي للفاعلين الاجتماعيين، وأنه لا توجد ظاهرة اجتماعية خارج الوعي الذاتي. من هذا المنظار مثلا، لا توجد حيادية للمراقب، ولا خصائص موضوعية للظاهرة قائمة بذاتها. وأي ملاحظة مرتبطة بتصورات وإدراكات محددة. وأي واقعة غير منفصلة عن طبيعة الملاحظة. فالمراقب هو الذي يبنيها لأنه هو الذي يعطيها معنى محددا. ومن هذا المنظار أيضا يعتبر بورديو أن عملية تشكل أو تشيؤ [تموضع] الظواهر الاجتماعية ليست عملية مكيانيكية تحصل بمعزل عن إرادة الإنسان ووعيه: «تجاه ذلك، يهاجم سارتر بوضوح، في نقد العقل الجدلي، ليفي ستراوس وتأثير التشيؤ [التموضع] الذي تسببه الموضوعانية .... في النهاية، كما يوحي بعض النصوص لكوفمان، فالعالم الاجتماعي نتيجة أفعال فردية»[١٩]. فهي لا تحدث خارج تأثيرات الأفراد ومواقفهم

وتصرفاتهم، وما التبدل فيها إلا نتيجة لتغير في الأفكار والآراء والمواقف، لذلك فهي ليست خارج الإنسان ووعيه وتمارس عليه، كما اعتبر دوركهايم، قسرا خارجيا منفصلا عن إرادته أو أنها موجودة في عالم خارج عالم الأفراد. إنها، في الحقيقة، وليدة أفعال الأفراد أو نتاج للعلاقات التي تنشأ بينهم.

كيف يفهم بورديو عملية تشيؤ الوقائع الاجتماعية؟ يقول: [وبعيدا عن أن تكون للناس تصرفات محترمة بسبب وجود تراتبيات، فإن عدم حدودية الأفعال الفردية من الاحترام والاعتبار ... هو الذي ينتهي بإنتاج التراتبية][20]. فهو يعتبر أن التراتبيات الموجودة في المجتمع، أي الأهمية المعطاة لمؤسسات أو لظواهر اجتماعية على حساب مؤسسات أو ظواهر أخرى، غير عائدة إلى خصائص موضوعية مستقلة عن وعي الإنسان ومرتبطة بهذه الظواهر أو هذه المؤسسات. فهذه الخصائص من الأهمية والاحترام والتقدير مرتبطة في الحقيقة بمواقف الأفراد وتصرفاتهم وإدراكاتهم. وتبعا للعنصر الذاتي هذا تعطى معان أو تقديرات مختلفة للوقائع الاجتماعية، فليس الوجود الموضوعي للتراتبيات في المجتمع هو الذي يخلق تصرفات أو تصورات الأفراد عنها، بل إن أفعال وتصورات الأفراد عنها هي التي تعطي درجات من الأهمية والاحترام، وصفة الموضوعية. وللدلالة على هذا الموقف يمكن الإشارة إلى بعض الظواهر السياسية، فالسلطة مثلا تظهر وكأنها تتشكل أو تتشيأ بمعزل عن إرادة الإنسان ووعيه: [ونرى على الأثر الموجبات السياسية. من ناحية، لغة البنى الموضوعية للهيمنة، ميزان قوى موضوعي، ومن ناحية ثانية، هو جمع لأفعال الاحترام غير المنتهية والتي تحدث موضوعية العلاقات الاجتماعية][21]. تظهر السلطة كقوة حتمية لا بد منها، قوة فرضتها الضرورة، فالهيمنة تظهر كأنها من فوق مفروضة على الناس، خارج تصرفاتهم وتصوراتهم وأفكارهم ووعيهم، كقوة قسرية لا رأي للإنسان فيها يكون التحدث في هذه الحالة عن وجود ميزان موضوعي للقوى، أي عن وجود ظروف موضوعية أدت إلى ظهور هذا الشكل من السلطة. واستنادا إلى هذا الكلام، لا تعطى أهمية للوعي في وجوده. ينتشر كلام آخر يعطي كل الدور للوعي والفكر وتصرفات الأفراد على حساب الظروف أو العلاقات الاجتماعية الموضوعية. لأن احترام الأفراد لهذا النوع من المؤسسات أو الظواهر هو الذي أدى إلى وجودها، بل هو الذي حافظ على بقائها حتى الآن. ويكون الصراع بين تيار الحتمية الذي يقول بالفهم الموضوعي وتيار الحرية الذي يقول بالفهم الذاتي المرتكز على إرادة الإنسان ووعيه.

من خلال هذا العرض، يتبين لنا أن بورديو لا يؤيد الفهم الموضوعي وطريقته ولا الفهم الذاتي وطريقته: [الحتمية من ناحية، والحرية والعفوية من ناحية أخرى (إذا توقف الناس عن تمجيد الكبار ...) نرى جيدا أن هذا رهان مهم. ونرى في الوقت نفسه على أرض المجتمعات المنقسمة إلى طبقات، وفي ميدان علم الاجتماع، أنه من الصعب أكثر من الإثنولوجيا فصل

موضوع المعرفة عن موضوع السياسة، مع أننا نقوم بذلك بشكل شبه دائم]([٢٢]). فالفهم الحقيقي في رأيه يرتكز على العلاقة الجدلية بين الذاتي والموضوعي، لأنه لا توجد ذاتية من دون موضوعية ولا موضوعية من دون ذاتية. ولتوضيح موقفه يعطي أمثلة عديدة، فيقول إن شهرة الأشخاص الكبار من علماء ومفكرين وفنانين وسياسيين وعسكريين، مرتبطة بوعي الأفراد الذين يعتقدون بها وإذا توقف هذا الاعتقاد، وما يستتبعه من مواقف وتصرفات، تزول شهرتهم لا محالة. إذن وجود أي ظاهرة اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو فنية، مرتبط بتصورات الأفراد عنها وبتقبلهم إياها. بكلام آخر، العلاقة بين السلطة والناس مثلا عبارة عن رهان حيث يسود جو من التجاذب والمنافسة والتصادم والصراع. يمكن توضيح هذا الموقف أكثر من خلال القول إن الناس على دين ملوكهم. أي أن سلطة الملوك وتجبرهم واستبدادهم وظلمهم غير منفصلة عن وعي الناس بها. لذلك فإذا تغير وعيهم تغيرت. هذا لا يعني أن الوعي عامل منفصل عن طبيعة السلطة أو عن الظروف الاجتماعية والتاريخية التي وجدت فيها. الوعي في هذه الحالة عنصر منها.

يخلص بورديو من موقفه هذا إلى التأكيد على العلاقة التي تربط بين المعرفة والسلطة (السياسة) أو بين الوعي وأي ظاهرة اجتماعية، وإلى أنه لا يجوز الفصل بينهما كما يحصل عادة. ويصعب الفصل في ميدان علم الاجتماع أكثر منه في ميدان الإثنولوجيا، لأن واقع المجتمعات الحديثة، بسبب الانقسام الطبقي والنزاع حول السلطة وتاريخ هذا النزاع، يظهر العلاقة بوضوح أكثر مقارنة مع المجتمعات البدائية البسيطة التي تحاول الإثنولوجيا دراستها. يبني بورديو موقفه على أساس التمييز بين النظرة الموضوعانية والنظرة العفوية الإرادوية: [وفي التقليد الماركسي يوجد صراع دائم بين ميل موضوعاني يبحث عن الطبقات في الواقع (حيث المسألة الأبدية: «كم هناك من طبقات؟») ونظرية إرادوية أو عفوية تكون الطبقات تبعا لها شيئا نصنعه. من زاوية نتحدث عن شروط طبقية، ومن زاوية أخرى عن وعي طبقي. من زاوية عن وضع في علاقات الإنتاج، ومن أخرى عن «صراع طبقي» وفعل وحركة. والنظرة الموضوعانية ستكون نظرة عالم، والنظرة العفوية نظرة مناضل. أعتقد أن الموقف الذي نتخذه حول مسألة الطبقات يتعلق بالوضع الذي نشغله في البنية الطبقية]([٢٣]). إذ لا النظرة الموضوعانية تعتبر صحيحة لأنها تتجاهل الوعي والعنصر الذاتي، مع أنها أقرب إلى العلم لأنها ترى ضرورة تجنب تأثير الذات أو المفاهيم المسبقة في الفهم، ولا النظرة الذاتية صحيحة كذلك لأنها تتجاهل تأثير الظروف الموضوعية، مع الإشارة إلى أنها تعبر عن رغبات وآمال ومطامح. لهذا السبب يقف بورديو بين فيبر وماركس. يأخذ عن فيبر دور العنصر الذاتي، أي دور التصورات والقيم والمثل في الفهم، وعن ماركس دور العوامل الموضوعية [الظروف التاريخية والاجتماعية] في تفسير الظواهر. ويربط بين الاثنين بحيث يكون العنصر

الذاتي جزءا من الواقع الموضوعي، لأن وجود أي واقعة مرتبط بإدراكات وتصورات ومواقف وأفعال معينة. وموقفه من الطبقات يوضح وجهة نظره. فلا الموقع في علاقات الإنتاج هو الذي يحدد الانتماء الطبقي، ولا الوعي الطبقي بمفرده. ما يحدد الصفة الطبقية، بالنسبة إليه، هو الموقع في البنية الطبقية الاجتماعية. والموقع هنا يتخطى طبيعة العلاقة بالإنتاج المادي إلى طبيعة العلاقة بالسلطة السياسية. فالموقع الطبقي لأي فرد لا يتحدد بالموقع الاقتصادي الذي يشغله في الإنتاج فقط وإنما بالنشاط السياسي والاجتماعي الذي يقوم به. إن موقعه في علاقات الإنتاج غير منفصل أبدا عن وعيه وتصوره للسلطة السياسية. كما أنه غير منفصل عن تصرفاته إزاء هذه السلطة.

١ - ٧ : محاولة تجاوز الثنائية ذاتية/موضوعية وضم فم التمساح :

من خلال عرض وجهتي نظر ذاتية ماكس فيبر، وموضوعية ماركس، يدعو بورديو إلى تجاوزهما، لا لرغبة في ذلك، وإنما لأن الواقع يؤكد هذه الحقيقة: [لا يمكننا العمل على تقدم العلم في أكثر من حالة إلا شرط الوصل بين نظريات متعارضة. غالبا ما يتكون بعضها ضد البعض الآخر. والأمر لا يتعلق باستخدام هذه التركيبات الخاطئة الانتقائية التي كثيرا ما شعرنا بها بشدة في علم الاجتماع. وقيل بأن إدانة الانتقائية غالبا ما استخدمت كحجة ضد الجهل [اللاثقافة]، وبالتالي من السهل والمريح الانغلاق ضمن تقليد. والماركسية، للأسف، ملأت أحيانا وظيفة الأمان الكسولة هذه. والتركيب غير ممكن إلا بتساؤل جذري يؤدي إلى مبدأ التضاد الظاهر][24]. فالذاتية مع أنها تجاهلت أو لم تترك الصفة الموضوعية للوقائع الاجتماعية، رأت جانبا منها. لقد تحدثت عن أهمية التصور الذاتي في فهمها. بالمقابل، فالموضوعية، مع تأكيدها على الخصائص الموضوعية للظواهر، قللت من أهمية العنصر الذاتي، أي من أهمية الأفعال والمواقف والآراء التي تعتبر جزءا منها. إذن، لكل من الذاتية والموضوعية إيجابيات وسلبيات. ولهذا السبب، ومن أجل تقدم العلم، يجب جمع كل هذه الإيجابيات، والتخلص من كل هذه السلبيات. كيف يكون السبيل إلى ذلك؟ يكون من خلال نظرة جديدة تتوافق مع الواقع الملموس، أي من خلال الدمج بين النظرية والواقع. وهذا ما حاول تطبيقه بورديو، وهو ما يميزه من غيره من العلماء. لذلك، فحين يدعو إلى الربط بين النظريات المتعارضة، فهو لا يقصد الرغبة في التوفيق من أجل التوفيق، وإنما الجمع بين ما هو صحيح. من هنا كانت إدانته للتركيبات الخاطئة الانتقائية تبعا للرغبات المنتشرة بكثرة في علم الاجتماع. من هنا أيضا اختلاف الانتقائية عنده (وهي مشروطة بالحقيقة والواقع) عنها عند غيره، حيث قد تتصف بالجهل أو اللاثقافة. يستدعي موقف بورديو هذا ألا نبقى محصورين عند تقليد معين، كما هو الأمر مثلا بالنسبة إلى الماركسية التي لا تحيد نظرتها في فهم الواقع، بل تعتبرها كأنها النظرة الوحيدة العلمية. وبناء على هذا الاعتبار أدانت كل نظرة

معارضة وأطلقت عليها تهما شتى. ليس هذا بالموقف العلمي في رأيه، لأن من أصول النظرية العلمية ألا تتحول إلى عقيدة أو مذهب أو فلسفة. وهذا ما شدد عليه فيبر من خلال إدانته للمناهج التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. ومع أن ماركس أكد في مؤلفاته المتنوعة ضرورة النظرة الجديدة للواقع، وأن كل المفاهيم تخضع للتغير بسبب تغير الظروف الاجتماعية والتاريخية، إذ هذا ما يعطي أهمية للنظرية العلمية، غير أن أتباعه فهموا نظريته كعقيدة أو كمذهب، فتحولت مقولاته إلى مفاهيم ثابتة وأبدية. فالدولة مثلا أصبحت أمرا ضروريا في المرحلة الاشتراكية، وحتى كل مرحلة اجتماعية، كذلك بالنسبة إلى الحزب.

يدين بورديو وظيفة الحلول الجاهزة والتحليلات الثابتة للموقف الماركسي هذا. ويعتبر وظيفة الأمان هذه، أو وظيفة العودة إلى الرؤية الأحادية الجانب أو وظيفة عدم كشف التناقضات، غير علمية ويجب وضع حد لها. والتركيبات الصحيحة في رأيه هي تلك التي تطرح تساؤلات مهمة وأساسية بخصوص التناقضات بقصد تحليلها وكشفها علميا. إن اتهامات بورديو لا تطول الماركسيين فقط وإنما ماركس نفسه: [مثلا، بعكس الانحسار الطبيعي للماركسية نحو الاقتصادوية، الذي لا يعرف الاقتصاد إلا بالمعنى الضيق للاقتصاد الرأسمالي والذي يشرح الكل من خلال الاقتصاد المعرف بهذه الطريقة، فإن ماكس فيبر يوسع التحليل الاقتصادي (في المعنى المعمم) إلى ميادين تركت عادة من قبل الاقتصاد، مثل الدين. فهو بالتالي يصف الكنيسة من خلال صياغة تثير الإعجاب، كمحتفظة باحتكار الهيمنة على الأملاك العامة. ويدعو إلى مادية جذرية تبحث عن المحددات الاقتصادية (في المعنى الواسع) في ميادين، حيث توجد هيمنة لأيديولوجيا «عدم الاهتمام» مثل الفن أو الدين][٢٥]. محور هذا الانتقاد أن الاقتصاد كعامل غير كاف في تفسير الواقع الاجتماعي، لأنه لا يوجد اقتصاد بحت، أو حقيقة اقتصادية بحتة، بل هناك حقيقة اجتماعية متعددة الجوانب. إلى جانب ذلك، يبقى شرح الظواهر الاجتماعية والسياسية والفنية من خلال الاقتصاد الرأسمالي الذي يعد شكلا معينا للحياة الاقتصادية، غير كاف أيضا. ولهذا السبب لا يعد شرحا علميا كاملا وصحيحا. في المقابل، يشيد بورديو بموقف فيبر من شرح الرأسمالية، فيقول إنه لم يكن محصورا بالفهم الضيق للاقتصاد الرأسمالي، فحاول مثلا فهم امتدادات هذا الاقتصاد في الحياة الاجتماعية. ونظر إلى الدين وتأثيراته، وكذلك إلى الكنيسة. من المعروف هنا أن هناك أنواعا معينة من الأخلاق والمعتقدات والتقاليد لدى طوائف مسيحية معينة تساعد على العمل الاقتصادي الحر وتبرر هذا التصرف (البروتستانتية بمختلف تفرعاتها، الكالفينية الفرنسية واللوثرية الألمانية والصاحبيين أو الكويكرز الأيرلنديين والزنغلية السويسرية). في حين توجد طوائف أخرى تتشدد إزاء هذا الوضع (الكاثوليكية). من هنا كانت نظرة فيبر إلى الاقتصاد الرأسمالي مرتكزة على قاعدة أعم وأشمل من تلك التي استند إليها ماركس.

فالاقتصاد يمكن تفسيره بعوامل اجتماعية متعددة، كالدين أو القانون أو السلطة. ويعتبر بورديو أن جانبا أساسيا من فهم فيبر لمفهوم الشرعية يعد صحيحا لأنه ربط بين أشكال الشرعية المختلفة والمعتقدات والتصورات لدى الأفراد بخصوصها. وهذا الربط برأيه من صلب الحقيقة الاجتماعية.

يُقوّم بورديو إيجابا موقف ماركس من فهم الظواهر الاجتماعية، ومن رفضه المفاهيم العامية والانعكاسات الظاهرة أو الخارجية للمعرفة: [والشيء نفسه مع مفهوم الشرعية. قطع ماركس مع التصور العادي للعالم الاجتماعي بمحاولته تبيان أن العلاقات «السارة جدا» للأبوية مثلا تخبئ ميزان قوى. وعند فيبر حس المعارضة الجذرية لماركس: يذكر أن الانتماء إلى العالم الاجتماعي يوجب جانبا من الاعتراف بالشرعية. هذان الأستاذان - كمثل جيد عن تأثير الوضع - يتمسكان بالاختلاف. وهما يفضلان المقابلة بين المؤلفين على التوفيق بينهم][٢٦]. فالعلاقات الأبوية تعكس ميزان قوى أكثر مما تعكس علاقات «سارة جدا» بين أفراد العائلة. لكن مع ذلك، يعتبر أن ماركس تجاهل العنصر الذاتي الذي يشكل جزءا مهما من الحقيقة الموضوعية، والذي أكده فيبر من خلال الاعتراف بأشكال الشرعية من قبل الأفراد مثلا. والاعتراف هو نتيجة الانتماء إلى مجتمع ما، أي نتيجة لتقبل وجود مؤسسات أو ظواهر اجتماعية معينة على أساس تصورات وإدراكات ومواقف وتصرفات محددة. وهذان الموقفان في رأي بورديو يعتبران مثلين واضحين عن الاختلاف في الرؤية وعن الإيجابيات والسلبيات عند كل منهما. لهذا السبب، مع أن صاحبيهما يفضلان البقاء على الاختلاف في الشرح، فمن الأجدر بمكان البحث عما هو مشترك بينهما، أي عما هو صحيح وعلمي، وهذا هو منطق البحث العلمي: وهذا أكثر بساطة وسهولة من أجل بناء محاضرات واضحة: الجزء الأول ماركس، الجزء الثاني فيبر، والجزء الثالث أنا][٢٧]. ويخلص بورديو إلى تأكيد الحقيقة التي سبق ذكرها وهي أن الحقيقة الموضوعية التي بينها ماركس غير صحيحة كليا إذا لم تفهم كميزان قوى معترف به من قبل أفراد معينين، أي إذا لم تشمل العنصر الذاتي: [في حين أن منطق البحث يؤدي إلى تجاوز التعارض، في الرجوع إلى الجذر المشترك. أبعد ماركس من نموذجه الحقيقة الذاتية للعالم الاجتماعي وطرح عكسها الحقيقة الموضوعية لهذا العالم كميزان قوى. لكن، إذا أرجع العالم الاجتماعي إلى حقيقته كميزان قوى، وإذا لم يعترف به كعالم شرعي، في إطار ما، فإن ذلك لن يكون صحيحا. فالتصور الذاتي للعالم الاجتماعي كعالم شرعي يشكل جزءا من الحقيقة الكاملة لهذا العالم][٢٨]. بماذا يتميز موقف بورديو هذا؟ يبدو أن بورديو توصل إلى رؤية الفجوات والثغرات في الماركسية، فألقى أضواء جديدة على طبيعة الوقائع الاجتماعية والسياسية، وكشف عن أن تشكلها أو تشيؤها لا يحصل بمعزل عن تصورات الأفراد وتصرفاتهم إزاءها، حتى أن هذه التصورات أو الأفعال تشكل جزءا منها. ومع

أن ماكس فيبر تحدث عن الحقيقة الذاتية، إلا أنه لم ير شيئا غيرها. إلى أن أتى بورديو واعتبر البعد الذاتي جزءا من البعد الموضوعي للحقيقة الاجتماعية، وهذا هو الاكتشاف المهم الذي أتى به. إلى جانب هذه المسألة، تحدث بورديو عن الجوانب المختلفة للحقيقة الاجتماعية وعن طبيعتها المعقدة وعن طابعها الاجتماعي. ودعا إلى التفسير الأنثروبولوجي، ورفض التفسير الاقتصادي، علما أن ماركس نفسه أشار إلى صعوبات هذا التفسير الأحادي الجانب بالنسبة إلى بعض أشكال ظاهرتي القانون أو الفن. ومع أن التفسير الإنثروبولجي الذي اعتمده لا يتجاهل الظروف الاجتماعية والتاريخية، وعلى الرغم من أهميته نظرا لمحاولته فهم الخصائص الدقيقة للعلاقات الاجتماعية المعقدة، فهو لا يراعي حجم تأثير أي عامل مقارنة مع العوامل الأخرى مع الإشارة إلى فائدة ذلك في كشف الحقائق.

١ - ٨ : نحو أنثروبولوجيا كلية «دراسة الإنسان في كليته»

ما طبيعة علم الاجتماع الذي يريده بورديو؟ يعتبر أن وجود علم يفترض تجاوز التناقض الوهمي كما يسميه بين الذاتية والموضوعية. وهذا التناقض وهمي وتعسفي لأن أي طرف من الاثنين يشدد على وجود جانب معين من الحقيقة دون الجانب الآخر: [بسبب وجوده بالذات، يفترض علم الاجتماع تجاوز التعارض الوهمي الذي يولده الذاتيون والموضوعيون تعسفا][٢٩]. فالذاتية لا ترى إلا العنصر الذاتي [الأفكار والتصورات]، والموضوعية لا ترى إلا العنصر الموضوعي [خصائص الظواهر]، في حين أن الحقيقة الاجتماعية تشمل العنصرين معا. وهكذا، فأي من الاتجاهين لا يعكس الحقيقة. ينتقد بورديو علماء الاجتماع الموضوعيين، وبشكل خاص دوركهايم وماركس، أي أولئك الذين يعتقدون أنه لا يوجد علم اجتماع موضوعي إلا لأنه توجد علاقات موضوعية (وقائع موجودة خارج وعي الأفراد، قائمة بذاتها، ومفروضة عليه) تشكلت بمعزل عن إرادة الإنسان ووعيه. ينتقد موقفهم الذي يعتبر العلاقات لا واعية وأنها لا تعطى للتفكير البسيط: [وإذا كان علم الاجتماع علما موضوعيا ممكنا، فلأنه توجد علاقات خارجية، ضرورية، مستقلة عن الإرادة الفردية، وحتى لا واعية (أي بمعنى أنها لا تعطى للتفكير البسيط)، وهي لا تفهم إلا من خلال تحول الملاحظة والاختبار الموضوعيين][٣٠]. بكلام آخر، الموقف الذي يقول بأن العلاقات أو الوقائع لا تكون مرتبطة بالوعي إلا إذا أدركت علميا، وأنها لن تكون مستقلة وموضوعية إلا مع التفكير البسيط. ويتوجه بالنقد كذلك إلى طريقتهم في التفكير والتحليل التي لا تعطي قيمة إلا للملاحظة والاختبار الموضوعيين، أي الطريقة التي تهتم بمراقبة وفهم وتحليل ما هو موضوعي موجود في الواقع، وتتجنب ملاحظة أو اختبار ما هو ذاتي: [بكلام آخر، لأن الأشخاص لا يدركون معنى كل تصرفاتهم كمعطى مباشر للوعي، ولأن تصرفاتهم تنطوي دائما على أكثر من معنى لا يعرفونه ولا يريدونـــه، قد لا يكون علم الاجتماع علما انعكاسيا محضا يسمح بالوصول إلى التأكيد المطلق بوساطة

الرجوع الوحيد إلى التجربة الذاتية، وربما يكون في الوقت نفسه علما موضوعيا للموضوعي ولـ «الذاتي»، أي علما اختباريا][31]. لن يسلم الذاتيون أيضا من انتقاداته، فهؤلاء لن يتمكنوا من فهم الحقيقة (تصرفات الأفراد مثلا) من خلال التجربة الذاتية فقط، لأن الأفراد لا يتمكنون من إعطاء وصف دقيق علمي لتصرفاتهم لأسباب عديدة: أولا، لأنهم لا يدركونها مباشرة. ثانيا، لأنهم يعطونها معاني متعددة. ثالثا، لأنهم يرفضون إعطاء بعض تصرفاتهم معاني لا يريدونها. إذن، يبقى التحليل من خلال التجربة الذاتية خاضعا لغياب المعنى العلمي الموحد. ولهذا السبب فعلم الاجتماع لن يكون علما انعكاسيا خاضعا للتفكير الذاتي وللمقاييس الذاتية.

التحليل العلمي في رأي بورديو هو ذاك الذي يكون بمنزلة اختبار للذاتي والموضوعي في الوقت ذاته، أو للعلاقة بينهما: [والاختبار، كما يقول كلود برنار هو «الوسيط الوحيد بين الموضوعي والذاتي» ... لكن بخلاف علم الطبيعة، فالأنثروبولوجيا الكلية لا تريد بناء علاقات موضوعية لأن تجربة المعاني تشكل جزءا من المعنى الكلي للتجربة: وعلم الاجتماع الأقل شبهة ذاتية يستعين بمفاهيم وسطية ووسيطة بين الذاتي والموضوعي، مثل الاستلاب والموقف والأخلاق التطبيقية][32]. فلا يجوز مثلا تحليل مواقف أو تصورات أو آراء أو أفكار بشكلها المجرد بمعزل عن معانيها الموضوعية في الواقع الملموس. بناء على هذا الموقف، ليس من الضرورة أن يكون موضوع الأنثروبولوجيا الكلية عبارة عن علاقات موضوعية أو وقائع قائمة بذاتها، كما هو الأمر بالنسبة إلى علم الطبيعة وعلم الاجتماع عند الموضوعيين، لأن التحقق من خلال التجربة الذاتية من المعاني المختلفة للتصرفات يعد جزءا من المعنى الكلي للتجربة التي يجب أن تشمل المعاني الذاتية والموضوعية معا. من هنا كانت دعوة بورديو لرفع الشبهة الذاتية عن علم الاجتماع من خلال استخدام مفاهيم وسطية أو وسيطة بين الذاتي والموضوعي، أي مفاهيم تشمل المعاني الذاتية والموضوعية معا. فلا يجوز مثلا البحث عن معنى الاستلاب في نفسية الفرد فقط من دون البحث عنه كذلك في الواقع أو في الظروف الاجتماعية، أي أن معناه غير مقتصر على الأسباب الذاتية المتعلقة بشخصية الفرد فحسب، وإنما على الأسباب الموضوعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية.

وعلى الباحث رؤية هذه الأسباب جميعا. والأمر نفسه بالنسبة إلى الموقف الذي يتخذه الإنسان إزاء أي مسألة، حيث يجب البحث عن المعنى، ليس في التفكير الذاتي فقط، بل أيضا في الواقع الملموس. وكذلك بالنسبة إلى مفهوم الأخلاق التطبيقية. تجدر الإشارة هنا إلى أن معنى الأخلاق التطبيقية المتمثلة في القواعد والقوانين الاجتماعية غير منعزل عن معنى المثل والتصورات والقيم الأخلاقية المجردة. إذ مهمة علم الاجتماع تكون على أساس بناء نظام من العلاقات يشمل المعاني الموضوعية للتصرفات [المحددة اجتماعيا من خلال الأنظمة والقوانين]

والعلاقات التي يقيمها الأفراد مع وسطهم الاجتماعي والتاريخي، أي مع وسطهم الموضوعي، أو مع المعاني الموضوعية لتصرفاتهم: [يحق له بالتالي بناء نظام من العلاقات الذي يشمل المعنى الموضوعي للتصرفات المنظمة تبعا لانتظامات مقيسة، والعلاقات المفردة التي يقيمها الأشخاص مع الشروط الموضوعية لوجودهم، ومع المعنى الموضوعي لتصرفاتهم، معنى يملكهم لأنهم مملوكون به][٢٣]. نعني بناء نظام من العلاقات التي تشمل التأثير المتبادل بين الأفراد وشروطهم الاجتماعية. بعبارات أخرى، تتمثل مهمة علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا الكلية في وصف السيرورة التي تتخطى الموضوعية من خلال الاختبار الذاتي وذلك لتجمع الذاتي بالموضوعي: [كلمات أخرى، يعود وصف الذاتية المتموضعة إلى وصف استبطان الموضوعية. واللحظات الثلاث للسير العلمي هي بالتالي غير منفصلة: المعيش المباشر، والمدرك من خلال التعابير التي تغطي المعنى الموضوعي بقدر ما تكشفه، يعود إلى تحليل المعاني الموضوعية والشروط الاجتماعية لإمكان تحقيق هذه المعاني، تحليل يستدعي بناء العلاقة بين الأشخاص والمعنى الموضوعي لتصرفاتهم ... باختصار، على الأنثروبولوجيا الكلية الانتهاء في تحليل السيرورة التي وفقها تتجذر الموضوعية في/ بوساطة الاختبار الذاتي: عليها تجاوز الأمر بشمولها لحظة الموضوعانية وتركيزها في نظرية الاستبطان واستبطان الإظهار][٢٤]. أي وصف كيف تتموضع الذاتية، أو كيف تؤدي تصورات الأفراد ومواقفهم وأراؤهم إلى تشكل وتشيؤ الوقائع الاجتماعية، ومن ثم كيف تستبطن الموضوعية الذات، أو كيف تؤثر الشروط الموضوعية فيها وكيف تتشكل المعاني.

وبما أن المعاني أو التعابير الذاتية للأفراد قد تكشف أو لا تكشف المعيش المباشر نظرا لتعددها واختلافها بخصوص أي تصرف، فإن معرفة هذا الواقع المعيش تعود إلى تحليل المعاني الموضوعية للتصرفات. أعني إلى تحليل المضامين المحددة من خلال نظم وقواعد معينة، وتحليل الظروف الاجتماعية والتاريخية التي تسمح بتحقيقها. وبالتالي، هذا التحليل يرتكز على العلاقة بين الأشخاص وشروطهم الموضوعية. بكلام آخر، يكون كشف الواقع المعيش من خلال تحديد الظروف الاجتماعية المختلفة [تبعا للفئات والطبقات الاجتماعية] التي تسمح أو لا تسمح بتحقيق المعاني الموضوعية للتصرفات المحددة من خلال مواصفات ومؤهلات واستعدادات ودرجة معينة من المعرفة. أحيانا تتوافق المعاني الموضوعية مع استعدادات الأشخاص لدى فئات معينة، وفي هذه الحالة يتم التوافق بين المعنى الموضوعي والمعنى الذاتي، كأن ينجح مثلا في امتحانات الدخول إلى كليات الطب والهندسة وغيرها من الفروع العلمية أشخاص من فئات اجتماعية متوسطة أو ما فوق المتوسطة. وأحيانا أخرى، ينتفي مثل هذا التوافق، كأن يرسب في امتحانات الدخول إلى الفروع العلمية التطبيقية الطلاب المنتمون إلى الفئات الشعبية. وفي هذه الحالة يكون التناقض بين المعنى الذاتي (آمال

ومطامح الأفراد)، والمعنى الموضوعي (الشروط التي تسمح لهم بتحقيقها). وقد يعمل المعنى الذاتي أحيانا على تغطية المعنى الموضوعي، خاصة عندما يقوِّم الفشل أو الرسوب في الامتحانات بأسباب ذاتية.

١ - ٩ : نقد البنيوية وتجاوزها

يحاول بورديو أن يتجاوز البنيوية، وأن يذهب إلى ما وراءها. كان الفكر البنيوي قد طبق بشكل خاص على الأنظمة الرمزية من لغات وأساطير وأديان... إلخ. وقد مثلت البنيوية ثورة في علم الأناسة (الإثنولوجيا). لقد تبين أنه تنبغي دراسة الشعائر والطقوس والأساطير كأنظمة متكاملة ومستقلة بحد ذاتها، أي كأنظمة لها تماسكها الخاص. لقد أحدثت البنيوية بذلك القطيعة مع الإثنولوجيا الاستعمارية والعنصرية التي غالبا ما تكون مقبولة من قبل المستعمرين أنفسهم! كانت الإثنولوجيا السابقة تقول بأن الأساطير والشعائر، وهي عبارة عن خطابات أو ممارسات فوضوية، غير متماسكة، ولا معنى لها. وبالتالي فإن ثقافة المستعمرين التي يغلب عليها الطابع الشفهي والريفي «متدنية وسخيفة وبدائية» بالقياس إلى الثقافة «العلمية الأوروبية». إن شخصا مثل بورديو- كان قد شهد النظام الاستعماري في الجزائر- يعرف جيدا كم كانت البنيوية ظاهرة ثورية (في مجال الأنثروبولوجيا على الأقل). كان شيئا ثوريا أن يعامل عالم الأنثروبولوجيا التصورات الخاصة بغير الشعوب الأوروبية، كأنها أنظمة لها منطقها الخاص، وتماسكها الخاص، الذي لا ينبغي الاستهانة به أو تفريغه من المعنى. وكان ذلك يمثل قطيعة حقيقية مع الرؤية الاستعمارية التي تقبع خلف معظم الأعمال الإثنولوجية السائدة في ذلك الوقت.

ولكن على الرغم من ذلك فقد جاء وقت أحس فيه بورديو بالحاجة إلى إحداث القطيعة مع الإثنولوجيا البنيوية وليفي ستراوس بالذات، ذلك أن ليفي ستراوس قد حصر عمله فقط في تحليل الأنظمة الرمزية وخصوصا الأساطير، أي في التصورات والبنى الفوقية. أما بورديو فقد لزم عليه أن يذهب إلى أبعد من ذلك لكي يحلل العلاقات الاجتماعية بصفتها أنظمة متماسكة وذات دلالة. بمعنى آخر فلقد نقل البنيوية من مستوى التصورات والأساطير والمخيلة إلى مستوى الممارسات الواقعية والعلاقات الاجتماعية. يوجد فضاء اجتماعي للعلاقات التي تشكل تصوراتها أو التصورات المشكل عنها التعبير الرمزي، هذا ما حاول دراسته في كتابيه «التمييز»، «النقد الاجتماعي للحكم التقييمي أو للراي»[٣٥]، حيث يتحدث عن أشياء كثيرة من بينها «الوجبات الشعبية» (وجبات الطعام)، والوجبات البورجوازية، والذوق الشعبي، والذوق البورجوازي، ثم معادلاتها على أرضية الواقع المادي ونظام القيم الخاص بكل منهما.

وهذا ما فعله في الجزائر أيضا، فقد درس هناك نظام الألبسة التقليدية، ثم النظام الأوروبي (طقم + كرافات ...) وقد كان النظام التقليدي نفسه متنوعا، ويتخذ شكل التراتب

الهرمي. وقد فهم بسرعة بعد أن فكر في الظاهرة أن هناك علاقة بين نظام المواقع داخل الفضاء الاجتماعي (المجتمع)، ونظام المواقع داخل الفضاء الرمزي للألبسة والبزات. والناس هناك يعرفون ذلك، ولكن فقط على مستوى الممارسة العملية: فعندما يرون شخصا في الشارع فإنهم يخمنون موقعه الاجتماعي انطلاقا من التمعن في لباسه وهيئته. إنهم يعرفون هل هو جبلي أم حضري، هل هو فقير أم غني، هل هو تقليدي (عندئذ تكون قطع اللباس «متماسكة ومنسجمة») أم مثقف (وعندئذ يكون اللباس خليطا من الزي التقليدي والأوروبي). هناك إذن نوع من التوازي بين نظام الألبسة ونظام المواقع أو المراتب الاجتماعية. وقد تمثل عمله بدراسة العلاقات الاجتماعية وتجلياتها الرمزية معا بصفتها تشكل نظاما متماسكا. نقصد بالأنظمة الرمزية هنا: الألبسة واللغة والمسكن والشعائر... إلخ[٣٦].

وبورديو يريد هدم الحدود الفاصلة بين علم الأناسة (الإثنولوجيا) وعلم الاجتماع (السوسيولوجيا). فالتفريق بين هذين العلمين هو نتاج الفترة الاستعمارية، ولم يعد له أي مبرر وجود الشيء الذي حاول تنبيه الأثنولوجيا بالمجتمع الذي يدرسه، نقصد تأثير العلاقة الخارجية في الموضوع المدروس والمادة المدروسة. كان عالم الإثنولوجيا البنيوي قد أهمل هذه العلاقة تماما (المقصود ليفي ستراوس)، فعندما درس بورديو المجتمع الجزائري (عاداته، طقوسه، علاقات القرابة والزواج، وارتكاز كل ذلك على مفهوم العرض أو الشرف) اكتشف أنه مشروط بوضعه كمراقب خارجي بكل سلبياته وإيجابياته. ينبغي أخذ العلم بذلك وعدم إخفائه كما فعل ليفي ستراوس، الذي اكتفى بالقول: أنا مراقب خارجي وسأظل خارجيا، ولن أطبق قيم العقلية المركزية الأوروبية على «حضارات» الآخرين، لأن الآخرين مختلفون جذريا! هذا موقف ينطوي ضمنيا على عرقية مركزية واضحة.

لهذا السبب اتهم جاك دريدا أيضا ليفي ستراوس بالعرقية المركزية، وقد رد عليه ليفي ستراوس قائلا: «إن هؤلاء الذين يرددون هذا الكلام يريدون منعنا من القيام بأي محاولة لفهم الثقافات الأخرى، وهم بالتالي يسقطون في ظلامية جديدة. ذلك أن الفهم يتطلب حدا أدنى من التماثل والهوية»[٣٧].

كان ليفي ستراوس، قد حقق تقدما كبيرا في فهم ودراسة الفكر الأسطوري لمجتمعات عديدة ومختلفة، ولكن رفضه للعرقية المركزية أدى به إلى رفض تحليل موقعه بالذات كدارس لمجتمع آخر. إنه يحترم الثقافات الأخرى ويعجب بها، ولكن هذا الاحترام يقوده إلى تأييد المسافة بينه وبينها، فهو شيء وهي شيء آخر، ما دامت لم تتخذ خط تطور الغرب نفسه. يمكن القول بأن ليفي ستراوس قد وقع في نوع من العرقية المركزية البورجوازية أيضا. هناك نوعان من العرقية المركزية: الأول عرقية مركزية ثقافية (أي الغرب مركز الحضارة البشرية والثقافات الأخرى وحشية وبدائية)، والثاني عرقية مركزية طبقية، وهذا النوع الثاني نجده

لدى المثقفين البورجوازيين في البلدان المستعمرة سابقا. إنهم هم أيضا ينظرون إلى أبناء شعبهم من الطبقات الشعبية والريفية نظرة استعلائية. وقد لمس ذلك بورديو عندما كان يقوم بأبحاثه الميدانية في الجزائر، حيث اشتغل مع بعض هؤلاء المثقفين. إنهم يحملون عقلية المستعمر المهيمن من دون أن يدروا ذلك، أومن دون أن يعوه[٣٨].

لقد عاش بورديو كل هذه التجارب من «إثنولوجية» و «سوسيولوجية»، وعندما عاد إلى فرنسا راح يدرس نظام الزواج وعلاقات القرابة في منطقته الأصلية «البيرنيه» (جنوب غرب فرنسا)، وهنا راح يشرح ذاته الخاصة، يشرح مجتمعه الذي ولد فيه، ولم يعد مراقبا خارجيا. واكتشف أن الخطر على نجاح دراسته عندما كان في الجزائر كان يكمن في زيادة المسافة، وان الخطر هنا في مجتمعه يكمن في نقص المسافة، أو انعدام المسافة مع المجتمع المدروس. هكذا نلاحظ معه أن هناك سلبيات وإيجابيات بحسب موقع الدارس من الظواهر المدروسة: ينبغي ألا يكون بعيدا جدا، ولا قريبا جدا! وذلك لكي يرى الأشياء على حقيقتها الموضوعية. وينبغي أن يقوم باستمرار بعودة نقدية على ذاته، وعلى أدواته ومنهجياته. لو أن عالم الإثنولوجيا البنيوي قد حلل موقعه العلمي كمراقب خارجي واعترف به منذ البداية، لاكتشف أن ما يدعوه بـ «الفكر المتوحش» ليس شيئا آخر إلا منطق فكره الخاص بالذات في الحالة العملية، أي في حالة الممارسة اليومية العفوية. إن الغربيين بدائيون أيضا على طريقتهم الخاصة، عندما يتحدثون في مختلف شؤون الحياة والذوق، وعما يحبون ويكرهون... إلخ. وقد حاول في كتابه «الحس العملي» أو «الخبرة العملية» أن يدرس آلية اشتغال ووظائفية هذا النوع من الفكر العملي المباشر والعفوي، أي فكر الفلاحين الجزائريين مثلا عندما يدبرون «مؤامرة زواج» «صفقة زواج»، ليس فقط بين شخصين (رجل وامرأة)، وإنما أيضا بين عائلتين وعشيرتين بكل ما يتضمنه ذلك من موازين قوى وتحالفات ومصالح... إلخ. وقد درس الشيء نفسه في منطقته بالذات (منطقة البيرن في جبال البيرنيه) واكتشف أشياء مشابهة ومماثلة: [أذكر أن أمي قد قالت لي يوما: إن العائلة الفلانية (x) قد أصبحت تنسب نفسها إلى العائلة (y) منذ أن أصبح أحد أبناء هذه الأخيرة مهندسا في البوليتكنيك! وراحوا يحلمون بتزويج ابنتهم منه. إن الفلاحين «البدائيين» ليسوا أغبياء، وإنما هم بارعون «شطار» يعرفون ما يريدون، وهم يستخدمون لحل مشاكلهم منطقا عمليا أو منطق ما قبل المنطق. وهذا ما نفعله نحن بالذات هنا في باريس الحضارة في أفعالنا اليومية وأحاديثنا الشخصية العفوية: أي عندما نتوقف عن التفكير المنطقي الحسابي والمنهجي المنظم، الذي نستخدمه فقط في أثناء البحث والتحليل، أو عندما نراقب أنفسنا كمثقفين جادين أو مسؤولين. هذا ما نفعله عندما نتحدث في السياسة مثلا، أو عندما نطلق أحكاما معينة على العرب أو الإسلام أو المغاربة أو السود أو الشيوعيين أو السوفييت!][٣٩].

١ - ١٠ : نقد ثنائية السلطة/المعرفة

أما فيما يخص السلطة ودراستها فنلاحظ أن هناك تقاربا بين بورديو فوكو، فكلاهما يركز على مفهوم السلطة السائدة في مجال معين أو في حقل محدد، إذا ما استخدمنا تعبيرهما الخاص بالذات. هذا من جهة، وأما من جهة أخرى فقد وجدنا مكسيم رودنسون يهاجم مفهوم فوكو للسلطة ويعيب عليه إهماله للمسألة الأساسية: أي مسألة تحليل السلطة المركزية وليس فقط السلطات الموضعية والمحلية.

إن موقف بورديو، في الخطوط العريضة، قريب إلى حد كبير من موقف فوكو، ومع ذلك فهو مختلف جدا! لقد حاول أن يحلل منطق وآلية ما كان قد أسماه بالسلطة الرمزية، أي السلطة التي تمارس نفسها على هيئة القدرة التي تجعلنا نرى أو نفهم أو نعرف أو نؤمن. وانطلاقا من ذلك يمكننا أن نتحدث عن السلطة النظرية أو سلطة النظرية إذا ما أعطينا لكلمة النظرية معناها الإبشمولوجي الأصلي: أي برنامج الرؤية.

كيف تمارس هذه السلطة دورها؟ كيف تمارس عملها؟ هنا ندخل في منطقة المعرفة/ الجهل، أو المعرفة/ واللامعرفة. ذلك أن السلطة الرمزية هي سلطة تعسفية في الأصل، ولكن الناس يعترفون بشرعيتها لأنهم يجهلون أنها تعسفية. وهذه هي الحال فيما يخص نظام الشهادات مثلا في المجتمع الغربي الحالي. فإذا قال قائل عنه بأن ذلك يمثل علاقة معنى محتجبة وراء حقيقتها كعلاقة قوة، فإن ذلك يعني الإيحاء بأن المهيمَن عليهم يساهمون في ترسيخ نظام الهيمنة عن طريق الاعتراف به. هل ينبغي أن نستنتج من ذلك القول بأن المهيمَن عليهم متواطئون مع عبوديتهم، وأن السلطة تجيء من تحت؟ ربما. في الواقع أن السلطة ليست شيئا متموضعا في مكان ما، وإنما هي عبارة عن نظام من العلاقات المتشابكة، ونجد أن كل بنية العالم الاجتماعي (المجتمع) ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار من أجل فهم آليات الهيمنة والسيطرة.

لقد تحدث الفلاسفة كثيرا في أثناء سني السبعينيات عن السلطة، وراحوا يتساءلون: هل السلطة تأتي من فوق؟ أو من تحت؟ يبدو لبورديو هذا السؤال ساذجا جدا. في الواقع أنه لا توجد سلطة واحدة، وإنما سلطات عديدة، وكل سلطة مرتبطة ومتضامنة مع الفضاء الذي تمارس نفسها داخله. أن ندرس سلطة معينة فهذا يعني أن ندرس بشكل رئيسي الشروط الاجتماعية لإمكان ممارسة هذه السلطة، وإذن لكي نعرف ماذا تعني السلطة الجامعية أو سلطة أستاذ الجامعة فإنه ينبغي أن ندرس هذا الفضاء الذي تتشكل فيه هذه السلطة، وتتشكل فيه في الوقت ذاته شروط ممارستها. تبدو لبورديو دراسة السلطة الجامعية ممتعة جدا: لأنها أبعد ما تكون عن السلطة التي تمارس دورها في الحقل الاقتصادي مثلا. وإذا كان هناك من سلطة ترغب في أن تقول بأنها آتية من تحت، فإنها السلطة الجامعية. هذا الكلام خاطئ دائما، ولكنه هنا أقل خطأ منه في أي مكان آخر.

إن السلطة الجامعية هي سلطة تمارس دورها من خلال العلاقة التي تربط بين «المهيمنين» و«المهيمَن عليهم»، ولا يستطيع المسيطرون ممارسة هيبتهم وسلطتهم إلا عن طريق حصول تواطؤ (غالبا ما يكون لاواعيا تماما) من قبل المسيطر عليهم. والسؤال المهم المطروح هنا هو: كيف يحصل التواطؤ؟ لقد حاول بورديو أن يجيب عنه من جملة أسئلة أخرى عندما درس الموضوع بالتفصيل في كتابه «الإنسان الأكاديمي»، ليضيف أن السلطة المركزية التي يتحدث عنها رودنسون ليست إلا تجميعا (أو محصلة) لكل السلطات الفرعية المنتشرة في مختلف نواحي الجسد الاجتماعي.

١ - ١١ : نقد الاتجاهات الأدبية

في كتابه الصادر عام (١٩٨٢) بعنوان: «ماذا يريد الكلام أن يقول»، نلاحظ أن بورديو ينتقد بشكل مضيء ومقنع تصور كل من سوسير وشومسكي لمفهومي اللغة والكلام (أو بحسب مصطلح شومسكي: الكفاءة ،الاستخدام)[42]. فشومسكي يغمط مسألة الشروط الاقتصادية والاجتماعية التي تتم ضمنها عملية اكتساب الكفاءة اللغوية الشرعية (أي القدرة على امتلاك القواعد النحوية والتركيبية للغة السائدة). ثم يذهب في الكتاب نفسه أيضا إلى أن كل قدر الألسنيات الحديثة قد حسم عن طريق الانقلاب الافتتاحي (التدشيني) الأول الذي فصل به سوسير نهائيا بين «الألسنيات الداخلية» و «الألسنيات الخارجية»، وعدَّ الأولى وحدها جديرة بأن تتخذ علم الألسنيات. أما الثانية فتخص، بحسب رأيه، أشياء خارجية على علم اللغة، كالمجتمع والاقتصاد... إلخ، وبالتالي فلا علاقة لسوسير بها.

وانتقاده هذا ينطبق حرفيا على النقد الأدبي البنيوي المعاصر، الذي يزعم بأنه يهتم بالنص كشيء مستقل عن كل العوامل الخارجية. ليس التحليل البنيوي إلا تنويعا محدثا (أو تحديثيا) على التحليل الداخلي القديم، الذي يعالج النص كشيء مستقل لا علاقة له بالخارج. وليس من قبيل المصادفة أن كل المفسرين الدينيين الذين تعاطوا دائما طريقة التحليل الداخلي للنصوص يقبلون البنيوية بكل سهولة وترحاب، في حين أنهم ينفرون من المناهج الأخرى. يعتقد بورديو فيما يخصه أنه ينبغي الربط بين الفضاء الذي تتموضع فيه النصوص والفضاء الذي يتموضع فيه المنتجون (أي الكتّاب).

ينبغي أن تحدث القطيعة مع القراءة الداخلية للنصوص المعزولة بعضها عن بعض كتلك التي حصلت لقصيدة «القطط» لبودلير من قبل جاكبسون وليفي ستراوس، التي حللت بشكل رديء جدا. ينبغي أيضا أن نحدث القطيعة مع منهجية لانسون أو فرويد التي تربط بشكل مباشر بين النص الأدبي وكاتبه، وتعتبر النص مجرد انعكاس لحياة الكاتب الشخصية. الشيء الذي يدعو إليه بورديو يتمثل في الكشف عن بنية العلاقات بين نصوص فترة زمنية محددة (وليس نصا معزولا بمفرده) وبين بنية المواقع التي يحتلها مؤلفوها داخل الحقل الأدبي. أما رأي بورديو في

منهجية جولدمان في التحليل الاجتماعي الماركسي للنصوص الأدبية، فهي في تمثل تحليل الأعمال الأدبية إحدى الصيغ الملطفة للمنهجية الاختزالية السوسيولوجية. وهي تشكل بلا ريب تقدما بالقياس إلى المرحلة الجدانوفية السابقة. ولكنها مع ذلك تبقى غير كافية في توضيح العلائق بين الأدب والمجتمع، ذلك أن هذه الطريقة (أو المنهجية) تقيم علاقات مباغتة وفجة بين المنتوجات الثقافية وموقع منتجيها داخل الفضاء الاجتماعي (أي داخل المجتمع)، وعندئذ يطلقون أحكاما من نوع: هذه الرواية تعبير عبر البورجوازية الصاعدة، أو الطبقة العاملة، أو البورجوازية الصغيرة... إلخ. إن منهجية جولدمان تقع هي أيضا في نوع من الاختزالية واختصار المراحل، إذ تقيم علاقات بين شيئين متباعدين جدا. وتطمس عندئذ (أو تغمط) مسألة الوساطة أو الوسيط المهمة جدا. يقصد بذلك وساطة الفضاء الخصوصي الذي ينتج الكتاب من داخله، وهذا ما يدعوه بفضاء الإنتاج الثقافي. صحيح أن هذا الفضاء المصغر يقع داخل الفضاء الاجتماعي الأكبر، ولكن تبقى له خصوصيته ورهاناته الذاتية وصراعاته ومنافساته. ويمكن أن تكون مصالحه مختلفة عن مصالح العالم الخارجي. ينبغي تحليله لذاته وبذاته قبل أن نربط بشكل عمومي وغامض بين الأعمال الأدبية والتشكيلات الاجتماعية الكبرى.

يعيب البعض على بورديو (ريمون آرون مثلا) أنه يريد تفسير كل شيء عن طريق منهجية علم الاجتماع. بل لقد وصل به الأمر - حسب ريمون آرون - إلى حد تحليل كانط سوسيولوجيًا! والسؤال: هل هناك من حدود معينة للمنهجية السوسيولوجية التي يمارسها؟ ولماذا لا يولي «الموهبة» أو «العبقرية» أهمية كبرى في تحليلاته؟ هل هي شيء غير موجود، أو ليس له معنى؟ هكذا نلتقي مرة أخرى ومن طريق آخر بتلك المسألة المزمنة: مسألة الحتمية والحرية ... وبورديو يجيب بأنه: عندما يكون المرء عالم اجتماع: فإن عليه أن يدفع بالتفسير السوسيولوجي حتى مداه الأقصى ويصل إلى أبعد نقطة ممكنة. وما ينجو منه أو يستعصي عليه يبقى شيئا مهما ومثيرا للبحث. يعتقد بورديو أن مفاهيم من نوع «الموهبة» و «العبقرية» هي مفاهيم قبلية لم تبلور بعد، إنها مفاهيم قبلية مشكلة تاريخيا، وهي تشكل حجر عثرة يمنعنا من فهم الأثر الخاص بـ «المبدع الخلاق». وهو يقصد بذلك أنها تمنعنا من أن نفهم أن المبدع مهيأ سلفا عن طريق أوضاعه الاجتماعية الخاصة والملائمة لكي يحتل موقعا محددا داخل حقل ما، وغالبا ما يكون هذا الموقع غامضا في البداية. لقد حاول أن يبرهن على ذلك من خلال دراسته لحالة فلوبير وهايدجر. ليس المهم البحث عن سر العبقرية، وإنما المهم هو أن نفهم كيف تتم عملية إنتاج الأعمال الأدبية وإنتاج الفنان (ولادة الفنان) كتصنيم أو كشيء مخلوق لكي يعتقد به ويعظم ويبجل. ثم ينبغي أن نتساءل كيف أن العمل الفني والأدبي العالي يتولد بوساطة لقاء استثنائي بين مجموعة من الملكات والاستعدادات، والموقع الاجتماعي المحدد الذي يحتله الفنان داخل الفضاء الأدبي أو الفني.

ثانيا: فيما يخص عالمنا العربي

يقول البعض ما يلي: بما أن العلوم الإنسانية والاجتماعية قد ولدت في الغرب فهي مرتبطة بتطور مجتمعات الغرب الصناعية، وبالتالي فإنها لا تنطبق على المجتمعات العربية والإسلامية. يعتقد بورديو أنه ينبغي ألا نفرق بين علم غربي وعلم شرقي، كما أنه كان من الخطأ في الماضي التفريق بين علم بورجوازي وعلم بروليتاري، هناك علم بشري واحد للجميع. وإذا ما ألقينا نظرة على بورديو في العلوم الاجتماعية فإننا نرى أنه يطبق منهجيات التحليل ومجموعة المفاهيم نفسها التي كان قد بلورها استنادا إلى أبحاثه الميدانية في منطقة القبائل الجزائرية أو في منطقة «البيرن الفرنسية»، ويطبقها على دراسة بنية العائلة في اليونان والهند وفرنسا معا. كان دوركهايم يقول: «أساس علم الاجتماع هو المنهجية المقارنة»، ذلك أن المنهجية العلمية إذا ما طبقت على عوالم مختلفة ومجتمعات متعددة تؤدي إلى إنتاج أدوات ومصطلحات علمية كونية أو شمولية أكثر فأكثر. نعتقد على سبيل المثال لا الحصر أن مفهوم رأس المال الرمزي الذي كان قد بلوره يتيح لنا أن نفهم ظواهر السلطة في مجتمعات ما قبل رأس المال كظاهرة التسويق ورعاية الشركة والعلاقات العامة... إلخ، ولا نملك إلا أن نقول بكل أسف إن رفضها يمثل شكلا من أشكال التقوقع والمحافظة الثقافية التي تتمترس أو تختبئ وراء ذريعة الدفاع عن الهوية والخصوصية.

ينبغي على المجتمعات المستعمرة سابقا أن تتجاوز عقدها وتنخرط في عملية البحث والكشف، على الرغم من كل الصعوبات والتحديات. يبدو لنا أن هناك صعوبة خاصة تعيق تحررها الثقافي، وتحول دون دخولها في عصر التنوير، ألا وهي: إن كل جهد يبذل من أجل علمنة الثقافة واللغة يبدو كأنه خيانة للتراث، خصوصا إذا كانت هذه الثقافة وتلك اللغة مطبوعتين بعمق بالطابع الديني. نقول ذلك وخصوصا أن ظاهرة العلمنة والتحرر العقلاني آتية من القوى المستعمرة سابقا أو المهيمنة حاليا. هذا وضع تناقضي صعب ينبغي على مثقفي العالم العربي مواجهته بكل رهاناته وتحدياته. فالمناقشة حول العلمنة لا تزال مستمرة، وهي تمثل إحدى المشاكل الضخمة بالنسبة إلى المجتمعات العربية الإسلامية. نجد المستشرقين والمسلمين يقولون بأن الإسلام يرفض العلمنة بطبيعته، في حين أن المسيحية تقبل بها منذ البداية. ولكننا نجد مفكرين آخرين يرفضون هذا التفسير ويقولون بأن المجتمع هو الذي يصوغ وجه الدين لا العكس، وأن المسألة هي عبارة عن مسألة تفاوت زمني تاريخي بين المجتمعات العربية والمجتمعات الغربية. يعتقد بورديو أن المسألة مطروحة بشكل سيئ جدا، فالتيار الغالب يجهل التفريق بين الرسالة الدينية وظاهرة الدين التاريخي، الذي هو عبارة عن منتوج اللقاء الحاصل بين هذه الرسالة والبنى العقلية المحكومة بالبنى الاقتصادية والاجتماعية. وكان قد حاول حل هذه المشكلة في الفصل المخصص للإسلام في كتابه «سوسيولوجيا الجزائر».

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

حسن الأخذ والتناص بين القديم والحديث دراسة تطبيقية عن أشكال التفاعلات النصية في رواية «شجيرة حناء وقمر»

أ. عبدالله آيت الأعشير(*)

أولا: تقديم

قبل الإقدام على الكشف والإبانة عن نُضَح ألفاظ وتعابير السابقين في جسد رواية «شجيرة حناء وقمر»[1] لأحمد التوفيق، أؤكد أن عملية الكشف عن النُّطف، وتحديد المضغ، والغوص على الدّرر المستفرهة التي أمدت نص الرواية بماء الحياة، موضوع قديم جديد، خاض فيه الخائضون، وغاص فيه الغواصون، قدامى ومحدثين، عربا وأجانب، وذهبوا فيه كل مذهب حتى انتهوا إلى أن تداخل النصوص وتعالقها.

واستفادة لاحقها من سابقها، أصبح حتمية لا غنى عنها، بل إن الاقتداء والأخذ أضحيا قانونا لا مناص منه بالنسبة إلى المفنّ المفْلِق، والأديب البليغ، الذي تتضح كتاباته بآثار قراءاته، وتصبح صدى لها، بها يذوب لسانه، ومن حوضها الثر يستقره مواد لطبعه، حتى يبلغ الغاية في إجادة وجوه الخطاب، وطرائق البلاغة.

(*) باحث وكاتب مغربي.

وإذا كنت أعي أن الخوض في هذا الباب يجشمني عرق القرب، ويلزمني أن أبذل النكيثة في الغوص على الدرر واللآلئ، لأنه موضوع «لا ينهض به إلا الناقد البصير، والعالم المبرز، وليس كل من تعرض له أدركه، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله»[٢]، فإني توخيت . ما استطعت . الإحاطة علما بالنصوص المستقى منها، ودققت النبش والتفتيش وتثبتُّ وميّزت، ووقفت عند كل شاهد، أقارنه بمثيله، وإن كان خفيا عدل به عن نوعه وصنفه، أنعم فيه الفكر قصد التبين والتثبت، أسوة بالرصفاء الأثبات، الذين ارتقوا ذروة البحث والتقصي، ففازوا بقِدْح الفصل، وتفرّدوا تفرد من لا يشق غباره، ومخروا عباب يم أمات المصادر حتى تمكنوا من الإمساك بقواصي الأخذ والاتباع، فضلا عن الأطراف والنواحي، غايتهم الأخذ بنواصي كل ضرب من ضروب الاقتداء، استمدادا كان أو استعانة، حلا أو تلميحا، قلبا أو اقتباسا وتضمينا، تواردا أو اشتراكا، مسخا أو نسخا وسلخا وسرقا.

ثانيا: نظرة العرب القدامى إلى صناعة النص الأدبي

الناظر إلى ما حَبّره النقاد العرب القدامى في شأن ضروب تجويد الكلام شعرا ونثرا، يتبين أن العمدة في الإجازة، والحذاقة في الصنعة ينهضان على الأسس الآتية:

أ- طور الاستعداد النفسي

وهي مرحلة تنهض على مجموعة من الأوصاف النفسية والمرتكزات الذاتية، كالفطنة والطبع. وقد ألمح إليهما ابن طباطبا العلوي في قوله: «فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض»[٣]، أما ابن وهب الكاتب فقد أوضح في باب قسمة العقل «أن العقل الموهوب أصل. والموهوب القطب. والمكسوب فرع، والأشياء بأصولها. فإذا صح الأصل صح الفرع، وإذا فسد فسد. وقد شبه بعض القدماء العقل الغريزي بالبدن، وشبه المكتسب بالغذاء، فكما أن الغذاء لا يستحيل إلا بالأبدان المحيلة له، ولا ينفع إلا بحصوله فيها، فكذلك العقل المستفاد بالأدب لا يتم إلا بالعقل الغريزي»[٤]. أما ابن أبي الإصبع المصري فقد لخص وصية أبي تمام للبحتري منتهيا إلى أهمية هذه المرحلة قائلا: «يجب على من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء النثر، أن يعتبر أولا نفسه... فإذا وجد لها فطرة سليمة، وجبلة موزونة، وذكاء وقادا، وخاطرا سمحا، وفكرا ثاقبا، وفهما سريعا، وبصيرة مبصرة، وألمعية مهذبة، وقوة حافظة، وقدرة حاكية، وهمة عالية، ولهجة فصيحة، وفطنة صحيحة... كان موصوفا في هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفسية»[٥].

ب - طور الاشتغال العقلي

ويلخصه ابن طباطبا العلوي قائلا: «وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه، فمن تعصت عليه أداة من أدواته، لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبان الخلل في ما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة، فمنها: التوسع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم، ومناقبهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر، والتصرف في معانيه، في كل فن قالته العرب فيه، وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها...»[6]، وهي الأدوات نفسها التي يدندن حولها ابن وهب الكاتب في الاستعداد لصناعة الشعر والنثر حيث يقول: «ويحتاج الشاعر إلى تعلم العروض ليكون معيارا له على قوله، وميزانا على ظنه، والنحو ليصلح به من لسانه ويقيم به إعرابه، والنسب، وأيام العرب والناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب فيذكرهما... وأن يروي الشعر ليعرف مسالك الشعراء ومذاهبهم وتصرفهم فيحتذي مناهجهم ويسلك سبيلهم. فإذا لم يجتمع له هذا، فليس ينبغي أن يتعرض لقول الشعر... فكل ما ذكرناه هناك من أوصاف حد الشعر، فاستعمله في الخطابة والترسل»[7]. أما ابن قتيبة، فإنه لما رأى كتّاب أهل زمانه قد أعفوا أنفسهم من كد النظر، وبلغوا البغية بغير آلة محصلة، فقد نصح لهم بالنظر في علوم الأرضين، وعلوم الفقه والحديث، مع دراسة أخبار الناس بلَهَ اشتراط جودة القريحة، مؤكدا أن «لا بد له... من دراسة أخبار الناس، وتحفظ عيون الحديث، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلا إذا كتب، ويصل بها كلامه إذا حاور. ومدار الأمر على القطب، وهو العقل وجودة القريحة»[8]. مما تقدم يتضح أن اكتمال الآلة في العلم بأسرار صناعة النصوص تنهض على الحفظ إذ «لا بد من كثرة الحفظ، لمن يروم تعلم اللسان العربي، وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ. فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي، أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابئ، تكون ملكته أجود وأعلى مقاما ورتبة في البلاغة... وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع، تكون جودة الاستعمال»[9]. من أجل ذلك لم يخف الشعراء النحارير كثرة محفوظهم، فهذا أبو نواس يؤكد أنه: «ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب غير الخنساء، فما ظنك بالرجال؟ وإني لأروي مائة أرجوزة لا تعرف»[10]، وإلى مثل هذا يشير أبو تمام قائلا: «لم أنظم شعرا حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال»[11]. وقد مال أغلب العارفين بأسرار الكتابة إلى اشتراط نسيان ذلك المحفوظ حتى تزول رسومه، وتتكيف القريحة به فتنشأ عن التكيف والنسيان ملكة ينسج على منوالها، كما هو الشأن بالنسبة إلى خالد بن عبدالله القسري الذي حفّظه أبوه ألف خطبة وأمره أن يتناساها.

ج - طور الصناعة النصية

إنه طور بناء الأثر الأدبي كممارسة فنية تفرض معاودة النظر في الكلام لتهذيبه وتنقيحه حتى يخرج في أبهى حلة، من خلال تصيد الألفاظ الفصيحة المؤتلفة الصالحة للمعاني الأبكار، وتعشق الكلمات الغرر التي لم تفضها ألسنة اللاسنين، مع تجنب خلطها بالغرر المبتذلة التي لاكتها الألسنة، وبذلك يدرك الصانع الغاية ويبلغ المراد، فتنفق بضاعته التي اجتلب لها فرائد الألفاظ وقلائد المعاني، واقتنص لها الطرائد النافرة المكتنزة في أسلوب عربي مبين، قد أخذ من الفصاحة بزمامها، وأحاط من البلاغة بجوانبها، من دون تكلف أو تعسف، وإنما هي ألفاظ وتراكيب محكمة النظم والترصيف، لم تخرج من جدران المخيلة إلا بعد أن اكتوى بها اكتواء العاشق بمعشوقته، يرمي منها التراب، ويستبقي التبر، ثم يهجر الصدفة للإمساك باللؤلؤة. وقد عبر شعراء الحوليات عن هذا الميل، حينما دعوا إلى كتابة العمل الأدبي، وتركه حولا كاملا، لتتم العودة إليه من أجل التغيير والتحوير والإضافة والتحكيك حتى يخرج العمل الفني تام الخلقة لم تترك فيه أي بارقة تنبئ عن مطعن أو مغمز. قال الحطيئة: «خير الشعر الحولي المنقح. وقال البعيث الشاعر، وكان أخطب الناس: إني والله ما أرسل الكلام قضيبا خشبيا، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك»[12]. وقد مثلت هذه الطريقة في السبك والتنسيق المذهب الفني الذي دعا إليه العلماء بأسرار خواص تركيب الكلام، حتى أنهم دعوا الأدباء إلى اختيار أوقات النشاط، وساعات الفراغ والخلوة كإطار زماني يساعد على استكمال أدوات الفعل الإبداعي، رغبة في تقوية الاستعداد النفسي لعملية ولادة النص، ولا سيما أثناء الليل حين تهدأ الأصوات، وتهمد الحركات، وتنتعش العقول، وتنشط الأبدان فيصدر عنها كلام يفيض بالإحساسات الصادقة، لأنه ابن نفسه وملكته وذوب روحه مع مراعاة ما يجب لكل مقام من المقال، والابتعاد عن تأليف الكلام عند الضجر. وقد عبر بشر بن المعتمر في صحيفته المشهورة عن هذه الرؤية المتكاملة لمدلول الصنعة الفنية الذي يشمل كل المكونات البنيوية للنص الأدبي، في قوله: «خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف، ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا، وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه. وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما... والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من

المقال. وكذلك اللفظ العامي والخاصي... فإن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعصى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك وسواد ليلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عِرْق»[13]. إذا كانت لك طبيعة في كتابة النثر والشعر، ولم يطرأ لك عارض يفسد قريحتك كما هو الشأن بالنسبة إلى الشاعر الفرزدق حين قال: «أنا عند الناس أشعر الناس وربما مرت علي ساعة ونزع ضرس أهون علي من أن أقول بيتا واحدا»[14]. وفي باب صناعة الشعر يورد ابن طباطبا العلوي مجموعة من المعايير الدالة على الصنعة الفنية، منها: مشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة توافقهما مع القافية، مناسبة الوزن، التوفيق بين الأبيات بسلك ناظم لها حيث يوضع كل بيت مع أخيه، التهذيب والتنقيح من خلال توخي الألفاظ السهلة النقية في مواطنها، والألفاظ الغريبة مع جاراتها، الصدق مع الالتزام بمخاطبة كل طبقة بما يشاكلها، حسن التخلص من غرض إلى آخر، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله. وفي ذلك يقول: «فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه... فإذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها وسلكا جامعا لما تشتت منها... ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية... ويكون... كناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق، ولا يشين عقوده، بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها، وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح، لم يخلط به الحضري المولد، وإذا أتى بلفظة غريبة أتبعها أخواتها... ويتعمد الصدق... ويحضر لبه عند كل مخاطبة ووصف، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات... ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها... ويسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم، وتصرفهم في مكاتباتهم، فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة... بألطف تخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله»[15]. وهي القواعد نفسها التي يدندن حولها ابن أبي الإصبع، حيث عقد بابا في تحرير التحبير سماه باب التهذيب والتأديب، وضع فيه للأديب قواعد لصناعة الكلام قائلا: «التهذيب عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله لينقح، ويتنبه منه إلى ما مر على الناثر أو الشاعر حين يكون مستغرق الفكر في العمل، فيغير منه ما يجب تغييره، ويحذف ما ينبغي حذفه، ويصلح ما يتعين إصلاحه»[16]، حتى ينقى الكلام من كدر العي، ويقوم من أود التهدم، لذلك يدعو الراغب في الإجادة الفنية أن يحصل المعنى قبل اللفظ، وأن يروم اللفظ الجزل، دون الرذل، والسهل دون الصعب، والعذب دون المستكره، وأن يلتزم حسن التأليف والتنسيق، ويجود المطالع والتخلص والمقاطع[17]، بل إنه يدعو الأديب

المغْلق الا يجعل «كل الكلام شريفا عاليا، ولا وضيعا نازلا، بل فصله تفصيل العقود، فإن العِقْد إذا كان كله نفيسا، لا يظهر حسن فرائده، ولا يبين كمال واسطته... فإن الكلام إذا كان منوعا افتتت الأسماع فيه، ولم يلحق النفوس ملل من ألفاظه ومعانيه»(١٨).

ثالثا: نظرات النقاد العرب القدامى إلى إشكالية الأخذ والاستمداد من نصوص السابقين

يشهد تاريخ الإبداع الأدبي أن تعامل النقاد العرب القدامى مع الأثر الأدبي، كانت تحركه نزعة الإضافة الجديدة والتميز، غير أن تراكم التجارب السابقة، وسبق المتقدمين إلى طرق المعاني الأبكار، فرض على المتأخرين النظر إلى المعاني الإنسانية المشتركة، يقتبسون منها شعلات تؤجج عواطفهم، ويفزعون إليها لتفجير هاجس الإبداع والتميز، أملا في حيازة قصب السبق إلى معنى بديع مخترع، أو وصف رائق مبتدع، ينفي عنهم وصمة السرق لأن أغلب العارفين بضروب الصناعة الكلامية نظروا إلى التداخلات النصية تحت مظلة السرقات الأدبية، حيث أورد صاحب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده بابا سماه «باب السرقات وما شاكلها»، كما عنون صاحب عيار الشعر بابا بميسم: «المعاني المشتركة: السرقات» وخصص صاحب أسرار البلاغة فصلا «في الاتفاق في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة»، أما صاحب التلخيص في علوم البلاغة فقد أنهى الكتاب بخاتمة «في السرقات الشعرية وما يتصل بها وغير ذلك»، وأفرد صاحب الصناعتين الباب السادس لـ «حسن الأخذ وحل المنظوم». أما صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه فنقرأ له العنوان الآتي: «السرقات الشعرية»، بينما أسرف صاحب المثل السائر في إيراد ضروب السرق في القسم الثالث من الكتاب شأنه في ذلك شأن ابن أبي طاهر الذي خرج سرقات أبي تمام تخريجا فيه الكثير من المغالاة وعدم الإنصاف، الأمر الذي جعل صاحب الموازنة في إطار الحديث عن سرقات أبي تمام يصحح ما ادعاه ابن أبي طاهر مسروقا لديه، كما صحح في إطار الحديث عن سرقات البحتري ما ادعاه أبو الضياء بشر بن تميم أن البحتري قد سرقه من أبي تمام، وليس بسرق عند التثبت والتحقيق.

وإذا كنت لا أقصد أن أفصل القول في قضية السرقات الأدبية ومتعلقاتها، فإن النظر إلى ما أورده النحارير المخضرمون من المصطلحات النقدية التي تعوم في محيط من الأخذ والاستمداد من السابقين، يؤكد ولا شك أن النقاد العرب القدامى، لم ينظروا بعين السخط إلى هذه الإشكالية، وإنما نظروا إليها نظرة منصفة «لا تتنكر لهذا الأخذ والاحتذاء، بل تعده عملا فنيا لا غنى للأديب عنه شاعرا كان أو ناثرا، وإن سموه في أكثر دراساتهم سرقة»(١٩)، ولا سيما بالنسبة إلى المعاني المشتركة التي يتصرف فيها الأدباء تصرف اقتدار يبرزها في أبهى الحلل، وإن ظلت مشدودة فكريا ورؤية إلى معنى مطروق سبق إليه، إذ: «لا غنى بالكاتب

البليغ، ولا الشاعر المفلق، ولا الخطيب المصقع عن الاقتداء بالأولين والاقتباس من المتقدمين، واحتذاء مثال السابقين، في ما اخترعوه من معانيهم وسلكوه من طرقهم. كان الأول لم يترك للآخر شيئا. فمن أخذ منهم معنى بلفظه فقد سرقه، ومن أخذه ببعض لفظه فقد سلخه، ومن أخذه عاريا وكساه من عنده لفظا فهو أحق به ممن أخذه منه»[20]، وهو الحكم نفسه الذي أورده ابن رشيق القيرواني منسوبا إلى بعض الحذاق قائلا: «وقال بعض الحذاق من المتأخرين: من أخذ معنى بلفظه كما هو، كان سارقا، فإن غير بعض اللفظ، كان سالخا، فإن غير بعض المعنى ليخفيه أو قلبه عن وجهه كان ذلك دليل حذقه»[21]، وهو الشرط ذاته الذي اشترطه ابن طباطبا العلوي في تناول المعاني المشتركة، مؤكدا أن الشاعر إذا تناول «المعاني التي قد سبق إليها، فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب، بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه»[22]، ولا سيما إذا أحسن دمج النصوص السابقة في النص المنتج، وأخفى دبيبه بكيفية مبتكرة تستر ظلال الأثر المستمدة منه حتى يلتبس الأمر في الصياغة، ولا يتفطن إلى ما فيه من الاستمداد والأخذ، إلا الجهابذة الحذاق بأسرار الصناعة الكلامية الذين أعرقوا في البحث عن أصول الكلام، وقلبوا ظهره لبطنه، وبطنه لظهره، أملا في العثور على رسوم كلام السابقين التي يجتهد المبدعون في إخفائها من خلال اعتماد إستراتيجيات قلب المعاني أو حل الشعر وعقد النثر. من أجل ذلك فإن الأديب الذي ينشد الإجادة في القول بحاجة أثناء تناول المعاني المشتركة «إلى إلطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها. فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه، فإذا وجد معنى لطيفا في تشبيب أو غزل استعمله في المديح، وإن وجده في المديح استعمله في الهجاء... فإن عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذر على من أحسن عكسها واستعمالها في الأبواب التي يحتاج إليها. وإن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام، أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعرا كان أخفى وأحسن، ويكون ذلك كالصائغ الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين، فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه... قيل للعتابي: بماذا قدرت على البلاغة؟ فقال: بحل معقود الكلام، فالشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر محلول»[23]. ولقد تلطف النقاد القدامى. أو على الأقل بعضهم. مع الكتاب والشعراء مرددين أن الاتفاق في عموم الغرض لا يعد سرقة وغصبا، ومن ثمة يجب ألا يتحدث فيه عن سلف وخلف، وألا يفصل فيه بالتفاضل بين المشتركين، لأنه عام متداول بين كل الناس، بله أنه من الأمور التي تدرك بالطبع والجبلة، ولا يحتاج فيها إلى إعمال الفكر واستنباط الرأي، بل إن بعضهم جعل هذا التشارك دليلا على شركة الفكر، ووحدة المخيال العربي، والإنساني، واتفاق الهواجس، مع إمكان التوارد، الذي يصل الخاطرة الأدبية السابقة بالخاطرة الأدبية اللاحقة، في إطار من التسلسل الذي يظل مشدودا إلى

الينابيع المتدفقة التي تضمن لتيار التحول الاستمرار المتجدد الذي لا يفقد الصلة بالأمل، لأن المعاني شيء يتداوله الأدباء، لا غنى للاحقين عن تناولها ممن تقدمهم «والصب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم ـ إذا أخذوها ـ أن يكسوها ألفاظا من عندهم، ويبرزوها في معارض من تاليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها... قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لولا أن الكلام يعاد لنفد». وقال بعضهم: «كل شيء ثنيته قصر إلا الكلام فإنك إذا ثنّيته طال»[24]. يتضح مما سبق أن أغلب النقاد البلاغيين القدامى يخرجون المعاني المشتركة من باب السرق والغصب، لأن الاتفاق في عموم الغرض من الأمـور التي «لا يكون الاشتراك فيه داخلا في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة، لا ترى من به حس يدعي ذلك ويأبى الحكم بأنه لا يدخل في باب الأخذ»[25]. بل إن الذين حققوا النظر وأنعموا التأمل رأوا أن الأخذ والاستمداد عادة قديمة مركوزة في النفوس لا يستغني عنها المتأخر الذي يظل «يستعين بخاطر الآخر، ويستمد من قريحته، ويعتمد على معناه ولفظه... وإن تجاوز ذلك قليلا في الغموض، لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ، ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب، وتغيير المنهاج والترتيب، وتكلفوا جبر ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال، والتصريح في أخرى، والاحتجاج والتعليل، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله»[26]. لهذا السبب لا يرون في الاشتراك في المعاني أي مطعن أو مغمز، ولا سيما إذا كسيت تلك المعاني ألفاظا شائقة رائقة، وعدل بها عن الغرض الذي جاءت فيه، الأمر الذي يبعدها عن الأخذ الظاهر المذموم، لأنه محض سرقة، نسخا كانت أم سلخا ومسخا وغصبا. أما الأخذ غير الظاهر الذي يتشابه فيه المعنيان، أو ينقل أحدهما إلى الآخر، ويجعل نقيضا للأول، أو يضاف إلى المعنى الأول ما يجمله، ويخرجه في أبدع صورة، وأجمل هيئة، فإنها أشكال مقبولة محمودة، ولا سيما إذا أخرجها «حسن التصرف من قبيل الاتباع إلى حيز الإبداع، وكلما كان أشد خفاء كان أقرب إلى القبول، هذا كله إذا علم أن الثاني أخذ من الأول، لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل توارد الخواطر، أي مجيئه على سبيل الاتفاق من غير قصد للأخذ»[27]. كما يحكى عن ابن ميادة أنه أنشد لنفسه:

مُـفـيـدٌ ومِـتْـلافٌ إذا مـا أتَيْـتَـهُ
تَهَلَّلَ واهتَـزَّ اهتـزازَ المُهَنَّدِ

فقيل له أين يذهب بك هذا للحطيئة؟ فقال: الآن علمت أني شاعر، إذ وافقته على قوله من دون أن أسمعه[28]. وكما وقع لأبي هلال العسكري في صفة النساء، حيث وجد المعنى ذاته لدى بعض الأدباء البغداديين، لذلك عزم ألا يحكم على متأخر بالسرق[29]، شأنه في ذلك شأن

القاضي عبدالعزيز الجرجاني الذي يؤكد أنه «متى أجهد أحدنا نفسه، وأعمل فكره، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريبا مبتدعا، ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه، أو يجد له مثالا يغض من حسنه، ولهذا السبب أحظر على نفسي، ولا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقة»[30]، لا سيما إذا تواردا واتفقا في معنى مشترك لا يختص بمعرفته قوم دون آخرين، ولا يرجع فيه إلى إنعام الفكر والنظر. ولذلك أخرج الآمدي قضية السرقات من مساوئ البحتري وأبي تمام قائلا: «وكان ينبغي الا أذكر السرقات في ما أخرجه من مساوئ هذين الشاعرين، لأني قدمت القول في أن من أدركته من أهل العلم بالشعر، لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوئ الشعراء، وخاصة المتأخرين، إذ كان هذا بابا ما تعرى منه متقدم ولا متأخر»[31].

يتضح من هذا الجرد الإجمالي لآراء العلماء العرب القدامى المتطسين في صناعة الكتابة شعرها ونثرها، أن قضية السرقات الأدبية، وإن ظلت محكومة بسياق تاريخي يبحث عن عثرات حملة اليراع العربي، في إطار الصراع المحتدم بين جحفلين، الأول يحمل لواء الانتصار لكل قديم، ويود أن ينافح كتائب الجحفل الثاني، الذي يشهر سلاح الجديد يفري به أوصال الذائقة القديمة بكتابة مولدة مزخرفة الظاهر، عميقة الباطن، فإن هذه المعركة، وإن تدثرت بلبوس أخلاقي أفضى إلى ذم الوجه السافر للمسروق، لأنه ليس سوى نسخ وسلخ ومسخ وإغارة، قد أثمرت البحث عن تفسير أدبية النص ودرجة الإبداعية فيه، وكشف هويته وروافده، من خلال إشباع البحث بالنسبة إلى قوانين تشكله، من خلال التفطن إلى دلائل التقائه، وحواره أو نفيه وقلبه للنصوص السابقة التي تقع في دائرة استمداده، وبالتالي تحديد الروافد التي تعد محور الدوران في البنية التركيبية للنص سواء تعلق الأمر بالأفكار والمعاني المختبئة في النص المستفيد، أو بالطبقات الأسلوبية التي يلتجئ إليها لكي يخفي بواسطتها المفن دبيبه إلى المعنى المسبوق من خلال اعتماد إستراتيجية حسن الأخذ والاتباع التي يعرفها ابن أبي الإصبع قائلا: «وهو أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه غيره، فيحسن اتباعه فيه، بحيث يستحقه بوجه من وجوه الزيادات التي وجب للمتأخر استحقاق معنى المتقدم، وذلك باختصار لفظه، أو قصر وزنه، أو عذوبة قافيته وتمكنها، أو تتميم لنقصه، أو تكميل لتمامه، أو تحليته بحلية من البديع يحسن بمثلها النظم، ويوجب الاستحقاق»[32].

كما أثمرت هذه المعركة جهازا مفاهيميا اصطلاحيا يعد بحق مقدمة لركائز نظرية التفاعلات النصية العربية التي تحمل في تراثيتها جدة، لم تتبلور لدى الغرب كإجراء نقدي إلا في أواخر عقد الستينيات من القرن العشرين، كما يتوضح ذلك في أعمال: كريستيفا . بروب . ريفاتير . تودوروف . بارت . جنيت، ومن لف لفهم. ويوضح المشجر الآتي حسن استغلال النقاد العرب القدامى لقضية المعاني المشتركة التي أرست أسس نظرية التفاعلات النصية العربية:

رابعا: نظرية التناص في النقد الأدبي الحديث

يشهد تاريخ الكتابة أن الأعمال الأدبية المتميزة تكاد تكون أعمالا مقتطعة من أعمال سابقة، غير أن هذا الاقتطاف والاستمداد ينزعان، من خلال اعتماد تقنية الإخفاء، وحسن السبك في أجود القوالب الذي تتنزل فيه الألفاظ والتعابير منزلتها التي تقتضيها، إلى خلق قيم جديدة لها تأثيرها الفاعل في دلالة النص المستفيد، على الرغم من أن آثار قوالب المعنى المتحاور معه وخصائصه الأسلوبية لن تستطيع إستراتيجية التحويل المعتمدة أن تعفيها وتبيدها كلية، استجابة لقانون أن أي خطاب ينقل أصداء خطابات أخرى ويتحاور معها في حلقة تشبه دوران الحوامات المائية التي لا تعرف التوقف في الزمان والمكان، لذا يبدو أن «التناص شيء لا مناص منه، لأنه لا فكاك للإنسان من شروطه الزمانية والمكانية ومحتوياتهما، ومن تاريخه الشخصي، أي من ذاكرته، فأساس إنتاج أي نص هو معرفة صاحبه للعالم، وهذه المعرفة هي ركيزة تأويل النص من قبل المتلقي أيضا»[٣٢] الذي يسعى إلى كشف المستور، وتعرية مصدر التميز والإبداع الذي طرز النص الجديد على منواله.

التناص إذن عمل كيميائي شديد التعقيد، لأنه لا يؤمن بإمكان العثور على نص نقي منفصل بذاته في أرخبيل منعزل عما سواه. وقبل عرض نماذج من التعريفات المتشابهة لهذا المصطلح، تجدر الإشارة إلى أن هذا المفهوم عرف تسميات مختلفة في الحقل الغربي مثل: النص المولد، النص المنجب، النص المكون، الأيديولوجيم، إلى أن استقر أمر التسمية عند مفهوم التناص المقترح من لدن «جوليا كريستيفا Julia Kristeva» ١٩٦٩م في كتابها «أبحاث من أجل تحليل دلالي Recherches pour une Sémanalyse» بعد استفادتها من أعمال «ميخائيل باختين Mikhail Bakhtine» الذي أشار إلى أن التفاعل النصي ينهض على فسيفساء من الاستشهادات وأن أي نص ليس سوى «امتصاص وتحويل لنص آخر»[٣٤]. من خلال بعض التعليقات والاستشهادات والاستمدادات أو الإضافات التكميلية، بله الاختصارات والشروح. أما المعجم الصغير فيؤكد أن التناص «مجموعة من العلاقات التي يقيمها نص، وخصوصا النص الأدبي في ارتباط مع نص أو نصوص سواء على مستوى إبداعه (بواسطة الاستشهاد أو السرقة أو التلميح والإشارة أو المعارضة... إلخ) أو على مستوى قراءته وفهمه من خلال المقابلات التي يقيمها القارئ»[٣٥] مع النصوص الغائبة المستعادة في النص المستفيد، حيث ينتج من النصوص المستعادة تركيب ثان يميل تارة إلى الاتساق والتوازن مع السياق العام للنص المستفيد، وتارة أخرى يجنح نحو التفرد والتميز من خلال تتبع مسار التغير والتبدل والإجهاز والإزاحة، رغبة في نفي النص من الوجود، واحتلال مكانه إذا استطاع إلى ذلك سبيلا. إنه نوع من الامتصاص الإسفنجي الذي يتخذ أشكالا عديدة تتراوح بين الاستشهاد أو الغصب والسرقة، أو الاقتراض غير المعلن، أو التلميح... وهي كلها أشكال لا تستطيع إخفاء علاقة الحضور بين نصين

أو أكثر. لذا فإن التناصية «هي الممارسة التقليدية للاستشهاد (استعمال المزدوجتين والإحالة الدقيقة على المصدر)، أو بشكلها الأقل وضوحا، والأقل قانونية وهو الانتحال... وهو اقتباس غير معلن، ولكنه حرفي، أو بشكلها الأقل وضوحا وغير الحرفي وهو الإيحاء، أي على شكل قول يفترض فهم معناه الكامل إدراك علاقة بينه وبين نص آخر تحيل عليه بالضرورة انثناءة من انثناءات النص العديدة»[٣٦]. أما «جيرار جنيت Gérard Genette» فيؤكد: «أتصور اليوم (١٣ أكتوبر ١٩٨١) خمسة أشكال من العلاقات عبر النصية «Transtextuelles» التي أعددها في ترتيب شبه تصاعدي تجريدي، تضمني وشمولي. الأول اكتشفته «جوليا كريستيفا – Julia Kristeva» منذ سنوات تحت اسم التناص؛ وهذه التسمية هي التي أمدتنا حقيقة بجهازنا المفاهيمي. أما من ناحيتي فأحصر مفهوم التناص في علاقة حضور متزامن بين نصين أو أكثر. أي الحضور الفعلي غالبا لنص داخل نص آخر، وفي شكله الأكثر جلاء وأدبية، وهو ما كان يعرف تقليديا بالاستشهاد (سواء كان بعلامة تنصيص أو بغيرها). وفي صيغة أقل جلاء الانتحال والسرقة الأدبية كما هو عند «Lautréamont» مثلا وهي اقتراض غير معلن، ذو طابع أدبي، وفي صيغة أخرى أقل جلاء، وأقل أدبية كما في التلميح. أي تقديم بكيفية ذكية لمعطى يفرض إدراك العلاقة بينه وبين فكرة أخرى تحيل عليه في هذا الموقف أو ذاك»[٣٧]. في حين يؤكد المعجم الكبير للآداب أن التناص مطور من لدن «جوليا كريستيفا» اعتمادا على جهود «ميخائيل باختين» حيث إن: «هذا المفهوم يسعى إلى توضيح العلاقات التي يقيمها نص أو فقرة أو كلمة عند إنتاجها مع نصوص أخرى. ويمكن أن يتمظهر في: الاستشهاد، السرقة الأدبية، التلميح، في إطار أشكال عديدة من العلاقات مع نصوص أخرى سابقة أو لاحقة»[*]. بينما يرى «كلود دوشي – Claude Duchet» أنه «ليس هناك نص نقي» وهو التصور نفسه الذي ينطلق منه «جيرار فينيي – Gérard Vigner» الذي أورد قولة «كلود دوشي» السابقة مؤكدا أن «النصوص لا توجد إلا في علاقة مع نصوص سابقة عليها، في إطار من التطابق أو التعارض مع خطاطة نصية (Shéme textuel) موجودة من قبل، ولكن في علاقة واضحة»[**].

إن إعادة قراءة إنتاج حمولة هذه التعريفات توضح أن التناص أنماط وأشكال، تارة تبدو ظاهرة مصرحا بها، وأخرى خفية غير معلنة، على رغم تكرارها لوحدة أو وحدات النص السابق، وهي:

- الاستشهاد سواء كان بالتوثيق، أو من دون توثيق.
- السرقة الأدبية، وهي نوع من الاقتراض غير المصرح به، ولكنه يبقى حرفيا غير شرعي في الغالب الأعم.
- التلميح: وهو نوع من حسن الأخذ الذي لا يتمكن من العثور عليه في النص المستفيد سوى الناقد البصير بأسرار الصناعة الكلامية.

(*) Grand dictionnaire des lettres. larousse. 1987. page 769.
(**) Gérard Vigner. Lire: du texte au sens. clé International. 1979. page 62.

- المعارضة: وهي نوع من قلب المعاني الذي يفضي إلى إنتاج دلالة جديدة لا تستطيع أن تنفي وجود علاقة بنوة مع النص الأصلي.

وبعد، ماذا يبقى لهذه الآراء والأنماط التناصية من حداثة إذا ما قورنت بالآراء الرصيفة والتفريعات المميزة لأشكال الاستمداد التي أشبع نقادنا العرب القدامى بحثها؟ ألم يعرض ابن طباطبا العلوي في القرن الرابع الهجري، لما يحتاج إليه الأديب من ضرورة تدقيق النظر في تناول المعاني المشتركة، وتلبيسها بأنواع من التوشية حتى تخفى على البصراء بها؟، ألم يفصل القزويني القول في عرض أشكال الأخذ والسرقة؟ ألم يحدد أشكال الأخذ الظاهر، من نسخ وسلخ ومسخ؟ ألم يبين أنماط الأخذ غير الظاهر من اقتباس وتضمين وحل وعقد وتلميح، وقلب وحسن تصرف؟ ألم يوضح القاضي عبدالعزيز الجرجاني أن باب الأخذ والسرقات لا ينهض به إلا الناقد التحرير، والعالم المتطس القادر على الإحاطة علما بأنماط ورتب الأخذ ليفصل بين السرق والغصب، وبين الإغارة والاختلاس، وبين الإلمام والملاحظة، ويفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه، والمبتذل الذي لا يمكن أن يدعي أحد أنه أولى به من الآخر، وبين الفرائد التي يحوزها المبتدئ فيملكها، وبين ما لا يصح أن يقال فيه هذا لفلان دون آخر؟ ألم يعد الناقد نفسه علامة الحذاقة في العدول بالكلام عن نوعه وصنفه، وعن وزنه ونظمه، وعن رويه وقافيته، حتى إن غير المتطس عندما يمر بالكلام، يعده مبتدعا مخترعا؟ ألم يتحدث ابن أبي الإصبع عن حسن الاتباع، وبين وجوه الزيادات التي توجب للمتأخر استحقاق معنى المتقدم؟ ألم يعرض لضروب الاختصار والإتمام والتحلية؟ ألم يتحدث العسكري عن حسن الأخذ وحل المنظوم وعن أسباب إخفاء السرق من حل وعقد ونقل؟

أي صبابة فضل إذن تبقى لآراء المحدثين إذا ما قورنت بالآراء النقدية التي ألمعت إلى بعضها بالنسبة إلى النقاد العرب القدامى؟ لا شك في أن الساحة النقدية العربية تملأ الدنيا بمثل هذه الآراء منذ بداية القرن الثالث الهجري، حينما تنبه البلاغيون القدامى إلى استحالة وجود نص نقي خالص من تأثيرات النصوص السابقة. ولئن كان استخدام مصطلح السرقة، يغض من مجهودات السابقين، فإنه من النصف التأكيد أن أغلب الذين خاضوا في هذا الباب لم يقصروا جهودهم على الاستخدام الأخلاقي الذي يفضي إلى ذم الوجه السافر المسروق، بل عرضوا إلى أوجه حسن الأخذ ونصحوا للكتاب والشعراء، موضحين لهم طرائق حسن التصرف في المأخوذ من نقص أو زيادة، أو قلب أو تحلية، رغبة منهم في الوصول بالمتأخرين إلى امتلاك معاني السابقين. وإذا ثبت بالدليل الذي يقطع دابر كل معترض، أو متردد كاد أن ينسلخ من جلدته العروبية، فأصبح يعلك كلامها المبين علك اللجام، فإننا ندعو نقادنا الرصفاء إلى تجاوز عقدة النقص التي دثرنا بها

الأجنبي، أملا في نفض الغبار عن اللفتات النقدية الرائدة الرائجة في تراثنا النقدي العربي الذي سيبقى منا على طرف الثمام إذا جعلناه المنبع العذب الذي يجب أن نوجه إليه نابهة الأمة.

خامسا: أشكال وأنماط حسن الأخذ والتناص في رواية «شجيرة حناء وقمر»:

٥-١: تقديم

في ظل هذه القارة الشاسعة من النصوص الروائية العربية التي تقذف بها المطبعات كل يوم، ليس من العسير على الباحث المقتدر أن يعثر في ما يقرأ من نصوص على بصمات وغمزات التأثير المتسللة من الآثار السابقة إلى النصوص اللاحقة في شبه تفاعل كيميائي، يصر على التصادم مع العناصر المكونة للعمل الفني أحيانا، وفي أحايين أخرى يمعن في التساكن والتلاقي السلمي معها، غير أنها في تصادمها وتساكنها تفضي إلى إنتاج نص أدبي منسجم يعكس التعدد في التفرد من خلال المساحة الواسعة التي تتحرك فيها العناصر المتفاعلة فيما بينها، من دون خيانة للنصوص المستقى منها، والتي تمد النص المولد (بفتح اللام) بروافد متحدرة من هنا وهناك حتى تصير عجاجة بالغة الحضور، على الرغم من الحرص الشديد على إخفاء الدبيب نحوها، لأنها فرائد اختصت بأصحابها الذين شقوا كمّها، وبالتالي يصبح من العسير نسبتها إلى غير من انفرد بها من المتقدمين، ومن ثمة يغدو حضورها في النص المنجب (بفتح الجيم) نتاج ثمرة القراءة المندرسة في لا وعي الكاتب، أو بتعبير القدامى بنت محفوظه الذي دُرِّب عليه فهمه، وهذب به طبعه، ولقح به ذهنه، فأصبح مادة فصاحته ولسان بلاغته وذوب روحه وجبلته، حيث تلف الكلمات والعبارات أو المعاني المستمدة من نصوص سابقة في ثياب أنيقة محكمة النسج والصياغة من خلال صرف كثير من المعاني المطروقة إلى وجه غير المعنى الذي أسس عليه المتقدم.

والحق أن الأستاذ أحمد التوفيق يعد - من خلال أعماله الروائية - من الأدباء المفلقين الحُرَّص على امتلاك السحر اللغوي اللافت الذي يسحر الألباب بواسطة براعة المزج، بين اللفظة التراثية الفريدة، وأختها المعاصرة الأنيقة، مزج يفوح أريجه على العبارة التي تبدو صورها بمنزلة أشكال وألوان قوس قزح، لغة تأسر وتفتن بسحرها، وتجليات تشكلاتها، ينسجها الروائي بيراع طائع، كلما أحسست بقرب اختفاء أسراب التعابير الأسرة، أعقبت بأسراب أشد أسرا، لغة كأنها في جمال تناسقها، وبراعة سبكها وحسن تأليفها تحاكي ريش الطاووس حلية وجمالا، وكأن الروائي يغرف أدواتها التشكيلية وألفاظه من بحر زاخر يعد «أبو عذرها، وهو أول من استعملها وافترعها، مع أننا كنا نعرف ذلك اللفظ من قبل،

ولكن لا، سواء معرفتك لفظا قابعا في المعجم، واستعمالك ذلك اللفظ الذي كان قابعا في المعجم فتحوله إلى عروس مجلوة... وإلى وردة تعبق بالشذى، وإلى كائن يطفح بالحياة والعنفوان»[38]. هذا هو ديدن التوفيق الذي خبر بالتجربة أنه لا يبقى للأثر الأدبي عامة، وللرواية خاصة شيء غير جمال اللغة وبراعة السبك التي لا تجعل الكلام كله شريفا ولا هابطا وضيعا، بل يجب تفصيله تفصيل العقد الذي لا يظهر فتنته إلا واسطته التي تأخذ من الجمال والفتنة أخذا عجيبا ينفذ إلى بواطن الأعماق، وتلك هي المزية العلياء للغة الرواية التي إذا لم تكن لغة «شعرية، أنيقة، رشيقة، عبقة، مفردة، مختالة... متزينة، متفجرة، لا يمكن إلا أن تكون شاحبة، ذابلة، عليلة، كليلة، حسيرة، خلقة، بالية، فانية، وربما شعثاء غبراء»[39]. تأسيسا على هذه اليقينية، فإن الأستاذ التوفيق مال - في ما عنّ لي - إلى اختيار لغة شعرية نابضة بالمشاعر الإنسانية المؤثرة، كثيفة موحية، تبعث كثيرا من الألفاظ من مرقدها وتحيي مواتها من دون تلطيخ ثوبها القشيب بأساليب العامية التي يستر بها دعاتها ضحالة بضاعتهم، وضيق ذات أيديهم، حتى إن الخرس أولى بهم من الحديث والكتابة على هذه الشاكلة الشائنة، التي يقذفون فيها بالكلمات الشعثاء الغبراء الممسوخة من مصانعهم اللغوية الرديئة، استجابة منهم لدعوى ملاءمة أوضاع الشخصيات المختلفة في العمل الروائي، حيث يجب أن يتكلم الشخص باللغة التي يعرفها، إذ لا يمكن أن تكون لغة العامي، هي لغة المثقف، ولغة الصانع، هي لغة الطبيب، وهلم جرا. وهي كلها مسوغات بعض الكتاب المتفاحصين المتأخرين الذين أخطاهم اختيار اللفظ الفصيح، يتعلقون بالعامي والسوقي ليحسبوا مع السواد الأعظم، غير عابئين بما ينفثون من سموم في ثوب العربية القشيب، وما يخطونه من كلام غث يجمع بين الحصاة والعرر، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، كما أحسن أسلافنا الذين فصلوا الكلام تفصيل العقود، وجعلوه متنوعا لكي لا يمل من دون تنكب سبيل الفصحى، كما هو الشأن بالنسبة إلى صنيع جلال الدين السيوطي الذي ظل «ينهض بهذه التجربة اللغوية فألفيناه يكتب عشرين مقامة، موزعة على عشرين شخصية مختلفة، فيتخذ لكل شخصية لغتها الوظيفية، ولكن في إطار الفصحى العالية»[40] البعيدة عن التعابير الخداج، والأساليب العامية المرذولة، التي تنشر ظلالها في ما ينشئون من ترجيعات وشعارات عكرت صفاء العربية، معتقدين أنهم يؤسسون لزمن النهايات، وهم لم يلجوا بعد وصيد البدايات. ومن يضلل الله فما له من هاد!

إذا اتضح أن «المسألة اللغوية، في السردانية، تحتاج إلى براعة المزج، كالعصير الممزوج من جملة من الفواكه مزجا مدروسا تراعى فيه رقة الذوق»[41]، فإن مؤلف رواية «شجيرة حناء وقمر» يمتلك كفاية وصفية شائقة، يجليها تناغم الإيقاع اللغوي مع موضوع الرواية المرتبط بتعرية معيش الناس في قرى جبال الأطلس الكبير، من خلال علاقتهم بسلطة القواد والشيوخ

إبان القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فعلى الرغم من حرص المؤلف على تسجيل التفاصيل اليومية لحياة القائد «حمو» في إيالته، ونزوع الرواية نحو اقتحام عوالم غريبة (السحر . الجن . الكنز...) بله تعدد الشخصيات المتفاعلة في العالم الروائي، واختلاف مفاهيمها المرجعية (القواد . الشيوخ . الفقهاء . الحرفيون . العرب . الأمازيغ . الدجالون والمعتوهون . اليهود...) فإن الرواية لم تتنازل عن شعرية اللغة وتدفق الذاكرة التراثية التي تمثل لحمتها في شبه انصهار مقتدر بين المصادر التي يهجر منها الكاتب أدواته الفنية، وبين الإمعان في تعرية خبايا النفس الإنسانية مع الحرص على إدانة نزعات الشر وحب التملك والأمنيات التي تكون السبب في الإيقاع بالمتمني. وقديما قيل «رُبَّ متمن حتفه في أمنيته». الروائي إذن متدفق في لغته الشعرية، صائغ ماهر في انتقاء الأساليب، بله انتقاء أشكال الحلي ووصفها بدقة متناهية، بارع في إضاءة خبايا النفوس، مفن في الغوص على الدرر، لا ترى قلقا ولا أمتا في ما يهجره من فرائد أساليب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي القديم، ناهيك عن عبارات الأمثال والخطب والرسائل والتوقيعات، وتلك مزية لا تتوافر إلا لمن أعرق في البحث عن الفرائد، وبذل الجهد في تجلية المعاني المزيزة بالألفاظ الوجيزة الفصيحة، بخلاف المتعجلين الذين تكفيهم القبسة التي تظهر ما يهجرونه إلى كتاباتهم بمنزلة رقع بالية غريبة عن روح العصر أو كالأحجار القديمة المستخدمة في بناء جديد، وروح الغرابة والعتاقة وعدم الاتساق والانسجام شاهدة على قلقها في الأماكن التي أنزلت فيها. غير أن حذاقة الصنعة الأسلوبية التي وسمت بميسمها طريقة الوصف (وصف قيم الشاي، وما يجب أن يتحلى به من نباهة ومهارة في حركاته وسكناته، قبل، وأثناء، وبعد عملية إعداد الشاي، وصف أشكال الحلي التي تفننت السالمة في اختيارها استعدادا لزفافها. وصف الطبيعة الجبلية، وأخلاط الروائح العطرة، وصف شجرة الحناء، وصف كيفية استخراج الكنز، مع عرض أشكال التعزيمات...) لا ينبغي أن تضع على بصيرة الباحث المنصف عصابة تخفي ما تبين فيه خطل الروائي في حق العربية، مثل إيراده لفظة الكأس مذكرة، وهي مؤنثة كما ينطق بذلك القرآن وكثير من الأشعار الخمرية، أضف إلى ذلك أن الكأس لا تطلق إلا إذا كانت مملوءة، أما إذا كانت فارغة فهي إما زجاجة أو كوب. كما أورد عبارة (لا سيما) مجردة من (لا) وهذا مخالف للصواب، ثم عرف (غير) وهي مغرقة في التنكير، ولهذا يصح ألا يدخلها التعريف الذي لا يضيف إليها شيئا. كما جمع السوار هكذا (أساوير) وهي في القرآن والشعر من دون ياء: أساور وأسورة. ثم جعل جمع حريص: حريصون، وهو مخالف للصواب الذي هو: حرص، حراص وحرصاء، ورادف البرهة باللحظة الزمانية القليلة مع الفرق الشاسع بينهما حيث إن البرهة هي الحين الطويل الذي يصل إلى سنة. وغيرها من الأخطاء التي أشرت إليها في بحث آخر، سينشر قريبا.

٥-٢ : حسن الأخذ من القرآن

إن عرض نص «شجيرة حناء وقمر» على النص القرآني المقدس، يظهر أن المؤلف نظر إلى رياض القرآن الكريم، نظرة المرتشف لزلال مائه، المستنشق لعبير أزاهيره، المقتطف لأطيب ثماره، وما أرى المؤلف إلا قناصا ماهرا بتتبع الطريدة النافرة المكتنزة حتى يدخلها تحت لوائه، بعد أن يسمها بطابعه الأسلوبي الخاص، بعد أن فجر له القرآن الكريم ينابيع القول، واستمد منه ما طاب من ثمار عرصاته، لم يترك قابَةً إلا اقتبَّها، ولا نُقارة إلا أحسن ضمَّها، حتى أتى في هذا الإطار بالمتخير اللباب، الذي يبدو قلائد انتضيت من مخازنها، في أحسن صياغة يتوزعها التضمين والاقتباس والتلويح والإشارة، كما ينصح بذلك بوازل العارفين بأسرار الصنعة الكلامية على شاكلة قول القلقشندي: «واعلم أن تضمين الكلام بعض أي القرآن الكريم، ينقسم عند أهل البلاغة إلى قسمين، أحدهما الاستشهاد بالقرآن الكريم، وهو أقلهما وقوعا في الكلام، ودورانا في الاستعمال: وهو أن يضمّن الكلام شيئا من القرآن الكريم، وينبه عليه... الثاني: الاقتباس، وهو أن يضمن الكلام شيئا من القرآن، ولا ينبه عليه...»[42]. وكأني بالروائي يتمثل وصية القدامى في الاستمداد من القرآن الكريم كما أكد الوزير ضياء الدين ذلك في قوله: «والطريق في استنباط المعاني من القرآن الكريم، واستعمال الآيات في خلال الكلام، أن تعمد إلى سورة من القرآن، وتأخذ في تلاوتها، وكلما مر بك معنى أثبته في ورقة مفردة حتى تنتهي إلى آخرها، ثم تأخذ في استعمال تلك المعاني التي ظهرت وإدخالها في خلال الكلام، وكلما عاودت التلاوة وكررتها ظهر لك من المعاني ما لم يظهر لك في المرة التي قبلها»[43]. والظاهر أن الأستاذ التوفيق يعمد إلى مجموعة من الآيات القرآنية، يقلد هيئتها الأسلوبية، ويستدعي طريقتها التعبيرية ومحتواها الدلالي من دون تغيير أو تبديل خشية أن يزيغ عن مقصدية النص القرآني التي لا يجوز الاختلاف معها، وهذا هو السر في سهولة العثور على الآيات القرآنية التي يتناص معها المؤلف من خلال تقنية التلويح والإشارة كما يتضح ذلك في ما يأتي: «أن ينزل منها عليه في يوم من الأيام شر مستطير»[44]، الذي يلتقي مع قوله تعالى من سورة الإنسان آية رقم ٧ ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا﴾. وقول المؤلف: «ممن يظنون أنهم يحسنون الحساب»[45] الذي يلتقي مع قوله تعالى من سورة الكهف آية ٩٩ ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ وفي قوله من الصفحة رقم ٥ من الرواية «الموالي للسهل دون أن يشعر به أحد» المستمد من قوله تعالى في سورة الكهف آية ١٩ ﴿وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا﴾. أما قول الروائي «في شرذمة من المقاتلين»[46] فيتناص مع قوله تعالى من سورة الشعراء آية رقم (٥٤) ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ كما يلتقي قوله «نظر بعضهم إلى بعض»[47] مع قوله تعالى في سورة التوبة. آية ١٢: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من

أحد..﴾. أما قوله «جلس إلى الأرض وظن أنه وامرأته ناجيان بعد تلك المحنة»[48] فينظر إلى قوله تعالى من سورة يوسف آية (٤٢): «وقال للذي ظن أنه ناج منهما...» كما يستعين قوله: «أن رحمة الله أقرب إليهما من عطف الزوج القائد»[49] بقوله تعالى من سورة الأعراف آية ٥٥ ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ أما قوله: «بصنع سلاسل تنوء بحملها الدواب»[50] فيتناص مع قوله تعالى من سورة القصص آية ٧٦ ﴿وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾. أما قوله «يقول هل من مزيد»[51] فيلتقي مع قوله تعالى من سورة ق.آية رقم ٣٠ ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾. أما قول الروائي: «أن تكون الظاهر الذي من قبله الرحمة، ويكون هو ذلك الباطن الذي من قبله العذاب»[52] فيستعين بقوله تعالى من سورة الحديد آية ١٣. ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾. وحتى لا أطيل على القارئ الرصيف أكتفي بالإشارة إلى الجمل التي اقتبسها المؤلف من القرآن الكريم مع تحديد أرقام آياتها والسور التي استفرهت منها على الشكل الآتي:

«تحب الفرس، حبا جما» انظر سورة الفجر آية ٢٢.

«ارتعشت وعضت أناملها» انظر سورة آل عمران آية ١١٩.

«يأتي لهم من حيث لم يحتسبوا» انظر سورة الزمر آية ٤٤.

«لا يعرف أحد سرهم ونجواهم» انظر سورة الزخرف آية ٨٠.

«كان صدره في حرج وضيق شديد» انظر سورة الأنعام آية ١٢٦.

«قد حال بينهما كما يحول الموج بين مغرقين» انظر سورة هود آية ٤٣.

«ما تقضي به وطرك» انظر سورة الأحزاب آية ٣٧.

«حتى تواعد سرا» انظر سورة البقرة آية ٢٣٣.

«على حين غرة» انظر سورة القصص آية ١٤.

«فقد يكون ثالث ثلاثة» انظر سورة المائدة آية ٧٥.

«حتى إن الواحد منهم يمشي على أربع» انظر سورة النور آية ٤٣.

«لقد أرسلت الهدهد ليأتي بالخبر» انظر سورة النمل آية ٢٠، وكذلك في سورة ص الآيتان ١٧ و١٨.

«وجدت السالمة ما قالت خادمتاها... حقا» انظر سورة الأعراف آية ٤٣.

«أخذته العزة» انظر سورة البقرة آية ٢٠٤.

«وربطته بالعمود ليذوق العذاب الأليم» انظر سورة الصافات آية ٣٨.

«مما فوق الأرض، أو مما تحت الثرى» انظر سورة طه آية ٥.

«لن أبرح هذا المكان إلى أن تطلع الشمس» انظر سورة يوسف آية ٨٠.

«أن يعاقب كل مخطئ لانفضوا من حوله» انظر سورة آل عمران آية ١٥٩.

«وهي بشر سوي» انظر سورة مريم آية ١٦.

«كظم فيه غيظه» انظر سورة آل عمران آية ١٣٤.

«واتخذ طريقه إليهم» انظر سورة الكهف آية ٦٢.

«أغلق سجنه وجعله دكا» انظر سورة الكهف آية ٩٤.

«هاربا من المقرضين ومن الناس أجمعين» انظر سورة السجدة آية ١٣.

«وجرت البنت إلى مكان قصي» انظر سورة مريم آية ٢١.

«لا يخاف في الله لومة لائم» انظر سورة المائدة آية ٥٦.

«منيعة حصونه» انظر سورة الحشر آية ٢.

«عفا الله عما سلف» انظر سورة المائدة آية ٩٧.

وبعد أن ألمعت لهذا النوع من حسن الأخذ باليسير على وجه التمثيل، أؤكد أن المؤلف لم يلجأ إلى قلب معاني القرآن إلا لماما، وهو قلب لم يسع فيه إلى تحويل المعنى الذي ينتج شيئا مخالفا لمقصدية القرآن كما في قوله «وكانت عاقبتهم يسرا» الواردة في الصفحة ١٦٧ من الرواية الذي قلب فيه المعنى في القرآن الكريم كما يتضح ذلك في سورة الطلاق آية رقم ٩ التي يقول فيها تعالى: ﴿فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا﴾. من خلال هذه الاستمدادات يتضح أن القرآن الكريم دخل إلى قلب المؤلف، وترعرع يراعه على أساليبه، وارتقت ملكته البيانية. فكان نثره أرصف من حيث البناء، وأسلس من حيث الماء والرونق، وأعذب من حيث الذوق والمفش. ولا أريد أن أمسح اليراع من هذا التأثير القرآني في أسلوب التوفيق من دون الإشارة إلى نص الرسالة التي أرسلها أبناء الشيخ أحماد نايت إبرايم إلى القائد «ولد الشهباء»[53] التي لم يجد فيها غير رؤوس الآيات القرآنية الآتية:

«إن فرعون... ومن اعتدى... بل تأتيهم... لقد علمت... إن موعدهم... خذوا زينتكم... قال عفريت...» التي تدخل في باب التوقيعات الملغزة، التي يقتضي فهمها استحضار الآيات القرآنية، ناهيك عن حرص المرسل على التلبيس على القارئ العادي الذي قد تقع الرسالة في يده. إن نقط الحذف تستدعي نباهة القارئ المخضرب الحاذق بأسرار كتابة التوقيعات، بله القارئ الحافظ لكتاب الله حتى يتمكن من القبض على المعنى المراد، بعد العثور عليه في تضاعيف الآيات القرآنية التي اكتفى فيها المرسل بالتلميح والإشارة، حيث إن رأس آية: ﴿إن فرعون﴾ الواردة في سورة القصص تستدعي إتمام ما سكت عنه المرسل ليتضح المعنى المراد على هذه الشاكلة ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[54]، كما أن رأس آية «ومن اعتدى»

المتبوعة بنقاط الحذف يستدعي عرض منطوق الآية بأتمها وهي: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[55]، كما أن رأس الآية الثالثة ﴿بل تأتيهم﴾ يفرض البحث عن الآية التي تقول: ﴿بل تأتيهم بغتة فتبهتُهم فلا يستطيعون ردها ولاهم ينظرون﴾[56]، أما رأس الآية الرابعة الواردة في الرسالة فيدعو القارئ إلى استحضار الآية هكذا: ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾[57] أما رأس الآية الخامسة المقتطفة من سورة (هود) نفسها: ﴿إن موعدهم...﴾ فإن استحضار آخر الآية يبين المراد على هذا المنوال ﴿إن موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب﴾[58]، كما أن إتمام رأس الآية السادسة ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾[59] تبين مكان الحدث الذي سيقع صباحا. أما رأس الآية الأخيرة الواردة في الرسالة «قال عفريت...» فإن إتمام منطوق الآية هكذا ﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي امين﴾[60] يظهر وجه السرعة الذي سيطبق بموجبه الأمر.

إن الرسالة السابقة نموذج من رسائل التوقيعات التي كان الملوك والرؤساء والأعيان يتبادلونها في ما بينهم، وهو نوع كلامي معروف بالإيجاز والاختصار، حتى أنهم جعلوا من التوقيعات ما يأتي بالكلمة أو بالحرف أو بالآية من القرآن [61]، وواضح أن هذه الرسالة التي أحكم أبناء الشيخ أحماد نايت إبرايم صياغتها من حيث تعميتها وغرابتها تشبه ما عده ابن عبدالغفور الكلاعي الأندلسي من أغرب التوقيعات اعتمادا على ما حكاه ابن جني حيث قال الكلاعي: «ومن أغرب التوقيع ما حكاه أبو الفتح بن جني قال: لما أنشد أبو الطيب سيف الدولة قصيدته التي يقول فيها:

يا أيها المحسن المشكور من جهتي
والشكر من قبل الإحسان لا قبلي
أقِلْ، أنِلْ، أقْطِعْ احْمِلْ، عَلِّ، سَلِّ أعِدْ
زِدْ، هشّ، بشّ، تفضّلْ أدْنِ، سُرَّ، صِلْ

وناوله نسختها وخرج، نظر سيف الدولة فيها، فلما وصل إلى هذا وقع تحت أقل: أقلناك، وتحت أنل، يحمل إليه من الدراهم كذا، وتحت اقطع: قد أقطعناك الضيعة الفلانية... وتحت احمل: يقاد إليه الفرس الفلاني، وتحت عل: قد فعلنا، وتحت سل قد فعلنا فاسأل، وتحت أعد: قد أعدناك إلى حسن رأينا فيك، وتحت زد: يزاد كذا، وتحت تَفَضَّلْ: قد فعلنا، وتحت أدْنِ: قد أدنيناك، وتحت سرَّ: سررناك. قال أبو الفتح: فبلغني أن أبا الطيب قال إنما أردت: سر، من السرية. فأمر له بجارية»[62]. هذه نبذ ونتف تبين أن المؤلف سلك مسلك الأخذ الحسن من القرآن الكريم، وجرى فيه ملء عنانه، فأدرك الغاية من الاستمداد الحسن، وجاء بالمتخير، وتشمم ما فاح من أزاهير رياض القرآن العطرة.

٥-٣ : الاستعانة والاستمداد من الأحاديث والأخبار النبوية في الرواية

يعد الحديث عن ألفاظ الأحاديث النبوية التي اقتنصها الروائي، يما خضما لا يدرك قعره، ولا ينكش عمقه، وما أظن المؤلف، إلا أنه قد طبق المفصل، ووضع الهناء مواضع النقب في اقتطافه لمجموعة من الألفاظ التي سمعت في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، التي تعد بمنزلة المادة الثانية التي يستعين بها الأدباء في ما ينشئون من كلام: لما توافر لها من خاصيات البلاغة والفصاحة التي يفرع بها خير من نطق بالضاد في البدو والحضر. وغني عن البيان أن الحمولة الدينية التي تنبض بها كثير من التعابير في رواية «شجيرة حناء وقمر» مستمدة في الغالب الأعم من الأحاديث النبوية الشريفة التي يتناص معها المؤلف بالكيفية نفسها التي يتناص فيها مع القرآن الكريم، حيث يحرص كل الحرص على الحفاظ على السياق العام الذي يرد فيه الحديث، ومن ثمة فإن المعاني، والملفوظات التي يستعين بها الروائي ويستمدها، تبقى على حالها، لا يؤدي نقلها إلى تغيير دلالتها وإنتاج دلالة جديدة، وإنما يظل المؤلف يستحضر الأجواء نفسها كما هو الشأن في قوله من الصفحة ٧٠ في الرواية: «الحاكم القوي خير من الحاكم الضعيف» الذي يستحضر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف». وفي قوله من الرواية الوارد في الصفحة رقم ٨٣: «اللهم اجعل في قدرك اللطف» الذي يعيد أجواء الدعاء نفسه لدى الرسول الكريم. كما يعد قوله من الصفحة رقم ٦٠ من الرواية: «تركته ينظر نظرة ثانية» ترجيعا لتحذير الرسول صلى الله عليه وسلم، من شر النظرة الثانية. كما أن قوله من الرواية في الصفحة رقم ٧٩ «نحمد الله على لطفه بعد قدرته» يستمد الألفاظ وظلال المعنى ذاته الذي لا يفارق الرسول الأعظم عندما تلمّ بالمسلمين نائبة. أما عبارة «يشبهوا دركاته أيضا بدركات جهنم» الواردة في الصفحة رقم ٣١، في وصف السجن المزمع بناؤه بجوار القصبة فهي عبارة لا تختلف عن الحديث الذي يشير فيه الرسول الكريم إلى أن الجنة درجات، وجهنم دركات، كما يتضح ذلك من حديث العباس الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم: «أما كان ينفع عمّك ما كان يصنع بك؟ كان يحفظك ويحْدبُ عليك فقال: لقد أخرج بسببي من أسفل درك من النار، فهو في ضحضاح من نار...»[١٢]. أما عبارة «ما عساها فاعلة» التي جاءت على لسان الناس الذين أحضروا لتهنئة القائد «همو» بمناسبة تعيينه قائدا على قبائل الأطلس الكبير، والذين ينتظرون كيف تتصرف المجذوبة «فاضما تاعجانت» فهي تتناص مع قوله صلى الله عليه وسلم لأهل قريش عندما تمكن منهم: ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، غير أن الروائي في اقتراضه لهذا المعنى حرص على تغيير دلالته انسجاما مع مقصديته التي يروم من خلالها التنغيص على القائد «همو» وتكسير أنف نخوته منذ اليوم الأول لتلقي التهنئات من لدن كبار الأعيان والشيوخ، حتى ولو صدرت هذه المخرقة من لدن المجذوبة (فاضما تاعجانت) التي

كانت عاقبتها إيداعها السجن حتى ينظر القائد ومشاوره (ابن الزارة) في أمرها، بخلاف أهل قريش الذين قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: اذهبوا فأنتم الطلقاء. أما عبارة «سار الركب لا يخترق القبائل إلا إذا حمته الأرفاق، وحفته الرهبة» الواردة في الصفحة ١٤٤ من الرواية، فهي تمتص نص الحديث الوارد في فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، وتصهره لبناء دلالة جديدة تعتمد التشويش اللغوي، (حمته الأرفاق: غشيتهم الرحمة. حفته الرهبة / حفتهم الملائكة) إنها محاورة تتغيّا تفكيك نص الحديث النبوي، من دون القدرة على إخفاء المثال الحقيقي الذي طرزت العبارة على هديه، كما يتضح من قوله عليه السلام: «... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»[٦٤].

هذه نتف من الأحاديث التي تحاور معها المؤلف واستعان بها من حيث ألفاظها ومعانيها، وهي نصوص توضح أن المائدة التي يقتات منها المؤلف مائدة دينية تصر وتمعن في الحفاظ على ذاكرة النصوص المقدسة، وقديما قيل: عقول الرجال تحت أسنة أقلامها، حيث فاز المؤلف بقِدْح القَصْل، وانتقى ما شاء من القلائد والأفكار الأبكار فأودعها في ما حبر من كلام بدت ألفاظه عرائس مجلوة، ومعانيه دررا خالصة تشهد للمبدع على عراقته في الكتابة، وقدرته على الجمع بين اللفظ الرائق، والمعنى البديع، كما يجمع النبل في الكنانة، ومهارته في بناء كلامه على أصل لا يتزلزل.

٤-٥ : حل الشعر والاستمداد منه في الرواية

يتفق النقاد العرب القدامى على أن توظيف الشعر في الكتابة النثرية يتمظهر على ثلاث حالات: الأولى وتتمثل في الاستشهاد، حيث يورد الناثر البيت من الشعر أو البيتين، أو أكثر ضمن الكلام المنثور. أما الحالة الثانية فينعتونها بمصطلح التضمين، وهو أن يضمن المؤلف كلامه بيتا من الشعر أو نصفه. أما الحالة الثالثة فيصطلح عليها: الحل وهو: «أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني، فيحلها من عُقُل الشعر، ويسبكها في كلامه المنثور، فإن الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن والأخبار النبوية... قال صاحب «الريحان والريعان»: وهو شأن حذاق الكتاب في زماننا، وفيه من الجمال فنون: منها أنه يدل على حفالة أدب المجيد، واتساع الحفظ، والتيسير والتأتي لسبك اللفظ. ومنها أنه ليس يشهر منها إلا النادر للغاية في الحسن، فهي إذا حلت يحاورها المنشئ بما يناسب حسنها في البراعة، وهذا كثير في هذه الصناعة»[٦٥]. ويشترطون في الحل أن يكون جيد النسج، لا يقصر عن الأصل الذي منه أخذ، وأن يقع في الموقع الحسن، من دون قلق أو نبوّ عن المكان الذي وظف فيه الكلام المحلول.

والحق أن الناظر إلى الشعر الذي حلّه الروائي يتبين أنه أحسن استقراء الشعراء المفلقين الذين اقتبس منهم أطواقا وقلائد وشى بها كلامه، على الرغم من أن تلك الألفاظ والمعاني ظلت مختصة بأصحابها الذين شقوا كمها، حتى أصبح من العسير نسبتها إلى غير من انفرد بها من بوازل الشعراء القدامى، أمثال امرئ القيس وطرفة بن العبد، وأبي ذؤيب الهذلي ومن لف لفهم. كان هذا ديدن المؤلف الذي سعى إلى إدراك ما علا من كلام السابقين يجبر به ما يقع له من تقصير في مراعاة قواعد العربية، وينقب في أمات المصادر، ما يبز به كتاب عصره الذين يغترفون من آجن المنابع ما ينفر منهم القراء، ويدعوهم إلى خرس شقاشقهم. ولكي أبدي الصريح عن الرغوة في ما ذهبت إليه من تفرد الكاتب في حسن حله للأشعار التي اقتنص منها تعابيره، أؤكد أن هذا الاقتراض من قمم الشعر العربي الفصيح، كثيرا ما قرب لغة الروائي من لغة الأقدمين، حيث تصطبغ بأصباغ بدوية منسجمة مع مجتمع البادية المغربية الذي ظلت ذائقته الفنية مشدودة إلى القديم كما يؤكد المعجم الآتي ذلك (انحاشوا . سورة . حلم . قصي . مغاوير . قذى . ريقة . عقيرة . ظهر المجن . الحُقَّة . سدوله . تمطى . أناخ . أغوار الصدف . الدر . الخِدْر . ربات الحجال . البرقع . فرس هيكل . الحابل والنابل . عن . المسك . العنبر . الحوريات . خفي حنين . الليث . يحمد العود . الميمنة . الميسرة . المعرّة . الثرى . التبر . كواعب . الوطر...).

هذا المعجم الشعري الذي يعوم في محيط من العتاقة، يوضح بلا مراء الحضور الفعلي لنصوص الشعراء القدامى في نص الرواية، وهو حضور تركب من أخلاط عديدة، تظهر تارة بوجهها السافر من خلال اعتماد تقنية الاستشهاد كما هو الشأن بالنسبة إلى حكمة الشاعر العربي التي أوردها إمام الزاوية للقائد «همو» على سبيل العبرة:[66]

إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن أن الليث يبتسم

أو بالنسبة إلى كثير من الأشعار الشعبية التي يستمدها المؤلف من الذاكرة الشعبية، ولا سيما التي تنزع منزع الأمثال مثل ما سطره في الصفحة رقم ٨٨.

الكْلامْ خصّو تْفْهامْ
الحْكامْ خصّو القْوامْ
والليفْ يتبعْ اللامْ
الأحمَقْ يتّبَعْ الوّشَامْ

أما تقنية التضمين فلا تظهر في الرواية إلا لماما، من خلال صدر البيت الشعري الذي أورده القاضي بعد عودته من أخذ شهادة عقد زواج القائد «همو» بابنة ولد الشهباء «السالمة»، صاحبة القوام المعتدل الرشيق، حيث أورد القاضي الشطر الأول من همزية

البوصيري (كيف ترقى رقيك الأنبياء)(١٧) على سبيل التهكم والسخرية من قصر قامة القائد «همو» وطول قامة الزوج الجديدة «السالمة» وهو إدماج أحسن المؤلف قلب محتواه الدلالي الذي أراده البوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، لإنتاج دلالة مغايرة ولدها السياق الذي أجهز على المعنى الأول كما يتضح ذلك من كلام القائد «همو» مع مشاوره (ابن الزارة) بخصوص القاضي الذي تجرأ على «همو» ورشقه وهو ضاحك بعبارة شعرية ضمنها إشارة خبيثة.

وإذا كان القائد «همو» قد خالطته العرب حتى صار يقول الشعر كما جاء ذلك على لسان مشاوره (ابن الزارة)(١٨)، فإن المائدة الشعرية التي تربى عليها أحمد التوفيق طبعت أسلوبه الشائق، الذي تبدو فيه ألفاظ الأشعار المحلولة قلائد تبهر الناظرين بحسن تأليفها، وجمال موقعها، وعذوبة رقتها، وجودة سبكها، وإصابة وصفها، وبراعة نقل معانيها وقلبها من الشكوى إلى الهجاء والسخرية، كما يتضح ذلك من تصوير هيئة القائد «علاء» أب الشخصية الرئيسية في الرواية تصويرا ساخرا حيث جعله يتمطى بجسمه تحت أشعة الشمس ليخيط له خادمه شقوقا في قدميه، بخلاف الصورة الشعرية التي أوردها امرؤ القيس لوصف الليل الطويل:

فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازا وناء بكلكل(١٩)

في حين حافظ على المعنى ذاته في هذه الصورة الشعرية التي نقلها من المعلقة نفسها، في قوله: «لكنه لم يعد إلا والليل قد أرخى سدوله»(٢٠) الذي يسترجع مواصفات ليل امرئ القيس حين قال:

وليل كموج البحر أرخى سدوله
علي بأنواع الهموم ليبتلي(٢١)

وهي صورة كررها المؤلف ثلاث مرات(٢٢). والظاهر أن أحمد التوفيق يعد من الأدباء الحرَص على التفاعل مع نصوص ذي القروح، سواء تعلق الأمر بوصف الفرس الهيكل حيث بدت «نجمة» ابنة القائد «همو» «صبية بهية فوق فرس هيكل مكتنز»(٢٣)، وهو المعنى ذاته الذي أشار إليه امرؤ القيس وهو يباكر الصيد على فرس عظيم الجرم:

وقد أغتدي والطير في وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكل(٢٤)

وقد عزز المؤلف الاقتراض من ينابيع الشعر الجاهلي برجوعه إلى معلقة طرفة بن العبد يستعير منها أجواء المعرّة والمهانة التي يصاب بها المرء من ظلم الأقرباء، حيث جرد أبناء الشيخ (أحماد نايت إبرايم) من ممتلكاتهم بأمر من صهرهم القائد «همو» «وتلك معرة في بلادهم لا أقبح منها معرة، ومهانة لا أشد منها مضاضة»(٢٥) وهي عبارة لا شك في أنها نسجت على

طريقة قول طرفة:

وظُلم ذوي القـــربى أشدُّ مـــضاضـــةً
على المرء من وقع الحــــسام المهنّدِ[76]

كما سكّت هذه العبارة: «نشوب أظفار الشر في جسم (كيما)»[77] على طريقة أبي ذؤيب الهذلي في استعارة الأظافر للموت قائلا:

وإذا المنيــــة أنشــــبت أظفــــارها
ألفـــيت كل تميـــمـــة لا تنفع[78]

غير أن المؤلف لم يقتصر على الاستمداد من الجاهليين وحل أشعارهم التي تعامل معها تعاملا إدماجيا محافظا على دلالتها الأصلية في الغالب الأعم، وهو التعامل نفسه الذي سلكه مع شعر الغزل الأموي في هذه الإشارة على لسان «السالمة» التي ظلت تحب ضرتها «كيما» «فهي باقية في قلبي كما نبتت في الراحتين الأصابع»[79] التي تسترجع أجواء الشعر العذري في قول القائل:

لقـــد ثبـــتت في القلب منك مـــودة
كـــمـــا ثبـــتت في الراحـــتين الأصـــابع

كما تسترجع هذه العبارة التي تصف كبير حراس السجن وما يجب أن يتصف به من شدة وحنق على الآخرين «ولكن الأهم من اختيار الحراس، اختيار كبيرهم، فهو عنوان السجن الذي سيضفي اسمه على اسم السجن نفسه»[80] عبارة حسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه، أو عبارة إبراهيم بن الحسن بن سهل الذي رثى أخاه حيث قال الأول:

ضـــحّـــوا بأشمط عنوان السجود به
يقطّع الليل تـــســـبـــيـــحـــا وقـــرآنا[81]

وقال الثاني في رثاء أخيه:

قـــد كنتَ عنوان كـــرام مَـــضَـــوا
فـــمت فـــاخـــتلت أصـــول الكرام[82]

غير أن المؤلف قلب المعنى المتناص معه، حيث إن بنوة عبارة أحمد التوفيق بالنسبة إلى كلام الشاعرين اكتفت باقتراض اللفظ فقط. أما المعنى فقد دمرته وعكسته حتى أخفت دبيب الكاتب إلى المعنيين السابقين، وهي الإستراتيجية نفسها التي سلكها مع المعنى الذي يتناص فيه مع الشاعر المملوكي «البهاء زهير» حيث تمنت «السالمة»: «لو أنها سافرت إلى هناك بأجنحة طير مبارك لتحط فوق سور ذلك البيت وتواسي المكلومات»[83]، حيث يقول البهاء زهير في معرض تغزله:

قـــالت إن سُـــورنا عـــالي البنا
قلت لهـــا إنني فـــوقـــه طائر

أما عبارة «سالت به دموع مآقيها»[٨٤] فهي تستعير صوت ابن زيدون، ناهيك عن صوت أحمد شوقي الذي يعارض قصيدة ابن زيدون نفسها، وهو استمداد يصر على ترجمة أجواء الحزن الذي خيم على «السالمة» أثناء طقس الماشطات، والحزن الذي سيطر على ابن زيدون من جراء البين والفراق بينه وبين محبوبته «ولادة»، والحزن الذي جثم على أحمد شوقي في منفاه الاختياري: الأندلس. حيث يقول ابن زيدون:

بِنتُم وبِنّا فما ابتلّتْ جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفّتْ مآقينا[٨٥]

ولقد أصاب الكاتب المفصل في تبديد ألفاظ النص الشعري من خلال تقنية النقل التي أفضت إلى توليد دلالة أخرى كما يتضح ذلك في قوله عن القائد «هو القائد شخص أهوج سطحي الإحساس لا يستطيع أن يسبر أغوار الصدف ليبحث عن الدر»[٨٦]، الذي يستعيره من حافظ إبراهيم في وصفه للغة العربية التي رماها بعض المتفاحصين الداعين إلى العامية بالعقم، على الرغم من أنها بحر زاخر لا ينكش حيث قال:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي[٨٧]

مما تقدم يتبين أن الأستاذ التوفيق حاذق لسن، فحل خنذيذ أحسن التأليف بين الألفاظ المتخيرة ينتضيها من أماكنها، وهي أشد ما تكون تخيرا وصفاء وسلاسة، تهش إليها الأسماع، شأنه في ذلك شأن صنيع النحل الذي لا يكل في التنقل من زهر إلى آخر حتى يصنع للظامئين شرابا يشفي الصدور، فهو وإن تنقل بين دواوين الشعراء، فإنه أحسن اختيار القمم التي استمد منها قلائد أجاد تأليفها فجاءته المعاني المبتكرة رهوا، ينفي عنه مثالب الغصب والإغارة.

٥-٥ : حسن الأخذ والاستعانة بالخطب في رواية «شجيرة حناء وقمر»

ليس من العسير على من بذل النكيثة في دراسة الرواية أن يتبين ولع المؤلف باقتناص نتف وعبارات من خطب السابقين التي أودعها في ما حبر، من دون تكلف أو قلق في مواضعها التي اندمغت فيها في اعتدال وتوازن تهش لها القلوب، وتستحسنها الأسماع، وتتعجب من تواصعها الأذهان، ولا غرابة في هذا الاستمداد الحسن لأن الخطب تعد «من آكد ما يحتاج إليه الكاتب، وذلك أن الخطب من مستودعات سر البلاغة، ومجامع الحكم، بها تفاخرت العرب في مشاهدهم، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم، بها يتميز الكلام، وبها يخاطب الخاص والعام، وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب»[٨٨]، لهذا حرص القدامى على وضع قواعد، تفضي بالذي يترسم خطاها إلى الإجادة، ومن بين هذه النصائح التأكيد على كيفية تصرف الكاتب في

الخطب، حيث يوضح القلقشندي أن «من حفظ الخطب البليغة، وعلم مقاصد الخطابة، وموارد الفصاحة، ومواقع البلاغة، وعرف مصاقع الخطباء ومشاهيرهم، اتسع له المجال في الكلام، وسهلت عليه مستوعرات النثر، وذللت له صعاب المعاني، وفاض على لسانه في وقت الحاجة ما كمن في ذلك بين ضلوعه فأودعه في نثره وضمنه في رسائله، فاستغنى عن شغل الفكر في استنباط المعاني البديعة، ومشقة التعب في تتبع الألفاظ الفصيحة، التي لا تنهض فكرته بمثلها ولو جهد، ولا يسمح خاطره بنظيرها ولو دأب. إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة، ونوع من أنواعها يحتاج الكتّاب إليها في صدور بعض المكاتبات، وفي البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير»[٨٩]. ولعل الأستاذ التوفيق من أولئك الكتاب الذين ملأوا ذاكرتهم بجيد الخطب، شأنه في ذلك شأن ما يحكى عن خالد بن عبدالله القسري حيث قال: «حفظني أبي ألف خطبة ثم قال لي: تناسها . فتناسيتها، فلم أرد بعد ذلك شيئا من الكلام إلا سهل علي»[٩٠]، فكان لهذا الحفظ والنظر في آثار الأسبقين تأثير كبير في كلامه الذي يغرفه من بحر لا يساجل، ولا يغالب في الامتلاء، إذ إنه يمعن في اختيار كلمات يجعلها مزمومة مخطومة، تلتقط من بطون أمات المصادر كما تلتقط الجواهر من معادنها الأصيلة. وآية هذا الالتقاط: العبارات الآتية حيث يقول «ابن الزارة» عن كبير حراس السجن: «بل يكون من مصلحتك أن تكون الظاهر الذي من قبله الرحمة، ويكون هو ذلك الباطن الذي من قبله العذاب»[٩١] - فعلى الرغم من أن هذه العبارة تتناص مع الآية رقم ١٣ من سورة الحديد التي يقول فيها تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب...﴾ فإننا لا نعدم مثل هذا الكلام في خطب القدامى كما يشهد على ذلك قول ابن نباتة الخطيب من خطبة ذكر فيها القيامة قائلا: «هنالك يرفع الحجاب ويوضع الكتاب، ويجمع من وجب له الثواب، وحق عليه العقاب، فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب...»[٩٢]. كما أن العبارة التي يصف فيها الركب الذي سارت فيه زوجتا القائد همو (كيما . السالة) حيث يقول عن المرافقين المختارين من أصحاب الأمانة والشجاعة الذين يحس بهم «مرافقة جواهر الخدور وربات الحجال»[٩٣] هي عبارة تتناص مع قول الإمام علي بن طالب في إحدى خطبه حيث يقول عن اتباعه: «وعقول ربات الحجال»[٩٤]. قال الثعالبي: «بنات الخدور هن العذارى، ويقال لهن أيضا بنات الحجال»[٩٥]. وإلى ذلك يشير حافظ إبراهيم في قوله:

أي ذَوات الحِجال عِشْتُن للبرِّ ودمتُن قدوةً للرجال[٩٦].

أما العبارة التي أوردها السارد عن «همو»، الذي تمكن بعد جهد جهيد من تكوين وفد الأعيان الذين سيتوجهون معه لطلب توليته قائدا عليهم، حيث «استرهب الأقربين واسترغب

الأبعدين»[٩٧]، فهي عبارة مقتطعة من قول علي بن أبي طالب في إحدى خطبه: «ألا فاعملوا في الرغبة، كما تعملون في الرهبة»[٩٨]. وقس على ذلك كثيرا من العبارات التي أحسن المؤلف دمجها في الرواية، في اقتدار يظهر تشبعه بأساليب الخطباء، واستيفاءه لطرق صناعة الكتابة، وأئمة البلاغة الذين تناول معانيهم وجردها من أكثر ألفاظها، ثم كساها ألفاظا رائقة، ووشاها بأحسن الوشي، حتى بدت مفتتنة بكمالها في أبهى صورة، وأحسن كسوة، وأبدع ترصيف.

٥-٦ : الاستعانة بالأمثال والاستمداد منها في «رواية شجيرة حناء وقمر»

إذا كانت عقول الرجال تحت أسنة أقلامها، فإن ما أورده المؤلف من أمثال في الرواية، يؤكد ولا شك أنه يعد بحق جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، لما اشتملت عليه تلك الأمثال الموظفة في النص الروائي من لطائف المقدمات التي تشير إلى الأمور الكلية في اختصار تام، كما يشهد على ذلك كثير من الآيات القرآنية التي ضرب الله فيها المثل، كما في قوله تعالى من سورة النحل، آية رقم ١١٢: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾. وقد نصح القلقشندي للكتاب في وجه احتياجهم إلى استعمال الأمثال في ما يحبرون قائلا: «ولما كانت الأمثال كالرموز والإشارة التي يلوح بها على المعاني تلويحا، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا». وحيث كانت بهذه المكانة لا ينبغي الإخلال بمعرفتها، قال صاحب العقد: «والأمثال هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان على كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسرِ شيء كمسيرها، ولا عم عمومها، حتى قالوا: أسير من مثل، قال الشاعر:

«ما أنتَ إلا مثل سائر
يعرفه الجاهل والخابر»[٩٩]

والظاهر أن المؤلف كان دائم النظر إلى كتب الأمثال، قديمها وحديثها، فصيحها وعاميها حتى استقام لسانه عليها، يأتي بها في الموضع المناسب الذي يستدعيها استدعاء، لا تحس في استعمالها قلقا ولا أمتا، لأنها أنزلت في أماكنها الحقيقية. قال القلقشندي: «فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها، انقادت إليه معانيها، وسيقت إليه ألفاظها، في وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع والأحوال، فأودعها في مكانها، واستشهد بها في موضعها. والطريق في استعمالها في النثر، كما في حل الأشعار واستعمالها، إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها، ولا تغيير أوضاعها»[١٠٠]، لذلك من السهل العثور عليها فيما خطه يراع المؤلف. انظر إلى حسن موقع هذا المثل في الرواية:

«ولعل الهزيمة تجر عليك العزل، وحتى لو اقتحمت قلعة ايت برايم بتعزيز العسكر، فإنهم سيأخذون كل شيء وتعود بخفي حنين»[101]. الذي يستحضر دلالة ذلك الأعرابي الذي أوقعه حنين في المصيدة وأخذ راحلته وما عليها، وذهب الأعرابي للبحث عن الخف الأول بعد أن تمكن من الثاني، فلما رجع إلى قومه من سفره من دون شيء قال بعد يأس وخيبة: جئتكم بخفي حنين»[102]. هذا هو ديدن المؤلف في إيداع مجموعة من الأمثال في الرواية، رغبة منه في تفسير أحوال وأوضاع القائد «همو» وإيالته بالأشباه والنظائر في أوجز قول وأفصح عبارة، وأعمق دلالة كما في قول القائد «همو» عن زوجه «السالمة» «جاء القنديل بفتيل مشبع بالزيت»[103]، وهو يشير إلى مجيء العروس في فترة الليالي البيض التي تكون فيها قابلية النساء لحمل أكثر. أما مثل: «سأبحث لميزانك عن كفته الثانية»[104]، الوارد على لسان «ابن الزارة» فهو يشير في إيجاز شديد إلى عزم المشاور «ابن الزارة» على تزويجه من أهل الجبل. أما عبارة «كان في مناسبة الغذاء أيضا القاضي الذي جاء ليحمد العود للقائد»[105]، فتحيل على المثل العربي المشهور «العود أحمد»[106]. كما تحيل عبارة «وبذلك تلقم حجرا كل المعروفات في القبيلة بترويج الكلام»[107] على المثل العربي: «كأنما ألقمه الحجر»[108]، أي أسكته وفي ذلك يقول الشاعر العربي:

لَوْ كُلُّ كلبٍ عَوى ألقمتُه حجراً
لأصبحَ الصخرُ مِثقالاً بدينارِ

أما العبارة التي أوردها السارد عن السالمة التي بدا من تصرفاتها تجاه القائد همو «ما يدل من جهتها على قلب ظهر المجن»[109] فإنها تشير إلى المثل العربي القائل: «قلب له ظهر المجن»[110] الذي أورده علي بن أبي طالب في رسالة له لابن عباس حيث قال: «إني شركتك في أمانتي ولم يكن رجل من أهلي أوثق منك في نفسي، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرب، قلبت لابن عمك ظهر المجن...»[111]، أي خرجت عن المودة وخالفت العهد. أما عبارة: «ونصب خيامه وجلس يضرب أخماسا في أسداس يبحث عن الحيلة التي يحقق بها المراد»[112] فهي تشير إلى المثل العربي «ضرب أخماسا لأسداس»[113] الذي يضرب لمن يظهر شيئا ويريد غيره، وغيرها من الأمثال التي لوح بها المؤلف إلى المعاني المرادة تلويحا فنيا رائعا مثل أمثال: رفع عقيرته، بات يقلب الأمر، هن كعمق البئر في الكتمان، يضيفون حطبا إلى موقد حماسة ابن الزارة، تضرب عصفورين بحجر، مالي أهدي الجواهر للدجاج، والدجاج من سقاطته يحسب كل ما في العالم لقطا من حبات الذرة والشعير، اللي ما عندو همو تولدو ليه حمارتو... وهي كلها أمثال حافظ فيها المؤلف على ألفاظها، فضلا عن أوضاعها كما نصح القلقشندي للكتاب بذلك.

سادسا: خاتمة

هذا غيض من فيض الاستمداد الحسن الذي أودعه المؤلف روايته التي فازت بقدح القصل، ومن ثمة استحقت الفوز بجائزة الإبداع المغربي لسنة ١٩٩٨ ميلادية، حيث أبدى المؤلف براعة في الاقتباس من الآثار السابقة، من دون أن تكون كتابته مجرد صورة حائلة لها. انظر إليه مثلا وهو يشير إلى الحادثة التي وقعت للإمام أبي حنيفة الذي استمر في جلسته على رغم الألم الذي أحسه في رجله إكبارا لأحد الجالسين أمامه لأنه يعلم أن المرء مخبوء تحت لسانه. وعندما تكلم الجالس، وأبان عن سقطه. قال أبو حنيفة في تلطف وسخرية: آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه. وهي العبارة التي أشار إليها السارد أثناء الحديث عن الأعيان الذين «تبجحوا على همو ومدوا عليه الرجل في طريق السفر، وتصبر هو على جسارتهم في طريق الذهاب إلى الحضرة، وقام بجميع لوازم سفرهم حتى أنه كان كالخادم لهم»[114]، كما أن عبارات: لم يغمض له جفن، انحاشوا إلى القائد، كان في سابق الزمان وسالف العصر والأوان، بعد قطع الفيافي والقفار وخوض الأنهار وركوب البحار، أفي القدر تِبْر أم تراب... تحيل إلى الذاكرة التراثية الفنية لدى أحمد التوفيق الذي يغدو لديه الأخذ والتناص قانون الكتابة الذي لا يستغني عنه الأديب اللاحق. وفي ذلك يقول القلقشندي: «غير خاف على من تعاطى صناعة النثر والنظم أنه لا يستقل أحد باستخراج جميع المعاني بنفسه، ولا يستغني عن النظر في كلام من تقدمه: لاقتباس ما فيه من المعاني الرائقة، والألفاظ الفائقة، مع معرفة ترتيب أهل كل زمن واصطلاحهم، فينسج على منوالهم، أو يقترح طريقة تخالفهم. وتوارد الكتاب والشعراء على المعاني غير مجهول... ولا ينهض بمثل ذلك إلا من رسخت في صنعة الكتابة قدمه، وامتزج بأجزاء الفصاحة والبلاغة لحمه ودمه. وهذا المنهج هو أحد أنواع الإعجاز في القرآن الكريم، فإن القصة الواحدة تتكرر فيه مرارا في سورة متعددة، ترد في كل سورة بلفظ وتركيب غير الذي وردت به في الأخرى، مع استيفاء حد البلاغة ونهاية أمد الفصاحة، ولذلك قل من سلك هذا المنهج، أو ارتقى هذه الذروة»[115]. لأن الأخذ والاتباع . وإن كان سنة طبعية من سنن الاستمرار والتجدد . ضرب من الصناعة الفنية لا يدركه إلا الخنذيذ المنقح الذي يتلطف مع المعاني المشتركة، يقلبها من أوجهها العديدة، حتى تظهر بعيدة الصلة عن وجهها المطروق المستهلك، وتلك هي الميزة المهمة التي يدركها القارئ البصير بترسبات آثار السابقين في كتابات اللاحقين من أمثال كاتبنا التوفيق، الذي غرب علينا برواية رابعة اختار لها عنوانا يتناص مع الطرب الأندلسي «غريبة الحسين»، ويحرك الذاكرة التراثية في رحلة استكشاف طلسمية.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

أسفار(١) الترحّل والهجرة ومرجعياتها(٢) في شعر سليمان الفليّح وإبراهيم الخالدي

د. نجمة إدريس(*)

انطلاقات سليمان الفليّح(٣) وإبراهيم الخالدي(٤) الشعرية تكاد تنبثق من بؤرة معاناة «الاختلاف»، ومن الإحساس الحاد بالاغتراب والحصار حين معاينة الخلل أو الغبن في مفردات كون «مكاني وزماني»، يتحدى تطلعاتهما ورغبتهما في الانعتاق والتجدد. ومن ثمّ كانت تلك المحاولات الدؤوبة والمضنية لتجاوز ذلك الخلل (في الكون الخارجي)، وقلق الاختلاف (في عالم الذات)، عن طريق طلب الترحّل والسعي نحو هجرة واقع «زماني ومكاني» يبدو. في نظريهما. مجحفا وناقصا.

إن ملمح الترحل والسفر والهجرة لدى الشاعرين(٥) يكمن متخفيا، أو يبدو ظاهرا في شكل التطلع والارتياد والكشف، بحثا عن النقاء والتجدد، واكتشاف الذات، وتخليصها من ركامات التشويه والقسوة، أو الاستلاب والغبن، أو التكرار والبلادة. لذا تبدو السمة المميزة في مسألة «الارتحال» عن الواقع البليد أو المشوّه أو الظالم. إنها انطلاقة وحركة نافرة نحو الغد والآتي تتخذ سمت الرؤيا والاستشراف. ولكن هذه الانطلاقة نحو زمن آخر لا تكتسب زخمها وعنفوانها إلا بمرورها عبر رموز ومنارات تراثية تبدو متجذرة وعميقة الغور في وعي الشاعرين. إنهما يعيشان زمنا «أوسط»، يبدو فارغا وموحشا، زمنا يتأرجح بين «مستقبل» يحلمان بارتياده وصنعه، وماض تراثي سحيق يضيء ذاكرتيهما بالألق والعنفوان، ويمنحهما شرارات هداية تنير طريق الرحلة. ماض تراثي يهبهما زوّادة من إيمان بقيم إنسانية

(*) قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الكويت.

«ماضوية» ما تزال مرجعياتها التراثية مصدر إلهام لا ينضب. وعن طريق هذا التماهي بالتراثي والماضوي يصنع كل من سليمان الفليّح وإبراهيم الخالدي أجنحتهما الجامحة للانطلاق من «زمنهما الحاضر» المتخثر بالبلادة والخور نحو «زمن آت» ينهض فوق مشارف الحلم والأمنية.

هذا الشخوص الدائم نحو صهوة «الترحل» و«السفر» لا يعبّر بالضرورة عن حالة من الاستجمام والفرح بالانطلاق من الحصار والاستلاب، بقدر ما يعبر عن محنة الاصطراع مع عالم خائر لا يرقى إلى الطموح، وبالقدر ذاته يشي بألم التحوّل ومعاناة التغيير حين التجرؤ عليهما. إن الشاعرين لا يوليان ظهريهما لواقعهما الزماني والمكاني، ولا يجترحان حلم السفر والرحلة إلا بعد معاينة وتجريب مضنيين، اتخذا شكل المعايشة، فالمعاناة، فالنقد، فالرفض، الذي اتخذ في شكله النهائي سمة الرغبة في الخلاص، واكتشاف ذات أخرى بريئة ومتجددة.

أولا: سليمان الفليّح

١- الصعلكة طريقا

يتخذ سليمان الفليّح من «الصعلكة» أسلوبا للتعبير عن المعاناة والرفض، إذ وجد في الصعلكة - بما فيها من إيحاءات تراثية غنية - الوعاء الأمثل لتجربته الشعرية المنطوية على الإحساس الفادح بالظلم ورقة الحال والانكسار أمام مظاهر التسيد والقسوة، ومشاهد التلوث الاجتماعي وحصار الثقافة المادية، ناهيك عن اغتيال قيم البراءة متمثلة بانسحاق الصحراء والبداوة أمام زحف مدينة جائرة تقزم الإنسان وتبهظه وتنتهكه بلا هوادة، لذلك تبدو الصعلكة طريقا لا مفر منه لشاعر مثل سليمان الفليّح يعيش تجربته الشعرية بمستوييها الفني والواقعي، إذ تغدو الصعلكة قدرا وواقعا تتلبس الشاعر، فيتخذها مطيته وأداته الوحيدة لبث معاناته ورفضه واستهجانه لواقع يعاديه أو ينبذه أو يهمشه.

ولعل في ارتداء ثوب الصعلكة وإعلانها صهوة انطلاقه ما أعانه على التماهي بشخصيات الصعاليك واكتساب جرأتهم في المشاكسة والمناوشة والسخرية والتهكم، وزهوهم بشجاعة المواجهة والصلف والتحدي، وإخلاصهم للفقر والشظف ورقة الحال وخشونة العيش.

إن مصطلح «الصعلكة» وحضورها كموقف وسلوك بدأ مع الشاعر في ديوانه الأول، مرورا بالدواوين الأربعة التي تلت، مما يعني أن استخدامها وتمثلها غدوا موقفا شعريا يسم الشاعر بهذا الملمح المميز. وأول استخدام للمصطلح نجده في نص «من مفكرة صعلوك» ديوان الغناء في صحراء الألم.

توضأت بالرمل عند ارتحالي
تزودت بالتمر والنفط، كانت طيور الجزيرة
رفوفا مع الغيم والشمس تأتي
رفوفا/رفوفا
مبللة تنحني فوق رأسي
تمارس هجراتها المستديرة
توقفت، قلت، ارتحالي طويل
تفيأت ظلي ونمت
وعقلي تفيأ ظل الشجيرة
أفقت من النوم، نظفت عقلي
وصارعت طعم النعاس، انتفضت
تذكرت زحف الأفاعي الخطيرة
لهذا تخوفت لما رأيت الطيور التي في أعالي الشجر
تحد مناقيرها كي تعري الجذور الأخيرة
وواصلت سيري
تفاءلت أني مشيت ولكن طير المربعي أعصابي
"على العابرين التوقف"
يحدث وجهي انصلاب السياج
وبعض التخوم التي لا تضيء
تجاسرت، ألغيت صمتي
تنهدت ملء الضلوع/ تجزأت حزنا/ تساقطن مني الدموع
وجاءت رفوف القطا أيقظتني/ من الموت حزنا
تطلّعت صوب الرفوف
تفيأت ظل الجناح المرفرف[3].

والصعلكة في هذا النص تأتي موازية للارتحال الكسير المرتجف الذي يبدو فيه المرتحل متهافتا ومتوجسا من «زحف الأفاعي» و«الطيور التي تحد مناقيرها»، وحادسا بالاصطدام «بالأسيجة والتخوم» التي تثقب براءته وعنفوانه وتملؤه حزنا ودمعا. ولكن الاصطدام بتخوم المدن الجائرة يحدث لا محالة، وتنتهي الرحلة بالانكسار. ولا يبقى من فيء غير «ظل الجناح المرفرف».

وجاء الاستخدام الثاني لمصطلح الصعلكة مرتين في ديوان «أحزان البدو الرحل»، مرة في نص «جرة على الربابة»، الذي أهداه إلى «شليويح العطاوي» الذي عرّفه بقوله: «إنه من أشهر

فرسان الجزيرة العربية الصعاليك في القرن التاسع عشر، بل ومن أنبلهم وأشجعهم»[٧]. ومرة ثانية في نص: «أغاني الصعاليك»[٨]، الذي اشتمل على ست مقطوعات: ١- «أهزوجة»: ويعلن فيها الشاعر رفض العبودية والدونية والانسحاق، وكذلك يأتي على ذكر التعرض للخلع والتشرد والضعة والضياع. ٢- «تأبط شرا»: تمتلئ المقطوعة بالإحساس بالحصار الذي يدفع إلى الترحل المنطوي على الحزن والحاجة، والمرتعش بلا أمن أو ظل، والمتوحد بذاته المنكسرة. ٣- السليك بن السلكة. ٤- أبو الطمحان: وفيهما إصرار على التمسك بالصعلكة منهج حياة، على رغم الخيانات والهزائم. ٥- الشنفرى: وفيها يؤنب القبيلة التي نبذت أبناءها واعتقدت أنها مكتفية بذاتها، بأنها سوف تكتشف حاجتها إلى من نبذتهم. ٦- عروة بن الورد: وهي المقطوعة الأخيرة التي يرى فيها بأن الحصول على الحقوق يحتاج أحيانا إلى العنف والإغارة محاطين بالرضى والزهو. وكل تلك الإشارات والمعاني الواردة في المقطوعات الست هي جماع قيم الصعاليك وقانون حياتهم القائم على التشرد والارتحال والإحساس الفادح بالظلم، ومناجزة مجتمع الصلف والقسوة.

أما في ديوان «ذئاب الليالي» فهناك نص «الوصايا الأخيرة لصعلوك بني نفط»[٩]، وكذلك جاءت لفظة «الصعاليك» وأسماء «عروة والشنفرى والسليك وابن الغرابة» في نص «أغنية الولد البدوي»[١٠]. وقد جاء النص مشحونا بالحنين إلى البراءة والبداوة والنقاء المفقود، وهو حنين يتغلب به على الهمود والبلادة وكآبة المكان. وهنا تغدو الصعلكة أيضا ارتحالا عن الثبات والتكرار وتخثر الزمن وانطفاء الإنسان.

أما في ديوان «الرعاة على مشارف الفجر» فهناك نص «مجرد صعاليك»[١١]، الذي يعبر عن الفجوة بين مظاهر الغنى والمدنية والترف التي أقصي عنها، وعالمه المنطوي على توحشه ورفضه وتحديه وانطلاقه. ربما نتيجة الإحساس بقلة الحيلة ورثاء الذات. نحو العنفوان والنبل، بحثا عن ملاذ. إنه. دائما. الرحيل والانبتات عن أولئك الغارقين في صلفهم وترفهم الفاحش ولا مبالاتهم، حين لا عزاء إلا بهذا الرحيل.

٢- التماهي بالصعاليك تراثا

تبدو ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي ظاهرة تنطوي على المتناقضات حين النظر إليها بمنظور عصري. فهي من جهة تشير إلى من يتجردون للغارات وقطع الطرق من شذاذ الآفاق والخلعاء، الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم، أو لكونهم مجموعة من أبناء الحبشيات، الذين تبرأ منهم آباؤهم وسموا بأغربة العرب لسوادهم. فهم إذن نتاج طبقة مسحوقة، مسلوبة الحقوق، تمتلئ نفوسهم بالإحساس بالظلم والتخلي ورقة الحال[١٢]. والصعلكة من جهة أخرى تعني موقفا حياتيا ينطوي على الرفض للواقع الجائر، والثورة على القيم القبلية الممثلة للاستكبار والصلف وقهر الإنسان وتهميشه[١٣]. ولا شك في أن النظر

إلى الصعلكة من هذا الجانب سوف يسبغ عليها هالة البراءة ويجعلها مجلبة للتعاطف ومثارا للإعجاب، ما دام الصعلوك يناضل من أجل إنسانيته المهدورة وبقائه المهدد بالحصار. وإذا أضفنا إلى هذا جوانب أخرى تعطي الصعلوك سمته الخاصة، فسوف تزداد مساحة التعاطف والعجب، فالصعلوك غالبا شاعر، وصفة الشعر توسع من آفاق إنسانيته ورؤاه، وتحد من درجة إحساسه ورهافته حين الشخوص في متناقضات الحياة. وهو إلى جانب «ترديد صيحات الفقر والجوع، فإنه يختزن ثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء، ويمتاز بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو وركوب الخيل. والصعاليك يتغنون . في أشعارهم . بمغامراتهم ويتمدحون بالكرم، ولديهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة في الحياة. وكأنما تحولت الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية. وهي حقا تقوم على السلب والنهب، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيدا كريما»[14].

ولعل صورة الصعلوك في العصر الجاهلي . وهي صورة تحمل إيحاءات الانكسار والنبل والتهكم . كانت مدعاة لإثارة شغف الشاعر لتشابه الأحوال وتقارب التجربة الإنسانية والشعرية، لذا فتمثل الصعاليك والتماهي بشخوصهم ومسلكهم يبدو ملمحا مميزا من ملامح شعر سليمان الفليّح، فهناك ذلك التوجه المستسلم للفقر ورقة الحال والشظف:

نعاني التشرد والفقر لابأس
فالدهر إن كان صلبا
فليس علاج الصلابة إلا الصلابة[15]

وهناك ذلك العزوف القسري أو الإقصاء - الذي يشبه الحرمان - عن الترف والغنى ومشاهد الرفاهية، التي يضج بها المترفون ومدنهم الفارهة، في حين ليس للصعلوك غير أن يعيش على هامش هذا البذخ منطويا على الشدة:

ليس للصعاليك/ الاحتفالات/ والكرنفالات
طقوس الدنان الثمينة/ والبزز الباذخة
ليس للصعاليك/ دعوات السفارات/ أو واجهات المطارات
أو بهرج المرأة "الكاشخة"
ليس للصعاليك/ غير ملح البحار/ ورمل الصحار[16].

ونتيجة لهذا الإحساس الساحق بالانبتات وعدم القدرة على التأقلم مع مجتمع الرفاه، تنمو في نفس الشاعر نزعة «السخرية المتهكمة» وتتأصل، وهذه السخرية قد تتخذ أحيانا شكل الازدراء واحتقار الغنى والأغنياء، ومحاولة النيل منهم واستصغارهم، وسلبهم صفات النبل والمروءة أو التفوق والهيبة.

وفي ديوان «رسوم متحركة»، على وجه الخصوص، تتضح نزعة السخرية من «أصحاب الدينار» واحتقار غناهم في أشد صورها إثارة، وذلك حين يكون الغنى مدعاة لإذلال الفقير وسحقه:

أذل من دجاجة/ أقذر من صرصار
أحقر من بعوضة/ أضخم من حمار
لكنه/ سبحان معطي الرزق/ لكي نقول الحق
جنوده نقوده/ وسيفه الدينار
وفيه ما يكفيه من طيب الأذكار
لكنه وهذه وشاية صغيرة/ ليس بها من عار[17].

«ندرة الدينار» لا تذل الفقير فقط، بل تقصيه أيضا عن مراتب المجد، وتطفئ شمسه، وتعيده صاغرا إلى حياة الظل:

في الزمن السخيف/ هناك ألف سيف/ بيني وبين الشمس
لا تقطع الأعناق/ بل تقطع الرغيف[18].

وبذلك يتحول غنى الآخرين ورفاههم، وما يستوجبه من نفوذ وتسيد إلى سيف معاناة آخر يقهر الشاعر ويشعره بالضعة إزاء التبجح، وبالتقهقر والقماءة إزاء حواجز الاستعلاء:

لي رجاءٌ لا تصر/ سيدي غض البصر
لست أصلح/ من نداماك لأني/ بالمقيد المختصر
كلما عمرك طال/ سيدي عمري قصر[19].

إن نزعة «السخرية المتهكمة» التي خصص لها الشاعر إصدارا منفردا، وهو ديوان «رسوم متحركة»، لا شك في أنها تنطوي على وجه آخر من وجوه المعاناة، وهذه المعاناة تتضح في عدم القدرة على التأقلم مع واقع يشعر بالغبن والاستلاب، ويزيد من الشعور بالانسحاب والضعة، فتتضخم حينذاك الرغبة في رفض الواقع والنيل من رموزه، وإيلامهم بتلك السخرية اللاذعة. وكثيرا ما تأخذ هذه السخرية أبعادا غير مبررة، وتتحول إلى لون قاتم من السادية الشعورية والتلذذ بالانتقاص[20].

وفي كل أحوال السخرية والتهكم التي يتنكبها الفليّـــح لا يشعرك من خلال سخريته وامتعاضه بأنه الأفضل أو الأنقى، بل يتمثل فجيعته الشخصية من خلال هذا الواقع الشائه، فهو- كما في نص «حالة»[21] - يــشارك أولئك المسخور منهم تلوثهـــم وغثيانهـــم، ويغرق معهم في جو من الجهامة والبـــلادة والخـــور والـــفراغ من الطـــموح وبهـــجة الحـــياة. ومن خـــلال غـــرقـــه في أوحـــالـــهم يـحلم بشكـــل ضمني بإمكـــان النجـــاة من خـــلال الاعتراف والتطهر.

وكما ينتقم الصعلوك الجاهلي بالغارة والسلب والنهب وإلحاق الأضرار المادية بمن سلبوه حق الحياة الكريمة ودفعوه إلى التشرد وشظف العيش، يتخذ صعلوك العصر ما يشبه هذا المسلك، إن لم يكن بالغارة الفعلية التي تتطلب الخيل وهداة الليل وسرعة العدو، فبالذكاء والمسايرة والمداهنة التي تحقق الغاية. والشاعر إذ يعترف بقذارة الفعلة، فإنه يراها أهون شرا من التباكي والشكوى:

دع البكاء/ يا أيها الحكاء والشكاء
واغنم زمان النصب/ ثم السلب/ ثم النهب
فأقذر الأشياء في زماننا/ صارت هي الذكاء[22].

إن السلب والنهب ليسا في عرف الصعلوك عارا ونقيصة، بقدر ما هما سبيل لنيل الحقوق التي تحتاج إلى عنف وتجاوز، حينها تغدو الغارة مدعاة فخر وخيلاء وسبيلا إلى العدالة. في إحدى مقطوعات «أغاني الصعاليك» يتوحد سليمان الفليّح مع «عروة بن الورد» قائلا:

أمير الصعاليك يأتي
وفي بيته الآن ينتظر الجائعون القرى
والإقامة
يغير على ذود كسرى وحيدا
كما البرق قبل المساء
ويأتي قبيل العشاء
يسوق النياق المغاتير
كالبدر يشمخ فوق الغمامة[23].

من الملاحظ أن إحساس الشاعر بالتلوث والمظالم في محيطه يكاد ينصب مجمله على شعوره بتلوث البشر ومظالمهم وصعوبة تقبلهم أوالتعامل معهم. مشكلة الشاعر الأساسية هي إذن مشكلة «الناس أو الآخرين» المغترب بين ظهرانيهم والرافض لصلفهم وتجاوزهم له. بينما في المقابل هناك حب للأرض والوطن، ورغبة ساحقة في الانتماء إلى حضن يبدو أنه يرفضه ويقصيه. إن «الوطن» كمستقر وملاذ، يتحول لدى الفليّح إلى أمنية جارحة، لأنه صدر عاق، أو جنة تغلق أبوابها دون محبيها الأوفياء، فيظل مبللا ببكائه وغنائه لتلك البلاد التي لا تنفك «تشاجره»، لأنه «يغني لها في المساء»، أي يحبها بطريقته الخاصة، على رغم عدائها له:

أنا طائر أعزل في حقول البكاء
شاجرتني ـ صباحا ـ بلادي
لأني أغني لها في المساء
فهل ـ أيها العارفون بكل الأمور ـ

رأيتم بلادا تشاجر أطيارها
في سبيل الغناء؟!(٢٤).

متخذا قناع «الشنفرى» في مقطوعة بهذا العنوان، يؤكد سليمان الفليّح مرة أخرى ولاءه لـ «القبيلة - الوطن»، على رغم صنوف أذاها. ولكن القبيلة ستظل سادرة في غيها، ظانة باكتفائها بذاتها، حتى تكتشف حاجتها إلى من نبذتهم من «أبنائها المخلصين». إن القبيلة التي فرّطت في «الشنفرى» دليلها نحو «الفياض العذبّة» في موسم الجدب، هي ذاتها تعود في عصر الفليّح لتسمه بـ «الصفات الرذيلة» ظلما، كما وسمت الشنفرى، وستفتقده يوما حين الحاجة إلى «مخلصين» و«أدلاء»:

أتدري لماذا خلعت؟!/ لأن القبيلة/ تفكر دوما بأن الخميلة ستبلغ حتى ضلوع الجبال/ وتمتد حتى حدود الخيال/ ولكنها بعد أن يمضي الوسم لما يجيء الربيع/ ويكشف زيف الرؤى المستحيلة/ أخيرا تفكر أن المغازي إلى موطن العشب/ في موسم الجدب/ أعمال جد نبيلة وتعرف أن الأدلاء نحو الفياض العذبة/ أبناؤها المخلصون الذين رمتهم - جزافا - بكل الصفات الرذيلة(٢٥).

ويبلغ التعلق المضني مداه حين تتحول أمنية التواصل مع «الأرض - الوطن» إلى لون من الارتحال الصوفي الشفيف نحو معشوقة ضوئية نائية يستقطر منها الشاعر الأمن والدفء:

وعينا موضي واحة أمن وظل
وواحة بن وفل
جدائل موضي غيم من المسك يعبق بالعطر
لما تجف خزامى الصحاري(٢٦)

ولكن «موضي»، التي تتحول هنا في نص «طير الغياهب»، إلى رمز صميم للأمن والدعة «تفر»، تاركة الشاعر يكد مسافرا وراءها في «عتمات الغياهب»، وقد «هده الارتحال» وانتظار «وجه موضي يهل»:

أسافر في عتمات الغياهب/ طيرا غريبا بلا جهة أو صدى
غير أني لما كرهت الظلام/ وطال اصطباري/ توجهت في ثقة للضياء
التحمت به/ ثم صار الضياء مداري/ صحيح لقد هدني الارتحال
أنقل عشقي على هذه الأرض/ منتظرا لك وجه «موضي» يهل
إلى أن مللت انتظاري/ فقلت سأصنعه قمرا/ أو رغيفا من النور
أهديه للجائعين أو الضائعين/ فكان لذلك وجه موضي اختراعي الأخير
وكان الرحيل إليه قراري/ وموضي أجمل ما خلق الله في الكائنات
تشع بروحي منذ قرون فتشعلها بالحرائق/ ثم تفر
لذلك حان إليها بهذا الزمان فراري(٢٧).

يفجر نص «طير الغياهب» سالف الذكر مشكلة الاغتراب، التي تمثلت في الرغبة في الرحيل والسفر عن عالم الآخرين، بحثا عن وطن يشبه الحلم في دفئه واحتوائه، وخلوه من القسوة، ونقائه من الملوثين والمتبجحين والمختالين بنفوذهم وتسيدهم. واغتراب الشاعر يشبه اغتراب «الشنفرى» في «لامية العرب» في مستواه النفسي والروحي، فهو اغتراب يغذيه التوحش والهجرة عن وسط يقزمه أو يناصبه العداء، أو يسلبه حق الاعتراض والحرية وتحقيق الذات:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزَّلُ
ولي دونكم أهلون، سيدٌ عملَّسٌ
وأرقط زهلول وعرفاء وجيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع
لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل[٢٨]

وكما يستبدل الشنفرى المغترب عن مجتمع القبيلة بالناس الذين آذوه وأنكروه حيوانات البرية وكائناتها المتوحشة، ويتخذهم أهلا وملاذا يستعيض بهم عن خيبة أمله بإنسانية الإنسان وأخوته، يتنكب سليمان الفليّح التفرد والتوحش والتماهي بالحيوان والطير وكائنات البرية فيلج من خلالها إلى عالم يألفه ويفهمه ويقيم معه أواصر الحب والإخلاص المفقودين في عالم البشر. وهذا التماهي بروح الحيوان وعالمه يكاد يبرز على مستويين مختلفين:

المستوى الأول: يتضح في ذلك الحنو والفهم المتبادل بين الشاعر وعالم الحيوان والطير، إلى درجة التقمص والانذياح اللذين يسبر الشاعر من خلالهما ما تنطوي عليه أرواح الحيوان من سمات أخلاقية تملؤه بالإعجاب والتقدير الجم. في نص «أمير الوحوش» الذي يهديه الشاعر إلى روحين مكتئبتين: الذئب في حديقة الحيوان، وصديقه مسفر الدوسري في الشقة الوحيدة، يعقد مقارنة بين هذين الكائنين المرتهنين للأسر وعبودية الجسد رغما عنهما، وبينه هو الذي «يلوب بهذي المدائن منذ انحدر إليها» «فطُعن ولُعن واهين». ومن خلال هذه المقارنة يتوصل إلى أن القاسم المشترك بينهم - هم الثلاثة - هو تلك الروح الوثابة التي تستعصي على القيد وتتطلع إلى الانطلاق، وتظل «تزمجر مثل الرياح»:

عن الذئب أولا:

مرحبا يا أمير الوحوش أحييك من قبة القلب
وأقدم نوارة من سهوب البراري إليك
وأرثيك من لعنة الانزواء
فأنت أسير الزنازين / عبد لحملقة الآخرين

ولا تقبل الارتهان كباقي الوحوش/ ولا تقبل الاحتواء
تلوب طوال النهار بـ "مترين"[3] صارا إليك جميع القفار
وصارا الفضاء
وقلبي يلوب بهذي المدائن منذ انحدرت إليها
طعنت/ لعنت/ أهنت
ولكن روحي ستبقى تزمجر مثل الرياح
عن الدوسري:
غراب جميل يعيش على الشعر والحب والأصدقاء.
فيكويه عصره/ يلويه دهره
لكنه كعصا الخيزران/ يرفض الالتواء
عن الكل:
كلهم في البلاء سواء
"مسفر" وأمير الوحوش وقلبي
كائنات تباد
وتبدأ من حيث لا ينتهي الابتداء[29].

في هذه المقارنة تبرز صورة الذئب لتعطي الزخم والوهج للشخصيتين الأخريين في النص وهما: الشاعر وصديقه مسفر الدوسري، إذ تبدو صفة رفض الارتهان من غرائز الذئب الأساسية التي تكتسب بعدا أخلاقيا جميلا حين نسبتها إلى الإنسان.

والحيوان لدى الفليّح لا يذهله بـ «أخلاقياته» فقط، وإنما يثير في نفسه الحنو والشفقة على مصيره الذي تهدده شراسة الإنسان وعبثيته التي تغتال براءة الطبيعة، التي تمثل رموزها الطيور والكائنات البرية:

قرب جزيرة عوهة
سدّد صياد أحمق "خرازته"
نحو اللوهة
ما طارت
وبعينين بهما حزن الدنيا
كانت ترقبه مشدوهة[30].

المستوى الثاني للتماهي مع عالم الحيوان يتضح في تأمل الشاعر لطباع الحيوان الغرائزية وغرائب تصرفاته، ومن ثم إسقاط هذه الطباع الحيوانية الغرائزية على الإنسان وتحولها إلى طباع ممجوجة أو مثيرة للسخرية والتهكم. وهذه إحدى طرائق الفليّح في

التعبير عن استهجانه لأولئك الذين يمثلون تهديدا له، لأنهم يجتاحونه أو يسحقونه بنفوذهم وسطوتهم أو غناهم، فيدافع عن نفسه بأسلوب السخرية والتهكم على فجاجتهم وغلظتهم وافتقارهم إلى الإنسانية، وذلك بإسقاط طباع الحيوان المجوجة عليهم ورسمهم بتلك الصور الكاريكاتيرية الهازئة. ونظرة سريعة إلى عناوين نصوص ديوان «رسوم متحركة» تزودنا بكم غير قليل من صور الحيوان البرية والبحرية والزواحف والحشرات التي يرى لها شبيها من بني الإنسان، مثل: البطريق، الورل، القنفذ، السلوقي، الهر، السحلية، أبو جعل، خروف، حشرة، سخلة، السوسة، الضبع، الوبش، الخرتيت، عضاءة، الهيس، كلب، الخقاق، الرعاش، الشريب، الفريالة، اللخمة. والأمر لا يحتاج إلى تأمل طويل لمعرفة رأي الشاعر في أولئك الذين يسميهم بأسماء هذه الكائنات.

إن توظيف صورة الحيوان، عامة، في شعر سليمان الفليّح قد تختلف بشكل أو بآخر عن مثيلاتها في مرجع تراثي مثل كليلة ودمنة[21]. ففي «كليلة ودمنة» يأتي تماهي الإنسان بالحيوان استجلابا للحكمة والاتعاظ والتعلم والتأمل، وتكون شخصية الإنسان في سياق القص ضمنية أو افتراضية، في حين تأتي مقاربة الفليّح، لإبراز المعنى عن طريق التقابل والتوازي وانعكاس المرايا. وهذا التوظيف يحول الطباع من طباع غرائزية محايدة لدى الحيوان إلى طبائع ممجوجة أو مستهجنة لدى الإنسان، ولكنه لا يبخس الحيوان براءته وتلقائيته، بقدر ما يستنكر على الإنسان خروجه عن آدميته وتزيِيه بزي لا يناسبه وسمات ليست له.

٢- مرجعية الصحراء

يمكن اعتبار سليمان الفليّح - الشاعر والإنسان - خير من عبر عن أزمة جيله من أبناء البادية المتناثرين على مشارف مدن المنطقة، الذين لفظتهم الصحراء لشحها أو لانتهاء عهدها كموطن في زمن التحضر الكاسح، فوجدوا أنفسهم منكفئين على تخوم مدن ترفضهم أو تتحفظ في قبولهم، وتعدهم من المتطفلين أو الزائدين على الحاجة. وتكاد معاناة الفليّح - من هذا الوضع المقلق واللاإنساني، المنطوي على التشرذم وفقدان الأمن وضياع الهوية - تشكل بؤرة المعاناة في مجمل أعماله الشعرية. إنه يجد نفسه كائنا منبتّا يقف بين عالمين موحشين: أحدهما صحراء غاربة تتلاشى روحها الأليفة وبراءتها وطهرها بكل ما تمثله من قيم الأصالة والانتماء إلى الجذور والحضن، وثانيهما مدينة تنطوي على القسوة والنبذ ومعاداة أولئك اللاجئين إليها، الذين افتقدوا، نتيجة للمتغيرات القسرية، عنفوانهم وشموخهم، وغدوا جماعة من المستعطين الفقراء، الممتلئين بالأحزان، والآيلين إلى الانطفاء. يمكن اعتبار نص «البدو الرحل» من ديوان «أحزان البدو الرحل» خير ما يعبر عن هذه المعاناة في شعر الفليّح فنا وموضوعا. إنه نص يتفجر بالشجن واللوعة، ويضج بذلك

الروع وارتجاف الإنسان من انكساره ومراراته، وعذابات ارتحال قسري يتخذ بعدا روحيا ونفسيا أعمق مدى من بعده الواقعي. إن حكاية آخر جماعات البدو الرحل اللاجئين لبوابات المدن، معفرين بالحاجة والذل والفقر، تغدو في هذا النص أغنية فاجعة معذّبة تعلن اندثار الصحراء وسقوط رموزها واندحار إنسانها:

ها قومي انحدروا من مرتفعات الماضي ـ شُهْب الأعين ـ
تجلدهم ريح المستقبل نحو الواحات المأهولة بالأمطار
ها هم مثل جراد القحط القادم من آخر إقليم في الدنيا
جاءوا وانتشروا في هذي الصحراء الرملية مثل الأحجار
ها هم عند حدود الغيم الأزرق ناموا
فتوسد كل فقير منهم عرفجة / عوسجة
حلموا بالفجر وأبكاهم برق شق الظلمة "يشعق"
يتعرج في دائرة الأفق المغلق
لكنه ما يلبث أن يخبو
فابتلت من أدمعهم عند الفجر الريح
الأرض/ الأشجار
ها هم قاموا
ساروا نحو تخوم المدن الكبرى
جوعى/ عطشى
يستعصون الخبز اليابس والماء الآسن والنار
ها هم عند حدود المدن الكبرى محنيو القامات
منكسرو الهامات
ومشتملون بأسمالهمو الرثة لا تكسوهم
إلا الأطمار
ها هم تجلدهم / كي تبعدهم
عن أسوار المدن الكبرى
نحو تخوم المدن الكبرى
خيالة جيش التتار
ها هم يضطجعون هنالك
مثل الأخشاب المنخورة خلف الأسوار
ها هم ينطفئون هنالك

عند حدود الغيم الأزرق مثل الأنجم
كي يسدل عن آخر أخبار البدو الرحل
في هذا العصر ستار[٣٢].

أما نص «تحولات الخبل الزين» في ديوان «الغناء في صحراء الألم»، الذي قدم له الشاعر بقوله: «إلى جيلي، خريجي المضارب السوداء»، ففيه تصوير قريب أشبه بالسيرة الذاتية المختصرة، تتناول المتغيرات التي مست حياة أبناء البادية إبان الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. متغيرات مفاجئة وكاسحة نقلتهم من دعة الصحراء وشظفها إلى مدينة النفط والمعدن:

أ- الخمسينيات

أذكر في أعوام البدو الرحل نحو الشجر النامي عبر الآل
وسياط الشمس تقرّحنا ببقايا تلك الأسمال
أذكر إذ أوغل في ذهني
وتدق الذكرى في البال
وجها بدويا محروقا، صلبا، كجمود التمثال
يركض خلف الإبل العطشى
يحفر آبارا وهمية، تبعد آلاف الأميال[٣٣].

هذا الوجه البدوي هو وجه «الخبل الزين»، الذي طالما كانوا يسمعون حداءه في ليل الصحراء، حين كان ابن الصحراء في تلك الفترة، ولكن ما إن يأتي عقد الستينيات حتى:

تجيء سنون المحل المرعب
ويجيء الفقر القتّال
يحصد إبل البدو الرحل
يحشرهم للمدن الكبرى[٣٤].

وهكذا يجد «الخبل الزين» نفسه «محشورا» ضمن أسوار شركة النفط بعد المحل الذي أصاب حياته في الصحراء. وما أن يأتي عقد السبعينيات حتى تغير مدينة النفط ملامح «الخبل الزين»، فيستعصي التعرف عليه، ولا يبقى من ملامحه القديمة غير صدى حدائه الذي كان يطلقه إبان الخمسينيات:

"وضحا وسنامه عال
وردت على أمر وعال"[٣٥].

وهكذا يتزامن سقوط الصحراء مع نهوض المدينة، التي اتخذت - بالنسبة إلى الشاعر - صورة المارد المعدني الذي ينطوي على التوحش والقسوة، فيتضاءل أمامه

الإنسان ويفقد عنفوانه وزهوه القديمين، ويغدو «قنفذا بلا حراك» أو «حنظلة مقطوعة الجذور»، ولا يملك حينها - وهو في هذا الوضع المستخزي المنكسر- غير أن يحلم «بمضارب قبيلته الغاربة»:

"دعوني يا رفاق الوجع المر
أهجع بين الغابرين كقنفذ معدني بلا حراك
لعلها تحملني أكف الفجر البيضاء إلى مضارب قبيلتي الغاربة
التي تخفق بيوتها كرايات سوداء تعلن عن بدء أزمة الذل
لأني بدأت أحس أنني حنظلة مقطوعة الجذور"[٣٦].

وكما ينكسر الإنسان البدوي أمام مدينة جائرة لا تفهم لغة روحه وبراءته، كذلك يُذل «الجمل» ويقعي «الذئب» بلا عواء، ويتحولان من رمزين من رموز الكبرياء والعنفوان إلى كائنين مستخزيين هينين، لا قيمة لهما في ظل المدينة الزاحفة:

الجمل الذي خلّفه الرعاة
في الفلاة
مقيدا مهجور
قد نقرت هامته
كواسر الطيور
فخرج الدود من عيونه
وظل حول نفسه
يدور
ذئب وحيد في العراء
يقعي على الحشائش الخضراء
يرنو إلى دخان النفط
ذئب بلا مأوى
ذئب بلا عواء
ذئب لربما ألقت به الرياح
إلى متاهه الفظيع
ذئب بلا قطيع
ذئب لربما تبرأت من جنسه الصحراء![٣٧].

وكما تغتال المدينة كائنات الصحراء وحيواناتها، تغتال أيضا واحاتها ومرابعها وتحيلها - حين التنزه في الربيع - إلى صورة أخرى ممسوخة من حياة المدينة الصاخبة المعادية:

"هذي القيضة أعرفها ولو تغير الزمان
كانت مستعمرة للحبارى/ ومنبتا للحمض والقلمان
كانت مرتعا للإبل/ إذ يمتزج حليب النوق بنكهة الأزهار
هذي القيضة غدت الآن
في الليل - بالربيع - مدينة تعج بالأنوار
وحينما يستيقظ النهار
تعج بالخيام البيض والعربات الأمريكية الصنع والنوار
تقطعها القنابر الحزينة
مرعوبة من "الشوازن" المصوبات في الهواء"[28].

وبذلك تصبح المدينة ضريبة واجبة، والصحراء ورموزها تندثر رغما عنها وتنسخ.

ويبدو أن النقلة السريعة والمتغيرات المادية التي دهمت حياة الطارئين على المدينة وضعتهم وجها لوجه مع جو غرائبي فقد فيه البعض هويته وسيماءه، واختلطت لديه القيم والسمات التي أتى بها من الصحراء مع قيم المدنية المادية. لذلك لم يعد أمثال هؤلاء كما كانوا، وأيضا لم يصبحوا مثل أهل المدن في تأقلمهم السهل مع طوارئ التحضر وأدواته وأساليبه الحياتية. ولعل خير من يمثل تلك الشخصية المتذبذبة المتخبطة ما نراه من رسم كاريكاتيري مثير للشفقة في نص «سهرة الجمل»، لذلك البدوي الذي تحول إلى جمل ممسوخ مشوه الهوية عندما ارتدى عباءة لا تناسبه:

جمل يدخل إلى الشيراتون/ يرتدي خرجه الذهبي
يشد السنام بربطة عنق توشحها الزخرفات
ضجيج المغنين في "البست" لا يستثير لديه الرغاء
ينيخ على أول الطاولات
ويجتر حزمة شوك رعاها بذاك الخريف
يعد النقود التي اختزنت في السنام
تماما كما هو يليق بأي بعير أليف
تحرر من مهنة الشيل والحط و"الزرقلات"
تباغته بحة "السكسفون"/ ويصغي إلى الجاز منذهلا/ بالغناء العنيف
جاءه رجلان من "السيكيورتي"/ أخذاه إلى القبو
دققا في ملامحه جيدا/ أودعاه إلى آخر الليل/ في غرفة الانتظار
بعد يومين/ أصيب بما يشبه الانهيار/ بصفق بخفيه

يخجل أن الحداة القديمين قالوا به:
"أكواعهن بأثقالها تقل شيال بخفوفهن تسمع صريخ الجلاميد؟
تعاظم في كبده القيظ والغيظ والكدح عبر القفار
تناول باقة ورد ودلوا من الماء/ راح يمزمز فيها مع الكافيار
تهلل بالبشر وجه البعير
تيقن أن النساء يقدرن فيه الفحولة
إذ كن يهمسن شوقا إليه، استدار
فأرغى وأزبد/ حطم كأسين، ثار"[٣٩].

هذه الرثائية المسرفة في تهكمها - على شموخ ينهار وعنفوان يتهاوى ويتحول إلى مسخ - تكاد تحاذي في فجاجتها ما يراه الشاعر من حضور للمفارقات الصارخة في مفردات حياة غلب عليها التغريب وألوان الكرنفال والمتناقضات المفزعة. إنه لا يملك إزاء هذه المشاهد غير ان يتامل ويتهكم وينطوي على رفضه واغترابه:

هلا بك تأتين مع سلفادور دالي وهو يضغط
على فرشاة الرسم ليستخرج منها الألوان
وليرسم مياسم لإبل العشائر المصطرعة على المغلى
هلا بك تطلين من نافذ الشفاف على مايكوفسكي
وهو يتحدث عن القبيلة المعاصرة كمكنة طويلة فاحشة
هلا بك تسمعين من خلف حجاب النسوة فتوى سارتر
وهو يتولى إحدى قضايا "سهج الوجه"[٤٠].

ويبدو أن اغتراب الشاعر إزاء هذه المشاهد الممسوخة التي تحاصره وتثير سخطه ورفضه كان مدعاة لسقوطه بين حين وآخر في هوة التوجس والفزع، لذلك تنمو بين صوره الشعرية الرؤى المفزعة الموحشة، وتتكاثر الكوابيس وصور الرعب والخواء في عالم فُقد فيه الإنسان، وسادت آلة الدمار والقسوة والتجهم والتلوث:

الناقة الآلية/ تعرضت لموجة من اليورانيوم المشع/ فأصبحت وحيدة الخلية
دخلت مجال الليزر النفاذ/ فاخترقت عظامها الأشعة السينية
تحولت لهيكل عظمي من فولاذ/ وكتلة من الأسلاك والأضواء/ يدور في فضائها
دم ملون أخاذ/ وذرات أيونية/ تضيء الشيح والقيصوم
والجنجاث والثنداء وأحماض أمينية
الناقة الآلية/ رغت رغاء مدهشا/ يقطع الفؤاد
وجلجلت في دمها المعادن الغنية/ نفثت لهيبا أزرقا يكلس الهواء

وانطلقت من جوفها/ أدخنة بنية
صار الحليب أسودا/ يسير في ضروعها الشفافة الزرقاء
وتخرج الغازات من مسامها/ وفجأة طار أعلى سنامها/ وانطلقت سحابة كونية وكانت الناقة/
في خدر الإعاقة/ وصحوة الإفاقة
باركة تجتر/ نفاية ذرية[41].

أما نص «وليمة الكارثة»[42] فهو صورة من صور الفزع الأكبر، فيه تتزاحم الأسلحة الجرثومية مع لهيب الغازات وتغير لون الصحراء، والأطفال المزرقين اللاعبين بالعقارب الميتة، وكرات النار، والسحالي التي تتدلى كحبال، والأقمار المكسورة الهاربة من عصف النيران... إلخ. ويكاد «التوجس من الزمن الفاسد» يغرق الشاعر في الكوابيس والرؤى المرعبة التي تهدد كلها بسوء المآل والتمزق والانحدار الآتي:

ورأيتُ الليلة يا أمي خيلا برؤوس مقطوعة
ورأيت امرأة فوق البيرق مرفوعة
تهتف باسمي/ عارية يغسلها الدم
ورأيت غيوما تركض فوق مضاربنا قانية اللون
ترش رجال قبيلتنا بمياه النار وروح السم
ورأيتك يا أمي مفجوعة/ تفترشين الرملا/ بين القتلى
وتلمّين فتات اللحم
ورأيت غرابا كبر الليل/ ينعق حولي
ويدور كثيرا حول الخيمة، يتغافلني/ ينهب طفلي
ويطير بعيدا، يتركني
أتمرّغ فوق الرمل الأسود/ أفقد عقلي[43].

وإزاء هذا العالم المتهاوي الذي لم يعد يملك أن يغيره أو يعيد إليه براءته المفقودة، يقف الشاعر مرتعدا رعبا، يحاول أحيانا أن يواجه الغربة الطاحنة بالتحدي المنطوي على الصلابة، والتمسك بالمبادئ في «زمن صعب» يتطلب منه أن يكون «ضاريا من وعول الجبال» و«صامدا مثل رمح» و«منتجا مثل حقل قمح»، و«شامخا كالحصان الذي لم تكن أسرجته القبيلة». وأحيانا أخرى يتنكب النقد اللاذع للأوضاع المقلوبة والتشويه، ويدين الواقع المستخزي الفاسد في «الزمان الرديء» الذي انعكست فيه القيم وتقهقر الخير وتنامى الفساد والتلوث[44]. وإلى جانب التحدي والنقد اللذين قد لا يكونان مجديين مع عالم بهذا الزخم من المشاكسة واللامبالاة، تبقى نافذة الحلم مشرعة، ويبقى البحث عن النفس المغتربة التائهة عن طريق التشبث بالحلم و«مدن مثل عناقيد الضوء على الشاطئ تومئ»:

أن هيا يا وعل البر الجافل أدخلها آمن
فالعشب هنالك ينمو بين شقوق الجدران
ويعبأ ماء القلقات الضحضاحة بزجاج يشبه "عين الداب"
ويسقي الظامئ بالمجان[45].

ولعل من ضمن آفاق الأحلام التي تهدئ الروع وتبلسم روح الشاعر المستوحشة يبرز حلم الصحراء مرة أخرى، الصحراء الغاربة المندثرة التي لم يبق منها غير الحنين إلى مفرداتها وروحها وبراءتها وطهرها الهارب، لذلك تغدو الصحراء. الحلم الموئل الأخير لشاعر يبحث عن أمنه وهجعة روحه، فيصعّد تلك الرؤى العذبة ينسجها في لوحات وهمية لمضارب ورعاة على مشارف الفجر و«أجراس زهر تدندن» و«حقول لونية» و«حملان تثغو» و«غناء ربابة»، حتى «يثمل بالأنين الأليف».

والشاعر إذ يقطع هذه المفازة هاربا ومرتحلا عن مدينة ممسوخة وقاسية، حالما بروح واحة صحراوية تحنو على اغترابه، فإنه في رحلة خلاصه هذه لا ينى يتشبث بمنابع عطاء أخرى متمثلة بأصدقاء ورجال يمثلون للشاعر قيما عليا أو أصالة أو شموخا. فيمجدهم ويستهديهم ويلقي في ظلهم رحاله. فإلى «جار الله الحميد» يشد نجائب حروفه ويسوح قاطعا الفيافي رغبة في الوصول إلى منبع العطاء أو الأمن والارتواء الروحي الذي يمثله هذا الصديق و«أحزان عشيته البرية»، بعد قطع الطريق الذي تغدو وعثاؤه سياحة وانطلاقا نحو الأسمى والأجمل، تلذ الرحلة وتكتسب معناها الروحي[46]. أما «خضير محمد الحربي» فهو «النخلة التي ماحنتها الرياح» والتي «تفيء إليها القوافل من وطأة الشمس». وأما باقي الأصدقاء الذين يمجدهم ويستلهم عنفوانهم فهم «جياد البراري الأصيلة» التي «لم تحمحم في أي إسطبل» «ولم تحن أعرافها للرياح». وواحدهم «شامخ باتجاه السماء» «تداعب أعرافه الريح» و«يمارس ابهى صهيل».

ثانيا : إبراهيم الخالدي

١ - هواجس الترحل والسفر ومكابداتها

ملامح الرغبة في السفر والترحال والخروج من دائرة الرتابة والتكرار والثبات، تظهر بدءا عند الخالدي في نص «فيما يتعلق بقطار طنجة»[47].

ففي «القطار» تكمن فكرة الرحيل والبحث عن الحركة المتغيرة والاكتشاف عن طريق «السفر» والانتقال. و«طنجة» تبدو تلك الغاية البعيدة المغرية التي تُتخذ للوصول إليها الأسباب وعدة التهيؤ. ولكن اتخاذ الأسباب (القطار) والتهيؤ للرحلة، قد لا يخلص من وطأة الإحساس برتابة الزمن وبلادته، ووحشة الوقت (التي تكرسها حركة القطار الرتيبة المملة). لذلك لا مفر

من الاستغراق في تأمل الخواء واللاجدوى وبُعْد المفازة، ومحاولة تجاوز الإحساس بالثبات (في مستواه النفسي)، على رغم حركة «القطار - الرحلة» باللجوء إلى العبث واللهو الفارغ من المعنى مع نساء رخيصات عابرات.

ويتأكد منحى السفر والترحل ويتخذ بعده الروحي متسما بملمح النضال والمشقة والمكابدة في نص «الأقدام بين المدينة والشام»[48]. فهناك حديث عن «المسافة» وبعدها الزماني والمكاني، وهناك حديث عن ثمن الترحل الباهظ الذي يتضح في فقدان مسرات الحب والدفء ودعة الاستقرار. ثم هناك انشغال مفروض بمهام الكفاح الذي يُكسب الرحلة قداستها وبعدها الروحي حين «يتيمم المرتحل حبل الثريا»، وحين يستكمل الاستعداد للمناجزة آتيا على «صهوة البرق». أما الغاية فهي «الشام» بما فيها من ثقل تاريخي وتراثي ومنارات إنسانية ونضالية تتمثل بأمجاد الأمويين، وهي غاية تستحق أن ييمم الشاعر وجهه تجاهها ويقطع من أجلها المسافة. ويا لها من غاية تغري بالمكاسب والمغانم.

ويتخذ حلم الترحال طاقة شعرية غنية حين يأتي رديفا للطيران، ومشروعا للخروج من جاذبية الأرض و«ضيق الرمل» وربقة عبوديته. ففي نص «ما قاله الغيم لعباس بن فرناس» أشارت دالة على هاجس الطموح والارتياد واكتشاف آفاق بكر بالطيران نحو «حلم يفيق على صباح وارف بالشمس». وعلى رغم وجود التحديات والعوائق والثأر الذي «تخبز الصحراء شعلته»، والتربص بالمحلقين والطائرين ضد الجاذبية الأرضية وجاذبية الثبات والركون، فإن إغراء الرياح والغيم، والرغبة في التخلص من أدران الأرض يتعاظم، ويدفع الشاعر للبحث عن النقاء المطلق والتحقق:

قفوا/ كي أستبين
ورائي حائط مدمى
وثأر تخبز الصحراء شعلته
وإني للرياح
بما تبقى من عظامي
كي يصير الغيم أغنية
وقطن الرب
ينسجني نقيا[49].

ومن الغيم يراقب المحلق عالمه الذي تجاوزه بالجناح ولم يتجاوزه بالرؤية، إذ ظلت صور عالمه الأرضي تستفز الذكرى وتلاحقه نحو غيمه، تتشبث به وتتعلق بريشاته فـ «يبحر نحوهم»: وجهه القديم الطفل، مدرسته، بيته، أمه، جدته. وإن كان عباس بن فرناس[50] في النهاية يسقط بعد أن ذاب شمع جناحيه إلى الأرض مرة أخرى، ولم يتبق له غير مجد المحاولة، كذلك

يتيقن الشاعر استحالة «الهجرة» عن ذكرياته ومتعلقات عالمه وقيوده الجميلة والكريهة، فيأخذها معه محاولا تعليمها فضيلة الطيران وروعة الغيم.

ويظل الانطلاق والعودة أو الإقدام والإحجام قطبين واضحين في شعر إبراهيم الخالدي. الانطلاق يغذيه التوق ورفض الواقع الفقير مكانا وزمانا، والعودة تجره نحوها خيبات الأمل والعثرات مكرها. هذا الإحساس بالتذبذب والترنح بين طريقين يبدو جليا في اختيار الشاعر «عاد من حيث جاء» عنوانا لديوانه الثاني. وقد وردت هذه العبارة في مطلع نص «الفتى الهاشمي»، الذي تدور التجربة الشعرية فيه حول خيبة أمل «الفتى الهاشمي» وعودته خاوي الوفاض بعد تاريخ نضالي حافل بالمواقف والأمجاد:

عاد من حيث جاء
الفتى الهاشمي النقي الرداء
كان في مصر والشام والنهروان
وكان إماما بقصر الخليفة حينا
وسجن الخليفة حينا
وفي معصميه بلاء بيوم حنين
وفي مقلتيه حنين لكرب البلاء
جال في الأرض
حتى تململ من سيفه المنتضى
وارتضى/ غيمة لا تخون خزائنها
وطنا في السنين الخواء[51]

و«الفتى الهاشمي» مسمى يختاره الشاعر ليدلل على شخصية تراثية ما. وعدم تحديد هذا المسمى يعطيه سمة الاتساع والشمول؛ ليتضمن كل أولئك المناضلين في التاريخ من أصحاب المواقف اللافتة للنظر، الذين يثيرون إعجاب الشاعر بتململهم ورغبتهم في تغيير واقعهم المهادن. وقد بدت صورة «الفتى الهاشمي» من خلال عين الشاعر جامعة لما يحبه في الشخصية المغيّرة المتطاولة فوق الرضوخ والاستقرار، فهو في المقام الأول ممن يتحدون ثبات المكان وضيقه بالترحّل والتجوال، فقد كان في مصر والشام والنهروان. وهو أيضا ممن يحاججون ويخاصمون ويثيرون الزوابع، إذ كان إماما «بقصر الخليفة حينا» و«سجن الخليفة حينا». وهو ثالثا ممن يدافعون عن مبادئهم بقوة الموقف والسيف. ولكن كل هذا التوقد والجموح ينتهي بالفتى الهاشمي إلى الركون إلى الخواء وفراغ الطريق في نهاية المطاف، فقد «عاد من حيث جاء». والشاعر إذ يتوحد مع الفتى الهاشمي، الذي يعلمه فن النضال والإباء والمحاججة، يرى في نفسه شبيها به أيضا في عودته إلى الوحدة والغربة ووحشة الروح بعد انقضاء الرحلة:

عاد من حيث جاء
الفتى الهاشمي النقي الرداء
وأنا منه
- إن شئت صدق الحديث -
أنا بعضه
أحفظ الدرس عن ظهر قلب
أسلك الدرب بين الممالك
أصطفي من أشاء وما أشتهي
لي من الأرض رمل غوي
وفي الشاهقات
نشيج تطاول فيّ
وفي الباسقات/ ركام عهادي/ وساد البلاد
ولما تمادى/ همى/ فارتعشت
وعدت وحيدا إلى أضلعي
بارد دمعها/ انسكبت/ رب حزن نما
فيه من شقوة البرد ما لا يلذ روحي[٥٢].

٢- الاستهداء بالرموز التراثية

إن الاستهداء بالرموز التراثية في شعر إبراهيم الخالدي يأتي ليدعّم مسيرة رحلته المنطلقة إلى الأمام. فالرموز التراثية المختارة من الأعلام في شعره هي تلك المتحدية لتقاليد عصرها، والمتصادمة مع الثابت من القيم والممارسات، والموسومة بالاختلاف والخروج عن المألوف والمعتاد، رموز لها مجد المحاولة أو الرفض أو التمرد. وقد سبق الحديث في سياق النصوص عن شخصية عباس بن فرناس والفتى الهاشمي، وعن أماكن ومواقع لها ثقلها التاريخي والتراثي مثل طنجة، الشام، المدينة، مصر، النهروان، وهي أماكن تهيأت فيها الأسباب لتكون مسرحا للأحداث والتغييرات، وموطنا لصناع التاريخ.

من بين الرموز التراثية ذات الارتباط النفسي الحميم بقلب إبراهيم الخالدي، يأتي طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي صاحب المعلقة الشهيرة[٥٣]، فقد أهداه الشاعر ديوانه «عاد من حيث جاء». يضاف إلى ذلك ما عُرف عنه من تسمية عموده الصحافي في إحدى الصحف المحلية بـ «برقة ثهمد». وطرفة بن العبد يبدو من خلال تقدير الشاعر شامخا ومتجددا وأليفا، فهو مثير الأسئلة الوجودية الكبرى، الراغب في اكتشاف عالمه بعيدا عن تصورات وقيم جاهزة، المتغرب عن أناس لا يرون ما يرى ولا يعتقدون ما يعتقد، وهو أيضا الباحث

عن معنى الحياة في لب الحياة وعصبها الملتهب بالرغبة ولذة التجريب، المنداح في ذاته الحاضرة الشاخصة في زمنها المتاح لها، تستنطقه وتتخلق فيه، من دون التشبث بالغيب والممكن. لقد حولت فلسفة طرفة الوجودية الانكسار أمام جبروت الزمن وحتمية الصيرورة وتقزم الإنسان أمام مأساوية مصيره إلى طاقة ديناميكية تستكشف الذات وتلهث في سبيل صقل معدنها لتتوهج وتتسع. إن الخوف الراعد من الفناء والموت يتحول عند طرفة إلى مشروع بهجة واحتفال بالحياة واحتفاء بنعمها ومباهجها، وقفزة فوق الجهامة والركون والاستسلام. إنه يرى الجانب الآخر المغاير من سفح الحياة وينطلق نحوه وحيدا متفردا إلا من اختلافه وجنوحه[٥٤].

وإذ يرى إبراهيم الخالدي هذا الكون الطافح بالتجدد والتمرد لدى طرفة بن العبد فإنه لا يتوانى عن إلقاء عصا ترحاله في «برقة ثهمد»: موئل الحب والحنين وسكن القلب المضنى والروح الثائرة المرتحلة في مفازة الحياة. إن «برقة ثهمد» . التي خلدها طرفة في مقدمته الطلليّة . تتحول لدى الخالدي من مكان محدد بزمنه ومفرداته ومتعلقاته المكانية إلى رمز متفجر بالإيحاءات. لقد غدت «برقة ثهمد» رمزا للطمأنينة المتمناة، متخذة صورة «يوتوبيا» ذات بعد وجداني ونفسي يلجأ إليها الفار من الوحشة والغربة، رمزا يتضمن معنى اللجوء والاحتماء والانتماء إلى مصدر الارتواء والحب والظل. وكلها معان متمناة، لأنها منتهية ومتلاشية «الآن» في مستواها الواقعي، متواجدة في مستواها النفسي التخييلي. والإحساس الضمني بالفقد والتلاشي يؤجج رغبة التشبث والتمسك، ويستجلب اللوعة وغصة الانتحاب (وقفة الطلل).

وكون الشاعر مسكونا بروح طرفة بن العبد وأطفال خولة، لا يلغي بأي حال رغبته في الانعتاق من أسر الماضي ووجوه التقليد. فما كان طرفة بالنسبة إليه إلا فكرة تنطوي على الشروع بالانطلاق نحو التجدد ومخالفة الثوابت والمسلمات. ويتخذ إعلان التبرؤ من قداسة الموروث تاريخا ومنهج حياة، صورته الواضحة في نص: «الخطوط الرئيسة لكتابة التاريخ العربي»، فالتاريخ والموروث في نظر الشاعر جهد مُنجَز ومنته، وأمجاده من حق صانعيه. والإنسان المعاصر لا يمتلك هذا التاريخ ولم يساهم فيه، وإنما يكتفي باستلهامه واستشرافه والاستهداء برموزه المضيئة في رحلة البحث عن ذاته المتميزة، التي لا بد من أن تصنع لنفسها إنجازا يخصها وتاريخا آخر يحمل بصمتها وملامح عصرها. وتحقيقا لهذا المبدأ يعلن الشاعر في نصه رغبته في الانعتاق من أسر الماضي وثقله، مبتدئا بالترجل عن صهوة القصيدة التقليدية بميراثها الثقيل وتقاليدها العريقة، متمثلة في المعلقات:

"فاعلن. فاعلن. فاعلن
آن للشعر أن يترجل عن صورة السطر شيئا

فشيئا، ويهذي الحروف إلى صوتها.
عامدا
أفتح الآن كل الدفاتر مستوثقا من دمي،
قطرة قطرة
ثم أستودع الرمل أحجيتي.
أحتسي قرب أسلافي الغابرين نبيذ البلح
ذاك طرفة يبني لخولة أطلالها. وأخو كندة
يشتهي طفلة منذ عامين يهذي بها. قال،
للأمر يومٌ سيأتي وللثأر سيف يحدْ
فلا تشغلوني بما كان قبلا وما هو آت.
فاعلن. فاعلن. فاعلن»[55].

وبذلك ينضو الخالدي عن شاعريته رتابة العروض في شكله التقليدي وتأثير تجارب طرفة وامرئ القيس في حدودها المكانية والزمانية، ثم ينطلق مستشرفا بإيجاز مركز التاريخ العربي الإسلامي في فتراته الحاسمة: بناء الكعبة، الدين الجديد، الفتوح الإسلامية، الخيانات والصراعات السياسية، فتنة صفين وموقعة الجمل، مفاسد العصر العباسي. وبين كل مرحلة وأخرى من عرضه لهذا التاريخ يطلق الشاعر صيحته المحتجة على التشبث والخضوع المستخزي لقيوده ومقاييسه الغابرة بتكرار «فاعلن. فاعلن. فاعلن».

إن الخالدي إذ يتمثل ويستوعب كامل التاريخ العربي الإسلامي بكل أمجاده، ويتشرب هذا الميراث بكل زخمه، تنمو لديه العزيمة على «الترحّل عن صهوة هذا التاريخ»، الذي لم يعد يمتلكه أو يعيشه بحكم دورة الزمن وتبدل الأحوال. بل إن الأمر الذي يدعو إلى القلق هو أن محاولة «امتطاء صهوة التاريخ» غدت محاولة مؤلمة وجارحة، لأنها تبهظ الإنسان العربي المعاصر حياته وذاته الفاعلة، وتقوده إلى الوهم والضلال:

«آن للشعر أن يترجّل عن صهوة السطر شيئا
فشيئا. ويخرق أردية الخلفاء الملوك. ويخبر عن
غلمانهم والجوارِ الحسان اللواتي ينادمن أصنامنا
منذ ألف سنة.
آن للجرح أن يستريح
ويصحو الجريح
معافى نديّاً
كما السوسنة

عامدا وعلى عجل
أغلق الآن كل الدفاتر مستوثقا من دمي
قطرة قطرة
أن للجرح أن يستريح
ويصحو الجريح
على وجع يتغابى
ويغفو على فتنة دائرة
وإني أرى في المدى
طائرا أسودا
طائرا أسودا[٥٦].

وإذ ينتهي النص بإعلان أن استعادة التاريخ غير ممكنة وتنذر بالويل، فإنه أيضا يعبر عن يقين الشاعر بأن الإنسان يحقق ذاته وتميزه بارتحاله عن التاريخ نحو الآتي، وليس بارتداده إلى الوراء وركونه إلى أمجاد الغابرين.

ثالثا: مفهوم الزمن عند الفليّح والخالدي

هذه الجولة في ارتحالات سليمان الفليّح وإبراهيم الخالدي الشعرية، تقود المتأمل إلى رؤية مدى ما يشكله «عنصر الزمن» من أهمية وحضور فاعل في صياغة تلك المفاهيم والرؤى حول مسألة «الترحل والهجرة» لدى الشاعرين، بل إن اندياحات الترحال والسفر وآفاقهما لا يمكن لها أن تكتسب أبعادها بمعزل عن تصور واضح لعنصر الزمن، وتعامل واعٍ مع معطياته. ولعل فهم آلية الزمن وأسلوب التعامل معها في الموضوع المطروح في ورقة البحث يعين على تكوين محصلة نهائية تستشرف رؤى الشاعرين ومواقفهما الشعرية.

يتعامل كل من سليمان الفليّح وإبراهيم الخالدي مع «عنصر الزمن» على ثلاثة مستويات، أولها: الزمن الحاضر، الذي يبدو بالنسبة إلى الفليّح زمنا قاسيا معاديا، يسحق الإنسان ويبهظه كرامته وعنفوانه. وهذه القسوة تتمثل لديه في هجوم المدينة ووجوهها البازلتية العنيفة، وخفوت ملامح الإنسان في مظاهرها. وتتمثل الخيبة أيضا - من جهة أخرى - في اندثار الصحراء وتلاشي البراءة ونقاء البداوة. وهو أيضا زمن غير منصف يخفض البعض ويرفع آخرين، زمن مرعب تحكمه صور التلوث وكوابيس الوحشة والغربة.

وإزاء هذا الحضور القاتم لزمن يسميه الشاعر «الزمن الصعب» و«الزمن الرديء»، تتحدد وجوه التعامل معه. فهناك وجه ينعكس فيه الألم والانكسار، وآخر يشي بالسخرية والتهكم، وثالث يجنح إلى تحدي الجهامة والقسوة ومناجزتهما.

وتكاد رؤية الخالدي «للزمن الحاضر» تشابه رؤية الفليّح في بعض وجوهها، فهو أيضا يراه زمنا متخثرا، رخوا، محايدا لا يثير الدهشة. وحياده يدعو أحيانا إلى البلادة والركون والخور، وأحيانا يدفع إلى تحدي رتابته بالخروج عن نمطيته ومواته. ويشترك الشاعران في الجنوح - في نهاية المطاف - إلى هجر «الزمن الحاضر» والخروج عن مقاييسه وحصاره بالسفر والترحال نحو الغد والآتي. وهذا الخروج النافر يتخذ في البدء سمة النقد والرفض اللذين يقودان إلى الرغبة في الفكاك من أسر «الزمن الحاضر» والانطلاق وراء حلم الرحلة والهجرة إلى أزمنة أخرى.

أما ثانيها: (زمن الماضي)، فينقسم في تصور الشاعرين إلى، أولا: زمن مُنتهٍ ومنجز، وهذا الزمن يستدعي التمرد عليه والتخلص منه والتخفف من ثقله. وإصرار الإنسان على معايشته يقود إلى العسر والضلال. ثانيا: زمن فاعل، وهو الذي تمثله المنارات التراثية المضيئة متمثلة في الأشخاص أو المدن أو الظواهر الإنسانية. وهذه المنارات التراثية لم تكتسب حق البقاء ومشروعية الاستهداء بها إلا لكونها تململا خارج زمن مفروض بأعرافه وتقاليده وقيمه: (التي قد لا تكون منصفة كما في حالة الصعاليك، أو لا تكون مستساغة كما في حالة طرفة بن العبد،أو تفتقر إلى الجنوح والمخالفة كما في حالة عباس بن فرناس والفتى الهاشمي). هذا الزمن الفاعل يتمثله الشاعران ويشخصان نحو زخمه وعنفوانه، لأنه حركة انقذاف خارج دائرة الثبات والركون، حركة مدعومة بالرفض والرغبة في التجاوز. ولذلك يحط الشاعران رحالهما في رحاب «الزمن الماضي الفاعل»، الموسوم بالتطلع وحركة التغيير، يستهديانه في محطة «زمنهما الحاضر»، ليحرك ركوده أو يضفي على وجوهه السلبية بعض الألق. إن المرجعية التراثية كميراث إنساني تبدو . في هذا الموقف . ضرورة وجدانية وفكرية تغذي طموح الإنسان المعاصر، وتربطه بجذور راسخة يستمد منها الأمن والثبات والهوية. وكلها معانٍ يحتاج إليها وقودا لانطلاقته نحو تحقيق ذات مميزة تحسن التعامل مع تحديات عصرها ومواكبة إشكالاته ومستجداته.

هذه الانطلاقة حرية بأن تنقل الشاعرين نحو التعامل مع «الزمن الآتي» (ثالثا) الذي يثير في نفسيهما رغبة السفر والترحل وهجرة واقعهما الزماني والمكاني. وهذا التعامل مع «الزمن الآتي» يتخذ شكل الاستشراف والرؤية الموسومين بالتطلع والارتياد، والكشف عن آفاق ورؤى يفتقدها الحاضر الفقير.

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2003

تحليل مضامين البناء وبناء المضامين في شعر عزّ الدين المناصرة

د. سمير شريف استيتية (*)

مقدمة

لعزّ الدين المناصرة طريق في الشعر لا يكاد يحيد عنها؛ فقد التزمها أكثر من ثلاثين سنة، يقطف منها أزاهير لوحاته، ويجعلها إطارا لمجمل أعماله. إنه في الأعمّ الأغلب يصور وجهين للشعب الفلسطيني: وجه الإباء، ووجه المعاناة.

أما الوجه الأول وجه الإباء، فقد سميته في هذه الدراسة «حصان الزيتون»، وهو الحصان الذي فارقه فارسه مدة من الزمن، ثم عاد إليه، على الرغم من التشرد والضياع... إنه الحصان الذي من أرض الزيتون منبته... الزيتون الذي يشير إلى الديمومة، لدوام خضرته. الزيتون الذي يمثل الثبات في الأرض، والديمومة عليها... الزيتون الذي يمثل العطاء من دون أن تكون له شيخوخة تضعفه، بل إنه كلما كبر زاد عطاؤه... الزيتون الذي يحكي قصة الانتماء إلى الأرض، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، منذ كنعان الجدّ، إلى كنعان الحفيد، هو فيهما ماض وحاضر ومستقبل.

أما الوجه الثاني فهو الذي سميته «حصار السراب»، السراب الذي كان بعد الخروج من الأرض؛ فجرى بعض الناس خلفه؛ فظنوه بابا للخروج من «البحر الميت»؛ فساروا وراءه يطلبونه؛ فكلما دنوا منه نأى عنهم وانثنى. وإذا ارتدوا عنه وجعلوه وراءهم ظهريا، واجهوه مرة أخرى. فلا هم نجوا من خلال إذا يمموا وجوههم شطره، ولا هو تركهم إذا جعلوه خلفهم ظهريا. «حصان الزيتون» وحده لم يخذل الشعب الفلسطيني؛ لأنه كان أملهم الوحيد؛ ولأنه كان لا ينبو إذا جعلته الأيام و«الأعدقاء» يكبو.

(*) عميد كلية الآداب والفنون - جامعة فيلادلفيا - المملكة الأردنية الهاشمية.

لقد مثّل شعر عز الدين المناصرة هذين الوجهين في حياة الكفاح الفلسطيني تمثيلا جيدا؛ لأن الشاعر عاصر أحداثهما، وشرب من الكأس التي قدر لهذا الشعب أن يشربها حتى الثمالة. ولقد عرفته أيام الطلب والدراسة: فكان هو التفعيلة الفلسطينية التي تجري على لسان كل من يحب الشعر الفلسطيني. عرفته في أواسط الستينيات من القرن العشرين، وما زال، كما عرفته، كالزيتون عطاء وخضرة، وكعنب الخليل نضارة وحلاوة.

يهدف هذا البحث إلى رسم معالم هذين الوجهين في شعر المناصرة، وكيف جعل الشاعر من كل منهما فنا، في بناء فني من اللغة والتصوير. وقد جاء عنوان البحث دالا على مضمون هذه الدراسة «تحليل مضامين البناء، وبناء المضامين في شعر عز الدين المناصرة».

المبحث الأول : مضامين البناء

يدور شعر عز الدين المناصرة في محورين كبيرين هما: الوجود الفلسطيني، ورحلة السراب، التي كان مأواها العذاب والعطش الشديدين. وقد جعلت كل محور من المحورين في مطلب، سميت أولهما: حصان الزيتون، وسميت الثاني: رحلة السراب. وفي ما يأتي بيان ذلك مفصلا.

المطلب الأول : حصان الزيتون

وصفت الحصان الفلسطيني بأنه حصان الزيتون؛ لكثرة ورود الزيتون في شعر المناصرة، ومن ذلك قوله:

لن يفهمني أحد غير الزيتون
شجر كضفائر أمي يحميني
من مطر الأيام الصعبة
أخضر أخضر
كان شجاعا صلبا كالزيتون

إن الغوص في أعمال المناصرة ينبئ عن وجود عوامل في الوجود الفلسطيني، تجعله غير قابل للفناء، على الرغم مما بذله الصهاينة، وقوى الاستكبار العالمي، لتفريغ الأرض من أهلها، وتفريغ الفرد الفلسطيني من تماسك حروفه الفلسطينية، وتفريغ أبجدية الوجود من الشعب الفلسطيني بأسره.

عز الدين المناصرة لا يذكر عوامل بقاء الشعب الفلسطيني فقط، ولكنه - بالإضافة إلى ذلك - يجعلها فنا قائما بذاته، يعبر عنه شعرا؛ أي أنه يعبر عن الفن بالفن. هذه العوامل هي: التشبث بالبقاء، والأمل، ويقظة الوعي، والرفض، والتحدي، والمواجهة. وهذا بيان ذلك مفصلا:

١- فن التشبث بالبقاء

التشبث بالبقاء شيء، وفن التشبث به شيء آخر. المناصرة حريص على أن يصف تشبث الفلسطيني بالبقاء، وكأنه يمارس فنا من الفنون، وهو يتمسك ببقائه، ويتشبث بوجوده. إنه لا يمارس التمسك بوجوده مجرد ممارسة، كما يفعل سائر الناس، عندما يحدق بهم خطر محقق، إنه يفنّ في ذلك، انظر في قول الشاعر:

تختلط الظلمة بالنور
في هذا الوطن المخمور
مع هذا يا حبة عيني
قلبك محفور في السور

فالتمسك بالهوية (وهي التي عبر عنها الشاعر بقوله: قلبك) أكبر حتى من المحيط الذي يحيط بالناس، والواقع الذي يعيشونه. كيف يكون التمسك بالهوية؟ ليس عندما يحل الظلام، ولكن عندما تختلط الظلمة بالنور: فلا يعود الناس يفرقون بين خطأ وصواب، ولا بين حق وباطل، ولا بين عدل وظلم، ولا بين مقبول ومرفوض. إنها الحالة التي لا يكون فيها التشبث بالهوية مطلبا عند الآخرين، إنها الحالة التي يكون مطلب الإنسان فيها - عادة - أن ينجو بريشه. عندما يتمسك الإنسان بالهوية، ويتشبث بها، وحال من حوله على نحو ما وضحنا، يكون تمسكه بالهوية وتشبثه بها فنا عبقريا، لا يستطيع الآخرون أن يؤدوه.

ويكون التمسك بالهوية فنا كذلك، عندما يموت الإنسان من أجل الهوية، في الوقت الذي يكون الناس فيه مخمورين، في مثل هذا الجو، يتشبث الفلسطيني بهويته ووجوده.

يقرر الشاعر بعد ذلك أن قلب الأرض محفور في السور. هذا التعبير فيه ما يشبه قلبا لبعض التصورات الأولية. فالأرض هي التي تكون في القلب، وليس قلبها هو الذي يكون محفورا في السور. وما ذهب الشاعر إلى ذلك، إلا لأن ذلك يحقق المعاني الآتية:

أولا: إن السور فاصل، ولكنه في الوقت نفسه مانع من العدوان. ولما قرر الشاعر أن قلب الأرض محفور في السور، كان معنى ذلك بالضرورة، أنها هي الفاصل بين الوجود وعدم الوجود، بين البقاء وعدمه. وهي في الوقت نفسه الواقي والحافظ لهذا الوجود.

ثانيا: إن الناس يرون هذا الاسم محفورا كلما مروا بالسور أو رأوه، وهذا يعني أن ضياع الأرض لم يضيِّع الانتماء إليها والاعتزاز بها.

ثالثا: إن حفر اسم الأرض على السور يبقى ببقاء السور، فلا تغيره الأيام، ولا تزيله.

رابعا: إن السور يشير إلى التاريخ؛ فقد كانت كل مدينة تحفظ نفسها بأسوارها في التاريخ. وما زال التاريخ ناطقا على أسوار القدس، شاهدا على بقائها، على الرغم من حادثات الزمان وعاديات الدهر. وكأن الشاعر يريد أن يقرر أن بقاء الهوية قضية تاريخ طويل، لا يزول باحتلال المحتلين.

إذن، فالمسألة ليست مسألة بقاء فقط، ولكنها ضرب من التفنن في التشبث بهذا البقاء. وهي ليست مسألة انتماء فقط، ولكنها ضرب من التفنن في الحفاظ على ذلك الانتماء.

والبقاء والانتماء أمران واضحان في معظم أعمال عزالدين المناصرة، ومن ذلك قوله:

مازال... ما انفك... ما برح
مازال كنعان في القلعة القديمة تحت أنقاض البيوت
بلحيته البيضاء
سمعنه اللواتي عدن من النبع بعد غروب الشمس
سمعنه يتمتم التعاويذ في حقول الدم
سمعنه في حلق الوادي يغني لشجرة البوملي
كل حبة ... مشرئب إلى الأعالي
رأينه اللواتي من مجزرة الدور المنسوفة
يتمشكح كالبطريق، مستندا على جذع ناشف
رأينه يفر من ضريحه الممتد في القرى
فرسه حمامية اللون وسترته زرقاء
لكي يستيقظ المرج من نومه في مغارة الصدأ

يعرض الشاعر هنا جملة من القضايا التي تصب كلها في مصب واحد، هو التشبث بالبقاء. لقد استعمل الشاعر ألفاظا تدل على البقاء «مازال... ما انفك... ما برح». وكان أي فعل منها يكفي للدلالة على الإشارة إلى التشبث بالبقاء، ولكن الشاعر قدم هذه الأفعال الثلاثة؛ ليشير إلى تصور كل وسائل التشبث بالبقاء والدلالة عليها. والأفعال الثلاثة هذه تشير إلى ما هو أكثر منها؛ فلما كان الفعل الواحد منها كافيا للدلالة على التمسك بالهوية، ولما لم يكتف الشاعر بفعل واحد، كان ذلك إشارة إلى القارئ، ليفتح باب تصوره على كل ما يدل على التشبث بالأرض، فيجعله أداة للتعبير عنه.

ثم جعل الشاعر كنعان في القلعة التي هي رمز الحفظ والصون والشموخ؛ فهو باق في هذه القلعة محفوظا مصونا بشموخ قلعته. وأما أن القلعة قديمة كما جاء في وصف الشاعر، فتلك إشارة إلى بقاء التاريخ شامخا في الأحفاد، على الرغم من اندثار الحضارات، وزوال الدول والأمم، ذلك الزوال الذي أشار إليه الشاعر بـ «تحت أنقاض البيوت». ننظر مرة أخرى في قول الشاعر «مازال كنعان في القلعة القديمة تحت أنقاض البيوت بلحيته البيضاء، فنجد كنعان ذا اللحية البيضاء قائما، على الرغم من كل دمار، وعلى الرغم من بعد الزمان وانقضائه. ولحيته البيضاء تشير إلى الصفاء والنقاء بمقدار ما تشير إلى العمر.

النساء العائدات بالجرار على رؤوسهن، وقد ملأنها بالماء من النبع، سمعن كنعان ورأينه. أما النبع الذي ملأن منه الجرار، فهو إشارة إلى الأصل والهوية والانتماء. وأما رجوعهن بعد الغروب،

فتلك إشارة إلى الحفاظ على الهوية في وقت حلول ظلام فقدان الهوية، الذي كان من الممكن أن يفقد الناس هويتهم. لاحظ كيف جعل الشاعر كل حبة بوملي وكأنها ... مشرئب إلى الأعالي:

... يغني لشجرة البوملي
كل حبة ... مشرئب إلى الأعالي

يشير الشاعر بذلك إلى التطلع إلى الأعالي، على الرغم من كل دواعي السقوط وأسبابه. لقد كان كنعان «يتمشكح»: (لاحظ هذا الفعل العامي الذي يدل على التبختر والعزة والأنفة وعدم المبالاة). كان كنعان يستند على جذع ناشف لا يصلح لأن يعتمد عليه في القيام: لأنه قابل للانكسار. إذن، فقيام كنعان ذاتي، ولا ينبغي لنا أن نفكر في أن قيامه كان بسبب اعتماده على هذا الجذع؛ لأنه جذع ناشف ولا يصلح للاعتماد عليه. وهذا يعني أن المتشبث بهويته، القوي بانتمائه، يظل أقوى من كل ما يمكن أن يعتمد عليه في قيامه.

لقد خرج كنعان بالهوية من القبور والمدافن، فعادت إلى القرى والمدن هويتها، ثم قال الشاعر: «فرسه حمامية اللون». لم يصف الشاعر فرسه بأنها بيضاء، بل قال: حمامية اللون. وهذا يعني أنه أراد أن يتجاوز اللون الأبيض، الذي يرمز إلى السلام والوداعة، ليشير إلى أشياء أخرى؛ ومنها الحب والغزل، لأن الحمام يرمز إليهما. وعلى ذلك تكون فرسه ذات طابع وجداني. وعلى أساس الوجدان تقوم العلاقة بينهما.

وتظهر قدرة الشاعر على جعل التشبث بالهوية هنا في قوله:

رحل الأحباب... بقيت هنا وحدي
مثل الزيتون يتيما في الصحراء

لم يتحدث الشاعر عن رحيل الناس، بل تحدث عن رحيل الأحباب؛ لأنه الرحيل الذي تفارق فيه أقرب الناس إلى أنفسنا ... إنهم أحبابنا. رحيل الأحباب إما موتهم، وإما تشردهم، والنتيجة واحدة، وهي خلو الأرض من أهلها. وهذا وحده كاف لإلغاء الهوية، ولكن الشاعر يقول «بقيت هنا وحدي» للدلالة على الصمود، على الرغم من وجود ما يدعو إلى ضده، وهو رحيل الأحباب. الصمود سيكون قاسيا ساعتئذ، ولكنه خيار التشبث بالبقاء، فلا مفر من العمل به واختياره دائما. وهذا يدل- في التحليل الأخير- على أن رحيل الأحباب لم يعد سببا للتخلي عن الهوية، على الرغم من أنه كذلك في العادة. ثم يصف الشاعر بقاءه وصموده مثل الزيتون يتيما في الصحراء. وهو بذلك يعني أن التحمل هنا يفوق التصور المعتاد: مثل الزيتون الذي يتحمل تقلب الظروف الجوية والبيئية القاسية. وقد أشار الشاعر إلى هذه الظروف بأنها الصحراء «مثل الزيتون يتيما في الصحراء». وهكذا حال الشاعر الذي يمثل حال الشعب الذي ينتمي إليه، فإنه يتحمل ما لا يتحمله غيره، ويبقى مع ذلك متشبثا بالهوية. وللتعبير عن الزيتون يتيما في الصحراء وجه دلالي آخر: فكما أنه من الغريب أن تجد زيتونة في الصحراء، كذلك فإن تشبث الشاعر والشعب الفلسطيني بأرضه وهويته غريب في زمن السقوط والانحدار.

لقد قابل الشاعر بين الفعلين «رحل» و«بقيت» للإشـارة إلى أن معادلـة الوجـود والبقاء لا تكون برحيل أناس كثيرين، وبقاء قلة قليلة. ولكن المعادلة تكون بمقتضى الصراع الذي يكون بين منطق الرحيل والبقـاء. فإذا تغلب منطق البقـاء على منطق الرحيل، بقي صـاحب منطق البقـاء وحيدا منفردا.

وقابل الشاعر بينه وبين الأحباب (رحل الأحباب... بقيت هنا وحدي) للإشارة إلى أن الزوال هو نصيب من يرحلون، وليس نصيب من يتشبثون بالبقاء. والشاعر عندما يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم، فإنه لا ينزع عن قوس الذات المفردة، بل الذات الجماعـية المستكـنة في الفرد.

٢ - فن الأمل

الأمل مفهوم يجمع بين الرجاء والرغبة والحاجة. وعلى ذلك يمكن تعريفه بأنه رجاء تحقيق رغبة أو حاجة. فإذا كانت الحاجة ملحة، أو كان الرجاء قويا في تحقيق الرغبة أو الحاجة أصبح الأمل أمنية. والأمل عند أكثر الناس سلوك عادي لا تفنن فيه ولا إبداع.

عز الدين المناصرة لا يرسم الأمل على أنه مجرد رجاء في تحقق رغبة أو حاجة. ولكنه يصوره باعتباره مما يأتي به المستقبل بصورة مؤكدة، من غير أن يستعمل أي أداة من أدوات التوكيد أو التحقيق، يقول الشاعر:

عند باب القدس ماتت جدتي
وهي تحكي لشجيرات العنب
عن زمان سوف يأتي
وعلى خديه شامات الغضب
بعدها ذات صباح ستمرون على
بعض قبور الراحلين

لقد تزاحمت المعاني في هذه الأبيـات؛ ومن ذلك أن الجدة تموت. والجـدة إشارة إلى عـهد ماض، عهد الضعف والخور. وموتها إشارة إلى انقضاء ذلك العهد. وهذه أول خطوة على درب الأمل. ثم إن الجدة هي التي تموت، لا الجد ولا غـيره، لأن الجـدة، وإن مـاتت، لا تنسى بسبب تعلق أحفادها بها: فهم بالنسبة إليها أمل لا يموت. وهذا يعني أن البقاء والخلود سيظلان درب الأجيال وسنة الحياة فيهم. وهذه خطوة ثانية في رسم درب الأمل. وأين كـان الموت؟ عند باب القدس: للإيحاء بأن الأجيال ضعيفها وقويها تتعاقب الحياة على باب الـقدس، القدس التـي لا تموت ولا تزول، وإن مـات الناس على أبوابهـا. هذه خطوة ثالثـة في رسم طريق الأمل. وكيف مـاتت الجدة؟ مـاتت وهي متعلقة بالأرض: مـاتت وهي تحكي لشجيرات العنب عن زمـان ينتصر فـيـه الشعب المغلوب على أمـره. هذه خطوة رابعـة على طريق الأمل الذي لا يموت بموت الأشخـاص. ثم إن موت إنسـان وهو يخـاطب الأرض، أو يخـاطب الشجـرة التي هي رمز لحياة

الأرض، دليل على أن الأمل أقوى من أن يقهر. هذه خطوة خامسة من الأمل على الطريق الطويل. ثم إن الجدة ماتت وهي تحكي لشجيرات العنب؛ أي أنها استمرت في بث رسالة أملها حتى الرمق الأخير. فالموت إذن ليس نهاية، ولكنه انطواء مرحلة ليس إلا. تلك خطوة سادسة على درب الأمل. إن موت الجيل الضعيف الذي ينقضي يعني أن براعم جديدة سوف تنبت في حاكورته. ولذلك جعل الشاعر الجدة تخاطب الشجيرات «شجيرات العنب» إشارة إلى تلك البراعم الجديدة. هذه خطوة سابعة على هذا الدرب. ثم إن الموت موت فرد في مقابل حياة الجماعة. وكيف يكون هذا التأويل على هذا النحو؟ إن شجيرة العنب الواحدة تحتاج إلى يد واحدة ترعاها. أما الشجيرات التي ستصبح أشجارا فإنها تحتاج إلى أيد كثيرة، هي التي تحيا وتحيا بها الأرض. تلكم خطوة ثامنة على درب الأمل. ثم إن حياة الإنسان تنتهي بموته، ولكن وجوده باعتبار وعيه المنبث في أحفاده، يظل قائما بعده. ولذلك قالت الجدة مخبرة عن زمان سوف يأتي بالنصر:

بعدها ذات صباح سيمرون على بعض قبور الراحلين

سيمرون على قبرها، ليخبروها بالنصر فتفرح كما يفرحون. تلك خطوة تاسعة على طريق الأمل. وهم سيمرون على بعض قبور الراحلين؛ إيذانا ببقاء الحياة قائمة؛ لا يضيرها أن ترى الموت المتمثل في القبور، وهذا هو الأمل الذي ما بعده أمل!

وإذا شئت أن تعرف كيف ينسج الأمل في شعر المناصرة، فاقرأ السطور الشعرية الآتية:

افتح بابك
فأنا الحلم القادم من أوجاع الصيف
إني دندنة الطلقة وبريق السيف
سأقيكم شر المطر وشر الكثبان
افتح قلبك... افتح بابك... إني عطشان
وتظل الليلة تسألني في جلستنا: كيف؟
الليلة هجموا كالغربان
السيدة الرابضة النعسانة
في ردهات القصر ستذكرني
لكن الأشجار معي
والأنهار معي
حتى الحجر الصوان
يفتح لي قلبا لم يفتح في أي زمان ومكان
حينئذ لملمت جراحي

عالم الفكر
العدد 3 المجلد 31 يناير - مارس 2005

أطلقت النار على قطعان الليل
الأشجار معي
والأنهار معي
وحتى الحجر الصوان

إن الشاعر هنا يرسم الأمل رسما حتى يصبح فنا، هو مجرد ظاهرة نفسية أو حالة شعورية. فالشاعر عندما يخاطب المتلقي بقوله «افتح قلبك» فإنما يريد أن يذهب عنه اليأس؛ لأن الدعوة إلى فتح الباب دعوة إلى عدم الانغلاق على النفس، والانكفاء على همومها. والانغلاق على النفس أول خطوة في اليأس.

ولفتح الباب ما يسوغه؛ فإن الأحلام في طريقها إلى التحقق لتصبح واقعا. ليس هذا هو الذي يستوقفني هنا. إن الذي يستوقفني أن الشاعر مزج بين الأحلام والأوجاع عندما قال «فأنا الحلم القادم من أوجاع الصيف». إن الأحلام التي تأخذ طريقها إلى التحقق إنما هي مخاض الآلام والأوجاع. هذا هو الأمل الحقيقي، وهذا هو الأمل الفن.

أما لماذا وصف الشاعر الأوجاع بأنها أوجاع الصيف، فلأن الصيف كان شاهدا على كثير من الويلات التي حلت بالشعب الفلسطيني؛ ففيه خرجوا من ديارهم سنة ثمان وأربعين، ثم سبع وستين، وغير ذلك من الويلات التي حلت بهم.

لقد جعل الشاعر للطلقة رنينة الغناء، وجعل للسيف بريقا مثل بريق الذهب والفضة. وطلب الشاعر من المتلقي أن يفتح قلبه وبابه. وهذا توجه مختلف عن توجهه في مطلع هذه الأبيات. ففي المطلع قال: افتح بابك. وقال هنا: افتح قلبك... افتح بابك. أما البدء بفتح الباب فلأنه أيسر، خاصة قبل ذكر مسوغات هذا الفتح. وأما بعد ذكر مسوغات الفتح التي ذكرناها، فإن المطلوب هو فتح القلب، ويكون المطلب الثاني، وهو فتح الباب مطلبا ثانويا ساعتئذ.

وفي المقطع الذي أوردناه مظاهر شتى للتفنن في الأمل، غير الذي ذكرنا، منها أن الشاعر جعل الأشجار والنهار والحجر الصوان معه، وهو يعني الشعب الفلسطيني طبعا. ومنها أنه عبر عن تجاوز الجراح بقوله «حينئذ لملمت جراحي». وهذا يعني فيما يعنيه أنه استطاع التغلب على الجراح، والتغلب على الجراح باب عظيم من أبواب كبح جماح الحزن واليأس والأسى، هذه نتيجة. ثم إن الشاعر بعد أن تغلب على الجراح استطاع أن يتجاوزها إلى ما هو أهم من ذلك، وهو التغلب على الليل بكل ما يشير إليه من المعاني غير المستحبة. هذه نتيجة ثانية، يقول الشاعر «أطلقت النار على قطعان الليل». فالليل إذن قطعان هائجة من الظلم والظلام، ولكنه أطلق عليها النار، وكانت الأرض بأشجارها وأنهارها وحجارتها معه. هذه نتيجة ثالثة.

هذه النتائج الثلاث تصنع الأمل؛ ليكون أشبه ما يكون بلوحة من المعاني الفنية.

٢ - فن اليقظة والوعي

عندما يرسم الشاعر اليقظة بمسوغاتها المنطقية، لا يكون قد عبر عنها فقط، ولكنه يكون بالإضافة إلى ذلك، قد جعلها فنا يعبر عنه بالفن. يقول المناصرة:

أن يا منزلا عند باب الخليل
أن نقول الذي لا يقال الذي لا نقول
أن تدب البراءة فينا وتخضر
يطلع برق الجذور وعصف الشمول

في هذه السطور أطروحات كثيرة منها:

الأطروحة الأولى: إن الذي لا يقال ليس عيبا في ذاته، ولكنه عيب لأننا لا نقوله. ولذلك فسر الشاعر «الذي لا يقال» بأنه «الذي لا نقول».

الأطروحة الثانية: إن من حق هذا الذي لا يقال أن يقال أصلا، ولكنه غيب عن الوعي حينا من الدهر، ثم عادت للوعي ذاكرته، ولما كان الأمر كذلك، فقد عاد لصاحب الحق «وهو الذي لا يقال» حقه. ومن أجل ذلك، فمن حقه أن يقال الآن.

الأطروحة الثالثة: إن ثمة أسبابا تدعو إلى الإحجام عن قول الذي لا يقال. فهل هو الخوف؟ ربما يكون الأمر كذلك. أو هل هو عدم الوعي؟ ربما. هل هو عدم المبالاة بقوله؟ أمر محتمل. وهل هذه الأمور مجتمعة هي التي جعلت الذي لا يقال؟ الاحتمال قريب.

الأطروحة الرابعة: مهما كانت الأسباب التي جعلت الذي من حقه أن يقال غير قادر على القفز إلى دائرة القول، فإنه لم يعد لهذه الأسباب، ولا لأي منها، أي مسوغ. ولذلك فقد آن الأوان لوضع الأمور في نصابها الصحيح، وتجاوز هذه الأسباب.

الأطروحة الخامسة: لقد عبر الشاعر عن اليقظة وعودة الوعي إلى أهله بقوله: أن تدب فينا البراءة وتخضر.

قد يتصور المرء - لأول وهلة - أن البراءة تناقض الوعي واليقظة في هذا السياق ولكن الأمر سيكون على خلاف ذلك عندما نعرف أن البراءة المقصودة هنا هي نقيض الخبث والمكر. ومصادرة الأمرين (الخبث والمكر) شرط أساسي في عودة الوعي إلى الأمة ويقظتها.

الأطروحة السادسة: إن البراءة المطلوبة ليست مجرد صفة فقط، ولكنها، بالإضافة إلى ذلك، تغرس وتنمو وتورق وتثمر. ولذلك قال الشاعر:

«أن تدب البراءة فينا وتخضر...»

ويصور الشاعر اليقظة والوعي تصويرا جيدا عندما يقول:

أن يا منزلا عند باب الخليل
أن نرمي حجرا في عين الغربة
ونرد الخيل الجامحة الصفراء

فالمقصود برمي الحجر في عين الغربة أن نفقأ عينها حتى لا تعود ترانا. وهذا لا يكون إلا إذا كان مسبوقا بوعي. وقد جاء التعبير عن حصول الوعي واليقظة بقوله: آن... أن نرمي حجرا... إلخ.

ويقول الشاعر:

يا نساء القبائل ودعن كنعان، قلن لأطفاله سيذوب الجليد
يا نساء القبيلة، أرضعن أطفالكن حليب النشيد

لقد وجه الشاعر الخطاب إلى نساء القبيلة من أجل أن يزرعن الوعي في الأطفال، ويخبرنا أن الجليد قد تراكم فوق هضاب القضية. وهذه خطوة أساسية في تكوين الوعي. وإنما وجه الشاعر إلى النساء دون غيرهن؛ لأنهن أقدر على زرع ما يردنه في الأطفال، وهن أقدر على إيصال مفاهيم الوعي واليقظة إليهم. وذوبان الجليد إشارة إلى تغير الأوضاع، وأنها ستتكشف عما هو باق، تماما كما يذوب الجليد فتتكشف الأرض تحته، ويظهر وجهها الذي كان متخفيا. وأما إرضاع الأطفال حليب النشيد، فالمقصود به توعية الأطفال بأناشيد الوعي، والانتماء، والبقاء، إنه نشيد النصر الذي ينبغي أن يضعوه نصب أعينهم.

ويقول الشاعر في قصيدة أخرى:

شجر الشجاعة يخرج من كهوف الرومان
من نقوش بني كنعان الأبدية
غضب الأشجار لا يوصف في كتب البلاغة
وقد يجيء زمن - وها هو ذا -
تنتزع الأرض قشرتها،
ثم لا تكتفي بهذا.

تتضمن هذه السطور الشعرية إشارات دالة على اليقظة. فقد تحدث الشاعر عن كنعان الذي مات، وبقي من آثاره النقوش الخالدة الأبدية. والشاعر يشير إلى بعث كنعان الحفيد ويقظته من رقاده. وكيف لا يكون الأمر كذلك، والنقوش الدالة على علمه وحضارته وفكره باقية خالدة؟ لقد كان هذا البعث يقظة من الرقود، حتى أن يقظته بعثت الحمية في الأشجار. وهذه إشارة إلى الأرض؛ فهي المقصودة بذلك لا الأشجار فقط. وكانت هذه الحمية أبلغ من كل وصف بليغ عرفته كتب البلاغة. ويشير الشاعر إلى أن اليقظة ستعم الأرض التي ستنزع عنها ثوب الخمول والسكون الذي تراكم عليها عبر سنوات الهزيمة والخذلان. وقد عبر الشاعر عن بلاغة الحمية والوعي واليقظة بقوله «غضب الأشجار لا يوصف في كتب البلاغة». وعبر عن رؤيته لذلك الغضب برؤيته لبوادره إذ قال «وها هو ذا»؛ أي أنه بدت ماثلة للعيان بوادره.

٤ - فن الرفض

الرفض هو نتيجة متوقعة للتباين بين موقفين، أو هو شحنة النفور بين موقفين متناقضين. ويكون الرفض مقبولا عندما يكون منطقيا عقلانيا. ويكون مرفوضا عندما لا يكون مسوغا بمسوغاته المنطقية. وحتى تتبين أبعاد الرفض وأركانه، انظر في قول المناصرة:

عرجت صوب مدائن النوم الكسيحة أستغيث
الكل أقسم أن ينام
قدم على قدم ومثلك لا ينام
حجر هو المنفي وصوان وشوك من رخام

لدينا في هذه السطور مواقف متباينة نبينها فيما يأتي:

أولا: مظلوم يرفض ما حل به من الظلم، وظالم مغتصب. فالموقفان متناقضان تناقض رفض، ويكون الرفض هنا من قبل المظلوم.

ثانيا: موقف المظلوم طالبا للنصرة، وموقف من يتوقع منه أن ينصره من إخوانه، ولكن أصحاب الموقف الثاني يعزفون عن نصرة أخيهم، ويقسمون أن يناموا.

هذا الموقف مرفوض - أول ما يكون الرفض- من قبل المتلقي، ومعنى هذا أن الشاعر أراد أن يجعل هذه رسالة موجهة إلى القارئ، من أجل أن يصل إلى هذه النتيجة. لكن هل يكون موقف هؤلاء الذين عزفوا عن نصرة أخيهم مرفوضا من قبل الضعيف الذي جاء يستغيث بهم؟ يخبرنا الشاعر برفض هذا المظلوم لتخلي إخوانه عنه. لكنه لم يرفضهم هم أنفسهم، بل رفض نومهم وتقاعسهم. قال الشاعر «قدم على قدم، ومثلك لا ينام»، وكأن الراوي (المظلوم) لا يقبل لنفسه التقاعس، وإن قبل ذلك الآخرون لأنفسهم.

وقد أخبرنا الشاعر أن «الكل» قد أقسموا على أن يناموا وألا ينصروه. نعم أقسموا حتى يعرفنا أن عدم نصرتهم له لم يكن مجرد غفلة، بل كان عن قصد وسبق إصرار. وهو ليس قسم شخص واحد، بل الجميع أقسموا، مما يدل على أنه يشير إلى أن ذلك هو توجه الجميع، ومصدر إلهامهم في صنعته السياسية.

والقسم في هذا السياق له وجه دلالي آخر: ففي القسم تصعيد للموقف، وهذا يعني أن عدم النصرة قد بلغ غايته. وحتى يكون رفض الطرف الآخر مساويا له في القوة، وإن كان معاكسا في الاتجاه، فقد صعد الشاعر رفض المستغيث لموقف التخاذل، وكان ذلك بأن نفى عنه، بل عمن كان مثله، صفة التخاذل والتقاعس: فهي ليست من صفاته ولا أخلاقه «ومثلك لا ينام». وحتى يصعد الشاعر رفض الراوي للتقاعس والتخاذل، جعل هذا الراوي المظلوم أشد من الحجر ومن الصوان صلابة. هذه درجة أخرى من التصعيد تجعل الراوي لا يلين بسبب إحجام الكل عن نصرته. إنها درجة في التصعيد أقوى من درجة تخاذل من أقسموا أن يناموا عن إعادة الحق إلى أصحابه. ولم يكتف الشاعر بهذه الدرجة من التصعيد:

بل جعل المنفي عن أرضه ودياره شوكا. إنه شوكة في حلق أعدائه. لكنه ليس مجرد شوكة، إنها شوكة من رخام، من أجل أن تكون أشد إيذاء، لعلها بذلك ترد بعض الأذى الذي نزل بهذا المنفي.

ويصور الشاعر الرفض تصويرا جيدا في قوله:

لماذا إذا الوجه منك انحنى
نبيع الدموع لفرس وروم؟
لماذا إذا الوجه منك تساقط كالورد من قمة شاهقة
لماذا إذا جار هذا الزمان علينا، وصارت نوافذنا مغلقة
نؤذن في المؤمنين، وأوجهنا في الرمال، وأدمعنا كاللظى محرقة
وآذاننا بانتظار الذي سيدق النوافذ عند المساء
نؤذن في جرة الخوف، نرضع أطفالنا من نهود الجبال
ونرتقب السفن المارقة؟

إن الراوي يؤكد رفضه عن طريق الاستفهام الإنكاري، الذي هو - في نظري - من أشد أساليب التوكيد توكيدا، وإن لم يقل بذلك أحد من قبل. موقف الراوي - وهو موقف الشاعر كذلك - ألا نريق ماء وجوهنا للشرق والغرب، إذا نزلت بنا نازلة تحني رؤوسنا. وموقف الآخرين أنهم يجرون وراء أعداء الأمة في الشرق والغرب، وهم يعلمون أنهم يريدون أن يذلوهم فقط، ونتيجة للتباين بين هذين الموقفين كان الرفض على النحو الذي وضحت، وقد عبر الراوي عن الذل الذي ينزل بمن يفعلون ذلك بأنه بيع الدموع للفرس والروم. وهذا من شأنه أن يصعد درجة الرفض، بمقدار التصعيد الذي تمثله هذه الدموع من الذل.

وقد بين الشاعر بعد ذلك عددا من المواقف التي تخالف موقفه، وهي تبعا لذلك مرفوضة جملة وتفصيلا. من هذه المواقف المرفوضة ذلك الفصام النكد الذي يكون بين الإنسان ونفسه؛ ذلك أننا إذا جار الزمان علينا نشبع أصحاب القضية كلاما وخطبا، نصرخ فيها كأننا نؤذن. ولكننا في الوقت نفسه ندفن رؤوسنا في الرمال عن مواجهة الحقيقة، ونبكي كما تبكي النساء. عبر الشاعر عن ذلك قائلا:

لماذا إذا جار هذا الزمان علينا
وصارت نوافذنا مغلقة
نؤذن في المؤمنين، وأوجهنا في الرمال، وأدمعنا كاللظى محرقة؟

ومن المواقف المرفوضة كذلك الخوف الذي يجعلنا نحصر كلامنا، ونضيق دائرة انتشاره، حتى يبدو كأنه محصور في جرة. ولكن الشاعر لم يجعل الكلام على القضية مجرد كلام في جرة من الخوف. لقد جعله أذانا، ولكنه أذان لا يغادر محيط الجرة. وقد فعل الشاعر ذلك من أجل تصعيد درجة التناقض بيننا وبين أنفسنا؛ فنحن نتكلم ونرفع أصواتنا، ولكننا نجعل ذلك في دائرة ضيقة، كالذي يؤذن في جرة. فأنى لذلك الأذان أن يسمع؟! هذه درجة عالية في تصعيد التناقض، من أجل أن تكون الدرجة التي تقابلها من الرفض عالية.

وثمة موقف آخر مرفوض، وهو أننا كلما نزلت بنا نازلة هربنا ومعنا أطفالنا، وتركنا الدار والأرض، من أجل أن ننجو وينجو أطفالنا. عبر الشاعر عن ذلك بقوله: نرضع أطفالنا من نهود الجبال.

وثمة موقف آخر مرفوض كذلك، وهو أنه كلما اعتدى علينا أعداؤنا، أو نزلت بنا نازلة من الزمان، انتظرنا السفن العابرة، من أجل أن نعبر بها البحر، خارجين من ديارنا وأرضنا.

في هذا المقطع من القصيدة مفارقة أراد الشاعر أن يضعها واضحة أمام أعيننا. ذلك أنه يعرض أمورا سيئة واقعة، ويرفض أن تكون مقدمات أو أسبابا لأمور أخرى. من ذلك مثلا: أن انحناء الوجه بسبب ويلات الزمان ليس مقدمة صحيحة، ولا سببا معقولا للتوجه إلى الفرس والروم. وهذا يعني أن الوقوع فريسة للزمان يمكن أن يسلم به ولو جدلا. ولكن لا يمكن التسليم بالتوجه إلى الفرس والروم؛ لأنهم أعداء حقيقيون، هذه واحدة. ويمكن أن نسلم ولو مكرهين بجور الزمان، ولكننا لا يمكن أن نسلم بالخوف أو الفصام، أو دفن رؤوسنا في الرمال، هربا من مواجهة الحقيقة، هذه ثانية. ويمكن أن نسلم ولو مكرهين بأننا هزمنا، ولكننا لا نقبل أن نستسلم للهزيمة فنفر من ديارنا وأرضنا، ونظل رهينة السفن التي تنقلنا إلى المنافي في الآفاق.

في المقطع الآتي صورة ذكية من صور الرفض، يقول الشاعر:

يا حقل الفيروز
يا مطر التموز
هل أنت تريدين
أن نبقى في الصين
نحن المنفيين؟

الصين في الثقافة العربية رمز للبعد المكاني، كما جاء في الخبر «اطلبوا العلم ولو في الصين»، وأما المطر في تموز فهو رمز للبعد الزماني؛ لأن المطر في تموز، وهو الشهر السابع من السنة بعيد غير مألوف في الذاكرة العربية. وتموز أصلا هو إله الخصب عند اليونانيين الوثنيين. أما الفيروز فقد جعله الشاعر في حقول، للإشارة إلى كثرة العطاء والخير. ومعنى ذلك أن الشاعر يخاطب غايات الزمان والعطاء، ويستنكر عليها أن يظل الفلسطينيون رهن النفي في أقاصي الدنيا؛ إذ لا يعقل أن يبلغ عطاء الزمان لغيرنا غاياته، وأن نبلغ في النفي والتشريد غايتهما.

٥- فن التحدي

يظهر التحدي في صور شتى في شعر عزالدين المناصرة، من ذلك قوله:

معترف بي في كل مكان إلا في دائرة الصوت
ذلك أني أجرحهم من شدة صمتي
صمتي يقتلهم وأنا أركض مهموما كالنقش الموتور

يقرر الشاعر في هذه السطور على لسان الراوي قضيتين هما سبب التحدي، أولى هاتين القضيتين أن الراوي يقرر أن الناس يعترفون به ما دام صامتا لا يتكلم. وهذا اعتراف لا يسمن ولا يغني من جوع؛ لأنه لا يعيد حقا مغتصبا إلى أصحابه. وثانية هاتين القضيتين تتمثل في ما يقرره الراوي من أن شدة صمته تقتل الآخرين، لشدة شكهم وخوفهم من صمته، فهم يتصورون أنه بهذا الصمت سيقتلهم.

وفي هذا السياق ترد قضيتان أخريان هما:

القضية الأولى: لما قال الشاعر على لسان الراوي «معترف بي في كل مكان إلا في دائرة الصوت» فإن ذلك يعني - أول ما يعنيه - أنه معترف به في دائرة الصمت والسكوت، وغير معترف به عندما يتكلم. لكنه يقول بعد ذلك «ذلك أني أجرحهم من شدة صمتي». فكيف يمكن الجمع بين هذين الموقفين وإزالة التناقض بينهما؟ قلت: المقصود من «دائرة الصوت» التي لا يعترف به فيها هي الدائرة التي يصرح فيها بهويته، أو يطلب فيها استرجاع حقه. دائرة الصوت هذه مرفوضة عند الأعداء، ومن سار على دربهم. وإذن فدائرة الصمت التي لا يكون فيها هذا أو شيء منه دائرة مقبولة عندهم. أما الصمت الذي يجرح أولئك القوم فهو الصمت الذي يكون فيه تفكير باسترداد الحق واسترجاع الديار، وعلى ذلك يكون عندنا صمتان، أحدهما يقر الظلم ويذعن له، وهذا مطلب الأعداء، والآخر يفكر فيه صاحبه في رفع الظلم. وهذا صمت مخيف رهيب، يعالج بالقمع.

القضية الثانية: لقد جعل الشاعر ركضه مهموما متوترا مثل النقش الموتور. هذه الصورة لها وجهان، أحدهما يعطي الحركة للنقش الجامد غير المتحرك، والآخر يعطي عدم الانتظام لحركته المهمومة. ويظهر التحدي بصورة جميلة في قوله:

يا سيدي وأرى المدائن في سبات
والدم الغالي النبيل
وأرى الهضاب تعمها هوج السيول
وأرى العصافير الجياع
أرى البراكين التي ثارت لتخضر الحقول
وأرى زمانا أخضر القسمات
يوشك أن يقول:
إن لم تشد الخيل ساحت
تحتنا الأرض البتول
إن لم تفجرها وتشعلها لهيبا
للسما الزرقا
تحجرت العقول

إن لم تقلها في وجوههم
ستصحو ذات يوم فوق سمراء الطلول
يا سيدي إني أرى ما لا يرى
وأشم رائحة
أرى سما شهيا قدموه لقتلنا هو في طعامك
وأرى الخليل حبيبتي نهبا لتجار الممالك
وأشم رائحة
فحاذر إنهم حرباء تظهر في الفصول
أخشى إذا طلع النهار تصير بيروت الخليل

قد يظن أن عبارة «بك يتربصون» يقصد بها التحذير فقط، وهي حقا تستعمل للتحذير. ولكن العبارة نفسها تنطوي على إشعال فتيل التحدي؛ لأن التنبيه إلى التربص في هذا السياق يراد به التحدي، بمقدار ما يراد به التحذير.

إن الخطاب في هذه الأبيات موجه إلى «السيد» العربي الذي يملك أن يدرأ عن أمته. وهذا الخطاب وإن كان يظهر في صورة من الشادب، فإن فيه تعريضا، لأنه يشتمل على أمرين هما: الاستخفاف، وإظهار المخاطَب (بفتح الطاء) بعدم البصيرة.

وليس التعريض هو كل ما في هذه الأبيات: فإن الاعتراض على سياسة «السيد» واضح في قول الشاعر:

يا سيدي وأرى المدائن في سبات

فهذا اعتراض صريح على سياسة السبات في (المدائن) العربية، وتظهر في هذه الأبيات كذلك معارضة واضحة في قول الشاعر:

إن لم تقلها في وجوههم
ستصحو ذات يوم فوق سمراء الطلول

وبذلك تتكامل وجوه التحدي الثلاثة وهي: التعريض، والاعتراض، والمعارضة.

والتحدي بعناصره المذكورة أعلاه، مبني على استبصار، وليس مجرد تحد من أجل التحدي. فالراوي يقول عن نفسه إنه «يرى ما لا يرى»، وإنه «يشم رائحة»، ويرى «سما شهيا قدموه لقتلنا». وهذه كلها إشارات إلى تبصر الأمور.

إن تبصر حقائق الأمور هو الذي يدعو إلى كشفها. وهذا يقود إلى التحدي من دون شك. فالراوي يرى الهضاب قبل أن تعمها السيول الهوج، يراها كأن ذلك قد وقع.

والراوي يكشف النقاب عن جوع العصافير. وهذه إشارة إلى الجوع الشديد؛ لأن العهد بالعصافير أنها لا تجوع؛ لأن الأرض كلها مائدة لها. فإذا كانت العصافير جائعة فمعنى ذلك أنه ليس في الديار إلا الجياع.

ويصعّد الشاعر كشف الحقائق عندما قال:

وأرى زمانا أخضر القسمات
يوشك أن يقول:
إن لم تشد الخيل ساخت
تحتنا الأرض البتول
إن لم تفجرها وتشعلها لهيبا
للسما الزرقا
تحجرت العقول

يظهر هذا التصعيد في أن الشاعر جعل الأرض تموج، إن لم تعد للأمر عدته. وكيف تموج الأرض؟ هذا أمر فهمه متروك للمخاطب، وهو السيد.

٦- فن المواجهة

ثمة فرق كبير بين مفهوم المواجهة وفن المواجهة. فالمفهوم الأول لا يقتضي كبير وعي، ولا عظيم تقدير، ولا دقيق حساب. أما فن المواجهة فيقتضي ذلك كله. وحتى يظهر المفهوم الثاني واضحا نقف عند قول المناصرة:

في زمان الندى والسماح
كنت أكثرهم في السماح
ولما وقعت حصانا جريحا وحيدا
على صخرة في الظلام
فجأة طوقتني سكاكينهم والسهام
وصرت يتيما على طاولات اللئام
هل أميط اللثام
عن أكاذيبهم هل أميط اللثام؟
يا زمان الندى والسماح

لقد انتهى الشاعر بما ابتدأ به. ابتدأ بالحديث عن الزمان: زمان الندى والسماح، وانتهى بمخاطبة هذا الزمان. إن ما بين البداية والنهاية حديث عن مواجهة، وقع فيها الراوي كما يقع الحصان جريحا، فتخذله قوته، ويكون بذلك محتاجا إلى من يأخذ بيده، فيقيل عثرته، ويعيد إليه قوته. إنها المواجهة التي تستدعي ألا يترك صاحب الحق وحده. ولكنه ترك وحيدا، غير قادر على أن يلملم جراحه، ويستعيد قوته.

لقد جعل الشاعر وقوع الحصان جريحا، وحيدا، على صخرة كسرته، في ظـــلام دامس، لا يعرف أين وقع، ولا كيف ينهض، ولا إلى أين يتجه.

قلت إن الشاعر قد بدأ بالحديث عن زمان الندى والسماح، وانتهى بمخاطبته. وهما في الواقع ليسا شيئا واحدا، بل هما زمنان مختلفان. أما الزمان الذي ابتدأ به فهو زمان الكرم الحقيقي والبذل والتضحية والعطاء. دل على ذلك أن الراوي يقابل بين عطائه وعطاء غيره، في زمان كان البذل والكرم فيه شيئا مألوفا. ولكن الراوي يصف نفسه بأنه كان أكثرهم عطاء؛ أي أنه كان فوق المألوف.

أما الزمان الذي انتهى به، وخاطبه بقوله «يا زمان الندى والسماح»، فهو الزمن الذي يجود فيه غير أصحاب الأرض بالأرض، ويعطونها أو يبيعونها للأعداء، ثم يدعون أنهم دافعوا عن البلاد والعباد؛ مما وضع الراوي في مواجهة معهم؛ ليكشف أكاذيبهم. وفي هذا ما فيه من تصعيد المواجهة، ورفع درجة توترها.

وتبرز المواجهة باعتبارها ضربا من التصوير الدال في الأبيات الآتية:

يا هذه المدن السفيهة عندك الخبر اليقين
أنت التي خليتني قمرا طريدا دون بيت
إن الذين أتيتهم صبغوا الوجوه
وتلفعوا بالصمت في ذاك البلد
وأنا أريد بني أسد
قتلوا أبي واستأسدوا
يا هذه المدن السفيهة، يا مقابر يا فجاج
أسقيتني ملحا أجاج
بيني وبينك خيط فاقطعيه... اقطعيه
اقطعيه

أول ما في هذه المواجهة إماطة اللثام عمن صبغوا وجوههم، وتلفعوا بالصمت فلم ينصروا مظلوما. وقد عبر الشاعر عن التشرد بعبارة «خليتني قمرا طريدا دون بيت»؛ لإحداث مفارقة بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون. فما هو كائن أن القمر صار طريدا من غير بيت. وما ينبغي أن يكون هو أن يظل القمر مطلا على كل بيت، وفوق كل بيت. أما أن يكون غير ذلك فتلك مفارقة. وأما أن يكون مطاردا مع كونه طريدا، فذلك تصعيد لتلك المفارقة.

ويحكي الراوي كيف أن المدن السفيهة قتلت أبا الشاعر، في إشارة إلى حكاية مقتل ملك كندة، والد الشاعر امرئ القيس. ثم استأسد القوم عليه واستضعفوه، وسقوه الملح الأجاج. وذلك إشارة إلى ما نزل بالشعب المغلوب على أمره، من مر العيش، وعلقم الحياة.

ويختم الشاعر هذا المقطع بدرجة فيها تصعيد في المواجهة، عندما يطلب من تلك المدن، أن تقطع خيط الود الذي بينه وبينهم.

ويكرر الشاعر كلمة (اقطعيه) ثلاث مرات، ليس من أجل التوكيد كما قد يظن، ولكن لإحداث تصعيد في هذا الموقف.

ولكن المواجهة وتصعيدها يبرزان واضحين في الأبيات التالية:

ويا شجر العنفوان اللذيذ
زرعنا، زرعنا، زرعنا
وهم دائما يقطفون النبيذ
مطر حامض سوف يغسلنا باللهب
مطر حامض في السهوب
مطر حامض في القلوب
مطر حامض سوف تشرب منه الوعول
مطر حامض في السيول
مطر حامض في صهيل الخيول
مطر حامض في الدموع
مطر حامض في العيون
مطر حامض في نواة الحجر
بعد ذلك تأتي الأناشيد والتربة الصالحة

في هذه الأبيات ثلاث درجات من المواجهة هي: التلذذ بالعنفوان، وتصعيد المواجهة، وشمولها. أما التلذذ بالعنفوان، فقد عبر عنه الشاعر بقوله «ويا شجر العنفوان اللذيذ». وتتمثل حقيقة التلذذ بالعنفوان سيكولوجيا، في هذا السياق طبعا، بمقدار ما يرفع من ألم الحرمان والتشرد، فإذا افترضنا أن الألم الناجم عنهما قد يبلغ عشر درجات مثلا(*)، فإن رفع أي درجة من هذه الدرجات العشر، ستتحقق منه درجة أو أكثر تقابلها من اللذة. وعلى ذلك، فاللذة هنا مختلفة تماما عن اللذة السادية. إنها اللذة الناجمة عن تقابل بين الألم ورفعه. وتكون اللذة أقوى عندما يقوم من وقع عليه الألم، برفع هذا الألم عن نفسه بنفسه. فهو بذلك يتأتى له وجهان من اللذة، أحدهما بسبب رفع الألم وحصول لذة بذلك، والآخر بسبب أن جهوده لم تضع سدى.

وقد عمل الشاعر على تصعيد المواجهة درجة فدرجة. فقد بين حصول فعل الإعمار الذي أشار إليه بالفعل (بنينا)، وكرره مرتين أخريين، لا لمجرد التأكيد كما قد يظن، بل لأن الإعمار نفسه تكرر. وعلى ذلك، فالتكرار هنا للتعبير عن تكرار الحدث نفسه، وليس للتوكيد فقط. وقد قطف الآخرون ثمار الإعمار «وهم دائما يقطفون النبيذ».

(*) لي مقياس سيكولوجي خاص في قياس اللذة والألم، وهو في طور الدراسة، وسأصدر فيه كتابا إن شاء الله تعالى قريبا. والدرجات العشر المذكورة هنا لها أسماء خاصة، وما يقابلها له أسماء خاصة كذلك.

وهذا حدث من شأنه أن يدفع إلى المواجهة. لقد جاء ذكر المطر الحامض تسع مرات في هذا المقطع. وهذا التكرار من شأنه أن يصعد المواجهة وما يدعو إليها. والتكرار هنا يخدم التوتر. وأما شمول المواجهة فناجم عما أمطر به الأعداء و«الأعدقاء» الشعب المغلوب على أمره في كل شيء؛ فمطر حامض في السهول يحرق أخضرها ويابسها. ومطر حامض في القلوب يقتلها. ومطر حامض كالسيول الجارفة، ومطر حامض من الدموع المتحرقة، ومطر حامض في العيون المحترقة.

ولكن شمول هذا المطر يقتضي أن يشرب منه بعض من عملوا على إنزاله بالمظلومين «مطر حامض سوف تشرب منه الوعول». بل إن الحجر قد تشرب المطر الحامض، وسينفلق وينفجر في وجوههم. ساعتئذ تتكشف المواجهة عن نصر يتمثل في قوله «بعد ذلك تأتي الأناشيد والتربة الصالحة». وتظهر المواجهة في قول الشاعر:

نريد أن نسحق البهار
سما لمن دقوا رؤوس أطفالنا بالحجارة
ثم لا نكتفي يا هدهد الرموز بهذا
ثم لا نكتفي يا أرنب القصيد بهذا
ثم لا نكتفي يا كنعانيات الدمع بهذا
ثم لا نكتفي بهذا
ثم لا نكتفي بهذا
ثم لا نكتفي بهذا

إن البهار ليس سما. ولكن الشاعر يجعله سما؛ فتلك إشارة إلى جعل كل شيء سما حتى البهار. وقد تكون إشارة إلى جعل السم بهارا للأعداء الذين دقوا رؤوس الأطفال بالحجارة، إن ثمة تشابها بين دق الأعداء رؤوس الأطفال، ودق البهار إلى درجة السحق. وهذه درجة من درجات التصعيد.

وعزالدين المناصرة موغل في الرمز والغموض. ولكنه هنا كشف نفسه، فأصبحت عباراته كلها من دون إيحاءات. لماذا فعل ذلك؟ لأن دق رؤوس الأطفال بالحجـارة لا يحتاج إلى رمز ولا إيحاء. أسلم الشاعر نفسه للموقف لشدة ثقله، فانكشفت عباراته كلها بعد ذلك. وهذه طريقة في التعبير، وليست خروجا عن المنهج الذي اختطه الشاعر لنفسه. كأن الموقف عندما يكون هائلا فظيعا، يكون التعبير عنه بالرمز إخفاء لهوله وفظاعته. وهذا مزلق خطير، ما أراد الشاعر أن يوقع نفسه فيه، وقد أحسن أنه لم يفعل.

وردت عبارة «ثم لا نكتفي بهذا» ست مرات في المقطع الذي نتحدث عنه؛ لا لأنه أراد أن يؤكد عدم الاكتفاء، بل لأنه أراد أن يجعل مساحة عدم الاكتفاء أوسع: بحيث نتجاوز الرموز: «ثم لا نكتفي يا هدهد الرموز بهذا»، ونتجاوز الخوف والشعر الخؤوف: «ثم لا نكتفي يا أرنب القصيد بهذا»، ونتجاوز الدموع والأحزان: «ثم لا نكتفي يا كنعانيات الدمع بهذا»، ونتجاوز

الحدود التي تضيق دائرة الاكتفاء. ولذلك فقد جعل عبارة «ثم لا نكتفي بهذا» مفتوحة في السطور الثلاثة الأخيرة.

ونختم حديثنا عن المواجهة بقول المناصرة:

سأقول الذي لا يقال
بعد أن وزعتنا طيور الحديد
وحرمنا السؤال
عن الورد والضوء والصوت والدولة المقبلة

إن القضية ليست في أن يقال أو لا يقال الذي لا يقال. إن القضية هي أن هذا الذي سيقوله الشاعر اكبر من كل ما حرم السؤال عنه. وهذا يعني أن المواجهة واقعة لا محالة. ولكنه هو المبادئ بها هذه المرة، وهو الذي سيصعدها؛ لأنه سيقول الذي لا يقال.

المطلب الثاني: حصار السراب

هذا هو الوجه الثاني من القضية، وهو الوجه الذي يجعل بعض القراء يظنون أن عز الدين المناصرة يوشح أعماله الشعرية بوشاح أسود مقتطع من التشاؤم واليأس، وليس الأمر كذلك، فالشاعر كان يسجل كل ما يجري لهذا الشعب من حرمان وتشريد وضياع ومآس وعذاب حيثما حل وارتحل. ثم إنه لم يقتصر عليه كما وضحنا في المبحث الأول.

امتدت رحلة العذاب طويلا؛ فمنذ بدايات القرن العشرين، والسياسة الغربية تعمل على اقتلاع الشعب من أرضه؛ لإحلال اليهود في فلسطين، وإقامة دولة صهيونية لهم في الأرض المقدسة. وكان التنافس على أشده بين الحلفاء لتنفيذ الحلم الصهيوني. وحتى في فترة الحرب الباردة بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي، كان الخلاف بين المعسكرين على كيفية التنفيذ، لا على جوهره وأساسه. وكان هذا الشعب المغلوب على أمره، يسير على طريق من الأشواك، يقول المناصرة:

العتبة أشواك
العتبة أشواك وزجاج مكسور
تمشي الفئران عليه
الدرب الأصفر يا مولاتي حفر وجسور
تتعثر في جنبيه
وأنا بينهما عصفور مقرور.

فالطريق أشواك وزجاج مكسور؛ يشير بذلك إلى أن الرحلة دامية في طريق دامية. وهي كذلك مملوءة بالحفر؛ يشير بذلك إلى المهالك في هذه الرحلة. وأما الجسور فهي تشير إلى البلدان والممالك التي من العسير تجاوزها واختراق حدودها. طريق هذا شأنها، لا يكون تجاوزها أمرا ميسورا. وأما أن الرجل قد أصبح عصفورا مقرورا، فإنما هي إشارة بعيدة إلى أن الجو نفسه لا

يمكن تجاوزه من البرد الذي يجعل العصفور مقرورا غير قادر على الطيران. ومعنى ذلك أن الأرض مغلقة أمام هذه الرحلة، وأن الجو مغلق كذلك. ويحمل ذلك بين طياته أن الطريق كلها مغلقة برا وجوا. وليس هذا يأسا ولا محاولة لتسريب اليأس إلى القارئ، ولكنه الواقع كما يراه الشاعر، وإنه واقع.

في الأمة فئة من الناس سلبية، تسميها الاستعمالات السالكة على الألسنة «فئة الانهزامية». ولم يكن هؤلاء أقل خطرا على القضية من الأعداء أنفسهم. لقد كان هؤلاء يعتقدون أن إقامة الكيان الصهيوني أمر محتوم، وقضاء لا مرد له، وقدر ليس له دافع. إنهم يفرون من مواجهة العدو. لم يكن هؤلاء ليفعلوا شيئا للقضية، ينصرونها به أكثر من الكلام. كانوا كثيري الكلام، قليلي الفعل، يقول الشاعر:

لأنك تهرب من قدر أعرج لا يموت
لأن البلاء إذا عم نامت عيون المدائن تحت المياه
لأنك كنت كثير الكلام كثير السكوت
لذا ستظل هنا في المقابر تحت البحار التي لا تعيش
نعم وتموت هنا قبل يوم الخروج وقبل قدوم الجيوش

إن هؤلاء يفرون من الوهم الذي يتصورونه قدرا. ولقد عبر الشاعر عن هذا الوهم بأنه قدر أعرج، وأنه لا يموت. أما أنه أعرج، فلأنه وهم لا يقوم على ما يؤيد قيامه، ويكون سببا منطقيا له. وأما أنه لا يموت، فلأحد أمرين: إما لأن المخاطب (بفتح الطاء) يتصوره كذلك؛ أي أنه يتصوره ذا ديمومة وبقاء غير قابلين للموت والفناء أو الزوال، وإما لأن الوهم لا يموت حتى يموت صاحبه.

هذا هو البلاء، وقد عم. وأصبحت المدائن (الدول) غارقة في عدم تبصر الواقع على حقيقته؛ فلقد غرقت في انعدام الرؤية. وقد جعل الشاعر عيون المدائن مغلقة وهي في المياه، من أجل أن تظل مغلقة؛ فإنها تظل وأصحابها في قاع البحر، فأنى لها أن تبصر؟ ولعل من يقف عند قول الشاعر «لأنك كنت كثير الكلام كثير السكوت»، يظن أن فيه شيئا من التناقض، وليس الأمر كذلك. فإن المقصود بقوله «كثير الكلام» الكلام الذي لا يكون معه فعل، ولا يؤدي إلى فعل، وأما «كثير السكوت» فالمراد به هنا من لا يفعل شيئا. وقد جعله الشاعر كثير السكوت، لا لمجرد الدلالة على عدم فعل شيء فقط، بل لإقرار الظلم؛ فإن السكوت علامة الرضا، وهو في هذا السياق هو المراد.

لقد تجرع الشعب الفلسطيني في غربته ورحلته السرابية مرارة التشرد، وأصبح طلبا للحاكم، وانصرفت الأمة عن مجابهة الأخطار المحدقة بها، يقول الشاعر:

أمر على الدروب فتزدريني
ويطلبني المتوقس للمحاكم
وأبكي حين أذكر أهل بيتي
فقد تركوا الخيول مع السوائم

إنها صورة من صور ضعف الأمة بأسرها. كيف لا وهي التي تركت الخيول ترتع مع البهائم السائمة، بدلا من أن تجهزها للحرب؟

وقد قادت الرحلة السرابية أهلها، وقادتهم إلى المجازر تلو المجازر، وقادتهم إلى تشرد تلو آخر، يقول الشاعر:

غدوت رمادا يذرذر في النهر
أو مجزرة
وفي كل قطر لنا مقبرة
وأجتاز كل نقاط الحدود
لأصحو على رحلة أو شهيد
أقيم على وطن في الهواء
حفرت بذاكرتي عاصمة

وظلت الهزائم متلاحقة، وظل هذا الشعب متأهبا للتشرد إثر كل هزيمة ونكبة، يقول المناصرة:

رجعت من المنفى
في كفي خف حنين
حين وصلت إلى المنفى الثاني
سرقوا مني الخفين

وقد صور ذلك في موطن آخر، عندما جعل الشعب الفلسطيني مرتعا لقوافل التشرد واللجوء، كلما وضعت قافلة النزوح أوزارها، انطلقت قافلة أخرى جديدة، يقول المناصرة:

ألا لا أقول الذي
جعل الريح تبكي، تنهنه، ثم تموء
ألا لا أقول انتهيت، فما زلت في غربتي
مرتعا للقوافل، مازلت باب لجوء

ولم تكن حالات النزوح رحلات نزهة، بل كان القوم يجدون المعاناة في كل مستقر، وما هو بمستقر، يقول الشاعر:

أصطلي بالوهم دمعا بانتظار السحرة
جئتكم من ساحل الموت ومن قلب الأغاني
وأنا أجري وأجري، أزرع الحب وهم
يقطفون الثمرة
يحسدون الكلب ظل الشجرة

لقد كان الوهم معلما كبيرا من معالم رحلة السراب. ومن الطبيعي أن يكتوي الواهمون بنار الوهم، حتى أنهم سيخرجون عن الوهم المألوف، ليصيروا إلى الوهم غير المألوف، كان يتوقع

أحدهم أمرا خارقا من ساحر. لقد ذهب الشاعر إلى أن أولئك الواهمين ينتظرون سحر السحرة، مما ليس له صلة بعقل أو منطق، وهذا ضرب من تصعيد الوهم، تصعيد يكشف عن مفارقة هائلة في انتقال الواهم من وهم إلى وهم أسوأ منه.

يتحدث الشاعر في الأبيات السابقة، عن صورة من صور عذاب التشرد؛ فقد ظل الشعب يجري ويجري، بتكرار الفعل المضارع (يجري)، تكرار هذا الفعل قد يجعل الدلالة واحدة. وبذلك يكون المعنى أن الجري لم يتوقف، وقد يدل التكرار على اختلاف مضمون الكلمة الأولى عن الثانية، وبذلك يكون المعنى أنه ظل يجري، ويكد.

ويصف الشاعر الشعب الفلسطيني بأن الأعداء لم يجعلوا له إلا خيار الأسوأ دائما، يقول الشاعر:

هل أذبح نفسي؟
أم أذبح نفسي؟
أم أذبحها؟

خيارات ثلاثة هي في حقيقتها خيار واحد، وهو الموت انتحارا.

لقد ظل الفلسطيني وحده. وقد عرض الشاعر ذلك بصورة جيدة فقال:

تدمع عيني وحدي
أشكو وحدي
أمشي في الشارع وحدي
أزرع شجر الحب وحيدا

وفي رحلة السراب وقع الناس أسرى التفرقة والشروخ بينهم وبين إخوانهم. لقد كان الأعداء حريصين على أن ينفخوا في كل صغيرة، حتى تصبح حربا دامية، يقول الشاعر:

كلمات تقال فتكبر ثم تروح
والذي بيننا
حبة كبّروها فصارت قروح
مرة يحدث الارتخاء
إنما دمنا ليس ماء
دمنا ليس ماء

في خضم الرحلة السراب ظل الكبراء يسيغون الكلام على الناس، وينعمون على المحرومين بالوعود والخطب الرنانة، حتى تحول الأمر إلى ما يشبه اليأس، وعجزت الأمة عن مجابهة أعدائها. وقد قال الشاعر عن أصحاب تلك الخطب الرنانة:

لن نصلي تحت رأس المئذنة
قبل أن تقطع هذي الألسنة

وكان من بين مظاهر رحلة السراب أن كثيرين كانوا يلهثون وراء انتماءات عقائدية وافدة؛ لأنهم كانوا يظنون أنها سبيل الخلاص الوحيد لهم ولشعبهم. وكان هؤلاء يلوكون تلك العقائد والمبادئ، في الوقت الذي كان العدو يفتك فيه بأفراد الشعب، يقول الشاعر:

كانت خطوات الموتى في الليل تئن
حول كؤوس البيرة والجن
كنا نتذاكر قتلانا في حفل التدشين
ومضغنا بين الفكين (الأعلى والأسفل): لينين
كم أكره نفسي! كم أكره نفسي!
وأنا أسمع خطوات الموتى في الليل تئن
حول كؤوس البيرة والجن

إذا نظرت في قول الشاعر «ومضغنا بين الفكين (الأعلى والأسفل): لينين» فستجد الكلمتين المعترضتين (الأعلى والأسفل) قد جاءتا لتؤديا وظيفة في هذا الموقع. فالمعروف أن كلمة (الفكين) تعني الفك الأعلى والفك الأسفل. فالتوضيح إذن تحصيل حاصل لا قيمة له، تماما كما أن لوك مبادئ لينين لا قيمة له. وهذا أبلغ بكثير من أن يوصف التنطع والتحذلق بلوك مبادئ لينين بأنه لا قيمة له. وعلى ذلك، فإن هاتين الكلمتين (الأعلى والأسفل) وإن كانتا تحصيل حاصل، من حيث كونهما معلومة من المعلومات ليستا كذلك من حيث أداء معنى آخر بصورة غير مباشرة.

وقد عبر الشاعر عن حالة الفصام التي تجري داخل النفس الإنسانية: بحيث إن الواحد يحتقر نفسه، وهو يجلس مع أولئك الذين يلوكون مبادئ لينين، في الوقت الذي أصبح فيه أكثر الناس كالأموات:

كم أكره نفسي! كم أكره نفسي
وأنا أسمع خطوات الموتى في الليل تئن
حول كؤوس البيرة والجن

من الصور التي عرضها الشاعر في رحلة السراب ما يظهر في قوله:

يتمزق قلبي لصهيل الروم
ووراء الروم الروم... الروم
فلأي الطعنات توجه وجهك يا مهزوم؟
وبأي الساحات تحوم؟

لقد جعل الشاعر الصهيل للروم لا لخيولهم؛ حتى يكونوا من شدة حنقهم وغضبهم كالخيل تصهل في الحرب. ثم إنه جعل الروم صنفين: فصنف هم الروم الحقيقيون، سماهم الشاعر «الروم الروم»، وصنف آخرهم الروم الأتباع والعملاء الذين يأتمرون بأمرهم.

في ضوء ذلك كله، أصبحت النداءات لإنقاذ الأرض والشعب من دون جدوى؛ فقد ضاعت الأصوات سدى:

كنا نجرجر خطونا والأرض تندهنا
فلا نصغي لها
الأرض تندهنا فلا نصغي لها
لا تندهي فيروز
إن الليل في هذي الفصول يطول... يصبح كالردى
لا تندهي فالذئب في كل الدروب
وأنا وأنت نصيح في الدنيا سدى
لا تندهي... ما في حدا
خفر السواحل قد تنحوا عن مواقعهم
وأنتم تلهثون

لقد كان من أسوأ مظاهر رحلة السراب في الساحة العربية الخوف، وعدم الثقة، وانكفاء الإنسان على نفسه، ومثل هذا واضح في قول المناصرة:

في قلبي آلاف الأشياء
لا أحكيها إلا للحيطان الصماء
أرفض أن أحكيها للغول
ذلك أن لساني يا أحبابي مشلول

هكذا يفعل الخوف، وعدم الثقة «لا أحكيها إلا للحيطان الصماء»، إلى درجة أن الواحد يتصور الآخر غولا سيأكله، وإلى درجة أن ينكفئ الإنسان على نفسه عندما يشل لسانه.

المبحث الثاني: بناء المضامين

لعز الدين المناصرة طريقته الخاصة في بناء مضامين قصائده. وسنبحث في هذا المبحث المطالب الآتية: الرمز، والاستحضار التاريخي، والإيقاع الدرامي.

المطلب الأول: الرمز

من المألوف أن يستعمل الشاعر أمرا ما رمزا لقضية معينة، أو شخص معين. ومثل ذلك أن يرمز أحد الشعراء بالسندباد إلى من لا يحط رحاله بمكان لكثرة الترحال. ومثله أن يرمز شاعر ما بـ «سيزيف» في الأسطورة اليونانية الذي ظل يرزح تحت الصخرة، إلى من كان شأنه كذلك من الأفراد أو الجماعات أو الشعوب. ومثله كذلك أن يرمز شاعر آخر بشهرزاد أو المرأة التي لم تكف عن محادثة الملك شهريار، وتسليته بألف ليلة وليلة، إلى من كان شأنه

كذلك، وبشهريار إلى من كان فيه بعض سماته. قلت: هذا كله أمر مألوف. والدليل على ذلك أن هذه الأسماء تتردد كثيرا عند الشعراء المشهورين كالسياب، ونزار قباني، ومحمود درويش، وعزالدين المناصرة.

والأحسن في استعمال الرمز أن يضمن الشاعر في قصيدته مضمون قصة الاسم الذي استخدمه رمزا، بدلا من أن يذكر الاسم فقط. وحتى أبين ذلك أقول من الأفضل فنيا، أن يجعل الشاعر حياته رحلة لا تنتهي، وأن يقص علينا أطرافا يفصلها أو يحملها من رحلته، بدلا من أن يصف نفسه مجرد وصف بأنه السندباد.

ينسج عزالدين المناصرة الرمز بطرائق متعددة نجملها فيما يأتي:

الرمز المكثف(*)

يستعمل المناصرة الرمز المكثف في كثير من أعماله، والمقصود بالرمز المكثف ذلك الرمز الذي يحمل بين جنبيه دلالات كثيرة، ويحتمل تبعا لذلك تأويلات كثيرة، كلها صحيح باعتبار وجهته في التأويل، وليس مطلوبا من الشاعر أن يلم بتأويلات الناقد كلها، ولا أن يكون أرادها كلها حقا. هذه ليست وظيفته، بل وظيفة الناقد والمتأمل.

يكثر الحديث عن (كنعان) في شعر المناصرة، وكنعان هو الأصل، ولكنه يرد باعتباره فرعا، ويرد في شعره كذلك باعتبار صفاته، وكذلك باعتبار بقائه وديمومته. إذن فاجتماع (الأصل) و(الفرع) و(الصفات) و(البقاء) ضرب من التكثيف الذي يتقنه عزالدين المناصرة، ويجيد الإفصاح عنه.

أما كنعان الأصل، كنعان التاريخ، الذي يرقد في أحضان الجغرافيا، فانظر إليه في قول الشاعر، في قصيدة بعنوان «يتوهج كنعان»:

وفي ليلة كالقدر
توهج كنعان بين حقول الشعير
توهج كنعان وردا وخوفا وخبزا وشايا
على تلة قرب برقوقة المنحدر

إن الشاعر هنا لا يكتفي بأن يكون كنعان تاريخا، ولا أصلا فقط. فهو على خلاف التاريخ كله مازال يتوهج. ولذلك جاء عنوان القصيدة على هذا القد، بهذين اللفظين «يتوهج كنعان». إنه على خلاف التاريخ كله يتوهج في الجغرافيا. يتوهج في الليل فيجعله قدرا على الأعداء. يتوهج في حقول الشعير فيجعلها كنعانية. يتوهج في الورد فيعبق شذاه فيه، ويتوهج حتى في الخوف، وفي المأكل وفي المشرب. إنه التاريخ اليقظ، لا التاريخ النائم. هذه المعاني مكثفة بطريقة تدل على مهارة خاصة، وقدرة على التكثيف. يخاطب الشاعر كنعان في قصيدة له بعنوان «تقبل التعازي في أي منفى» فيقول:

(*) مصطلح وضعته لوصف أحد أنواع الرمز.

وأهلك – كنعان – قد عرضوا للشراء

إنه يكثف هنا قيم التاريخ؛ لا ليستثير همم من يحملون هذه القيم فقط، بل ليسخر منهم كذلك، وليبرز المفارقة بين كنعان الذي يعي ويفهم ما معنى أن يعرض أهله للبيع والشراء، ومن يزعمون أنهم يحملون قيم التاريخ، ولا يفهمون ما معنى أن يعرض أهل كنعان لصفقات البيع والشراء. إن هذه المعاني مكثفة كلها في هذا الخطاب الذي يتوجه به صاحبه إلى كنعان الأصل والتاريخ والعراقة.

إن الشاعر يلح في كثير من أعماله على أن يظل كنعان التاريخ والأصل، من بين أحضان الجغرافيا؛ ليجعل ملكيته للأرض كالظواهر الجغرافية التي لا تقبل التحول، يقول الشاعر:

كنعان يخرج فجرا
كنرجسة في حجر

ويقول:

وكنعان نخل وحور وسنط إذن

وأكثر من ذلك، فإن ديوانين من دواوين الشاعر يحملان اسم كنعان هما: كنعانياذا، ورعويات كنعانية.

أما كنعان (الفرع) فقد ورد في كثير من قصائد الشاعر. يقول في قصيدة له بعنوان «دموع الكنعانيات»:

الكنعانيات يجئن
يصلين على الجبل المبتل بدمع الآباء
المجروح بسيف الأعداء
المبتل بسيف الأعداء

إلى أن يقول:

وبكين وأطلقن زغاريد: الزيتون
الزيتون يغني الزيتون
سهام المنفى في عينيه
قالت إحدى الكنعانيات: هنا دمه
واشتدت نقرات الطبل:
أيا دمه اللهب على حيطانك يا بيروت

وأما (كنعان) الصفات، فظاهر في قول الشاعر:

يجيئك كنعان ملتحيا بالثلوج
يطير اليمام على كتفيه
على فرس أشهب، ليلة الاجتياح

وسبحته صدف تلحمي... وجبته من حرير
يجيئك كنعان
كشرته من زجاج وعيناه غاضبتان

في هذه السطور الشعرية بعض صفات كنعان؛ فهو يجيء ملتحيا بالثلوج، لا يقصد بذلك بياض اللحية فقط؛ فثمة معان أخرى مكثفة في هذا الوصف: فبياض الثلج هو النقاء والصفاء، وبياض الثلج هو الذي يغمر الأرض، فينشر عليها من صفاته، حتى لا يرى من الأرض إلا صفاء البياض ونقاؤه، ذلك الصفاء الذي لم تخالطه الألوان فتغير من طبيعته. هذا هو شأن بياض الثلج، وهذا هو سمت كنعان. و(كنعان) يطير اليمام على كتفيه؛ لأن وداعته مثل وداعة الأرض نفسها التي يحط عليها اليمام، ومثل وداعة الأشجار التي يطير إليها اليمام. إنه - باختصار - الحالة التي تتحد فيها صفات الإنسان بصفات الأرض التي هي له، وهو منها في الوقت نفسه.

هذا، والرمز المكثف في شعر المناصرة أصناف شتى، وفيما يأتي شرح موجز لأهمها وأكثرها دورانا في شعره:

١- التكثيف الرمزي المذيل(*)

المقصود بالتكثيف الرمزي المذيل أن الشاعر يستعمل رمزا معينا، ثم يشرحه في الحاشية شعرا، يقول المناصرة «وأنا أول من وضع الهامش في ذيل القصيدة(**)». ليس المهم في هذا السياق أن يشرح الشاعر كلمة أو رمزا في الحاشية، وليس هذا هو المقصود من التكثيف الرمزي المذيل. يكون التكثيف الرمزي مذيلا عندما يشرح شعرا في الحاشية برمز آخر. في قصيدة «روسيكا قبل المطر- بعد المطر» ستة رموز مكثفة، شرحها في الحاشية، هذا واحد منها:

قال الشاعر:

وتشترني عند طرح السلام

أما طرح السلام فقد جعله الشاعر رمزا لميل الراوي إلى السلام والمحبة والمودة. وقد شرح هذا الرمز المكثف بالتذييل الآتي:

لأنك تشحد زيتا من الآخرين
تلملمه نتفة نتفة ثم يأتي اللصوص
يضيفون أضواءهم في النصوص
وأنا أشرب الزيت في المعصرة
أضيف له كهرباء الرحيل
وخبز الطابون

(*) مصطلح وضعته لدراسة أحد أنواع الرمز.
(**) عزالدين المناصرة «الأعمال الشعرية» - حاشية ص ٥٢٧.

وآخذ من حرقتي نتفة
وأضيف لها حرقة الطيبين

هذه السطور تشرح سبب ابتزاز العدو للراوي المسالم الوديع: فهو يبتزه ويسرق أرضه؛ لأن هذا العدو:

١- لا يملك الأرض ولا زيتونها؛ ولذلك فهو يشحذ الزيت من الآخرين نتفة نتفة. أما الراوي فهو يشرب الزيت من المعصرة لأنه يملك الأرض وزيتونها.

٢- ليس عنده من الزيت ما يضيء في ظلام الليل؛ أي أنه كان يعيش في ظلام دامس دون رصيد حضاري. أما هو ففارق في الزيت الذي كان يضيء به في الظلام. وهذه إشارة إلى الإرث الحضاري للراوي، وعدم وجود إرث حضاري للمغتصب.

٣- المغتصب يريد أن يصادر كل شيء، حتى النصوص فإنها لا تسلم من المصادرة والسرقة، عندما يحرفها لمصلحته ويفسرها كما يريد، وهو يقصد بذلك تزوير الحقائق التاريخية. وقد وردت كلمة (أضواءهم) سخرية واستخفافا. ومع ذلك، فإن هذا الرصيد الذي يملكه الراوي من الأرض والحضارة، لم يمنع كهرباء الرحيل والتشريد من أن تصعقه؛ ليعيش في حرقة هو والآخرون من المستضعفين من أمثاله.

٢- التكثيف الرمزي المقنع(*)

المقصود بهذا النوع من التكثيف أن يكون الرمز مقنعا بحقائق علمية أو تاريخية، أو آراء سائدة، وذلك كما في قول المناصرة:

جدي كنعاني بحار بدوي
يوزع الحروف الجديدة واللغات غير الدارجة
قيل، جاء على فرس من عسير
وعلى مركب أبيض من كريت
قيل، مهر من اليمن في سفينة أثينية

يعرض الشاعر هنا مسألة الأصل الكنعاني للفلسطينيين؛ فيجعل ذلك رمزا مكثفا يغلفه بآراء وحقائق تاريخية؛ فجعله بدويا متجولا. وعبر عن هذا التجوال بأن وصفه بأنه «بحار بدوي»؛ ليخرج به من التجوال في الصحراء الذي قد يكون ضياعا، وقد جعله بحارا؛ لأن الإبحار فن وعلم ورصيد حضارة. وجعل الشاعر كنعان يوزع الحروف، إشارة إلى ابتكارها، واللغات غير الدارجة؛ إشارة إلى أن الكنعانية كانت أصلا لعدد من اللهجات العربية غير الدارجة «البائدة». ثم يشير إلى بعض الآراء في منبت كنعان؛ إذ قيل إن أصله من قلب الجزيرة العربية، وقيل إن أصله من اليمن. أما القول الذي ذكره الشاعر، وهو أن أصل الفلسطينيين من جزيرة كريت، فقول لا يستند إلى حقائق علمية ثابتة، ولكنه رأي يأخذ به بعض المؤرخين.

(*) مصطلح وضعته لدراسة أحد أنواع الرمز.

وعلى كل حال، فإن التكثيف الرمزي المقنع يشغل حيزا كبيرا من شعر المناصرة. ويكفي هذا المثال الذي ذكرناه.

٤- التكثيف الرمزي المفصل(*)

اقصد بهذا النوع من الرمز ما كان منه مكثفا ومفصلا في آن معا، وذلك مثل قول المناصرة:

بالأخضر كفناه
بالأحمر كفناه
بالأبيض كفناه
بالأسود كفناه

يقصد الشاعر أن الشهيد قد كفن بالحياة الفلسطينية كلها: بالزيتون الأخضر، ودم الشهادة الأحمر، والصفاء والنقاء الأبيضين، والحزن الأسود.

وهذا النوع من الرمز المكثف شائع جدا في شعر المناصرة. وهذا المثال يكفي لبيانه والدلالة عليه.

٥- الرمز الحكاية

من خصائص شعر المناصرة أنه يجعل الحكاية رمزا لمعنى من المعاني. وكثيرا ما تجد الشاعر قد ألف حكاية، يرمز بها إلى المعنى الذي يريد، من ذلك مثلا قوله:

الأخضر اوعدني، والأخضر حين يقول:
يفعل ما قالته حبيبته الخضراء
والأخضر جذر الأرض
صديق الشمس الخضراء
الأخضر صوت الحجر الناري
وصوت الآثار
الأخضر مرسال النار إلى النار
والأخضر يولد حين يموت

فالأخضر هنا هو الزيتون. هذا الزيتون الأخضر بعد. ومن خصائصه أنه إذا وعد صدق وعده، وكان وعده مثل وعد الحبيبة الخضراء، وهي الأرض الفلسطينية الخصبة. كل شيء في فلسطين أخضر، باطنها، والحجارة البركانية السوداء، وشمسها. فالخضرة والخصوبة والعطاء هي التي تبعث الحمية والقوة في أبنائها المتوقدين حماسة وحرارة وإباء. هذه الخضرة هي الحياة التي تظل مستمرة في وجه الحياة «والأخضر يولد حين يموت». فهو مستمر في حياته، دائم في وجوده، ولا يستطيع الموت أن يمحوه.

(*) مصطلح وضعته لوصف أحد أنواع الرمز.

٦ - سلاسل الرموز

من المألوف جدا أن تجد الرمز في شعر المناصرة مصدرا لسلسلة من رموز تتوالد منه. وقد سميت هذا النوع من الترميز بسلسلة الرموز، أو الرموز المتوالدة generative symbols. وحتى نوضح هذه القضية بمثال من شعر المناصرة ننظر في قصيدته «يا عنب الخليل» التي جعلها أما لأحد دواوينه وعنوانا لذلك الديوان.

لقد جعل الشاعر عنب الخليل مثالا للحرية والإباء ورمزا لهما فقال:

سمعتك عبر ليل الصيف أغنية خليلية
تقول، تقول: يا عنب الخليل الحر... لا تثمر
وإن أثمرت كن سماً على الأعداء، لا تثمر

فهو رمز للخليلي، بل الفلسطيني الحر، ولهذا وصفه الشاعر بأنه حر. ولما كان الأمر كذلك فهو مطالب بألا يثمر، وإذا أثمر فليكن سما على الأعداء. هذا رمز لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان الفلسطيني كما قلنا، ولكن الشاعر جعل عنب الخليل رمزا لهذا المعنى.

بعد ذلك ولد الشاعر من عنب الخليل مجموعة من الرموز؛ فقد جعل نداء البياعين عليه في المزاد، رمزا لمن باعوا الديار بثمن بخس، كالثمن الذي يستطيع أي إنسان أن يدفعه لما أراد شراءه من العنب الخليلي، وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

عنب جندلي وإيقاعه فاعلن في المزاد وقبل، فعولن
لأن الخبب
يرتوي من نهور الذهب

لقد جعل الشاعر بحر الخبب رمزا لصفقة البيع. أما كيف كان ذلك؟ فهذا بيانه: إن البياعين ينادون قائلين «يا عنب... يا عنب» أي بوزن: فاعلن- فاعلن، وهذه التفعيلة هي تفعيلة بحر الخبب. وهذه الصفقة التي رمز إليها بالخبب هي التي أجرت على البياعين أنهارا من الذهب.

ثم ولد الشاعر من عنب الخليل رمزا آخر؛ فقد جعله رمزا إلى عمق الانغراس في الأرض، فجعل العنب الخليلي ضاربا في أعماق التاريخ؛ فقد كانت كروم عنب الخليل للكنعانيين:

من دمع كروم الكنعانيين

ثم أخذ يصف شرح خليلي من بني نعيم لسلالات العنب، وكيف تمتد سلالات الكرمة كما يمتد التاريخ؛ يشير بذلك إلى قدم انتماء الإنسان الفلسطيني الذي غرس كرمة العنب في أرضه وبلده:

كان نعيمي ينهر بغلته في أول خيط للفجر
يشرح لي عن سلسلة من نسب لسلالة أجداد الكرمة
يتغزل باللون وبالطول وبالطعم وبالأسماء

واختيار الخليلي الذي ينتسب إلى بني نعيم اختيار موفق؛ لأن أولئك من قبيلة عربية قديمة في الجزيرة العربية. ثم إن التغزل باللون، وبالطول، وبالطعم، وبالأسماء، إشارة إلى خصائص الإنسان الفلسطيني وسماته وقسماته.

وولد الشاعر رمزا آخر من عنب الخليل: فجعله رمزا لبعض علاقات الإنسان بأرضه؛ فهي التي نأكل من خيراتها. وجعله كذلك رمزا لحسن استغلال أهل الأرض لأرضهم فقال:

الخليل نفضله في الصباح زبيبا ودبسا إذا كان
ملبنه صافيا كبنات الشآمْ
لكي لا تغار من الورد من حمرة الوجنتين
ولين القوامْ

أما الآخرون فلا يحسنون استغلال الأرض، ولا يعرفون كيف يستثمرون الأرض الفلسطينية، يقول الشاعر:

ونحن الأعاريب نعشقها كرمة تتجلى غلالاتها في المنامْ
نمزمزها في الصواني
إذا هلّ هذا الصقيع على الكائنات
ونطفئها في ديسمبر
في عيد عيسى عليه السلام، عليه السلامْ

وهذا رمز لما يفعله رواد الحانات في حفلات عيد الميلاد المجيد، في الوقت الذي يغفلون فيه عما يخطط لهم أعداؤهم.

هذا الأسلوب من توليد الرموز، بعضها من بعض، يتجلى في كثير من أعمال عز الدين المناصرة.

٧- الرمز التضميني

يكون الرمز التضميني عندما يستخدم الشاعر عبارة مأثورة، أو نصا من القرآن الكريم، أو الحكم، أو العبارات المحفوظة. وهذا الرمز يرد كثيرا عند المناصرة، من ذلك قوله في قصيدة الحجر:

وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى

فقد جعل الشاعر الآية الكريمة «وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى» رمزا لأمور عدة منها:

أولا: إن الرمية كانت مسددة، لأن الرامي هو الله عز وجل.

وثانيا: إن الجندي الإسرائيلي المدجج في السلاح هو الضعيف، والرامي هو القوي.

ومن هذا القبيل قوله في قصيدة «أضاعوني»:

طفت المدائن: بعضهم قذف القصائد
من عيون الشعر
يرثي والدي
والآخرون تنكروا: اذهب وربك فقاتلا

إنه يرمز بالآية الكريمة «اذهب أنت وربك فقاتلا» إلى حال الأمة، وقد استمرأت التخلف عن قتال الأعداء. وفي القصيدة نفسها عدد من الرموز التضمينية، فقد ضمنها قول الشاعر العربي:

أضاعوني، وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

فقال المناصرة:
قال الشاعر المنفي حين بكى:
"أضاعوني
وأي فتى أضاعوا"

يرمز بذلك إلى أن العرب قصروا في حق فلسطين، حتى ضاعت من أهلها، واغتصبها المحتلون. وضمن الشاعر القصيدة قول امرئ القيس:

والله لا يذهب شيخي باطلا
حتى أبير مالكا وكاهلا

فقال:
وكأنهم ما مرغوا تلك الذقون
على فتات موائدي
"والله لا يذهب ملكي باطلا"

غير أن الخلاف كبير بين ما رمى إليه امرؤ القيس من قوله هذا، وما أراده المناصرة من إيراد هذه العبارة في هذا السياق. فامرؤ القيس يقسم على أخذ الثأر ممن قتل أباه. أما المناصرة فقد أورد العبارة على لسان من كانوا يضحكون على ذقون أمتهم، بأنهم سيثأرون ممن اغتصب الأرض وأخرج أهلها منها.

وضمن المناصرة عبارة امرئ القيس المشهورة، عندما علم بنبأ مقتل أبيه: «اليوم خمر وغدا أمر» فقال:

وأقول اليوم خمر وغدا يا غرباء
اسكتوا يا غرباء
ارقصوا يا غرباء
فوراء الثأر منا خطباء

لقد أسقط الشاعر كلمة «أمر» من قول امرئ القيس: «وغدا أمر»؛ لأنه لا يريد أن يورد على لسان من يعنيهم، وعدا بأي أمر مهما كان؛ كأنهم في نظره ليسوا من أهل ذلك، وما ينبغي لهم. وفي القصيدة نفسها تضمين آخر من قول المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فقد قال المناصرة:

وسمعت والينا يقول وعينه
فيها القذى
(لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى)
حتى تقال على مسامعه الخطب

هذا رمز تضميني يحمل بين طياته تعريضا واضحا، بمن أشبعوا الأمة من خطبهم الرنانة.

ومثل ذلك ما قاله الشاعر في حديثه عن كافور:

فبكى المتنبي وانهار
حدثنا عن عقدة كافور
قال: يحب مديح الشعراء ويكرههم

حقا، إن عبارة «يحب مديح الشعراء ويكرههم» ليست عبارة محفوظة بنصها، ولكنها معروفة بمضمونها، فهي في حكم النص المحفوظ، أو هكذا أرادها الشاعر، فقد كان كافور يحب مديح الشعراء ويكرههم. وعلى ذلك تجري هذه العبارة مجرى الرمز التضميني. وقد استخدمها الشاعر لتكون رمزا، لأن المقصود هم الكبراء الذين يحبون المديح، ويكرهون الشعراء.

المطلب الثاني: الإسقاط التاريخي

أعني بالإسقاط التاريخي أن يستحضر الشاعر شخصية معينة من التاريخ؛ ليسقط عليها بعض ما يجري من الأحداث المعاصرة. وشعر عزالدين المناصرة فيه كثير من الإسقاطات التاريخية؛ فقد اقتنص عددا من الأسماء التاريخية، وما جرى معها، وصرف ذلك كله إلى القضية التي كرس شعره كله لخدمتها.

والإسقاط التاريخي متصل بالرمز التضميني. لكننا سنركز في دراسة الإسقاط التاريخي على سمات الشخصية، والأحداث التي جرت معها، أكثر من تركيزنا على دراسة ما يهتم بدراسته الرمز التضميني.

استحضر الشاعر شخصية امرئ القيس، ابن ملك كندة، وما جرى له بعد مقتل أبيه، وضياع ملكه؛ إذ توجه إلى ملك القسطنطينية؛ ليستعين به في الثأر ممن قتلوا أباه، وأدالوا دولته. لقد ذكر المناصرة امرأ القيس، وقصة انصرافه في البلاد ساعيا إلى ملك الروم، في قصائد متعددة. ففي قصيدة له بعنوان: «قفا نبك» (وهاتان أول كلمتين في معلقة امرئ القيس)، يجعل المناصرة هاتين

الكلمتين ميزانا لقياس بكاء ببكاء(*)، وشتان ما بينهما. فامرؤ القيس يبكي ولا يكف عن المطالبة بالثأر لدم أبيه. وأما بكاؤنا نحن على ما أضعنا فالأمر مختلف جدا: ذلك أنه:

تستريح ثعالبها من شول الرخاء
هنا نأوي مع الليل لو يسمع الرمل وقع خطى الندماء
نجوم السماء تراقبنا في السماء

هناك سعي، وهنا ثعالب خاملات، ويكفي أن تكون (ثعالب) للدلالة على ما أراده الشاعر، فكيف إذا كانت ثعالب خاملات؟ من ذا الذي سيطالب بالثأر ساعتئذ؟

واستحضر الشاعر شخصية امرئ القيس في قصيدة أخرى عنوانها «امرؤ القيس يصل فجأة إلى قانا الجليل»، ومما قاله فيها:

صرخت... ولم يستجب لي أحد
ليس وهجك غير اصطباري
صرخت... ولم يستجب لي أحد

ثم قال:

إنهم قتلوا والدي وأنا شارد في حنايا اللغات.

من المعلوم أن لامرئ القيس حبيبة اسمها فاطمة، ورد ذكرها في المعلقة:
تحدث عزالدين المناصرة عن فاطمة هذه فقال:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
كان عرس بقانا الجليل وفاطمة الآن

تفتح باب التطوع:

حناؤها وخلاخيلها والعطور
وتقسم ألا تكون نؤوم الضحى

وإنما عرفنا أنها فاطمة امرئ القيس لا غيرها؛ لأنها هي الموصوفة بأنها نؤوم الضحى، في معلقة امرئ القيس: «... نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل».

وقد جعلها المناصرة تقسم بأنها لن تكون نؤوم الضحى، إشارة إلى اليقظة التي استدعتها موجباتها.

واستحضر الشاعر زرقاء اليمامة الفتاة العربية المشهورة التي كانت تبصر الأشياء من أميال كثيرة. استحضر الشاعر شخصيتها، وجعلها رمزا لمن كان يرى الوقائع العظيمة، والويلات الكثيرة.

(*) مطلع معلقة امرئ القيس: قفا نبك ... إلخ ليس البكاء على ملك أبيه بل البكاء على الأطلال. ومع ذلك فقد نقل الشاعر هاتين الكلمتين، واستخدمهما للهدف الذي أراده استخداما رائعا.

قبل أن تحل بالأمة، فيخبرهم بها ليأخذوا حذرهم حتى لا يأخذهم الأعداء على حين غرة. وقد سماها الشاعر جفرا الكنعانية.

فقال في قصيدة عنوانها «زرقاء اليمامة»:

لكن يا جفرا الكنعانية
قلت لنا إن الأشجار تسير
على الطرقات
كجيش محتشد تحت الأمطار
أقرأه سطرا سطرا رغم التمويه
لكن يا زرقاء العينين ويا نجمة عتمتنا الحمراء
كنا نلهث في صحراء التيه
كيتامى منكسرين على مائدة الأعمام
ولهذا ما صدقك سواي، لهذا كنت الناجي

واستحضر شخصية الأفوه الأزدي الشاعر الجاهلي المعروف، صاحب القول المشهور:

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

استعار المناصرة الشطر الأول من هذا البيت، وجعله عنوانا لإحدى قصائده التي يشكو فيها ضياع الوطن:

وطني يضيع ولا أقول:
آه من الليل الطويل
ذهب الذين أحبهم
وبقيت مثل السيف فردا

واستحضر شخصية عبدالله العرجي الذي قال:

"أضاعوني، وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر"

وجعل عبارة «أضاعوني» عنوانا لإحدى قصائده

واستحضر شخصية أبي محجن الثقفي، وجعله رمزا للمحروم من أرضه، الممنوعة عنه وسائل الدفاع عن أرضه ووطنه.

لقد كان المناصرة شغوفا باستحضار الشخصيات من التاريخ العربي، يبني عليها رموزا، ويقيم عليها قصائد، بدلا من أن يلجأ إلى الشخصيات الأسطورية في الثقافات الأخرى، كما فعل آخرون من الشعراء. لقد شق المناصرة طريقه إلى تمثل الثقافة العربية في شعره، في مرحلة مبكرة من حياته الشعرية، وتقدم على كثير ممن عاصروه في هذا المجال. وربما كانت ثقافته التي تحصل شيئا كثيرا منها من دراسته في دار العلوم، قد فتحت له هذا الباب؛ ليدخل منه بشخصية

مستقلة، ونفس مميز. ولا شك في أن اطلاعه على المجموعات الشعرية العربية، ومنها ديوان الحماسة وغيره، قد أسهم في بناء توجهه هذا.

المطلب الثالث: الإيقاع الدرامي

تكثر الإيقاعات الدرامية في شعر المناصرة، إلى درجة يوشك فيها ذلك أن يكون في عامة شعره؛ سمة مميزة، وسمتا واضحا. وسوف أوضح كيف يلون القصيدة الواحدة بألوان شتى من الإيقاعات الدرامية المتفاوتة في تدرجها وتناميها. فثمة قصيدة عنوانها «مدينة تدور حول نفسها».

إن الدوران حول النفس صورة درامية، تظهر الإنسان، كأنه مركز الدائرة في هذا الضياع؛ ذلك أنه أصبح يحيط به من كل الجهات. فإذا طبقنا ذلك على المدينة- وهذا هو الذي يريده الشاعر- كانت المدينة غارقة في عدم معرفة ما تريد، وما يراد لها. يقول الشاعر في هذه القصيدة:

قريبا من المجلس البلدي
بعيدا عن المجلس البلدي
اتكأت على حائط بارد
مثل مقبرة السفح
كنت وحيدا وينخرني الهم والوهم والانتظار

في هذه السطور صفات كثيرة حملت الإيقاع الدرامي واضحا: فالإحاطة تظهر في القريب والبعيد، أو الأدنى والأقصى؛ فلا القرب من الهيئة الحاكمة التي يمثلها المجلس البلدي، ولا البعد عنها، منعه من أن ينهار، فيتكئ على حائط بارد، لا يقيه من البرد. وظل الراوي- باعتباره ممثلا لكل من في المدينة- ضائعا، وظلت المدينة تدور حول نفسها. فاستوى القرب والبعد عن المجلس البلدي، في عدم القدرة على إنقاذ المدينة، من أن تدور حول نفسها. هذا ضرب من التفكير يجعل الضعف هو المدار الذي تدور المدينة فيه حول نفسها. وتكون النتيجة أنها لا المقربون قادرون على أن يفعلوا شيئا، ولا البعيدون عن المجلس قادرون على ذلك، فهو ضياع من هنا، ضياع من هناك، ضياع من كل اتجاه. هذه إحاطة واضحة ذات إيقاع درامي.

هذا كله لا يخلو من الإيحاء: إيحاء بأن الضدية والتناقض الموجودين في المدينة لم ينقذاها، ولا أنقذا أهلها، من الدوران حول النفس، وإيحاء بأن أهل المدينة يدورون بغير اتزان، حتى أصبح الواحد منهم قريبا من السقوط. ومن أجل الإنقاذ من هذا السقوط جاء الفعل «اتكأت»؛ ليكون معينا على البقاء والاستمرار، مهما كان المرء فيهما ضعيفا.

وثمة قدر من المفارقة يظهر في ذلك، فالمرء عندما يضعف عن الوقوف أو القيام؛ فإنه يستند إلى جدار قوي، ولكن الجدار الذي استند إليه الراوي متكئا عليه بارد؛ بمعنى أنه ليس فيه قدر من

حرارة القبول، يتفاعل به من يتكئ عليه، ويستند إليه. وهو هنا يشير إلى الحائط الذي اتكأ عليه الفلسطينيون، فما وجدوا فيه غير البرودة التي هي هنا انطفاء العاطفة.

وفي الأبيات تصعيد يتمثل في تشبيه الجدار البارد بمقبرة السفح؛ وهو تصعيد سلبي؛ لأنه يصعد الظاهرة السلبية - وهي برودة الحائط من حيث إنه لا حرارة فيه - في المقبرة التي لا حياة فيها. فيبدأ بالجدار الذي لا حرارة فيه؛ لينتهي إلى المقبرة التي لا حياة فيها، بل هي رمز الموت والعدم. وما كانت المقبرة في سفح الجبل إلا من أجل أن يجعلها الشاعر مطلة ظاهرة.

ويظهر التصعيد في قوله: كنت وحيدا وحيدا. فليس المقصود بتكرار الكلمة تأكيدا بأنه كان وحيدا، ولكن في ذلك دلالة على تصعيد درجة الوحدانية وتصعيد استمراريتها.

وفي الأبيات تعدد الوصف الذي يظهر في قوله: وينخرني الهم والوهم والانتظار. أي أن مظاهر المعاناة كانت تدور في ثلاثة أطر، أولها: الهم مما كان قد وقع فيه. وهو هنا يشير إلى الهموم التي توالت على الشعب الفلسطيني. وأما الوهم فيمثل الحاضر الواقع، من حيث إن أبواب الحياة الكريمة قد أصبح مطلبها عسير المنال؛ فهي وهم، ليس إلا. وأما الانتظار فهو باب آخر من العذاب، ولكنه يمثل المستقبل. وبذلك يكون الشاعر قد جعل العذاب موزعا بين ماض (همّ)، وحاضر (وهم)، ومستقبل (انتظار).

ويقول الشاعر:

أقارن بين الخليل وبين الخليل
جسور تفرقنا جزرا من جفاء
وتجمعنا حول مائدة الملح والانتظار
نظرت، توهمت في لحظة
أن بحرا
وراء المدينة حتما سيأتي
رأيت الجموع تراقب أفقا
من الزهو والكبرياء
وقال صديقي:
الذي يحسب الاحتمالات
زار يخدرهم بعد زار

استعمل الشاعر في هذه السطور أسلوب الكشف والتغطية لإيصال فكرته. أما الكشف فيتمثل في المقارنة بين الخليل ومدينة عربية تشبه الخليل، فكانت كل واحدة منهما الخليل، من حيث تاريخها وهموم أبنائها. فليس بين الخليل وتلك المدينة سوى جسور الوحدة. أما التغطية فواضحة في كون جسور الوحدة هذه غير فاعلة. فبدلا من أن تكون جسور وحدة أصبحت فاصلة بين دولة

وأخرى، وبين سياسة وسياسة؛ فكانت جسور قطيعة وجفاء. إن جعل الشاعر جسور الوحدة جسور فرقة ضرب من الإيقاع الدرامي. وقد كان من نتائج هذه الفرقة أنهم جميعا يجتمعون على مأكل واحد، في مائدة واحدة هي الملح. ومازال الجميع ينتظرون مائدة تأتيهم من السماء.

أراد الشاعر أن يستعمل أسلوب «الكشف» مرة أخرى فقال: نظرت والنظر وسيلة البصر وطريق للإدراك؛ ثم عاد ليغطي ذلك فقال «توهمت»، فكونه لم يجعل للنظر نتيجة إيجابية، تتفق مع توجهه في درامية الحدث. واستعمل «الكشف» مرة أخرى، عندما جعل الجماهير- وهو هنا يعني الجماهير العربية- تترقب فتحا جديدا، أو تغييرا إيجابيا، لما غطى الشاعر ما يمكن أن يؤدي إليه البصر من إدراك حقيقي حين قال: نظرت، توهمت، يتفق مع توجهه في جعل الحدث دراميا.

واستعمل الشاعر الأسلوب نفسه من الكشف حين قال:

رأيت جموعا تراقب أفقا
من الزهو والكبرياء

ثم عاد ليغطي ذلك فيلغيه، حين نسب إلى صديقه قوله:

وقال صديقي، الذي يحسب الاحتمالات
زار يخدرهم بعد زار

فهو لم ينسب الحكم إلى نفسه، بل جعله يجري على لسان صديقه: لا لأنه هو نفسه يتردد في إصدار الحكم، ولكن لأنه يريد أن يجعل في هذا المقطع حركة درامية يشترك فيها هو وغيره؛ حركته هو، باعتباره ناظرا في الموقف السلبي للجماهير التي تكتفي بالترقب والانتظار، وحركة صديقه ذات الإيقاع الصامت، والتي جاءت على شكل حكمة تختصر الحدث، وترده إلى قانون كوني اجتماعي، هو أن جعل التغيير مجرد احتمال قابل للوقوع وعدم الوقوع، إنما هو تعبير عن تخدير الجماهير، مجرد تخدير ليس إلا.

ويقول الشاعر في القصيدة نفسها:

نظرت إلى جبل الوحش
كيف البنايات قرميدها جلنار
ولكن... وفاضت دموعي الغزار
ولكنه صامتا ظل، ثم أشار إلى صخرة
كي أغازلها أولاً
ثم أحضنها ثانيا
وأقبلها ثالثا، رابعا، خامسا
وأعانقها سادسا
وأصالحها سابعا

وأمسد أضلاعها ثامنا
ثم أقرأ ميزانها تاسعا
ثم أهدي دمي لعصافيرها عاشرا
تجيئك لينة كالعجينة بين يديك
فتفركها بالرياحين والتين والبرتقال الحزين
وتقرأ شعرا لصخرتها والجسور
فعلت.. اتكأت على القلب، أعصره كالخمور
أشاحت وقالت: أما زلت تهذي
بأن التراب يدور

إنك لتحس بالإيقاع الدرامي ينبض في عروق كلمات هذه السطور؛ فالوحش جبل «نظرت إلى جبل الوحش»، والبنايات قرميدها جلنار. ولكن هذه النباتات الجميلة مجرد بنايات، ليس فيها من يحس، وليس فيها من مجيب. ولذلك احتد الموقف على الشاعر «وفاضت دموعي الغزار»، حدث هذا وصاحبه صامت ينظر إليه؛ كأن الإيقاع الدرامي إنما يكون بالبكاء، كما حدث مع الشاعر، وبغصة الصمت؛ كما حدث مع صاحبه الذي أشار إلى صخرة (يرمز بها الشاعر إلى أهل الأرض). والرمز بالصخرة يدل على الصلابة والقوة والمنعة، مثلما يدل على رسوخها في الأرض، ولذلك لا يكون من السهل اقتلاعها منها.

أنشأ الشاعر - باعتباره راويا - علاقة حميمة متدرجة بينه وبين تلك الصخرة، والتدرج ينشئ إيقاعا متدرجا؛ فالمغازلة أولا من أجل إقامة جسر للعلاقة، ثم تكون الخطوة الثانية بعد ذلك، وهي الاستجابة التي إذا حدثت ضمها إلى صدره. وكل واحدة من الخطوتين الأوليين ذات حركة واحدة. أما الخطوة الثالثة، فهي ذات حركة متكررة، كل واحدة تكون أشد حرارة من سابقتها «وأقبلها ثالثا، رابعا، خامسا» وهذا في ذاته تصعيد لحركة الإيقاع الدرامي.

لا يطيب الغرام إذا ظل غراما استاتيكيا لا حركة فيه. ولذلك تبدأ حركة المد والجزر في غرام الشاعر الراوي «وأعاندها سادسا، وأصالحها سابعا»، والمصالحة التي تعقب المعاندة تجعل الحب أكثر فاعلية، وحركته أشد إيقاعا.

يستمر الإيقاع في التطور، حتى تصبح الصخرة ذات كيان إنساني، فيصبح لها أضلاع تمسد بحبال الحب. وهذا كله، وإن كان كثيرا، غير كاف. إذ لا بد من أن يؤخذ هذا الحب بالتزاماته، وضوابط ميزانه؛ فيستشهد الإنسان في سبيل هذه الأرض.

ويستمر الإيقاع الدرامي في النمو على هذا النحو؛ فيتحول الدم ذو العنفوان إلى فاكهة تأكلها العصافير. ثم يتحول الراوي المسكون بأحلامه وحبه، وإذا الحب كأنه ضرب من الهذيان، من شدة عنفوانه «أشاحت، وقالت أما زلت تهذي بأن التراب يدور؟».

يظهر الإيقاع الدرامي متوهجا في قصيدة «يتوهج كنعان». إن العنوان نفسه يدل على إيقاع درامي، فهو يحمل بين جنباته التاريخ الذائب في النسيان، وهو هنا (كنعان)، والضوء منبثق في وهج البعث من الموت والرقود. هذا كله يحمل إيقاعات درامية مبنية على التعاقب بين سكون الموت، وحركة البعث.

يقول الشاعر في هذه القصيدة:

أحاول: دار وحاكورة وسماء،
سمعت الجنود يقولون
أين الذي قُدَّ من جبل
واستعذت بزيتونة، وركضت، وكانوا
ورائي خنازير برية
ثم هانت تولد مثل النبأ
وكنعان نخل، وحور، وسنط إذن
سوف تلمح بحرا يهاجم رمل
ونلمح موجا يذيب ملوحة هذا الخطأ
أحاول أن أتتبع موال أجدادنا الطيبين
وكم حاول البحر تسجيل جرأته فوق رمل الكلأ
أحاول أن أمسح الحزن عن وجنة
قد علاها الصدأ

بدأ الشاعر هذا المقطع بقوله «سمعت الجنود يقولون: أين الذي قد من جبل؟»، من أجل أن يجعل الحركة الدرامية تبلغ غايتها، فالجنود لم يسألوا إلا من أجل تعذيبه وقتله، بل من أجل التشنيع في ذلك، دلنا على ذلك أنهم لما سألوا عنه وصفوه بأنه قد من جبل؛ أي أنهم سينكلون به بمقدار مضاد لصلابته وقوته. وقد استعاذ الراوي بزيتونة واحتمى بها؛ فالزيتونة رمز الخصوبة، رمز الثبوت في الأرض. ثم إنه لم يهرب، بل ركض؛ لأن الركض لا يدل على انهزام؛ وإنما هو هنا حركة لاتخاذ موقع. وقد كان الجنود خلفه مثل الخنازير البرية، وإنما وصفها بالبرية؛ لأنها هوج غير منضبطة. وهو بذلك يصعد إيقاع الحدث الدرامي ويرفعه.

ظلت الخنازير البرية تطارده؛ ولكنه استطاع أن يختفي ويتوارى عن الأنظار. يشير بذلك إلى أنه أقدر على الحركة منهم؛ من حيث إنهم قطعان خنازير برية ليس لها أدنى ارتباط بالأرض. أما هو فيستطيع أن يختفي عن الأنظار؛ لأن الأرض أمه، وهي التي تخفيه بين جوانحها. هذا هو إيقاع الحركة الدرامية في هذه السطور الشعرية.

يقول الشاعر بعد ذلك: «وهانت تولد مثل النبأ»؛ لأنه جعل سرعة ولادة الثأر الفلسطيني بسرعة انتشار النبأ. وهذه السرعة في الولادة ليس ثمة ما يشينها. لأنها - وإن كانت سريعة - فإن الأصول ممتدة من التاريخ. وكل ما على الأرض ما زال يشير إلى كنعان وأحفاده، وملكية الأرض له ولهم «وكنعان نخل وحور وسنط إذن». أي أن الأرض كنعانية، وكل ما عليها كنعاني. والتركيز على الانتماء الكنعاني ظاهرة بارزة في شعر المناصرة. وهو بذلك يشير إلى بعدين الأول: إن الصراع بين كنعان وأعدائه اليهود قديم. والثاني: إن التشبث بالأصل الكنعاني إشارة إلى التشبث بالأرض.

حتى الألوان - التي لها بعد استاتيكي - ذات عمق درامي عند المناصرة. عمق درامي يصاحبه إيقاع درامي خالص، من ذلك قوله في قصيدة «دموع الكنعانيات»:

الزيتون، يغني الزيتون
سهام المنفى في عينيه
الزيتون الأخضر أحمر
بل دمه أخضر
بل أسود بل أصفر
أصفر مثل الكركم
قالت إحدى الكنعانيات، هنا دمه
واشتدت نقرات الطبل
أيا دمه اللهب على حيطانك يا بيروت

إن عنوان القصيدة «دموع الكنعانيات» ذو طابع درامي؛ لأنه يختصر الزمان والمكان: فيفيض بكاء الكنعانيات على المجازر التي ارتكبت، في أماكن وأزمنة متعددة. وأما أن الزيتون أحمر، كما جاء في وصف الشاعر له، فإنه يرمز إلى أن الأرض الخضراء قد ارتوت من دماء الشهداء، فارتوى الزيتون منها حتى أصبح لونه أحمر. وأما أن دم الشهيد أخضر، فدليل على أن هذا الدم قد تشرب خضرة الزيتون، وخضرة الأرض. وهكذا تصبح وحدة الوجود، بين الأرض وصاحبها، وحدة تبادلية، يجري في أحدها ويرويه، ما يجري في الآخر ويرويه. واستخدام الألوان في هذا المجال، يخدم هدف الشاعر في تقرير وحدة الوجود هذه. فالألوان توحدت وامتزج بعضها ببعض، وتبادلت مواقع وجودها بشكل درامي مؤثر.

أما أن دمه (أسود بل أصفر)، فلأن دم الشهيد حزين على ما حل بالأرض وأهلها، من سلب وتشريد وسفك دم. فالأسود يشير إلى هذا الحزن. وأما أن دمه أصفر: فلأن الصفرة إشارة إلى الضعف. وأي ضعف هو المقصود؟ إنه ضعف الحزن الذي أشير إليه بالسواد.

عند تداخل الألوان الذي يشير إلى ما ذكرناه، تحتد شدة الإيقاع الدرامي، ممثلة في شدة النقرات على الطبل «واشتدت نقرات الطبل»، ليكون هذا الإيقاع تأنيبا لبيروت التي تلطخت جدرانها بالدم المسفوح، بكل الألوان التي ورد ذكرها في هذا المقطع.

يظهر الإيقاع الدرامي بالألوان واضحا في قوله:

بالأخضر كفناه
بالأحمر كفناه
بالأبيض كفناه
بالأسود كفناه

فالكفن يظهر أربع مرات للشهيد الواحد؛ كل مرة بلون؛ فقد كفناه بخضرة الزيتون الدائمة، وكفناه بدمه، وكفناه بصفائه الأبيض، وكفناه بالحزن الأسود.

يبرز الإيقاع الدرامي عند المناصرة، في الحكاية والقص، والإطالة والإسهاب في أكثر قصائده، متأتيان من قبل أن الشاعر يدخل من باب الحكاية والقص، فيأتي على ذكر تفصيلات كثيرة، ويسلم نفسه لذلك؛ فيذكر تفصيلات ربما كان ذكرها مما لا يحتاج إليه. ولكن بما أنه أحدث إيقاعا متناميا في القص، جاء ذكر هذه التفصيلات نتيجة لتنامي الإيقاع، مثلما هو من نتائج الحكاية والقص، وفي الحالين، قد يطغى الإيقاع الدرامي على الحدث نفسه، ومن أجل توضيح هذه الفكرة أقدم مثالا لها مما جاء في قصيدة «محاورات الباب العالي»، فعنوان القصيدة نفسه يوحي بإطالة؛ لأنها (محاورات)، مثلما يوحي بأن أحداثا وإيقاعات درامية ستأخذ موقعها في القصيدة، وكيف لا يكون الأمر كذلك، والحوار مع الباب العالي الذي قد لا يقبل مبدأ الحوار أصلا؟ جعل الشاعر يضع لهذه القصيدة مقدمة صنف فيها الشعراء؟ فقال:

كذلك تسألني عن بلاد بعيدة
وعن شاعر مات في الجاهلية
وعن شاعر – لا أقول اسمه الآن –
عاش فقيرا، وما زال يكتب شعرا
ويشرب قهوته في الفضاء
كذلك عن شاعر في المقاهي يحوم
وعن شاعر عشقته النجوم

ثم ختم هذه المقدمة بقوله:

وعن صوت فيروز إن كان يكفي لصد الهجوم

الحديث عن الشعراء في هذه المقدمة لا يخلو من درامية؛ فثمة شاعر – والمقصود شعراء لا شاعر واحد – مات في الجاهلية، والجاهلية هنا هي زمن ضياع البلاد، وإقامة دولة الكيان الصهيوني، فهؤلاء الشعراء لم يفعلوا شيئا سوى أنهم بكوا على الأطلال، وهؤلاء لا يؤبه لهم ولا لشعرهم؛ لأن الفرق عظيم بين أن تفعل شيئا، وألا تفعل شيئا سوى أن تقول الشعر، ولا يقصد

الشاعر أن هؤلاء الشعراء قد ماتوا بالضرورة حين قال «وعن شاعر مات في الجاهلية»، ولكنه يقصد أنهم احترقوا في ذلك العهد؛ فلا يستحقون أن يذكروا بعد ذلك.

وثمة شاعر لم يفعل له الشعر سوى أنه أبقاه فقيرا. وهو هنا يقصد نفسه؛ لأنه قال «لا أقول اسمه الآن». ومثل هذا الشاعر ليس متكسبا بالشعر؛ ولذلك سيظل فقيرا. وهذا الشاعر يشرب قهوته في الفضاء. وهو يعني الفضاء المجهول المفتوح أبوابه لهجرة إثر هجرة، وتشرد إثر آخر. ولا يطول الزمن بين الهجرة وأختها، إلا بمقدار ما يشرب به فنجان القهوة. هذا الشاعر ما زال يكتب الشعر؛ لأن وظيفة الشعر عنده مختلفة عما هي عليه عند «شاعر مات في الجاهلية». ولذلك سيظل هذا الشاعر يكتب الشعر على الرغم من موانعه؛ لأن استعمال «ما زال» يعني أنه يفعله على الرغم من موانع قوله من فقر وتشرد. ولكونه يتحدى الموانع التي يمكن أن يظن أنها موانع لقول الشعر؛ فإن ذلك يوحي بأنه سيظل على ذلك التحدي، ولو طال عمر الفقر.

وثمة شاعر آخر التف حوله نجوم الطرب والغناء. هذا الشاعر لن يعرف من القضية الوطنية أكثر من أن يكتب شعره ليغنيه النجوم. وقد عرض الشاعر بهذا الصنف من الشعراء فقال «وعن صوت فيروز إن كان يكفي لصد الهجوم».

تصنيف الشعراء على هذا النحو في هذه القصيدة، يوحي بأن الشاعر يريد أن يجلي الإيقاع الدرامي الذي يمكن أن يكون أكبر من الحدث نفسه. دخل الشاعر في التفصيلات، ثم جعل نفسه بين يدي الباب العالي، فخاطبه بما قد يرق له قلبه:

جئتك من أقصى جبل في الشام
لا أملك إلا ما يملكه أمثالي:
قمرا، ونخيلا مزهوا، وكروم
ثم حمامات فوق السطح تحوم
لكني لما جئتك كنت طري العود
أزحف كالنملة، أخطف حبة قمحي
أتسلل كالحزن الأصفر، كالقط النمرود

اما انه جاءه من أقصى جبل في الشام (جبل الخليل في جنوب بلاد الشام)، فمعناه أنه جعل الباب العالي غاية، في رحلة طويلة شاقة متعبة. وهنا قد يدعو الباب العالي نفسه إلى أن ينظر إليه بشيء من النخوة والشفقة. قد يقال إن هذا ليس حدثا دراميا. قلت: بل هو كذلك؛ لأن الذي يأمل أن يملأ قلب الباب العالي بالنخوة والشفقة، كمن يزعم أنه قادر على تحويل الباب العالي إلى نقيض ما عليه صفاته. وهنا سينازع الواقف بين يديه صفاته الراسخة فيه، وهي عدم الإحساس. وهذا نزاع يستدعي وجود قدر كبير من الدرامية التي تتطلب إيقاعا عاليا.

يستعطف الشاعر الباب العالي بقوله له: إنه لا يملك إلا ما يملكه الناس جميعا وهو ضوء القمر، والنخل (وهو إشارة إلى العروبة المزهوة)، وكروم العنب. كأنه بذلك يريد أن يستثير فيه الهمة: فقد جاء من البلاد التي تدر الخيرات، وهي إلى جانب ذلك فخورة بعروبتها. ويملك الشاعر «حمامات فوق السطح تحوم» يشير بذلك إلى أنه مسالم. هذا الإنسان يملك كل هذا، ولكنه يصف نفسه بأنه لا يملك إلا ما يملكه أمثاله. يستمر الشاعر في الضرب على وتر الإيقاع الدرامي: فيشبه الشعب المطرود من أرضه بالنملة التي تخطف حبة القمح خطفا من الأرض. وينبث القوم في كل بقاع الأرض: يبحثون عن مأوى لهم، وعن لقمة العيش. ولكن هؤلاء كالقط التمرود الذي إذا حاصرته تحول إلى أسد.

يحتد الإيقاع الدرامي في هذه القصيدة، حتى يبلغ ثلاث ذرا هي:

الذروة الأولى: حين يبرز شاعرنا الباب العالي، وهو يبتسم للشاعر، ثم يغدر به ويلقي على رأسه حجرا:

ضحكت شفتاك وكنت بشوشا
ثم جلست أحدث نفسي
عن طيبتك العليا... كالحالم
لكن يا مولاي
ألقيت الحجر على رأسي وأنا نائم

ثم جعله نرجسيا ساديا، يلتذ بعذاب الآخرين فقال:

طرقت بابي أقدام الصبيان وقالوا،
النرجس يهواك
وضحكت على نفسي لما شفتك تهمس في أذني:
كم تعشق شعري
وتحب المتنبي والأخطل والشعر العذري
العرجي والملك الضليل

وإن شئت أن تعجب من درجة النرجسية لدى الباب العالي، فاعجب لها أن الأطفال -حتى الأطفال- يعرفونها، لشدة وضوحها وغباء صاحبها. ويسحب الشاعر مقومات الفهم والفكر من حضرة الباب، عندما يقرر أنه ضحك على نفسه من سماع الباب العالي، وهو يقول إنه يحب الشعر والشعراء.

الذروة الثانية: عندما قص الشاعر أمره على الباب العالي، فبدا كأنه متأثر بما جرى لهؤلاء المنكوبين، يقول الشاعر:

اعتدلت قامته، أطفأ سيجارته في قدح القهوة
لعن الذكرى والساعة والأحلام

ويكى مثلي، ثم تسمر في جلسته، لم ينبس إلا بالصمت
قلت، علامات الصوفية، والقادة، والوزراء
إن قالوا فعلوا
أو صمتوا قتلوا
أو حنوا للكأس اشتعلوا

لقد أطفأ الشاعر باقتدار، شعلة إيقاع الحدث، عندما قال «لم ينبس إلا بالصمت».

ولكنه عاد فجعل هذا الصمت بابا لشر مستطير؛ فكان الإطفاء نفسه أصبح طريقا للدلالة على صمت أسوأ من القول والفعل. إنه صمت المكر والحيلة والدهاء والتدبير، من أجل التدمير «إن قالوا فعلوا، أو صمتوا قتلوا».

الذروة الثالثة: وهي ذروة ما بعد الصمت، ولكن هذه الذروة سيرقاها الشاعر نفسه هذه المرة. إنها إيذان بميلاد مرحلة جديدة:

أتيتك داخلي نية للرحيل
سأتيك قبل الرحيل وبعد الرحيل
تماما كما تزعق الجن قبل عويل الشجر
سأتيك في الثمر المحترق
سأتيك كابوس رعب يدق العنق

أما أنه سيأتيه قبل الرحيل، فلأنه يريد أن يدق له ناقوس الخطر. وأما مجيئه بعد الرحيل، فذلك هو إسدال الستار على نهاية المسرحية. ويكون ذلك كما تزعق الجن، فينتشر عويل الثار الذي سيحرق الأخضر واليابس.